عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء الثامن والعشرون

سورة المجادلة وسورة الحشر
وسورة الممتحنة

المكتب المصري الحديث
www.almaktabalmasry.com

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء الثامن والعشرون

سورة المجادلة وسورة الحشر
وسورة الممتحنة

المكتب المصري الحديث
www.almaktabalmasry.com

المكتب المصري الحديث

www.almaktabalmasry.com

infc@almaktabalmasry.com

القــــاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت: ٣٩٣٤١٢٧

الإسكندرية: ٧ شــارع نوبــار المنشــية ت: ٤٨٤٦٦٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم « ١٧ »

AL - AZHAR AL - SHARIF
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

الأزهـــر الشريف
مجمـع البحـوث الاسـلامية
الادارة العـــامة
للبحـوث والتأليف والترجمـة



السيد / المكتب المصرى الحديث

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ــ وبعد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : في رحاب التفسير
الجزء الثامن و العشرون تأليف : فضيلة الشيخ / عبد الحميد كشك

نفيد بأن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مانع من طبعه ونشره على نفقتكم الخاصة ،

مع التأكيد على ضرورة العناية التامة بكتابة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والالتزام بتسليم ٥ خمس نسخ لمكتبة الأزهر الشريف بعد الطبع .

والله الموفق ،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

ممدوح ...

مدير عام
ادارة البحوث والتأليف والترجمة

تحريرا في ٢٤ / ٢ / ١٥
الموافق ٢١ / ٨ / ١٩٩٤

سورة المجادلة

قال صاحب البصائر : بصيرة فى قد سمع .

السورة مدنية بالاتفاق ، آياتها ثنتان وعشرون عند الجمهور ، واحدى وعشرون عند المكيين ، وكلماتها أربعمائة وثلاث وسبعون ، وحروفها ألف وسبعمائة واثنتان وتسعون .

وسميت سورة المجادلة ، لقوله — تعالى — : ﴿ تجادلك فى زوجها ﴾ .

معظم مقصود السورة

بيان حكم الظهار ، وذكر النجوى والسرار ، والأمر بالتوسع فى المجالس ، وبيان فضل أهل العلم ، والشكاية من المنافقين ، والفرق بين حزب الرحمن وحزب الشيطان ، والحكم على بعض بالفلاح ، وعلى بعض بالخسران ، فى قوله : ﴿ هم الخاسرون ﴾ ، ﴿ هم المفلحون ﴾ .

المتشابهات

﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ﴾ وبعده : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ﴾ . لأن الأول خطاب للعرب ، وكان طلاقهم فى الجاهلية الظهار ، فقيده بقوله : ﴿ منكم ﴾ ، وبقوله : ﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ﴾ ، ثم بين أحكام الظهار للناس عامة ، فعطف عليه فقال : ﴿ والذين يظاهرون ﴾ . فجاء فى كل آية ما اقتضاه معناه .

قوله : ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾، وبعده : ﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ ، لأن الأول متصل بضده ، وهو الإيمان فتوعدهم على الكفر بالعذاب الأليم الذى هو جزاء الكافرين ، والثانى متصل بقوله : ﴿ كبتوا ﴾ وهو الإذلال والإهانة ، فوصف العذاب بمثل ذلك فقال : ﴿ مهين ﴾ .

قوله : ﴿ جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾ بالفاء ، لما فيه من التعقيب ، أى : فبئس المصير ما صاروا إليه وهو جهنم .

قوله : ﴿ من الله شيئاً أولئك ﴾ بغير الواو ، موافقة للجمل التى قبلها ، وموافقة لقوله : ﴿ أولئك حزب الله ﴾ .

وجه اتصالها بما قبلها

(١) أن الأولى ختمت بفضل الله ، وافتتحت هذه بما هو من هذا الوادى .

(٢) أنه ذكر فى مطلع الأولى صفاته الجليلة ومنها الظاهر والباطن ، وذكر فى مطلع هذه أنه سمع قول المجادلة التى شكت إليه — تعالى — .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي
وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ
مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ
فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ
أَلِيمٌ (٤) ﴾

معانى المفردات

﴿ **سمع** ﴾ أى : أجاب وقبل ، كما يقال : سمع الله لمن حمده . ﴿ **التى تجادلك فى زوجها** ﴾ هى خولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية ، وتجادلك : أى : تراجعك الكلام فى أمره وفيما صدر منه فى شأنها ﴿ **وتشتكى إلى الله** ﴾ أى : تبث إليه ما انطوت عليه نفسها من غم وهم وتضرع إليه أن يزيل كربها ، وزوجها : هو أوس بن الصامت ، أخو عبادة بن الصامت ، ﴿ **يسمع** ﴾ السمع : صفة تدرك بها الأصوات أثبتها الله — تعالى — لنفسه . ﴿ **تحاوركما** ﴾ التحاور : المراجعة فى الكلام ، والكلام المردد ، كما يقال : كلمته فما رجع إلى حواراً : أى : ما رد على بشىء ، ﴿ **يظاهرون** ﴾ الظهار : لغة من ظاهر ، ويراد به معان مختلفة باختلاف الأغراض فيقال : ظاهر فلان فلاناً : أى نصره ، وظاهر بين ثوبين : أى : لبس أحدهما فوق الآخر ، وظاهر من امرأته : أى : قال لها : أنت على كظهر أمى ، أى : محرمة ، وقد كان هذا أشد طلاق فى الجاهلية ، والظهار شرعاً : تشبيه المرأة أو عضو منها بامرأة محرمة نسباً أو رضاعاً أو مصاهرة بقصد التحريم لا بقصد الكرامة ، وهذا المعنى نزلت الآية : ﴿ **إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم** ﴾ أى : ما أمهاتهم ﴿ **منكراً** ﴾ والمنكر : ما ينكره الشرع والعقل والطبع ، ﴿ **زوراً** ﴾ أى : كذباً ، ﴿ **فتحرير رقبة** ﴾ أى : عتق عبد أو جارية ، ﴿ **أن يتماسا** ﴾ أى : أن يجتمعا اجتماع الأزواج ، ﴿ **متتابعين** ﴾ أى : متواليين ، ﴿ **فمن لم يستطع** ﴾ أى : من لم يقدر على ذلك لكبر سن أو ضعف أو شبق إلى النساء ، ﴿ **حدود الله** ﴾ أى : أحكام شريعته ، ﴿ **وللكافرين** ﴾ أى : وللذين يتعدون الأحكام ولا يعملون بها .

سبب النزول وإجمال المعنى

روى أن هذه الآيات الأربع نزلت فى خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت . ومن حديث ذلك : أن أوساً كان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، فدخل على خولة يوماً فراجعته بشىء فغضب ، فقال لها : أنت علىّ كظهر أمى [وكان الرجل فى الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه] ، وكان هذا أول ظهار فى الاسلام ، فندم ساعته . فدعاها [طلب ملامستها] فأبت . وقالت : والذى نفسى بيده لا تصل إلى وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله ، فأتت الرسول ــ ﷺ ــ فقالت : يا رسول الله ، إن أوساً تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىّ ، فلما خلا سنى ، ونثرت بطنى (كثر ولدى) جعلنى عليه كأمه إلى غير أحد ، فإن كنت تجد لى رخصة تنعشنى بها وإياه فحدثنى بها ، فقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ والله ما أمرت فى شأنك بشىء حتى الآن ، وفى رواية : ما أراك إلا قد حرمت ، قالت : ما ذكر طلاقاً ، وجادلت رسول الله ــ ﷺ ــ مراراً ثم قالت : اللهم إنى أشكو إليك شدة وحدتى وما يشق على من فراقه . وفى رواية أنها قالت : أشكو إلى الله فاقتى وشدة حالى ، وإن لى صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إنى أشكو إليك ، اللهم فأنزل على لسان نبيك ، وما برحت حتى نزل القرآن فيها . فقال رسول الله ــ ﷺ ــ : يا خولة أبشرى ، قالت : خيراً . فقرأ عليها : ﴿ قد سمع الله ﴾ الآيات[1] .

وروى البخارى فى تاريخه : أن خولة استوقفت عمر يوماً فوقف ، فأغلظت له القول ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت كاليوم ، فقال ــ رضى الله عنه ــ : وما يمنعنى أن أستمع إليها وهى التى استمع الله لها ، فأنزل فيها ما أنزل . (قد سمع الله) الآيات .

والشارع اعتبر الظهار يميناً ، وأوجب فيها الكفارة عند إرادة الملامسة بأحد أمور ثلاثة على الترتيب الآتى :

(١) تحرير رقبة (عتق عبد أو جارية) .

(٢) صيام شهرين متتابعين إن لم يجد ما يعتقه .

(٣) إطعام ستين مسكيناً إن لم يستطع الصوم لكبر أو مرض لا يرجى زواله ، لكل مسكين نصف صاع من بر (رطل وثلث) أو صاع من تمر أو شعير .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ .

(١) انظر تفسير الطبرى ج ٢٨ ، ص ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ تفسير سورة المجادلة فقد وردت بها روايات متعددة فى أسباب النزول .

روى الامام أحمد ــ رضى الله عنه ــ بسنده عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة إلى النبى ــ ﷺ ــ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله ــ عز وجل ــ ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ﴾[1] إلى آخر الآية .

وفى رواية لابن أبى حاتم بسنده عن عائشة قالت : تبارك الذى وسع سمعه كل شىء ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ــ ﷺ ــ وهى تقول : يا رسول الله : أكل مالى وأفنى شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبرت سنى وانقطع ولدى ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك قالت فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ﴾ . قالت وزوجها أوس بن الصامت[2] .

وقال ابن لهيعة : عن أبى الأسود : عن عروة : عن أوس بن الصامت وكان أوس امرءاً به لمم ، فكان إذا أخذه لممه واشتد به يظاهر من امرأته ، وإذا ذهب لم يقل شيئاً ، فأتت رسول الله ــ ﷺ ــ تستفتيه فى ذلك ، وتشتكى إلى الله فأنزل الله : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ .

روى الامام أحمد بسنده عن خولة بنت ثعلبة قالت : فىَّ والله وفى أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، قالت : فدخل علىَّ يوماً فراجعته بشىء فغضب . فقال : أنت علىَّ كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ثم دخل علىَّ فإذا هو يريدنى عن نفسى . قالت : قلت : كلا والذى نفس خولة بيده لا تخلص إلىَّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه ، قالت : فواثبنى فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عنى ، قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتى فاستعرت منها ثيابا ثم

---

(١) انظر سنن ابن ماجه ، المقدمة ، ج ١ ص ٦٧ حديث رقم ١٨٨ عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة إلى النبى ــ ﷺ ــ وأنا فى ناحية البيت تشكو زوجها ، وما أسمع ما تقول ، فأنزل الله : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها .. ﴾ وانظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٤٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة .

(٢) انظر سنن ابن ماجه ، كتاب الطلاق ، باب الظهار ، ج ١ ص ٦٦٦ فقد ورد الحديث برقم ٢٠٦٣ عن عروة بن الزبير قال : قالت عائشة : تبارك الذى وسع سمعه كل شىء ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى علىَّ بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ــ ﷺ ــ وهى تقول : يا رسول الله ، أكل شبابى ، ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبرت سنى وانقطع ولدى ، ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها

خرجت حتى جئت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه.

قالت فجعل رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه» قالت: فو الله ما برحت حتى نزل فيّ قرآن، فتغشى رسول الله ـ ﷺ ـ ما كان يتغشاه ثم سرى عنه فقال لي: «يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً ـ ثم قرأ علي ـ ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وللكافرين عذاب أليم﴾ قالت: فقال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: «مريه فليعتق رقبة» قالت: فقلت يا رسول الله، ما عنده ما يعتق، قال: «فليصم شهرين متابعين». قال: فقلت والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام فقال: «فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر» قالت: فقلت والله يا رسول الله ماذاك عنده. قالت: فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «فإنا سنعينه بفرق من تمر» قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا سأعينه بفرق آخر قال: «قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه ثم استوصي بابن عمك خيراً» قالت: ففعلت[1].

قوله تعالى: ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم﴾ أصل الظهار: مشتق من الظهر وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها: أنت عليّ كظهر أمي. ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياساً على الظهر، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيها كفارة ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم. هكذا قال غير واحد من السلف. قال ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال: كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية أنت علي كظهر أمي حرمت عليه، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس، وكان تحته ابنة عم له يقال لها: خويلة بنت ثعلبة، فظاهر منها فأسقط في يديه. وقال: ما أراك إلا قد حرمت علي وقالت له مثل ذلك. قال: فانطلقي إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأتت رسول الله ـ ﷺ ـ فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فقال: «يا خويلة» «ما أمرنا في أمرك بشيء»، فأنزل الله على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «يا خويلة أبشري» قالت: خيراً، فقرأ عليها: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما﴾ ـ إلى قوله تعالى ـ ﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا﴾ قالت: وأي رقبة لنا والله ما يجد رقبة غيري فقال: ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين﴾ قالت: والله لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصره قال: ﴿فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً﴾. قالت: من أين ما هي إلا أكلة إلى مثلها، قال: فدعا بشطر وسق ثلاثين صاعاً والوسق ستون صاعاً فقال: ليطعم ستين مسكيناً وليراجعك. وهذا إسناد جيد قوي[2].

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٦ ص ٤١٠، ٤١١ فقد ورد الحديث بلفظه عن خولة بنت ثعلبة.

(٢) انظر سنن البيهقي، كتاب الظهار، ج ٧ ص ٣٨٢ باب سبب نزول آية الظهار فقد ورد الحديث عن رواية لابن عباس.

وقد روى أهل السنن من حديث عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إنى ظاهرت من امرأتى فوقعت عليها قبل أن أكفر . فقال : « ما حملك على ذلك يرحمك الله » قال رأيت خلخالها فى ضوء القمر . قال : « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله — عز وجل — وقال الترمذى حسن غريب صحيح .

قوله تعالى : ﴿ فتحرير رقبة ﴾ أى : فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا فههنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان ، وفى كفارة القتل مقيدة بالإيمان . فحمل الشافعى — رحمه الله — ما أطلق ههنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب وهو عتق الرقبة ، واعتضد فى ذلك بما رواه عن مالك بسنده عن معاوية بن الحكم السلمى فى قصة الجارية السوداء وأن رسول الله — ﷺ — قال : « اعتقها فإنها مؤمنة » وقد رواه أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه . وقال الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن ابن عباس قال : أتى رجل رسول الله — ﷺ — فقال : إنى ظاهرت من امرأتى ثم وقعت عليها قبل أن أكفر ، فقال رسول الله — ﷺ — : « ألم يقل الله — تعالى — ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ قال : أعجبتنى . قال : « أمسك حتى تكفر » .

قوله تعالى : ﴿ ذلكم توعظون به ﴾ أى : تزجرون به ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أى : خبير بما يصلحكم عليم بأحوالكم . فهو — سبحانه — يريد بكم أن تسلكوا طريق الهدى والرشاد ، والعفاف والسداد ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم والله عليم حكيم .

الإسلام محرر العبيد

تأخذك الدهشة ويستولى عليك العجب ، وأنت تقرأ قوله — عز وجل — : ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ﴾ بعد قوله — تعالى — : ﴿ فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ﴾ فما سر التعبير بقوله — جل شأنه — : ﴿ فمن لم يجد ولماذا لم يقل : ﴿ فمن لم يستطع ﴾ كما قال فى شأن الصيام . ذلك الأمر . لحكمة بالغة لا يدركها إلا ذوو الألباب الباصرة ، وأولو الأفئدة المستنيرة فإن الله — سبحانه وتعالى — يعلم أنه سيأتى اليوم الذى يحرر الاسلام فيه العبيد بحيث لا يجد من أراد الكفارة عبداً يعتقه ، أو أمة يطلق سراحها . وقد تحقق العلم الإلهى القديم المحيط الشامل فحرر الإسلام العبد ، وأعطى لكل إنسان حقه فى الحرية والعزة والكرامة .

﴿ لقد مَنّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾(١) .

الإسلام هو الدين الذى حرر البشرية من الظلم وغمرها بعدله .. فما أشد حاجة البشرية إليه ، والإسلام هو الذى حرر المجتمع من الفساد ، وركز فيه سبل الإصلاح ، والإسلام هو الذى حرر العقل

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٤

من الجمود والتقليد ، وأفسح أمامه المجالات للنظر والتفكير . والإسلام هو الذى حرر العبيد من قيود الذل والاستعباد ، وجعل منهم سادة أقوياء .

لقد حاول أعداء الإسلام على كر العصور ومر الدهور أن يثيروا شبهات حول الاسلام ، فجعلوا من مسألة « الرق » ثغرة يحولون النفوذ منها للطعن فى الإسلام والنيل منه ، بعد ما أعجزتهم الحيل ، فلم يجدوا فى الإسلام مغمزاً لطاعن أو مطعنة لغامز ، ولو تدبر هؤلاء مسألة « الرق » لوجدوا أنها كانت من القضايا التى يعود الفضل كله للإسلام فى حلها ، بل هى مفخرة من مفاخر الاسلام .

يقول الكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد — رحمه الله — فى كتابه (ما يقال عن الاسلام) : مسألة الرق فى الإسلام موضوع حملة من أقوى الحملات العصرية يتآمر عليها الذين لا يتفقون على شىء فيما عدا هذه الحملات ، وهم الماديون المنكرون للأديان ، وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة إلى هذا الدين أو ذاك ، ويتفق الماديون والمبشرون ، لأنهم يتجهون إلى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء : أولاهما — نشر الدعوة بين شباب المسلمين الذين يسمعون بدعاية الديمقراطية وحقوق الانسان ، ويجهلون دينهم ، فيصدقون ما يقال لهم عنه فى مسألة الرق ، ولا يعلمون به أنه الدين الوحيد الذى شرع للأرقاء شرعة لم يسبقه إليها دين من الأديان ، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعد شأو الاسلام فى إنصافه جميع الأرقاء .

أما الوجهة الأخرى التى يتفق عليها الماديون والمبشرون — فهى غزو القارة الأفريقية بالدعاية المذهبية ، والتنفير من الاسلام فى هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الأفريقية ، خوفاً من إقبال أبناء هذه القارة على الإسلام ، قياساً على نجاح الاسلام بين الأفريقيين فى الأزمنة القريبة ، مع قلة الجهود التى يبذلها المسلمون لنشر دينهم هناك ، وعظم الجهود التى يبذلهاالمبشرون وتعاونهم عليها حكومات الدول الغربية . فالماديون والمبشرون يجتهدون — غاية الجهد — لنشر دعوتهم بإغراء المال والسياسة ووسائل التعليم والتطبيب ، ويعلمون أن الإسلام كفيل بإحباط مساعيهم إن لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ، ويشتركون معهم فى الموطن ومصالح المعيشة ، فيتوصلون إلى تشويه سمعة الإسلام والمسلمين بإعادة القول فى مسألة « النخاسة » ، وتلفيق الأكاذيب التى توهم الأفريقيين المحررين أن العرب قد احتكروا « النخاسة » قديماً وحديثاً وهم — أى دعاة المادة والتبشير — أول من يعلم أن تاريخ النخاسة أنها كانت صناعة شركات أوروبية وأمريكية ، تعتمد على سماسرتها من غير العرب المسلمين ، ولكنه تاريخ مجهول عند أبناء الجيل الحاضر ممن تعلموا فى مدارس المبشرين .

أما الحقيقة التى تقابل هذه الدعاية المسموحة وينبغى أن تقابلها فى ميادينها الواسعة فهى واضحة ، قريبة المنال ، كفيلة بإقناع من يستمع إليها ، مسلماً كان أو غير مسلم ، ولكنه برىء من دواعى الغرض وسوء النية ، ولو امتلأت أذناه قبل ذلك بأكاذيب الماديين ومحترفى صناعة التبشير .

إن الأديان جميعاً — قبل الإسلام — أباحت الرق ، وألزمت الأرقاء طاعة سادتهم ، ومستمريهم في خدمتهم وخدمة ذويهم ، واعتبره بعض الدعاة قضاء مبرماً يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ، ويضلون عن سبيله . وجاء الإسلام فشرع العتق ، و لم يشرع الرق : وقد ندب المسلمين إلى فك الإسار عن الأسرى ، فجعله فريضة من فرائض التكفير عن ذنوب كثيرة .

وقال ابن لهيعة حدثني عطاء : عن سعيد بن جبير : (ثم يعودون لما قالوا) يعني يريدون أن يعودوا في الجماع الذي حرموه على أنفسهم ، وقال الحسن بن البصري : يعني الغشيان في الفرج وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر . وقال علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس : ﴿ **من قبل أن يتماسا** ﴾ والمس : النكاح ، وكذا قال عطاء والزهري وقتادة ومقاتل بن حيان وقال الزهري ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفر .

قال سعيد بن جبير : كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية ، فوقت الله الإيلاء أربعة أشهر وجعل في الظهار الكفارة . وقد استدل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية بقوله منكم ، بالخطاب للمؤمنين : وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، واستدل الجمهور عليه بقوله : ﴿ **من نسائهم** ﴾ على أن الأمة لا ظهار منها ولا تدخل في هذا الخطاب .

وقوله تعالى : ﴿ **ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم** ﴾ أي : لا تصير المرأة بقول الرجل : أنت على كأمي ، أو مثل أمي ، أو كظهر أمي ، وما أشبه ذلك . لا تصير أمه بذلك إنما أمه التي ولدته ولهذا قال تعالى : ﴿ **وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً** ﴾ أي : كلاماً فاحشاً باطلاً . ﴿ **وإن الله لعفو غفور** ﴾ أي : عما كان منكم في حال الجاهلية — وهكذا — أيضاً — عما خرج من سبق اللسان ولم يقصد إليه المتكلم كما رواه أبو داود أن رسول الله — ﷺ — سمع رجلاً يقول لامرأته : يا أختي ، فقال : « أختك هي ؟ »[1] فهذا إنكار ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك لأنه لم يقصده ولو قصده لحرمت عليه لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا** ﴾ اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله تعالى : ﴿ **ثم يعودون لما قالوا** ﴾ فقال بعض الناس : العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره وهذا القول باطل وهو اختيار ابن حزم . وقال الشافعي : هو أن يمسكها بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق ، وقال أحمد بن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة ، وقد حكي عن مالك : أنه العزم على الجماع والإمساك ، وعنه : أنه الجماع ، وقال أبو حنيفة : هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة ، وإليه ذهب أصحابه والليث بن سعد .

(١) انظر سنن أبي داود ، كتاب الطلاق ، باب في الرجل يقول لامرأته : يا أختي ج ٢ ص ٦٥٨ ، ٦٥٩ فقد ورد الحديث رقم ٢٢١٠ عن أبي تميمة الهجيمي .

لقد أوجب الإسلام قبول الفداء مع استحسان فك الإسار لغير فداء ، وفرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ، ومن يحنث في يمينه ، ومن يظاهر من زوجه ، ومن يؤدى الزكاة في مصارفها ، ومنها : فدية الرقاب .. ولم يبق الاسلام من قيود الرق إلا ما هو باق إلى اليوم باتفاق الدول ، وسيبقى بعد اليوم إلى أن يشاء الله .

فالقوانين الدولية تبيح اليوم تسخير الأسرى واعتقالهم إلى أن يتم الفداء بتبادل الأسرى ، أو يبذل التعويض الذى تفرضه الدولة الغالبة ، وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل أن تنتظم بينها معاملات الحرب على هذا النظام الذى شرعه الاسلام وأوجبه على الدول الاسلامية ، وهى تتولى صرف الزكاة « فى الرقاب » .

فإذا كانت الدول غير الاسلامية لم تعرف لها نظاماً تتبعه لإطلاق أسراها من الرق ، فهى المسئولة عن هذا التقصير ، وليس على الاسلام أو الدولة الاسلامية ملامة فيه .

وقد نعود إلى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الاسلامية وغيرها فنعلم أن هذه الدول الأخرى قد تخلفت من المسلمين نظام تبادل الأسرى وتحرير الأرقاء منذ اشتبكت الحروب بين حكومات الروم فى آسيا الصغرى وحكومات المسلمين التى تجاورها . ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الاسلامية ، لتقدم العالم كله فى قضية الأسر والرق أكثر من عشرة قرون .

ولنسأل أدعياء التحرير فى العصور الحديثة : ماذا يحدث فى هذا العصر لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقاً عليها بين المتقاتلين ؟ .

ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال ؟ هل تعفيهم من العمل ؟ هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين أصحاب الحقوق ؟ هل تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند أعدائها ؟ هل تصنع بهم صنيعاً أكرم من صنع الاسلام يوم أوجب على المسلمين أن يمنوا بالتسريح أو يقبلوا الفداء والعتق ، أو يوجبوه فى مقام التكفير والاحسان ؟

إن صنيع الاسلام الذى أوجبه — قبل أربعة عشر قرناً — هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم فى إنصاف أسراها وأسرى أعدائها : فإما أن يكون لها صنيع أكرم منه : فلا ندرى كيف يكون ، ولا كيف يأتى لنظام من النظم الدولية أن يستقر عليه .

على أن دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الاسلامى فى تشريعات الرق ، بغير استثناء دولة منها فى أحدث تشريعاتها الانسانية كما تسميها . فالاسلام قد أنصف الأرقاء ابتداء ، بغير اضطرار إلى إنصاف اتقاء لثورة سياسية ، أو منازعة اقتصادية ، أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداد بالسلاح .

إن أول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة فى تحرير الأرقاء : حدثت على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى فى بلاد تنفق الأجور الوافرة على الصناع وبين أصحاب هذه الصناعات ، حيث تدار بأيدى الأرقاء ولا تنفق عليها أجوراً ، فإن أصحاب الأموال والصناع معاً حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة ، واستجابوا لداعى المنفعة قبل أن يستجيبوا لداعى الكرامة الإنسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية ، يوم حاجت الدول إلى العبيد لتجنيدهم أو لصنع السلاح فى غيبة المجندين ، فخطبت ودهم لتمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت .

وجاءت خطوة أخرى بعد هذه الخطوة ، يوم أصبحت للعبيد أصوات يتنافس عليها المرشحون .

وجاءت بعدها آخر خطى : يوم نهضت القارة الأفريقية بهضتها ، وتحررت شعوبها من سادتها ، وخاف أولئك السادة أن ينتقل السود إلى معسكر أعدائهم فى سباق التنافس على التحرير واجتذاب قلوب المستضعفين إلى هذا الفريق أو ذاك فلما وصلت الحضارة الأوروبية إلى هذا المدى — بعد طول التعثر والمجال — لم تكن قضية الرق قضية سماحة وإنصاف ، ولكنها كانت ولا تزال — قضية مساومة واضطرار ، وحيلة من حيل السياسة والإدارة وخطة من خطط التأخير والاستغلال .

والفارق الأكبر فى مسألة الرق — من جانب الواقع التاريخى — هو ذلك الفارق الذى تحصيه الأرقام بالحساب بين عدد الأرقاء فى البلاد الاسلامية ، وعددهم فى البلاد الغربية — حيث يعيشون اليوم بين الأمريكيين — فإن الأرقاء من الزنوج لم يزيدوا فى البلاد الاسلامية — بعد ثلاثة عشر قرناً — على ثلاثة ملايين ، أو نحو هذا العدد القليل ، بالقياس إلى سعة البلاد وطول الزمن وتقارب المكان ، ولكن عدد السود فى الأمريكتين قد يبلغ العشرين مليوناً ولم يمض على قيام الحكم الأبيض .. هناك أكثر من ثلاثة قرون .

وأبعد هذا الفارق في العدد : فارق المعاملة التى تمها الأرقاء فى البلاد الاسلامية ، والمعاملة التى لقيها إخوانهم فى الأمريكتين فلا وجه للمقارنة بين المساواة فى النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال ، وبين تحريم المساكنة والمصاهرة ، واستباحة الدم ، انتقاماً من الأسود الذى يرفع هذه الحواجز بينه وبين سادته « البيض » . ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلاً :

إن مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الإسلامية والأمم الأفريقية التى تتحرر من قيودها ، وتلتمس سبيلها إلى عقيدة مثلى وحضارة تصح لها وتخاطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية للاسلام وليست بالدعاية التى يحارب بها الاسلام .. فإذا انعكست الآية وذهب بها سماسرة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الاسلام نسمع ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين ؟!

وهكذا ينتهى هذا البحث التحليلى للدعاية المغرضة التى يشنها سماسرة المادة والتبشير . وقد اتضح لكل ذى عقل أن مشكلة الرق لا يلام عليها الاسلام إنما هى فى الحقيقة مفخرة عظمى للحل السليم الذى عالج به الإسلام العظيم هذه المسألة .

ونحن نسأل هؤلاء وأولئك : هل الاسلام هو الذى أنشأ الرق إن الوقائع تثبت ، والتاريخ يؤكد ، والحقائق تقرر أن الإسلام جاء والرق فى هذه الدنيا كأنه بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، فأخذ الإسلام يسلط أشعته الكاشفة الهادئة على تلك الظلمات فيبددها بحكمة معروفة فيه .. كان علاجه لتلك المشكلة كالنسيم الهادىء الذى يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، أو كالنار الهادئة التى تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض .

فكيف عالج الإسلام هذا الإشكال الاجتماعى ؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه « فى الدين والأخلاق والقومية » ما نصه : محمد محرر البشرية : عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرق ، كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند ، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج ، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما ملتقى سواد الليل وبياض النهار ، وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية ؟ وهل كانت الأولى إلا نغمة **التطهير** من ذل الخضوع والخشوع لشىء أو لأحد غير الله .

الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية ، فكيف يكون من صنع الاسلام الذى أعلن كرامة الإنسان ؟ والاستعباد تبديل للفطرة ، فكيف يكون عن أنظمة الإسلام الذى هو دين الفطرة ؟!

وإن تعجب لشيء فأعجب لهؤلاء الذين يلصقون هذا الاتهام بالاسلام وهم قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم الذين أنشأوا الرق ، أبيضه وأسوده وأنهم هم الذين أفشوه ، ونشروا وباءه في العالم من أبشع الطرق وأشنعها : من طريق الخداع والتمويه ، ومن طريق الاختلاس والاغتصاب ! وانهم جاوزوا فيه الحدود ولم يكفهم استرقاق الأفراد ، فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب .

فلندع ذكر هذا الماضي القريب الذي يعرفه الجميع ، ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام : لقد كانت هنالك شرائع في الشرق والغرب ، في اليونان ، وفي الرومان ، وفي غير اليونان والرومان ، فتحت باب الرق على مصراعيه ، تكاد جزاء القاتل أن يكون عبداً لولي الدم ، وكان المدين الذي يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكاً لدائنه . وكان السارق الذي يضبط عنده متاع يصبح رقيقاً لرب المال ، ومصداقه في قصة يوسف ـــ عليه السلام ـــ :

﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ﴾(١) ، وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من شاء ، وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك منه أبد الدهر إلا أن يتفضل السيد بفكه بمحض إرادته .

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية محمد ـــ ﷺ ـــ خاتم النبيين ، وقدوة المصلحين ، فماذا صنع محمد ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ حين جاء بالاسلام ؟ انه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها ، ولكنها ثورة حكيمة منظمة : كثورته على الخمر ، وثورته على الربا ، وثورته على سائر الأنظمة الفاسدة المزمنة ، والرذائل الموروثة المستحكمة .

لقد كانت سوق الرق في تلك المجتمعات مفتوحة المداخل ، موصدة المخارج . كان الرق وباءً يتساقط فيه الناس تساقط الفراش في النار ، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه واحدة ، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة .

فانظر إلى الجهاز الذي أعده نبي الإسلام محمد ـــ ﷺ ـــ لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة ! إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة : نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا تندلع إلى

(١) سورة يوسف الآيتان ٧٤ ـــ ٧٥

خارجها ، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لنطلق منها كل من استطاع النجاة ، ومياذيب من الغيث صبها على من بقى فى الدار لتكون النار عليهم برداً وسلاماً ، ريثما يتيسر لهم الخروج منها .. وسأفسر لك ذلك

وبمضى الأستاذ الدكتور فيشرح هذا التصوير الرائع شرحاً واقعياً فى ظلال الإسلام فيقول :

فأما النطاق الذى ضربه الاسلام حول هذه المنطقة المحترقة : فذلك هو الدواء الواقى الذى أوقف من سير الداء حتى لا نسرى عدواه إلى غير المصابين .. ذلك هو القانون الذى منع استرقاق الأحرار وأمنهم منه ، بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب ، فاليوم لا الخطف ، ولا البيع والشراء ، ولا التغلب فى المشاجرات والغارات ، ولا تحكم رب الأسرة ، ولا العجز عن وفاء الدين ، ولا السرقة ، ولا القتل ، لم يعد شىء من ذلك كله . منذ ظهر الإسلام — يصلح مبرراً لاستعباد الإنسان ، ولم يكتف الاسلام بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق ، بل انه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد ، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار والإماء ، إلا فى حالة الاضطرار وخشية العنت ، وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام — قبل أن يبدأ بالعلاج الشاق من الرق القائم بالفعل — أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء ، غير أن ها هنا شبهة تجول فى الخواطر ، ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها : أما الشبهة فهى أن الإسلام — وإن كان قد سد كل الأبواب التى أشرنا إليها ، والتى كانت تتخذ ذريعة لإنشاء رق جديد — قد ترك — إلى جانب هذه الأبواب — منفذاً صغيراً لم يغلقه ، ذلك : هو حال الحرب الإسلامية المشروعة وهى التى يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام .

أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين — فى هذا الحال — أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث : إما بإطلاق سراحهم ، وإما باسترقاقهم ، ولو كانوا أحراراً ، وإما بقتلهم ؟

والجواب أن الأمر ليس كما يظنه الناس فى هذه الخطط الثلاث ، فالواقع أنها فى نظر الإسلام ليست سواء فى المشروعية

فنحن إذا نظرنا فى نصوص القرآن الكريم ، لم نجد فيه أثر لقتل الأسير ولا استرقاقه ، وإنما نجد له فيه مصيراً واحداً كريماً ، وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل : ﴿ فإما مناً بعد وإما

فداء ﴾[١] ، كما أن سنة الرسول الرحيم — ﷺ — لا نجد فيها أنه أذن بقتل الأسير ، إلا في حالة شاذة نادرة كان الأسير فيها معروفاً بخطورة وشدة نكايته بالمسلمين ، فهو ليس قاعدة عامة ، وإنما هو استثناء طبق على الشاذين الخطرين ، وهذا هو ما يعرف في لغة العصر باسم : عقوبة (مجرمي الحرب) .

بقي الاسترقاق ، وواضح أنه يلي القتل في القسوة والشناعة ، وأن الإسلام ينظر إليه كنظرته إلى القتل ، كما أن الحرية في نظره شقيقة الحياة . ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ : تحرير رقبة ؟

إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة .. فإن رفع إلى مستوى الحرية يعد إدراجاً له في زمرة الأحياء ، بعد أن كان محسوباً في عداد الأموات .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس في روح التشريع الاسلامي ، ولا في نصوصه ، ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم ؛ أو يجعله في نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فإن لجأ الإسلام يوماً إلى استرقاق الأسير : فإنما يكون ذلك منه نزولاً على حكم الضرورة ، اتقاء خطره ، وكسراً لشوكته وشوكة قومه .

على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائي ، وإنما يتخذه إجراءً مؤقتاً ، وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذي يرضاه ويلح في المطالبة بتحقيقه ، ألا وهو : التحرير الكامل .

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التي أعدها الإسلام لمكافحة الرق ، وأعني بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التي فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية .

ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب ، كان هو مفتاح القلوب ، فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ، ويرغبهم بمختلف الوسائل ، قال تعالى :

﴿ فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة ﴾[٢] .

---

(١) سورة محمد من الآية ٤

(٢) سورة البلد الآيات ١١ — ١٣

وقال عليه الصلاة والسلام :
(من أعتق رقبة : أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار).[١]

ومفتاح ثان : هو مفتاح خزائن الدولة .. إذ جعل فيها سهماً مكرراً فى كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين.

ومفتاح ثالث : هو مفتاح « قانون الكفارات » وهو القانون الذى يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا : كالحنث فى اليمين ، والمفطر فى رمضان ، والقتل الخطأ ، وغير ذلك .

ومن أهم هذه الأنواع : « كفارة الإساءة » التى تقع من السيد فى حق العبد نفسه . وفى هذا يقول رسول الرحمة — صلوات الله وسلامه عليه — : (من لطم مملوكه أو ضربه : فكفارته أن يعتقه)[٢] .

هذا جزاء الضربة أو اللطمة ، أما الجرح ، أو تشويه الجسم ، فإن حكمه — عند أكثر الأئمة — أن يصير العبد حراً بمجرد اصابته ، فينزع من ملك السيد قهراً عنه ، وكذلك إذا كلفه سيده أعمالاً فوق طاقته وتكرر منه ذلك .

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الاسلامى الرحيم : لقد رأينا أبواباً فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبواباً أغلقت دون الرق ، بين هذين الطرفين ، ترى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ، ولكنهم لم يصلوا إليه بعد ، انهم هنالك ينتظرون دورهم فى استنشاق هواء الحرية الطلق ، فهل صنع الإسلام شيئاً لهذه الفئة فى فترة الانتظار ؟ نعم ! لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية ، فأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم فى هذه الفترة يحيون حياة الإنسان ، ولا يشعرون تلك الفوارق الظالمة بين الطبقات .. ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة خادميهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم .

---

(١) انظر صحيح مسلم كتاب « العتق » باب « فضل العتق » ج ٢ ص ١١٤٧ حديث رقم ٢١ / ١٥٠٩ لقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة وزاد فى آخره .. « حتى فرجه بفرجه » .

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب « الايمان » باب « صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده » ج ٣ ص ١٢٧٨ حديث رقم ٢٩ / ١٦٥٧ عن زاذان أبى عمر قال : أتيت ابن عمر ، وقد أعتق مملوكاً قال : فأخذ من الأرض عوداً أو شيئاً ، فقال : ما فيه من الأجر ما يساوى هذا ، إلا أنى سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه » .

هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين :

« إنهم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من الأعمال ما لا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم »[1].

صدقت يا نبي الرحمة — صلوات ربي وسلامه عليك !

هنا هو موقف الإسلام من الرق :

١ — منع لإنشائه ، وابتدائه .

٢ — عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه .

٣ — عطف سابغ عليه في أثناء محنته وبليته .

أما بعد ، فهل من منصف يقولها معي :

أما والله لعبد في ظل الإسلام ، خير من كثير من الأحرار في كل نظام . وهكذا ينتهي هذا المقال الرائع الذي وضع النقاط على الحروف ، وكشف النقاب عن الحقيقة التي يثير حولها أعداء الله غبار الشبهات .. وهكذا تبين — كيف وقف الإسلام من مشكلة الرقيق وقفة الحزم والعزم ، كما هو في كل شئونه .

سيدي أبا القاسم يا رسول الله :

داويت متئداً وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء : الداء

أبعد كل هذه الوصايا بالبشرية ، وإحاطتها بالكرامة ، يجرؤ أفاك أثيم على أن يلصق بالإسلام ما هو منه براء .

إن الإسلام يعد الناس جميعاً متساويين في الإنسانية ، لأنهم جميعاً صنعة إله واحد ، أبناء لأب واحد .. ﴿ إن أباكم واحد ، وإن ربكم واحد ﴾ ، ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[2] .

---

(١) انظر صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب ما ينهى عن السباب واللعن ج ٤ ص ٤٨ فقد ورد الحديث من رواية طويلة لأبي ذر ... إلى أن قال رسول الله — ﷺ — هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل ما يغلبه فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه » .

وانظر سنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب الإحسان إلى المماليك ، ج ٢ ص ٢١٦ ، ٢١٧ فقد ورد حديث رقم ٣٦٩٠ عن أبي ذر يرفعه قال رسول الله — ﷺ — إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون . وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

(٢) سورة الحجرات من الآية ١٣

وهذه المساواة العامة الإنسانية تتحطم معها فوارق الجنس واللون والحسب والنسب ، وهى فوارق الانحراف البشرى ، والظلام الإنسانى .. فوارق الجاهلية الضالة ، والهوى المتسلط ، والتعالى الكاذب ، والتمييز المصطنع .. وهو تمييز تأباه فطرة الحياة التى لا تفرق — فى قليل أو كثير — عن طبيعة الخلق والولادة ، والمأكل والمشرب ، والحياة ، وأسباب المعرفة والإدراك .

المساواة فى الإسلام

لست أدرى : أين هى التفرقة فى واقع الخلق حتى تقع بين الخلق ؟

التفرقة فى حقيقتها انتكاس بالإنسانية وتفويت لأسباب الرفعة الحقيقية حتى لا يمكن أبداً أن تتم لعبد يغفل عن حقيقة نفسه ومعرفة خالقه .

والطبعة تأبى على الإنسان أن يكون غير كونه إنساناً ، فهو خاضع للقوانين المسيطرة والسنن العامة ، والمصير المشترك ، كما تأبى سنن الخالق — تبارك وتعالى — أن يمتد بقاؤه فيحقق ما يصبوا إليه من استعباد الناس والتعالى عليهم .

فكم من حالم أيقظته مخالب الموت !

وكم من مختال على العباد داسته أقدامهم فى التراب !

وكل ما فوق التراب تراب !

فمن أين تأتى التفرقة والمبدأ معروف ، والمصير مشترك ؟!

ولى فى فنـاء الخلـق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقـة راق
شخـوص وأشكـال تمر وتنقضى تفنى جميعاً والمهيمن باق

الإسلام العظيم يأبى التفرقة ويحاربها ، والنبى الكريم — صلوات ربى وسلامه عليه — يعلن فى

خطبته الجامعة : (أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم)[1] .

ويقول القرآن الكريم : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[2] .

أخا الإسلام :

لا تركنن إلى القصور الفاخرة ... واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذ رأيت زخارف الدنيا فقل ... يارب إن العيش عيش الآخرة

إن المساواة في الإسلام تدعو إليها الفطرة لعامة ، ويقضي بها المصير المشترك ، ويتطلبها عدل السلوك وسلام الإنسانية ، قامت في الإسلام من أول أمره حين دعا الناس جميعاً إلى عبادة الرب الواحد ، رب العالمين ، وهذه المساواة في الإنسانية : تستلزم المساواة في الحقوق .. فالناس جميعاً أمام قانون الله سواء ، لا فرق بين عظيم وحقير وشريف ووضيع .

وحق أساس هذا الدين ، والعدل سياجه ، والناس — مع اختلاف عقائدهم وألوانهم وأجناسهم — أمام عدله وحقه : سواء !

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك في الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة ... إلا بإذن الذي سواك من طين
فلا تصاحب غنياً تستعز به ... وكن عفيفاً ، وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما في خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك ... كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

أخي ! صدقت يارب العزة ، يا من قلت : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾[3] .

---

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٥ ص ٤١١ فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة .
(٢) سورة الحجرات من الآية ١٣
(٣) سورة الاسراء الآية ٧٠

العدالة فى الإسلام

والعدل فى الإسلام عدل مطلق ، يستوى فيه الأصدقاء والأعداء ، وأنت تسمع من قوانين هذا الدين قوله — جل شأنه — : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾(١) .

وأنت ترى رسول الله — ﷺ — يغضب أشد الغضب ويحمر وجهه كأنه الشفق عندما تودعه الشمس الغاربة .. إنها غضبة مضرية .

وربما غضبت فإنما هى غضبة للحق . لا ضغن ولا شحناء

يغضب عندما يرى أسامة بن زيد ، الحب بن الحب ، يستشفع لامرأة مخزومية شريفة الأصل — كانت قد سرقت — ويقول له غاضباً معنفاً : « أتشفع فى حد من حدود الله » ثم يخطب فى الناس قائلاً :

« **إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله : لو أن فاطمة بنت محمد سرقت : لقطعت يدها** »(٢)

وهذا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — عملاق الإسلام ، وفاروق هذه الأمة ، يعلن فى سمع الزمان هذا المبدأ الخالد ، بعد ما تولى خلافة المسلمين بعد أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — يقول :

« أيها الناس : الضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه » .

ويقول فى رسالة له لأبى موسى الأشعرى — رضى الله عنه — فى أمر القضاء . « **آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك . حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك** » .

وها هو ذا « ضرار الصدائى » يصف أمير المؤمنين علياً — كرم الله وجهه — وما اتصف به من العدالة والانصاف للرعية فيقول :

---

(١) سورة المائدة الآية ٨

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب « الحدود » باب « قطع السارق الشريف وغيره والنهى عن الشفاعة فى الحدود » ج ٣ ص ١٣١٠ فقد ورد الحديثان ٨ — ٩ / ١٦٨٨ عن عائشة فى هذا .

« كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا استأنيناه ، ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا : لا نكاد نكلمه هيبته ، ولا نبتدئه لعظمته . يعظم أهل الدين ويحب المساكين .. لا يطمع القوى في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .. كان — والله — غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه » .

وهل ينسى التاريخ هذا الموقف الإسلامي المشرف الذى وقفه الفاروق من « عمرو بن العاص » حين علم أن ابنه ضرب أحد أبناء الرعية . وقد قال له كلمته الخالدة : يا عمرو : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ .

أبعد هذا التكريم للبشرية ، يجرؤ أفاك أثيم على أن يرفع صوته بهذه الفرية التى تقول أن الرق فى الاسلام يعتبر تهمة توجه ضده ، وهو لم يقرأ عن الإسلام شيئاً ، بل إنه يهرف بما لا يعرف .

وصدق الله تعالى حيث يقول : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ .

هذا الإسلام ، هو الذى كانت عدالته مضرب الأمثال فى معاملة البشر ، مهما اختلفت أجناسهم ومعتقداتهم .

ومن جليل ما يذكر فى هذا المجال ، ماجرى بين على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب ، وقد تحاكم الأول امام عمر ، وكان الخصم يهودياً ، وكان عمر — كعادته — ينادى علياً قائلاً : يا أبا الحسن ، فلما ناداه فى هذه المرة وهو يتحاكم أمامه كعادته ، ظهر الغضب على وجه على ، فظن عمر أن علياً يتبرم من وقوفه مع اليهودى على قدم المساواة ، وعلى هو من نعلم : حسباً ونسباً ، وإيماناً ، وصدقاً .. قال عمر لعلى : أكرهت أن يكون خصمك يهودياً ؟ فقال على — رضى الله عنه — : إنما غضبت لأنك لم تسوينى وبين خصمى اليهودى ، إذ ناديته باسمه ، وناديتنى بكنيتى !

رأيت أن هذه المساواة فى الحقوق ليست بين المسلمين وحدهم ، بل بين المسلمين وغير المسلمين ، وأن عبد يقف فى ساحة القضاء مع خصم يهودى ، يأبى عليه دينه أن يترك لفظاً تشم منه رائحة التعظيم

له فيغضب ، ويعد هذا تمييزاً فى موطن القضاء .. وما كان النداء من عمر الأنداء قد اعتاده ، ولكن لم يستطبه منه فى هذا الموطن (موطن القضاء ، ورد الحقوق) .

أبعد كل هذا تجوز المقارنة بين عدالة الاسلام ونزاهته ونظافته وطهارته ، وبين ما يدور فى العالم من شرور التفرقة العنصرية فى أعظم الأمم حضارة فى عصرنا هذا ؟

إذ لا تصح المقارنة بين شريعة الله وشريعة الغاب التى وضعها العبد ، وسولت له نفسه الامارة بالسوء أن تحكم بها عباد الله .

شتان ، ثم شتان ، بين عدل الخالق وظلم المخلوق .

وحسبك يا أخى أن تعلم أن الإسلام يبنى عزائم المؤمنين لإقامة الحق والعدل مع الصديق والعدو .. مع الفقير والغنى ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾[1] .

ثم تأمل بعد ذلك المدى الإلهى ، والعدل الربانى .. تأمل ما تنص عليه شرائع القوم هناك فى العالم الحر : من تفرق بين الأسود والأبيض ، وتجعل للبيض حقوقاً لا ينالها مواطنوهم السود !

وما أمر هذه التفرقة فى أمريكا وجنوب افريقيا وغيرهما من دول العالم ، بالأمر الخفى الذى يحتاج إلى بيان .

محمد الذى جعل من العبيد سادة

هذه حقيقة ثابتة لا يجادل فيها إلا مكابر ، ولا يمارى فى مضمونها إلا كل معتد أثيم ﴿ **يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها** ﴾[2] .

(١) سورة النساء الآية ١٣٥
(٢) سورة الجاثية الآية ٨

وأولى بالذين يحاولون أن يجعلوا من مسألة الرق شبهة يثيرون غبارها على جلال الاسلام وجماله . أولى بهم أن يرددوا هذه الحقيقة إذا أرادوا الإنصاف ، وطلبوا وجه الحق .

أولى بهم أن يقولوا إن محمداً هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين موجهين وقادة .

لقد كان مولده الشريف إيذاناً بأنه محرر العبيد . فقد كانت أول رضعة ، وأول جرعة لبن نزلت جوفه الشريف من جارية لعمه « أبى لهب » تسمى « ثويبة » . وكان من حسن الطالع وبشر اليمن : أن هذه الجارية عندما ذهبت وأخبرت أبا لهب بمولد السيد الجليل محمد — ﷺ — : فرح بهذا الخبر فرحاً عظيماً ، وكانت مكافأته : عتقها ، فصارت بسبب هذه البشرى الكريمة حرة تنشق نسيم الحياة الكريمة .. وكان مولده الشريف إيذاناً وإعلاماً بأن هذا المولود سيجعل من العبد سادة ومن المستضعفين مفكرين وقادة .

وها نحن أولاء ننتقل بالحديث عن جارية أخرى .. انها السيدة الجليلة « بركة الحبشية » المكنية « بأم أيمن » :

وكانت أمة مملوكة للسيدة آمنة أم رسول الله — ﷺ — وقد ربت سيدنا محمد — ﷺ — بعد موت أمه : أنت أمى بعد أمى .. وقد أسلمت بعد ما دخلت خديجة — رضى الله عنها — فى الإسلام .. إذ أن خديجة كانت أول من آمن بالنبى — ﷺ — من النساء ، وأقامت « أم أيمن » بمكة تحتمل أذى المشركين ، إلى أن جاءت الهجرة إلى المدينة ، فخرجت من مكة ماشية إليها ، وليس معها ماء تشربه ولا زاد تأكل منه ، وكان عندها قوة عجيبة على احتمال العطش والجوع ، حتى أنها كانت تصوم فى اليوم الحار ثم تطوف فى الشمس كى تعطش فلا يصيبها عطش !

أما جهادها فى الاسلام فقد كانت تقوم بسقى الجيش ، وتداوى الجرحى فى القتال . ومما حضرته من الغزوات : غزوة أحد ، وخيبر ، وكانتا من أهم غزوات النبى — ﷺ — .

هذا بالاضافة إلى أنها كانت من أكثر نساء المهاجرين حظاً فى الشهداء من رجالهن .. فقد تزوجت بعبيد بن زيد ، وأنجبت منه أيمن ، الذى مات شهيداً يوم « حنين » ، وبعد موت « عبيد » : تزوجت بزيد بن حارثة وأنجبت منه أسامة بن زيد ، ورقدمات « زيد » شهيداً فى « مؤتة » ، فصبرت على فقد زوجها « زيد » وابنها أيمن وكان أسامة غلاماً ، فعكفت على رعايته والعناية به ، حتى جعلت منه رجلاً

يقود جيشاً ، فيه من الأبطال مثل أبي بكر وعمر ، وكان آخر جيش أعده النبي — ﷺ — ولم يكن أسامة قد جاوز العشرين سنة .

ولما مات النبي — ﷺ — كانت أم أيمن تبكيه كلما ذكرته ، ولا ينقطع بكاؤها عليه ، وقد قال أبو بكر لعمر : انطلق بنا لنزور أم أيمن ، كما كان رسول الله — ﷺ — يزورها ، فلما دخلا عليها بكت ، فقالا لها : ما يبكيك ، فما عند الله خير لرسوله ؟ فقالت : أبكي لأن وحي السماء قد انقطع فهيجتهما على البكاء ، فجعلت تبكي ويبكيان معها .

وليس هناك أسمى من هذه النفس التي تبكي انقطاع الوحي ، وتحزن بفقد الاتصال بالسماء ، فهي لا ترى إلا السعادة الروحية التي تصل بين وبين الملأ الأعلى . وتفيض على أهل الأرض فتسمو بهم إلى مواطنها .

وقد ماتت أم أيمن بعد عشرين يوماً من خلافة عثمان — رضي الله عنه — سنة ٦٤٣ م . أرأيت إلى هذا الجلال وتلك العظمة في هذه السيدة التي كانت مملوكة لرسول — ﷺ — فامتدت يداه الكريمتان فأهداها نعمة الحرية ، وجعل منها السيدة التي تكلم الخليفة أبا بكر ، ووزير عدله عمر كلمة تجعلهما يبكيان ويذرفان الدمع على انقطاع الوحي بعد رسول الله — ﷺ — ؟

إن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على أن محمداً — ﷺ — جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين أساتذة وقادة .

زيد بن حارثة

حب رسول الله — ﷺ — الذي قال في شأنه : « أنت مولاي ومني وأحب القوم إلي »(١) .

(١) انظر صحيح البخاري باب فضائل الصحابة ج ٢ ص ٣٠٣ باب مناقب زيد بن حارثة فقد ورد عن البراء عن النبي — ﷺ — قوله في هذا المعنى : « أنت أخونا ومولانا » .

نشأته وشأنه ومكانته فى الإسلام :

خرجت أمه « سعدى بنت ثعلبة » معه تزور قومها « بنى معن » فأغارت خيل لبنى القيس ابن جسر ، فمروا على أبيات « بنى معن » فاحتملوا زيداً — وقد كان يومئذ غلاماً يافعاً — ولم يعرف أبوه بعد شيئاً عنه .

وكان موسم الحج قد أقبل ، فحج قوم من « كلب » ، وأمام أعينهم دائماً صورة هذا الرجل الباكى « حارثة بن شرحبيل » ومضوا يطوفون بالبيت ، وهناك رأوا « زيداً » فعرفهم ، وعرفوه ، وأقبل عليهم ، وعلموا منه أن خاطفيه وافوا به « سوق عكاظ » فعرضوه للبيع ، فاشتراه منهم « حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم : فلما تزوجها شريف — قريش : محمد ابن عبد الله — ﷺ — ، وهبته له ، وانطلق « الكلبيون » وأعلموا أباه . فخرج حارثة وأخوه كعب بفدائه ، وقدما مكة ، فسألا عن النبى — ﷺ — فدخلا عليه وقالا : يا بن عبد الله ! يا ابن عبد المطلب ، يا ابن هاشم يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل الحرم وجيرانه ، وعند بيته تفكون العانى وتطعمون الأسير — جئنا فى ابننا ، فامنن علينا ، وأحسن إلينا فى فدائه ، فإننا سندفع لك الفداء . فقال لهم الرسول — ﷺ — : « دعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى ، فو الله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى » .

فدعاه النبى — ﷺ — وقال له : هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم . قال من هما ؟

قال زيد : هذا أبى وهذا عمى ، فقال رسول الله — ﷺ — : فأنا من علمت ورأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما(١) .

فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أنت منى بمكانة الأب والأم .

فقالا : ويحك يا زيد ! أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ !

قال زيد : نعم ! إنى قد رأيت من الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً .

---

(١) انظر أسد الغابة ج ١ ص ٢٨١ ترجمة زيد بن حارثة

فلما رأى رسول الله — ﷺ — ذلك اخرجه إلى الحجر ، وقال : « يا من حضر ، إشهدوا أن زيداً ابنى : أرثه ويرثنى »[1] .

فلما رأى أبوه وعمه ذلك : طابت أنفسهما وانصرفا ، ونزلت الرسالة على محمد — صلوات الله وسلامه عليه — فكان زيد أول من آمن به من الأرقاء .

ولم يفارق النبى — صلوات الله وسلامه عليه — لحظة ، فأحبه النبى حباً شديداً .

وأذن النبى — ﷺ — فى الهجرة لأصحابه ، وهاجر زيد ، ونزل فى المدينة على سعد بن خيثمة .

ولما هاجر الرسول الأعظم إلى يثرب وآخى بين المسلمين : كان حمزة سيد الشهداء ، وزيد أخوين فى الله . ثم آخى النبى الأعظم بعد مقتل حمزة بينه وبين أسيد بن حضير .

وقامت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وكان زيد من الرماة المذكورين فشهد بدراً وأحداً ، واستخلفه الرسول — ﷺ — على المدينة عندما خرج إلى « المريسيع » ، وشهد الخندق والحديبية وحنيناً .

وخرج زيد أميراً فى سبع سرايا : أولها القردة ، فاعترض لعير قريش فأصابها وأفلت أبو سفيان منهم ، وأسر زيد « فرات بن حيان العجلى » .

وقدم بالعير على النبى — ﷺ — ، وكانت أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون .

قالت أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — : « ما بعث رسول الله زيد بن حارثة فى جيش قط ، إلا أمره عليهم ، ولو بقى بعده لاستخلفه » .

وأراد رسول الله — ﷺ — أن يغزو الروم ، فجمع ثلاثة آلاف من المسلمين وعقد لزيد ، وقدمه على الأمراء الآخرين قائلاً : « عليكم زيد بن حارثة ، فإن أصيب زيد : فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفر : فعبد الله بن رواحه »[2] .

---

(١) انظر تفسير القرطبى « تفسير سورة الأحزاب » ج ١١ ص ١١٨ فقد ورد الحديث بلفظ « يا معشر قريش اشهدوا أنه ابنى يرثنى وأرثه » . وفى ص ١١٣ ورد الحديث بلفظ : « اشهدوا أنى وارث وموروث » . وانظر من الغابة ج ٢٨٢ ترجمة زيد بن حارثة .

(٢) انظر صحيح البخارى كتاب « المغازى » باب « غزوة مؤتة ج ٣ ص ٥٨ فقد ورد الحديث عن عبد الله بن عمر قال أمر رسول الله — ﷺ — فى غزوة مؤتة زيد بن حارثة فقال رسول الله — ﷺ — : « إن قتل زيد فجعفر وإن قتل جعفر فعبد الله ابن رواحه ... » الخ .

وتحرك الجيش الإسلامى بقيادة لواء الاسلام « زيد بن حارثة » .

أليس فى هذا المعنى ما يعطى الدلالة الصدقة على أن رسول الله هو الذى جعل من العبيد سادة ومن مستضعفين أساتذة وقادة ؟

هذا « زيد » يقود جيشاً فيه جعفر الطيار ، ابن عم رسول الله ، الشريف الكريم ، وفيه خالد ابن الوليد ، وخالد هو سيف الله المسلول ، ومن بعد زيد : قاد ابنه « أسامة » الحملة بعد وفاة الرسول ــ ﷺ ــ ، قادها إلى فلسطين . وكان على رأس جيش فيه أبو بكر الصديق وعمر الخليفة فاروق هذه الأمة .

أى دلالة أعظم من هذه الدلالة ؟ وأى معنى أوضح من هذا المعنى ؟ إنه الإسلام الذى كرم البشرية . وزكى النفوس ، وطهر القلوب .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

الدين والدنيا لنا جمعتهما لك شرعة قدسية غراء
والمسلمون جميعهم جسد ، إذا عضو شكى ، سهرت له الأعضاء

سار المسلمون وعلى رأسهم زيد ، حتى وصلوا إلى « مؤتة » ، وهناك علموا بتجمع جيوش الروم فى أكثر من مائة ألف ، وهم ثلاثة آلاف فقط ، وهناك تردد الناس قليلاً .

ولكن ما لبث الأمير أن اندفع يقاتل الروم ، لما تلك الحياة بجانب تلك الغاية التى يريدها ؟ وتناوشته السيوف بالطعن ، وهو يقاتل دون راية رسول الله ــ ﷺ ــ وأخيراً استشهد الأمير .

أيتها النفس الكبيرة :

لقد عرف النبى الأعظم حقيقتك ، فرفعك من رتبة العبودية إلى رتبة البنوة ، حيث قال : « زيد ابنى » . ثم أمرك على المسلمين ، ثم رفعك مرة أخرى إلى رتبة الشهداء الصالحين .

وفى المدينة وقف النبى ــ ﷺ ــ يقول : « استغفروا لزيد ، لقد دخل الجنة وهو يسعى » .

ثم أتى أهله ، فجهشت بنت زيد بالبكاء ، فبكى النبي ﷺ حتى انتحب ، فقال له سعد بن عبادة : يا رسول الله : ما هذا ؟ فقال له الرسول — ﷺ — : (يا سعد : هذا شوق الحبيب إلى الحبيب) .

يرحمك الله يا زيد بن حارثة ، يا من أثنى عليك رسول الله خيراً ، ويا من أنعم الله عليك بالاسلام ، وأنعم رسوله عليك بالعتق ، يا من ختم الله لك حياتك الكريمة بالموتة الكريمة ، فلقيت شهيداً ، وعشت في دار الكرامة في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[1] .

بلال بن رباح
مؤذن الرسول وكفى بالأذان شرفاً

أليس المؤذن هو الذي يرفع كلمة التوحيد عالية يتسع بها الآذان ، ويملأ بها القلوب عزة وكرامة ؟

كان بلال عبداً مملوكاً لأمية بن خلف ، ولاقى من الأذى في سبيل عقيدته ما لا يقوى عليه أحد غيره ، فوقف من التعذيب والتنكيل موقف الجبل الأشم ، لا تحركه العواصف ولا تؤثر فيه الرياح القواصف .. كان كلما اشتد عليه الأذى وتضاعف أمامه الكروب : ازداد إيماناً على إيمانه .

بلغ من قسوة أمية بن خلف انه كان يطرحه على رمضاء مكة وقت الظهيرة حيث الشمس تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ويسيل منها لعاب كالمهل يشوى الوجوه ولا عجب : فأمية عرفه التاريخ بأنه رجل حديد اللسان حديد الوجه حديد القلب .. لو وزعت قسوة قلبه على الناس ، ما بقي للرحمة سبيل إلى قلب واحد منهم .

كلما اشتد الأذى ببلال : كان يردد هذا النشيد الخالد : أحد أحد ، فرد صمد ، لا والد ولا ولد .

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٦٩ — ١٧٠ .

أجل يا بلال ! ان الله واحد فى ذاته لا شريك له ، واحد فى صفاته لا نظير له .. إنه رب السماء والفضاء والجبال والشجر ، إنه رب عزيز قادر ، له الجبين قد سجد ويردد بلال هذه الكلمات كلما أمره أمية بالكفر ، ويشطاط عدو الله غضباً فيقول له العبد المؤمن : إن أكن عصيتك فقد أطعت الله ، عذب ماشئت فإنك إنما تعذب جسدى ، أما روحى فلن تنال منها شيئاً ؟!

لله درك يا بلال : لقد ضربت المثل الأعلى فى الصمود والثبات على المبدأ الحق ، حتى جعل الله لك من الضيق فرجا ، وقد تقدم الصديق — رضى الله عنه — فاشتراك وأعتقك ، وكنت صاحب المكانة المرموقة عند رسول الله — ﷺ — ، عرفت بصوتك الندى فى الأذان ، حتى قال عنك رسول الله — ﷺ — إنك أندى صوتا . وكان لك الشرف العظيم أن تعلن الأذان من فوق بيت الله الحرام يوم الفتح الأعظم ، حيث اشرأبت الأعناق ، وقال بعض أهل مكة من ذوى النفوس التى ملكها الكبر : ألم يجد محمد غير هذا ليؤذن ، فرد عليهم القرآن الكريم فى صراحة ووضوح وحزم وعزم : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[1] .

سرعة بديهته — رضى الله عنه — :

لا ننسى ذكاءك وسرعة بديهتك وحضور حجتك وعندما سألك سائل فقال لك يا بلال : من أنت ؟ فقلت له — على الفور أنا ابن الذى اسجد الله له ملائكة صدقت يا بلال فرسول الله يؤيدك كل التأييد اذ يقول : (كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على اعجمى إلا بالتقوى) .

ولا ينكر أحد مكانتك فى قلب المصطفى — ﷺ — فقد غضب من أبى ذر الغفارى الصحابى الزاهد الورع ، عندما قال لك فى لحظة غضب : يا ابن السوداء فلما بلغ رسول الله — ﷺ — ذلك : امتلأ غضباً وقال فى حدة وشدة : (يا أبا ذر أعيرته بأمه ، إنك امرؤ فيك جاهلية) ، وأخذت هذه الكلمات كل مأخذ وكأنها سهام بتاره ، جعلت أبا ذر رضى الله عنه يضع خده على الرمال ويقول : يا بلال : طأ على خدى بقدميك !

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣

انه الأدب والخلق الذى تربى عليه أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه إذا أخطأوا ، أو ظلموا أنفسهم ، أو شعروا باعتراف فى النفس : استيقظت لواعج الوجدان فذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم .

دعابة لطيفة :

لقد كان رسول الله — ﷺ — إذا رأى هؤلاء النفر الذين انعم الله عليهم بنعمة الاسلام والعتق : يبش لهم ويبتسم .

سأل رسول الله — ﷺ — بلال ذات يوم — وكان يوم الأضحى — بم ضحيت يا بلال ؟ فقال : يا رسول الله لم أجد الا ديكا ، فضحيت به ، فقال له الرسول ﷺ فى دعابة لطيفة : « مؤذن ضحى بمؤذن » وكان المصطفى ﷺ يمزح ولا يقول الا حقا .

فرحمك الله يا بلال يا من رفعت إلى مكانة فى الاسلام عالية مرموقة ، ونلت من الله فضلاً عظيماً وأجراً كريماً .

سلمان الفارسى

الرجل الذى بحث عن الحقيقة العليا ، وتخل مخزون فكره ، وقدح زناد رأيه فى سبيل الوصول إلى الحق .

نشأ بين قوم فى بلاد الفرس ، يعبدون النار من دون الله ، وكان أبوه قد جعله قائماً على شأن النار يغذيها بالوقود إذا ما أوشكت أن تضعف .. ودارت فى نفسه وعقله أفكار وتساؤلات .. هل يليق بالإله أن يكون محتاجاً إلى عباده ؟ وماذا يحدث لو أنه أخفى مده بالوقود ؟ لابد أن تنطفىء هذه النار . وأخيراً ، ولى هارباً ، وهاجر من هذه البلاد يسعى وراء الحق ، ويطلب الحقيقة .. ونزل على أحد الرهبان ، فدله الراهب على أن تحق فى شريعة محمد خاتم الأنبياء .. وولى سلمان وجهه شطر المدينة ، فى قافلة متوجهة إلى هناك ، لكن أحد اليهود المقيمين بيثرب ادعى أنه اشتراه ، فصار « سلمان » عبداً مملوكاً لذلك اليهودى يقوم على خدمته ورعاية شئونه .

ولما هاجر الرسول — ﷺ — إلى المدينة : أسرع سلمان ليختبر فيه الصفات التى أرشده إليها

الراهب ، الذى التقى به فى بلاد الشام ، من أن النبى — ﷺ — لا يقبل الصدقة ، ولكنه يقبل الهدية ، وأن خاتم النبوة دليل واضح على صدق دعواه ، وتحققت هذه كلها فى رسول الله أمام سلمان ، فأسلم ، وتعاون المسلمون على شرائه من اليهودى ، ثم أعتقوه . فصار حراً ، وكل منهم يريد أن ينسبه إليه ، فقال رسول الله — ﷺ — لهم : « سلمان منا آل البيت »(١).

وكان لسلمان موقفه التاريخى المجيد يوم (الخندق) عندما دلهمت الخطوب ، واشتدت المحن ، وحوصرت المدينة ، استشار الرسول أصحابه . فأشار عليه سلمان بحفر الخندق ، وصادف هذا الرأى قبولاً مطلقاً فى نفوس المسلمين ، فحفر الخندق ، وكان فى حفره خير ويمن .

إننا لا ننسى لسلمان هذا الموقف الاسلامى الجليل ، ولا ننسى له شدة تمسكه وعمق تغلغله فى مفاهيم الاسلام .. قال له سائل : يا سلمان . من أبوك ؟ فقال له بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : أنا ابن الاسلام ، ولما بلغ هذا الخبر أمير المؤمنين عمر بكى وقال ثلاث مرات : وأنا ابن الاسلام . أجل يا سلمان

لعمرك : ما الإنسان إلا ابن دينه	فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
فقد رفع الاسلام سلمان فارس	وقد حط بالشرك النسيب أبو لهب

كان سلمان رجلاً مجداً فى حياته ، لا يعرف الكسل .. كان يكتسب لقمة عيشه بكد يمينه وعرق جبينه .. كان يأتى بـ « خوص » النخيل فيصنع منه المكاتل ويبيعها ، ويقسم الربح أقساماً ثلاثة : قسم يتصدق به على الفقراء والمساكين ، وقسم ينفق منه على أهله ونفسه ، وقسم يعمل فيه فى التجارة .

وقد صدق فيه قول رسول الله — ﷺ — : « إن الله يرضى لرضا سلمان ويغضب لغضبه ، وإن الجنة لتشتاق إلى سلمان أكثر من اشتياقه إليها »

رحمك الله يا سلمان ، وجزاك عن الاسلام خيراً ، يا من قال عنك الرسول — ﷺ — : « سلمان منا ، آل البيت » .

---

(١) انظر معجم الكبير للطبرانى ج ٦ ص ٢٦٠ — ٢٦٢ ، عن أخبار سلمان ووفاته ، حديث رقم ٦٠٤٠ من رواية كثير بن عبد الله المزنى قال فى مجمع ج ٦ ص [illegible] : فيه كثير بن عبد الله المزنى وقد ضعفه الجمهور ، وحسن الترمذى حديثه . وانظر تفسير القرطبى ، تفسير سورة الأحزاب ، ج [illegible] ص [illegible] فقد ورد الحديث مقطوعاً

هنيئاً لك ، ثم هنيئاً لك بهذا الشرف الذي رفعك إليه سيد الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه .

وخلاصة القول :

هذه نماذج كريمة لقوم جعل منهم الاسلام سادة وقادة .

لقد حاول الملأ من قريش أن يصرفوا نظر رسول الله — ﷺ — عن هؤلاء المستضعفين وقالوا له بلسان الكبرياء والصلف : إن أردتنا أن نؤمن بك ، فاطرد هؤلاء الصعاليك من حولك ، والله يشهد أنهم لكاذبون ، وأن قلوبهم قد ران عليها صدأ الجبروت والعناد

فماذا كان جواب الاسلام على افترائهم ؟

لقد مروا برسول الله — ﷺ — ذات يوم فوجدوه قد بسط رداءه لهؤلاء المستضعفين وخفض لهم جناحه ، لأن الله رد على هؤلاء المتكبرين بقوله : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً** ﴾[1] ، وقال أيضاً : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين** ﴾[2] . بل لقد كرمهم القرآن تكريماً دونه كل تكريم حيث قال تعالى : ﴿ **وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ، فقل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾[3] .

وكان السيد الجليل رسول الله — ﷺ — إذا لقيهم يقول : « مرحباً بمن أوصاني ربي بهم خيراً » .

---

(١) سورة الكهف الآية ٢٨

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٢

(٣) سورة الأنعام الآية ٥٤

الصيام

قوله تعالى: ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ﴾.

وهكذا ينتقل بنا النظم الكريم إلى نوع آخر من الكفارات وهو صيام شهرين متتابعين. وهنا لابد لنا أن نعلم أن كفارة الظهار في الصيام مثل كفارة من جامع زوجته في نهار رمضان، ومثل كفارة القتل الخطأ والتي قال الله فيها: ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً ﴾[1].

أما كفارة اليمين المنعقدة فقد قال فيها الله ـــ تعالى ـــ: ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾[2].

ومن ثم، فإننا نرى أن نبسط القول عن الصيام وأقسامه حتى نعطي صورة واضحة تقنع المسلم فنقول وبالله التوفيق.

ما من شك في أن الصيام طبيب للأبدان، ولقد عجبت لسائل قال للإمام الباقلاني صاحب إعجاز القرآن قال له السائل: إن كتابكم خلا من الطب، فقال له الامام على الفور: بل إن كتابنا جمع الطب في نصف آية. قال: اقرأها، قال الامام: ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾[3]. فبهت الذي كفر.

والناظر في كتاب الله ـــ تعالى ـــ يجده قد احتوى على الطب النفساني. قال تعالى: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾[4].

كذلك احتوى على الطب الاجتماعي. قال تعالى: ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[5].

واحتوى على الصحة الوقائية. قال جل شأنه: ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم .. ﴾[6].

---

(١) سورة النساء الآية ٩٢
(٢) سورة المائدة الآية ٨٩
(٣) سورة الأعراف الآية ٣١
(٤) سورة الزمر الآية ٥٣
(٥) سورة الروم الآية ٢١
(٦) سورة المائدة الآية ٣

... واحتوى كذلك على الصحة الغذائية ، قال جل شأنه : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾[١] . هذا هو القرآن فى كماله وجماله وبهائه .

أما عن الصيام وماله من روعة وجلال ، فإنه أستاذ فى بناء النفوس على الخلق الكريم ، ولن نجنح هنا فى سبحات الخيال وآفاقه الشاسعة ، إنما تكفينا كلمة واحدة عقب بها المولى — تبارك اسمه — على الصيام وهى « لعلكم تتقون » بعدما قال سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم** ﴾[٢] ، وكلمة لعل تفيد الترجى ، وهو توقع حدوث الأمر المحبوب ، ولكن الترجى الذى يفيد التوقع لا يليق بذات الله لأن التوقع يفيد الجهل ، بالمستقبل والله — جل شأنه — علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . إذن فلابد أن يكون المعنى هنا غير الترجى ، وعلى هذا فإنها — أى لعل — تفيد العلة والحكمة والغاية والهدف ، أى كتبنا عليكم الصيام لتتقوا . فما هى التقوى ؟ وأين مكانها ؟ يجيب على هذا السؤال الامام على — رضى الله عنه — فيقول :

التقوى : هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

أما مكانها ، فقد ورد فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **التقوى ها هنا — مشيراً إلى صدره الشريف** »[٣] إذن فهناك مناسبة كبرى وطيدة بين الصيام والإيمان والتقوى ، فالإيمان **تصديق بالقلب . قال - بعض السلف - : « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل »** ، **وتقول آيات الكتاب العزيز : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ﴾[٤] ، ﴿ وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾[٥]** .

والصيام عبادة سرية لا يطلع عليها الاعلام الغيوب . فقد تستطيع أن تأكل ملء بطنك وتشرب من الماء ما شئت ثم تخرج على الناس فى نهار رمضان تشكو شدة الظمأ ولوعة الجوع ، وأنت لا تدرى أن الله مطلع على ما تقول :

---

(١) سورة البقرة لآية ٢٣٢

(٢) سورة البقرة لآية ١٨٣

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب ؛ باب « تحريم ظلم المسلم .. » الخ ج ٤ ص ١٩٨٦ حديث رقم ٣٢ / ٢٥٦٤ عن أبى هريرة من حديث طويل جاء فيه : « التقوى ههنا » .

(٤) سورة المجادلة لآية ٢٢

(٥) سورة النحل لآية ١٠٦

الله يـدرى كل مـا تضمـر يعلـم مـا تخفـى ومـا تظهـر
وإن خـدعت النـاس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

نعم الصيام عبادة سرية لذلك نسبها الله إليه : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به »[1] .

فإذا كان الإيمان محله القلب ، وإذا كان الصيام عبادة سرية ، وإذا كانت التقوى محلها القلب ، فإن القضايا التى ورد ذكرها فى الآية الكريمة كلها سرية لا يعلمها ولا يطلع عليها إلا الله . ومن ثم كان الصيام وسط بين الإيمان والتقوى ، لأن الإيمان يؤدى إلى الطاعة ، والطاعة تؤدى إلى التقوى . فهذا تسلسل منطقى قرآنى رائع ، إذ القرآن لفظ حامل ومعنى به قائم ، ورباط بينهما ناظم ، وعندما لا يؤدى الصيام إلى التقوى ، يكون هذا خداع عجيب :

تعصى الإلـه وأنت تظهـر حبـه هـذا لعمرى فى القيـاس بديـع
لـو كان حبك صادقـاً لأطعتـه إن المحب لمن يحب مطيـع

لقد كان تركيز الإسلام دائماً فى تربية النفوس على تكوين وازع من داخل النفس يجعلها تخشى الله ، ومن ثم كانت إجابة المصطفى — صلوات ربى وسلامه عليه — شافية كافية واضية عندما قال له جبريل : أخبرنى عن الإحسان ، كانت الإجابة : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[2] . هذا ما يسميه الفلاسفة الضمير ، ونحن نسميه بالوازع الداخلى الذى لا يهيمن عليه إلا علام الغيوب ، ولا يربى هذا الوازع إلا الإيمان والصيام والتقوى . فالنفس بطبيعتها إن لم يكن رقيبها من داخلها فلن تنضبط أبداً . ﴿ **ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم** ﴾[3] .

هذا الوازع الداخلى هو الذى جعل الزوجة الصالحة فى صدر الإسلام تقول لزوجها وهو يستقبل

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل الصيام » ج ٢ ص ٨٠٧ حديث رقم ١٦٣ / ١١٥١ قد ورد هذا ضمن حديث طويل لأبى هريرة .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « بيان الإيمان والإسلام والإحسان .. الخ » ج ١ ص ٣٦ - ٣٧ حديث رقم ٨ قد ورد هذا ضمن حديث طويل لعبد الله بن عمر .

(٣) سورة المجادلة الآية ٧

يومه سعياً وراء لقمة العيش : يا هذا اتق الله ولا تأكل حراماً إننا نستطيع أن نصبر على الجوع في الدنيا ولا نستطيع أن نصبر على عذاب النار يوم القيامة . فإذا عاد من عمله بادرته قائلة : كم نزل اليوم من القرآن وكم حفظت من حديث رسول الله .

إذا كان الصيام يؤدى إلى تقوى الله فإن التقوى هي السلاح الأقوى . قيل لرسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ : ما أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ قال : « تقوى الله وحسن الخلق » قيل : فما أكثر ما يدخل الناس النار ؟ قال : « **البطن والفرج** »[(1)] .

ولذا ورد في الحديث الشريف : « من أصبح وهمه تقوى الله وقاه الله هم الدنيا والآخرة » .

إن هذا السلاح القوى هو الذى جعل راعى الغنم ينال جائزة الدولة التقديرية من أمير المؤمنين عمر ، وهو يتفقد حال الرعية . قال لراعى الغنم : يا غلام ، أعطنا غنمة نتغذى بها . فقال له الغلام : إنها ملك سيدى . قال له أمير المؤمنين ــ والراعى لا يدرى من المتحدث ــ : نشتريها منك ونثر أمامه شيئاً من الدنانير والدراهم ، بالدنانير بريقها الذى يسيل لها لعاب المرضى ، وللدراهم رنينها الذى تنخلع له قلوب ضعفاء الإيمان . قال الراعى : وإذا سألنى سيدى عنها فماذا أقول له ؟ قال له عمر : قل له أكلها الذئب ، فانتفض الراعى انتفاضة العصفور إذا بلله ماء المطر وقال له : يا هذا ، وإذا كذبت على سيدى الأصغر فأين الله ؟ أين الله ؟ أين الله ؟

ولم يستطع عمر بعد ذلك أن يتكلم فقد انعقد لسانه بعد ما شعر بقشعريرة تنتاب بدنه وكأنه يقف فى وهدة سحيقة ويطل بناظريه إلى قمة شماء تنخلع الرقاب عند ذراها ، وانطلق إلى سيد الغلام واشترى منه الغنم كلها والعبد فأعتق العبد ووهبه الغنم وقال أنقذته كلمته هذه من رق الدنيا وأرجو أن تنقذه من عذاب النار يوم القيامة .

---

(1) الترغيب والترهيب « كتاب الأدب » الترغيب فى الخلق الحسن وفضله .. الخ » ج ٣ ص ٤٠٣ فقد ورد الحديث رقم ٤ من رواية لأبى هريرة . وقال : رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح غريب .
وانظر سنن الترمذى « أبواب البر والصلة » باب ما جاء فى حسن الخلق ج ٣ ص ٢٤٥ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة رقم ٢٠٧٢ .

لولا أن هناك فى النفس وازع يراقب الله فى تصرفاته ، ما كان هناك شيء يجدى ، فالأجهزة بمختلف أشكالها وألوانها لا تستطيع أن تديم المراقبة إذ تعتريها فترات غفلة وركود ، أما الذى لا يغفل ولا ينام صاحب المملكة الدائمة والعظمة القائمة فكل شيء قائم به وكل شيء خاشع له ، عز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه ، سبحانه علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر ، فأى رتبة فى الدنيا تنال من القوة مثلما للتقوى من قوة . ومن هنا فقد قال الرسول ـ ﷺ ـ : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »[1] .

إن التقوى هى الركيزة الحقيقية للأخلاق .

النفس تجزع أن تكون فقيرة ... والفقر خير من غنى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت ... فجميع ما فى الأرض لا يكفيها

وقف الامام على ـ رضى الله عنه ـ ذات يوم بين المقابر ومعه بعض الأصحاب . ونادى على الأموات : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون وإنا ان شاء الله بكم لاحقون . أما أموالكم فقد قسمت ، وأما دياركم فقد سكنت . وأما نساؤكم فقد تزوجن بغيركم ، هذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ ثم نظر إلى أصحابه وقال : والله لو شاء الله لهم أن يتكلموا لقالوا : إن خير زاد التقوى صدقت يا أمير المؤمنين .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى ... تقلب عرياناً ولو كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير ... فيمن كان لله عاصياً

إن الله تعالى : أعد للمتقين جنة عرضها السموات والأرض ، ثم وصفهم بصفات لا تسامى ولا يلحق بها ولا يشق لها غبار ، قال ـ جل شأنه ـ : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾[2] .

---

(١) الترغيب والترهيب « كتاب الأدب « الترغيب فى الخلق الحسن وفضله .. الخ » ج ٣ ص ٤٠٩ حديث رقم ٣٠ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى ذر ـ رضى الله عنه ـ رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .
وانظر سنن الترمذى « أبواب البر والصلة « باب » ماجاء فى معاشرة الناس » ج ٣ ص ٢٢٩ حديث رقم ٢٠٥٣ من رواية لأبى هريرة .
(٢) سورة آل عمران الآيات ١٣٣ ـ ١٣٤

إن هذه الآيات تنزل على قلوب الطائعين كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى.

كان للمأمون بن هارون الرشيد خادم يصب له الماء فوقع الإبريق من يديه في الطست فطار الرشاش على وجه الأمير فاشتد غضبه وانتفخت أوداجه فنظر إليه الخادم في هدوء وسكينة وقال له: يا سيدي، أو ما قرأت قوله تعالى: ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ قال الأمير: كظمت غيظي، قال الخادم: ﴿ والعافين عن الناس ﴾ قال الأمير: عفوت عنك، قال الخادم: ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ قال الأمير: اذهب فأنت حر لوجه الله ولك مني ألف درهم فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحول القلوب من ثورة الغضب إلى رحاب السكينة إنها صفة من صفات التقوى.

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها	فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غداً رضوان خازنها	والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها	والزعفران حشيش نابت فيها

تباركت ربنا وتعاليت، ولك الحكمة البالغة عندما أمرتنا بالصيام، وجعلته فريضة على أمة الاسلام، وجعلت الغرض منه والهدف الأعلى تقوى، وجعلت التقوى خوفاً من الجليل وعملاً بالتنزيل، ورضاً بالقليل، واستعداداً ليوم الرحيل، وصدق سولك الكريم إذ أشار إلى صدره مبيناً مكان التقوى. فيا أمة الاسلام، لا تجعلوا الصيام إمساك عن شهوتي البطن والفرج فحسب. إنه بهذا المعنى جسد بلا روح، وشمس بلا ضوء، وقمر بلا نور، إنما حقيقة الصيام أن تصوم جوارحكم عما يغضب الله مع إمساك الجسد عن الأكل والشرب والشهوة. فرب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر والله — تعالى — يوفقنا لما فيه رضاه.

قال الفقهاء

الصيام يطلق على الإمساك. قال الله تعالى: ﴿ إني نذرت للرحمن صوماً ﴾[1] أي: إمساكاً عن الكلام.

والمقصود به هنا: الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النية.

(١) سورة مريم الآية ٢٦

فضله :

١ – عن أبي هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : قال الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى [إضافته إلى الله إضافة تشريف] ، وأنا أجزى به .

هذا الحديث بعضه قدسى وبعضه نبوى ، فالنبوى من قوله : « والصيام جنة إلى آخر الحديث » ، والصيام جُنة [مانع من المعاصى] فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث [الرفث : هو الفحش فى القول] ولا يصخب [لا يصيح] ، ولا يجهل [أى : لا يسفه] ، فإن شاتمه أحد أو قاتله فيقل إنى صائم مرتين ، والذى نفس محمد بيده خلوف [الخلوف تغير رائحة الفم بسبب الصوم] فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك ، « وللصائم فرحتان يفرحهما : إذا نظر فرح بفطره ، وإذا لقى ربه فرح بصومه »[١] رواه أحمد ومسلم والنسائى .

٢ – ورواية البخارى وأبى داود : « الصيام جُنة ، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، فإن إمرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إنى صائم مرتين ، والذى نفس محمد بيده ، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى ، الصيام لى وأنا أجزى به ، والحسنة بعشر أمثالها »[٢] .

٣ – وعن عبد الله بن عمرو ، أن النبى – ﷺ – قال : « الصيام والقرآن يشفعان لعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى [حرف نداء بمعنى « يا » ؛ أى : يارب] رب منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعنى فيه . ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيه ، فيشفعان [أى : تقبل شفاعتهما][٣] رواه أحمد بسند صحيح .

٤ – وعن أبى أمامة قال : أتيت رسول الله – ﷺ – فقلت : مرنى بعمل يدخلنى الجنة . قال : « عليك بالصوم فإنه لا عدل له [أى : لا مثل له] ، ثم أتيته الثانية ، فقال : « عليك بالصيام »[٤] . رواه أحمد والنسائى والحاكم وصححه .

---

(١) انظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب ، فضل الصيام ، ج ١ ص ٨٠٧ ، حديث رقم ١٦٣ / ١١٥١ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

وانظر صحيح البخارى ، كتاب الصوم ، باب ، هل يقول إنى صائم ، ج ١ ص ٣١٠ فقد الحديث عن أبى هريرة .

(٢) انظر صحيح البخارى ، كتاب الصوم ، باب ، فضل الصوم ، ج ١ ص ٣٠٤ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة مع الاختلاف فى بعض ألفاظه .

(٣) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم ، كتاب فضائل القرآن ، ج ١ ص ٥٥٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمرو ، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وانظر الترغيب والترهيب ، كتاب الصوم ، باب ، الترغيب فى الصوم مطلقا ، وما جاء فى فضله وفضل دعاء الصائم ، ج ٢ ص ٨٤ حديث رقم ١٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمر

٥ ــ وعن أبي سعيد الخدرى[١] رضى الله عنه ــ أن النبي ــ ﷺ ــ قال : « لا يصوم عبد يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم النار عن وجهه سبعين خريفاً »[٢] رواه الجماعة إلا وأبو داود

٦ ــ وعن سهل بن سعد أن النبي ــ ﷺ ــ قال : « إن للجنة باباً يقال له الريان . يقال يوم القيامة : أين الصائمون ؟ فإذا دخل آخرهم أغلق ذلك الباب »[٣] رواه البخارى ومسلم .

أقسامه

قال الفقهاء : ينقسم الصيام إلى قسمين : فرض وتطوع . أما الفرض فينقسم إلى أربعة أقسام : رمضان ، وقضاؤه ، والنذر ، والكفارات ولما تحدثنا عن أنواع الكفارات وقلنا : إن الكفارة إما أن تكون كفارة ظهار ، أو جماع في نهار رمضان ، أو قتل خطأ ، أو يمين منعقدة . لما كان ذلك كذلك ، فسوف نفصل الكلام هنا عن صيام رمضان لكونه أحد الأركان التى بنى عليها الإسلام . ثم بعد ذلك نفصل القول في صيام التطوع . فنقول وبالله التوفيق :

صوم رمضان

حكمه : ــ

صوم رمضان واجب بالكتاب والسنة والإجماع . فأما الكتاب : فقول الله ــ تعالى ــ : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب[٤] عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾[٥] ، وقال : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد[٦] منكم الشهر فليصمه** ﴾[٧] .

---

(١) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم ، كتاب الصوم ، ج ١ ص ٤٢١ فقد ورد الحديث من رواية لأبى أمامة . وانظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٢٤٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبى أمامة .

(٢) انظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب ، فضل الصيام في سبيل الله .. الخ ، ج ٢ ص ٨٠٨ حديث ١٦٧ / ١١٥٣ فقد ورد الحديث عن أبى سعيد الخدرى بلفظه : قال رسول الله ــ ﷺ ــ « ما من عبد يصوم يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً» وانظر الحديث رقم ١٦٨ بعده .

وانظر سنن ابن ماجه ، كتاب الصيام ، باب في ، صيام يوم في سبيل الله ، ج ١ ص ٥٤٧ ، ٥٤٨ حديث ١٧١٧ عن أبى سعيد الخدرى .

(٣) انظر صحيح البخارى ، كتاب الصوم ، باب ، الريان للصائمين ، ج ١ ص ٣٢٤ فقد ورد الحديث من رواية لسهل بن سعد مع اختلاف في بعض ألفاظه .

(٤) كتب : فرض

(٥) سورة البقرة الآية ١٨٣

(٦) شهد : حضر

(٧) سورة البقرة الآية ١٨٥

وأما السنة : فقول النبي — ﷺ — : « بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ، وإقام الصلاه وإيعاء الزكاة ، وصيام رمضان وحج البيت »(١) .

وفي حديث طلحة بن عبيد الله : أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أخبرني عما فرض الله عليَّ من الصيام ؟ قال : « شهر رمضان » .
قال هل عليَّ غيره ؟ قال : « لا . إلا أن تطوَّع »(٢) .

وأجمعت الأمة : على وجوب صيام رمضان . وأنه أحد أركان الإسلام التي عُلمت من الدين بالضرورة ، وأن منكره كافر مرتد عن الاسلام . وكانت فرضيته يوم الاثنين ، لليلتين خلتا من شعبان من السنة الثانية من الهجرة .

فضل شهر رمضان وفضل العمل فيه

١ — عن أبي هريرة أن النبي — ﷺ — قال : لما حضر رمضان « قد جاءكم شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبوابُ الجنة وتغلق فيه أبواب الجحيم وتغلّ فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر . من حرم خيرها فقد حرم »(٣) رواه أحمد والنسائي والبيهقي .

٢ — وعن عرفجة قال : كنت عند عتبة بن فرقد وهو يحدث عن رمضان قال : فدخل علينا رجل من أصحاب محمد — ﷺ — ، فلما رآه عتبة هابه فسكت . قال : فحدث عن رمضان . قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « في رمضان تغلق فيه أبواب النار وتفتح فيه أبواب الجنة ، وتصفد فيه الشياطين . قال : وينادي فيه ملك : يا باغي الخير أبشر ، ويا باغي الشر أقصر ، حتى ينقضي رمضان »(٤) . رواه أحمد والنسائي وسنده جيد .

٣ — وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر »(٥) رواه مسلم .

---

(١) انظر صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب « دعاؤكم إيمانكم » ج ١ ص ١١ فقد ورد الحديث من رواية ابن عمر — رضي الله عنهما — بلفظ « بني الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » .

(٢) انظر صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب « وجوب صوم رمضان » .

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٨٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .

(٤) انظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٣١٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن عرفجة .

(٥) انظر صحيح مسلم ، كتاب الطهارة ، باب « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة .. الخ » ج ١ ص ٢٠٩ حديث رقم ١٦ ٢٣٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة .

٤ ـ وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ـ ﷺ ـ قال : من صام رمضان وعرف حدوده وتحفظ مما كان ينبغي أن يتحفظ منه ، كفر ما قبله »[1] . رواه أحمد والبيهقي بسند جيد .

٥ ـ وعن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً (طالباً وجه الله وثوابه) غفر له ما تقدم من ذنبه »[2] رواه أحمد وأصحاب السنن .

الترهيب من الفطر في رمضان

١ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « عُرى الاسلام وقواعد الدين ثلاثة عليهن أُسس الاسلام ، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم : شهادة أن لا إله إلا الله ، والصلاة المكتوبة ، وصوم رمضان »[3] رواه أبو يعلى والديلمي وصححه الذهبي .

٢ ـ وعن أبي هريرة : أن النبي ـ ﷺ ـ قال : « من أفطر يوماً من رمضان في غير رخصة رخصها الله له ، لم يقض عنه صيام الدهر كله وإن صامه »[4] رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي . وقال البخاري : ويذكر عن أبي هريرة رفعه : « من أفطر يوماً من رمضان من غير عذر ولا مرض لم يقضه صوم الدهر وإن صامه »[5] وبه قال ابن مسعود .

قال الذهبي : وعند المؤمنين مقرر أن من ترك صوم رمضان بلا مرض : أنه شر من الزاني ومدمن الخمر ، بل يشكّون في إسلامه ويظنون به الزندقة والانحلال » .

أركان الصوم

للصيام ركنان تتركب منهما حقيقته :

١ ـ الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٥٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي سعيد الخدري .

(٢) انظر صحيح البخاري ، كتاب الصيام ، باب ، فضل ليلة القدر ، ج ١ ص ٣٤٣ فقد ورد الحديث من رواية أبي هريرة وزاد « ... ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » وانظر ص ٢٢٥ باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً .

(٣) انظر الترغيب والترهيب ، كتاب الصوم ، باب ، الترهيب من إفطار شيء من رمضان من غير عذر ، ج ٢ ص ١٠١ ـ ١٠٢ حديث رقم ٢ فقد ورد بلفظه من رواية لابن عباس .

(٤) انظر سنن ابن ماجه ، كتاب الصيام ، باب ما جاء ، في كفارة من أفطر يوماً من رمضان ، ج ١ ص ٥٣٥ حديث ١٦٧٢ فقد ورد عن أبي هريرة ولفظه : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ، لم يجزه صيام الدهر كله » .

(٥) انظر صحيح البخاري ، كتاب الصيام ، باب ، إذا جامع في رمضان ، ج ١ ص ٣٣١ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة .

لقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾[1] .

والمراد بالخيط الأبيض والخيط الأسود بياض النهار وسواد الليل .

لما رواه البخارى ومسلم : أن عدى بن حاتم قال : لما نزلت : (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) عمدت إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتى ، فجعلت أنظر فى الليل فلا يستبين لى ، فغدوت على رسول الله ـ ﷺ ـ فذكرت له ذلك فقال : « إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار »[2] .

٢ ـ النية . لقوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾[3] .

وقوله ـ ﷺ ـ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل إمرىء ما نوى »[4] ولابد أن تكون قبل الفجر ، من كل ليلة من ليالى شهر رمضان .

لحديث حفصة قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من لم يجمع (جمع من الإجماع ، وهو إحكام النية والعزيمة) الصيام قبل الفجر فلا صيام له »[5] رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه ابن خزيمة وابن حبان .

وتصح فى أى جزء من أجزاء الليل ، ولا يشترط التلفظ بها فإنها عمل قلبى لا دخل للسان فيه ، فإن حقيقتها القصد إلى الفعل امتثالاً لأمر الله ـ تعالى ـ وطلباً لوجهه الكريم .

فمن تسحّر بالليل قاصداً الصيام تقرباً إلى الله بهذا الإمساك فهو ناو .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٧

(٢) انظر صحيح البخارى : كتاب الصيام : باب قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ... الخ » ج ١ ص ٣٢٨ فقد ورد الحديث عن رواية لعدى ابن حاتم .

(٣) سورة البينة الآية

(٤) انظر صحيح البخارى : كتاب بدء الوحى ، ج ١ ص ٥ ، ٦ فقد ورد الحديث من رواية لعمر بن الخطاب .

(٥) انظر سنن ابن ماجه : كتاب الصيام : باب ما جاء « فى فرض الصوم من الليل ... الخ » ج ١ ص ٥٤٢ فقد الحديث رقم ١٧٠٠ عن حفصة بلفظ : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لا صيام لمن لم يفرضه من الليل » ومعنى « يفرضه » : لم ينوه .

ومن عزم على الكف عن المفطرات أثناء النهار مخلصاً لله فهو ناوٍ كذلك وإن لم يتسحر ، وقال كثير من الفقهاء : إن نية صيام التطوع تجزئ من النهار إن لم يكن قد طعم .

قالت عائشة : دخل على النبي ـ ﷺ ـ ذات يوم فقال : « هل عندكم شيء ؟ قلنا : لا . قال : فإنى صائم »[1] رواه مسلم وأبو داود . واشترط الأحناف أن تقع النية قبل الزوال ، وهذا هو المشهور من قول ـ الشافعي ، وظاهر قولى ابن مسعود وأحمد : أنها تجزئه قبل الزوال وبعده على السواء .

على من يجب

اجمع لعلماء : على انه يجب الصيام على المسلم العاقل البالغ الصحيح المقيم ، ويجب أن تكون المراة طاهرة من الحيض والنفاس .

فلا صيام على كافر ولا مجنون ولا صبى ولا مريض ولا مسافر ولا حائض ولا نفساء ولا شيخ كبير ولا حامل ولا مرضع .

وبعض هؤلاء لا صيام عليهم مطلقاً ، كالكافر والمجنون ، وبعضهم يطلب من وليّه أن يأمره بالصيام ، وبعضهم يجب عليه الفطر والقضاء ، وبعضهم يرخص لهم فى الفطر وتجب عليه الفدية ، وهذا بيان كل على حدة :

صيام الكافر والمجنون : ــ

الصيام عبادة إسلامية ، فلا تجب على غير المسلمين ، والمجنون غير مكلف ، لأنه مسلوب العقل الذى هو مناط التكاليف ، وفى حديث على رضى الله عنه : أن النبى ﷺ قال : « رُفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم »[2] رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب جواز صوم النافلة بنية من النهار ... الخ ج ٢ ص ٨٠٩ حديث رقم ١٧٠ / ١١٥٤ فقد ورد من حديث طويل لعائشة ، وانظر الحديث قبله ١٦٩ / ١١٥٤ لعائشة أيضا .

(٢) انظر سنن أبى داود « كتاب الحدود » باب فى المجنون يسرق أو يصيب حداً ج ٤ ص ٥٥٩ فقد ورد الحديث رقم ٤٤٠١ من رواية على .

صيام الصبي :

والصبي ، وإن كان الصيام غير واجب عليه ، إلا أنه ينبغي لولي أمره أن يأمره به ليعتاده من الصغر مادام مستطيعاً له وقادراً عليه .

فعن الربيع بنت معوذ قالت : أرسل رسول الله — ﷺ — صبيحة عاشوراء — إلى قرى الأنصار : من كان أصبح صائماً فليتم صومه ، ومن كان أصبح مفطراً فليصم بقية يومه ، فكنا نصومه بعد ذلك ، ونصوّم صبياننا الصغار منهم ، ونذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللعبة من العهن (الصوف) فإذا بكى أحدهم من الطعام أعطيناه إياه ، حتى يكون عند الإفطار »[1] رواه البخاري ومسلم .

● **من يرخص لهم في الفطر وتجب عليهم الفدية : —**

يرخص الفطر للشيخ الكبير ، والمرأة العجوز ، والمريض الذي لا يرجى برؤه وأصحاب الأعمال الشاقة الذين لا يجدون متسعاً من الرزق غير ما يزاولونه من أعمال هؤلاء جميعاً يرخص لهم الفطر إذا كان الصيام يجهدهم يشق عليهم مشقة شديدة في جميع فصول السنة .

عليهم أن يطعموا عن كل يوم مسكيناً ، وقدر ذلك بقدر صاع (قدح وثلث) أو نصف صاع أو مد ، على خلاف في ذلك ولم يأت من السنة ما يدل على التقدير .

قال ابن عباس : « رخص الشيخ الكبير أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً ولا قضاء عليه »[2] رواه الدارقطني والحاكم وصححاه .

وروى البخاري عن عطاء : أنه سمع ابن عباس — رضي الله عنهما — يقرأ : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾[3] قال ابن عباس ليست بمنسوخة وهي للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً (مذهب مالك وابن حزم أنه لا قضاء ولا فدية) .

---

(١) انظر صحيح البخاري ، كتاب الصيام ، باب صوم الصبيان ج ١ ص ٣٣٥ فقد ورد الحديث من رواية الربيع بنت معوذ . وانظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب من أكل في عاشوراء فليكف بقية يومه ج ٢ ص ٧٩٨ ، ٧٩٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية الربيع بنت معوذ برقم ١٣٦ / ١١٣٦ .

(٢) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم ، كتاب الصوم ، ج ١ ص ٤٤٠ فقد الحديث من رواية لابن عباس . وقال : هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه وفيه الدليل .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٤

والمريض الذى لا يرجى برؤه ويجهده الصوم مثل الشيخ الكبير. وكذلك العمال الذين يضطلعون بشاق الأعمال بصورة دائمة.

قال الشيخ محمد عبده: فالمراد بمن «يطيقونه» فى الآية الشيوخ الضعفاء والزمنى (المرضى مرضاً مزمناً لا يبرأ) ونحوهم، كالفعلة الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقة كاستخراج الفحم الحجرى من مناجمه.

ومنهم المجرمون الذين يحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة إذا شق الصيام عليهم بالفعل وكانوا يملكون الفدية.

والحبلى والمرضع إذا خافتا على أولادهما (ومعرفة ذلك بالتجربة أو بإخبار الطبيب الثقة أو بغلبة الظن) أفطرتا وعليهما الفدية ولا قضاء عليهما عند ابن عمر وابن عباس.

روى أبو داود عن عكرمة أن ابن عباس قال فى قوله تعالى: ﴿ وعلى الذين يطيقونه ﴾، كانت رخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة وهما يطيقان الصيام أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم مسكيناً، والحبلى والمرضع إذا خافتا «يعنى على أولادهما» أفطرتا وأطعمتا»[1] رواه البزار.

وزاد فى آخره: وكان ابن عباس يقول لأم ولد له حبلى: «أنت بمنزلة الذى لا يطيقه، فعليك الفداء ولا قضاء عليك»[2]. وصحح الدار قطنى إسناده. وعن نافع أن ابن عمر سئل عن المرأة الحامل إذا خافت على ولدها. فقال: تفطر وتطعم مكان كل يوم مسكيناً مداً (ربع قدح من قمح) من حنطة. رواه مالك والبيهقى.

وفى الحديث: «إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة، وعن الحبلى والمرضع الصوم»[3]

(١) انظر سنن أبى داود، كتاب الصوم، باب من قال: هى مثبتة للشيخ والحبلى ج ٤ ص ٧٣٨ فقد ورد الحديث ٢٣١٨ من رواية لسعيد بن جبير عن ابن عباس وهو موافق للحديث الذى معنا.

(٢) انظر مسند البيهقى، كتاب الصيام، باب الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما أفطرتا وتصدقتا عن كل يوم بد من حنطة ثم قضتا، ج ٤ ص ٢٣٠ فقد ورد الحديث عن نافع عن ابن عمر.

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٢٩ فقد ورد الحديث من رواية لأنس. وانظر ج ٤ ص ٣٤٧ من المرجع نفسه.

وعند الأحناف وأبي عبيد وأبي ثور : أنهما يقضيان فقط ، ولا إطعام عليهما . وعند أحمد والشافعي : أنهما إن خافتا على الولد فقط وأفطرتا فعليهما القضاء والفدية ، وإن خافتا على أنفسهما فقط ، أو على أنفسهما وعلى ولدهما فعليهما القضاء لا غير .

من يرخص لهم في الفطر ويجب عليهم القضاء :

يباح الفطر للمريض الذي يرجى برؤه والمسافر ويجب عليهما القضاء ، قال الله تعالى : ﴿ ومن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾[1] . وروى أحمد وأبو داود والبيهقي بسند صحيح من حديث معاذ . قال : إن الله — تعالى — فرض على النبي — ﷺ — الصيام . فأنزل : ﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ . إلى قوله : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ ، فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكيناً ، فأجزأ ذلك عنه . ثم إن الله تعالى أنزل الآية الأخرى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ إلى قوله : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ . فأثبت صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر . وأثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام .

والمرض المبيح للفطر هو المرض الشديد الذي يزيد بالصوم ، أو يخشى تأخر برئه (يعرف ذلك ، إما بالتجربة أو بإخبار الطبيب الثقة أو بغلبة الظن) .

قال في المغني : وحكي عن بعض السلف أنه أباح الفطر بكل مرض حتى من وجع الإصبع والضرس : لعموم الآية فيه ، ولأن المسافر يباح له الفطر وإن لم يحتج إليه ، فكذلك المريض . وهذا مذهب البخاري وعطاء وأهل الظاهر . والصحيح الذي يخاف المرض بالصيام يفطر مثل المريض ، وكذلك من غلبه الجوع أو العطش فخاف الهلاك لزمه الفطر وإن كان صحيحاً مقيماً وعليه القضاء . قال الله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ﴾[2] .

---

(1) سورة البقرة الآية ١٨٤ .
(2) سورة النساء الآية ٢٩

وقال تعالى : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾[1] .

وإذا صام المريض وتحمل المشقة صح صومه ، إلا أنه يكره له ذلك لإعراضه عن الرخصة التى يحبها الله وقد يلحقه بذلك ضرر .

وقد كان بعض الصحابة يصوم على عهد رسول الله — ﷺ — وبعضهم يفطر متابعين فى ذلك فتوى الرسول — ﷺ — .

قال حمزة الأسلمى : يا رسول الله ، أجد منى قوة على الصوم فى السفر . فهل علىَّ جناح ؟ فقال : « هى رخصة من الله — تعالى — فمن أخذ بها فحسن ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه »[2] رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سافرنا مع رسول الله — ﷺ — إلى مكة ونحن صيام . قال : فنزلنا منزلاً ، فقال رسول الله — ﷺ — : « إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم ، فكانت رخصة فمنا من صام ومنا من أفطر ، ثم نزلنا منزلاً آخر فقال : إنكم مصبحو عدوكم ، والفطر أقوى لكم فافطروا ، فكانت عزمة ، فأفطرنا ، ثم رأيتنا بعد ذلك نصوم مع رسول الله — ﷺ — فى السفر »[3] رواه أحمد ومسلم وأبو داوود .

وعن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — قال : — « كنا نغزو مع رسول الله — ﷺ — فى رمضان فمنا الصائم ومنا المفطر ، فلا يجد الصائم على المفطر (أى لا يعيب عليه) ولا المفطر على الصائم ، يرون أن من وجد قوة فصام فإن ذلك حسن ، ويرون أن من وجد ضعفاً فأفطر ، فإن ذلك حسن »[4] رواه أحمد ومسلم .

---

(1) سورة الحج الآية ٧٨

(2) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام « باب التخيير فى الصوم والفطر فى السفر » ج ٢ ص ٧٩٠ الحديث رقم ١٠٧ / ١١٢١ فقد ورد الحديث عن حمزة بن عمرو الأسلمى .

(3) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « أجر المفطر فى الصوم إذا تولى العمل » ج ٢ ص ٧٨٩ فقد ورد الحديث برقم ١٠٢ / ١١٢٠ من رواية أبى سعيد الخدرى .

(4) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « جواز الصوم والفطر فى شهر رمضان للمسافر .. الخ » ج ٢ ص ٧٨٧ فقد ورد الحديث رقم ٩٦ / ١١١٦ من رواية أبى سعيد الخدرى .

وقد اختلف الفقهاء في أيهما أفضل ؟..

فرأى أبو حنيفة والشافعي ومالك : أن الصيام أفضل لمن قوى عليه ، والفطر أفضل لمن لا يقوى على الصيام :

وقال أحمد : الفطر أفضل .

وقال عمر بن عبد العزيز : أفضلهما أيسرهما ، فمن يسهل عليه حينئذ ، ويشق عليه قضاؤه بعد ذلك ، فالصوم في حقه أفضل .

وحقق الشوكاني فرأى أن من كان يشق عليه الصوم ، ويضره ، وكذلك من كان معرضاً عن قبول الرخصة فالفطر أفضل ، وكذلك من خاف على نفسه العُجْبَ أو الرياء إذ صام في السفر فالفطر في حقه أفضل .

وما كان من الصيام خالياً عن هذه الأمور فهو أفضل من الإفطار . وإذا نوى المسافر الصيام بالليل وشرع فيه جاز له الفطر أثناء النهار .

فعن جابر بن عبد الله — رضى الله عنه — : « أن رسول الله — ﷺ — خرج إلى مكة عام الفتح فصام حتى بلغ كراع الغميم (اسم واد أمام عسفان) وصام الناس معه . فقيل له : إن الناس قد شق عليهم الصيام ، وإن الناس ينظرون فيما فعلت . فدعا بقدح من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون إليه . فأفطر بعضهم وصام بعضهم ، فبلغه أن ناساً صاموا . فقال : أولئك العصاة » . (لأنه عزم عليهم فأبوا وخالفوا الرخصة)[1] رواه مسلم والنسائي والترمذي وصححه .

وأما إذا نوى الصوم وهو مقيم ثم سافر أثناء النهار فقد ذهب جمهور العلماء إلى عدم جواز الفطر له . وأجازه أحمد وإسحاق .

كما رواه الترمذي وحسنه عن محمد بن كعب قال : أتيت في رمضان أنس بن مالك وهو يريد سفراً ، وقد رُحِّلت له راحلته ولبس ثياب السفر فدعا بطعام فأكل . فقلت له : سُنَّة ؟ فقال : سنة . ثم ركب .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام ، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية .. الخ ، ج ٢ ص ٧٨٥ فقد ورد الحديث برقم ٩٠ / ١١١٤ من رواية جابر بن عبد الله .

وعن عبيد بن جبير قال : ركبت مع أبي بصرة الغفارى فى سفينة من الفسطاط (مصر القديمة) فى رمضان، فدفع ثم قرب غداءه . ثم قال : اقترب ، فقلت ألست بين البيوت . فقال أبو بصرة : أرغبت عن سنة رسول الله ﷺ (استفهام إنكارى) ؟ رواه أحمد وأبو داوود ورجاله ثقات .

قال الشوكانى : والحديثان يدلان على أن للمسافر أن يفطر قبل خروجه من الموضع الذى أراد السفر منه .

وقال ابن العربى : وأما حديث أنس فصحيح يقتضى جواز الفطر مع أهبة السفر ، وقال : وهذا هو الحق .

والسفر المبيح للفطر : هو السفر الذى تقصر الصلاة بسببه ، ومدة الإقامة التى يجوز للمسافر أن يفطر فيها هى المدة التى يجوز له أن يقصر الصلاة فيها .

وقد روى أحمد وأبو داوود والبيهقى والطحاوى عن منصور الكلبى : أن دحية بن خليفة خرج من قرية من دمشق مرّة إلى قدر عقبة (أى أن المسافة التى قطعها من القرية التى خرج منها تعدل المسافة التى بين مصر القديمة وميت عقبة المجاورة لإمبابة وقدرت هذه المسافة بفرسخ) من الفسطاط فى رمضان ، ثم إنه أفطر وأفطر معه ناس ، وكره آخرون أن يفطروا .

فلما رجع إلى قريته قال : والله لقد رأيت اليوم أمراً ما كنت أظن أن أراه : إن قوماً رغبوا عن هدى رسول الله — ﷺ — وأصحابه . يقول ذلك للذين صاموا ، ثم قال عند ذلك : اللهم اقبضنى إليك .

من يجب عليه الفطر والقضاء معاً :

اتفق الفقهاء : على أنه يجب الفطر على الحائض والنفساء ويحرم عليهما الصيام ، وإذا صاما لا يصح صومهما ويقع باطلاً وعليهما قضاء ما فاتهما .

- روى البخارى ومسلم عن عائشة . قالت : كنا نحيض على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة »(١) .

الأيام المنهى عن صيامها

جاءت الأحاديث مصرحة بالنهى عن صيام أيام نبينها فيما يلى :

١ ـ النهى عن صيام يومى العيدين :

أجمع العلماء على تحريم صوم يومى العيدين ، سواء أكان الصوم فرضاً أو تطوعاً .

لقول عمر رضى الله عنه : « إن رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عن صيام هذين اليومين . أما يوم الفطر ، ففطركم من صومكم (أى الفطر من صيام رمضان) ، وأما يوم الأضحى ، فكلوا من نسككم (النسك : الأضاحى)(٢) رواه أحمد والأربعة .

٢ ـ النهى صوم أيام التشريق :

لا يجوز صيام الأيام الثلاثة التى تلى عيد النحر :

لما رواه أبو هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث عبد الله بن حذافة يطوف فى منى . « أن لا تصوموا هذه الأيام ، فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل »(٣) رواه أحمد بإسناد جيد .

وروى الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : « أن رسول الله ـ ﷺ ـ

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الحيض » باب لاتقضى الحائض الصلاة ج ١ ص ٦٧ فقد ورد أن امرأة قالت لعائشة : أتجزى إحدانا صلاتها إذا طهرت . فقالت أحرورية أنت ؟ كنا نحيض مع النبى ـ ﷺ ـ فلا يأمرنا به أو قالت فلا نفعله « وانظر ص ٣٣٤ باب ترك الحائض الصوم والصلاة .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الحيض » باب « وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة » ج ١ ص ٢٦٤ حديث رقم ٦٩ ـ ٣٣٥ فقد ورد عن معاذة قالت : سألت عائشة فقلت : ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ فقالت : أحرورية أنت ؟ قلت : لست بحرورية : ولكنى أسأل . قالت : كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صوم يوم الفطر » ج ١ ص ٣٤٠ فقد ورد عن أبى عبيد مولى ابن أزهر قال : شهدت العيد مع عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال : هذان يومان نهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن صيامهما : يوم فطركم من صيامكم واليوم الآخر تأكلون فيه من نسككم .

وعن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ قال : نهى النبى ـ ﷺ ـ عن صوم يوم الفطر والنحر .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « النهى عن صوم يوم الفطر ويوم الأضحى » ج ٢ ص ٧٩٩ حديث ١٣٨ / ١١٣٢ .

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٥١٣ وقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

أرسل صائماً يصيح : « أن لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب والعل (جماع الرجل زوجته)»[1] .

وأجاز أصحاب الشافعي صيام أيام التشريق فيما له سبب من نذر أو كفارة أو قضاء .

أما ما لا سبب له فلا يجوز فيها بلا خلاف .

وجعلوا هذا نظير الصلاة التي ما سبب في الأوقات المنهي عن الصلاة فيها .

٣ ــ النهي عن صيام يوم الجمعة منفرداً :

يوم الجمعة عيد أسبوعي للمسلمين ، ولذلك نهى الشارع عن صيامه . وذهب الجمهور : إلى أن النهي للكراهة (وعن أبي حنيفة ومالك : لا يكره ، والأدلة المذكورة حجة عليهما) لا التحريم إلا إذا صام يوما قبله أو يوما بعده أو وافق عادة له أو كان يوم عرفة أو عاشوراء ، فإنه حينئذ لا يكره صيامه .

فعن عبد الله بن عمرو : « أن رسول الله ﷺ دخل على جويرية بنت الحارث وهي صائمة في يوم الجمعة فقال لها : أصمت أمس ؟ فقالت : لا . قال : أتريدين أن تصومي غداً ؟ قالت : لا . قال : فأفطري إذن »[2] . رواه أحمد والنسائي بسند جيد .

وعن عامر الأشعري قال : سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : « إن يوم الجمعة عيدكم فلا تصوموه إلا أن تصوموا قبله أو بعده »[3] .

وقال علي ــ رضي الله عنه ــ : من كان منكم متطوعاً فليصم يوم الخميس ولا يصم يوم الجمعة ، فإنه يوم طعام وشراب وذكر[4] . رواه ابن أبي شيبة بسند حسن وفي الصحيحين من حديث جابر رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « لا تصوموا يوم الجمعة إلا وقبله يوم أو بعده يوم » .

---

(١) انظر مجمع الزوائد ، كتاب الصيام « باب » نهي عن صيامه من أيام التشريق ونحوها » ج ٣ ص ٢٠٣ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

(٢) انظر صحيح البخاري « كتاب الصوم » باب « صوم يوم الجمعة » ج ١ ص ٣٤٠ فقد ورد الحديث من رواية لأبي أيوب عن جويرية بنت الحارث .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٠٣ فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة بلفظ « إن يوم الجمعة يوم عيد فلا تجعلوا يوم عيدكم يوم صيامكم إلا أن تصوموا قبله أو بعده » .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٤٩٥ فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة .

وفي لفظ لمسلم : ولا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام ، إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم »[1] .

٤ ـ النهي عن افراد يوم السبت بصيام :

عن بُسر السلمي عن أخته الصماء : أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « لا تصوموا يوم السبت إلا فيما افترض عليكم (ويشمل القضاء والنذور والنفل ، وإذا وافق عادته أو كان يوم عرفة ونحو ذلك) وإن لم يجد أحدكم إلا لحاء عنب (قشر عنب) أو عود شجرة فليمضغه » . رواه أحمد وأصحاب السنن والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، وحسنه الترمذي . وقال : ومعنى الكراهة في هذا أن يختص الرجل يوم السبت بصيام ، لأن اليهود يعظمون يوم السبت[2] .

وقالت أم سلمة : « كان النبي ـ ﷺ ـ يصوم يوم السبت ويوم الأحد أكثر مما يصوم من الأيام ، ويقول : إنهما عيدا المشركين ، فأنا أحب أن أخالفهم »[3] رواه أحمد والبيهقي والحاكم وابن خزيمة وصححاه .

ومذهب الأحناف والشافعية والحنابلة كراهة الصوم يوم السبت منفرداً لهذه الأدلة .

وخالف في ذلك مالك فجوّز صيامه منفرداً بلا كراهة ، والحديث حجة عليه .

٥ ـ النهي عن صوم يوم الشك : ـ

قال عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ : « من صام اليوم الذي شك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ » . رواه أصحاب السنن ، وقال الترمذي حديث حسن صحيح[4] . والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ، وبه يقول سفيان الثوري ومالك بن أنس وعبد الله بن المبارك والشافعي وأحمد واسحاق كرهوا أن يصوم الرجل اليوم الذي يشك فيه .

---

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب الصوم » باب « صوم يوم الجمعة » ج ١ ص ٣٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة بلفظ « لا يصومن أحدكم يوم الجمعة إلا يوما قبله أو بعده » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « كراهة صيام يوم الجمعة منفرداً » فقد الحديث بلفظه من رواية أبي هريرة برقم ١٤٨ / ١١٤٣ ج ٢ ص ٨٠١ .

(٢) سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء في صيام يوم السبت » ج ١ ص ٥٥٠ حديث رقم ١٧٢٦ من رواية لعبد الله ابن بسر بلفظ « لا تصوموا يوم السبت إلا فيما افترض عليكم ، فإن لم يجد أحدكم إلا عود عنب أو لحاء شجرة فليمصه » وفي رواية أخرى عن عبد الله بن بسر عن أخته بلفظه .

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٣٢٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن أم سلمة .

(٤) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء في صيام يوم الشك » ج ١ ص ٥٢٧ حديث ١٦٤٢ فقد ورد الحديث عن عمار بلفظ « من صام هذا اليوم فقد عصى أبا القاسم » .

وَرأى أكثرهم إن صامه وكان من شهر رمضان أن يقضى يوماً مكانه (وعند الحنفية : ان ظهر أنه من رمضان وصامه أجزأ عنه) ، فإن صامه لموافقته عادة له جاز له الصيام حينئذ بدون كراهة .

فعن أبى هريرة : أن النبى — ﷺ — قال : « لا تقدموا (تتقدموا) صوم رمضان بيوم أو يومين ، إلا أن يكون صوم يصومه رجل . فليصم ذلك اليوم »[1] رواه الجماعة وقال الترمذى حسن صحيح والعمل على هذا عند أهل العلم كرهوا أن يتعجل الرجل بصيام قبل دخول رمضان لمعنى رمضان .

وإن كان رجل يصوم صوماً فوافق صيامه ذلك فلا بأس به عندهم .

٦ — النهى عن صوم الدهر :

يحرم صيام السنة كلها بما فيها الأيام التى نهى الشارع عن صيامها . لقول رسول الله ﷺ : « لا صام من صام الأبد »[2] رواه أحمد والبخارى ومسلم .

فإن أفطر يومى العيد وأيام التشريق وصام بقية الأيام انتفت الكراهة إذا كان ممن يقوى على صيامها .

قال الترمذى : وقد كره قوم من أهل العلم صيام الدهر إذا لم يفطر يوم الفطر ويوم الأضحى وأيام التشريق .

فمن أفطر فى هذه الأيام فقد خرج من حد الكراهة ولا يكون قد صام الدهر كله هكذا روى عن مالك والشافعى وأحمد واسحاق .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « لا يتقدمن رمضان بصوم يوم ولا يومين » ج ١ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ فقد ورد من رواية لأبى هريرة بلفظ « لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين إلا أن يكون رجل كان يصوم صومه فليصم ذلك اليوم » .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين ج ٢ ص ٧٦٢ حديث ٢١ / ١٠٨٢ من رواية لأبى هريرة بلفظ « لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين إلا رجل كان يصوم صوما فليصمه » .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صوم الدهر » ج ١ ص ٣٣٨ فقد ورد حديث طويل لأبى العباس الشاعر أنه أخبر عطاء بسماعه من عبد الله بن عمرو — رضى الله عنهما — وقد جاء فى آخر ، قال عطاء : لا أدرى كيف ذكر صيام الأبد قال النبى — ﷺ — : « لا صام من صام الأبد مرتين » .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « النهى عن صوم الدهر .. الخ » ج ٢ ص ٨١٤ — ٨١٥ من حديث طويل لعطاء جاء فى آخره « لا صام من صام الأبد . لا صام من صام الأبد . لا صام من صام الأبد » .

وقد أقر النبي — ﷺ — حمزة الأسلمي على سرد الصيام وقال له : « صم إن شئت وأفطر إن شئت »[1] .

والأفضل أن يصوم يوماً ويفطر يوماً ، فإن ذلك أحب الصيام إلى الله .

٧ — النهي عن صيام المرأة وزوجها حاضر إلا بإذنه :

نهى رسول الله — ﷺ — المرأة أن تصوم وزوجها حاضر حتى تستأذنه .

فعن أبي هريرة : أن النبي — ﷺ — قال : « لا تصم المرأة يوماً واحداً وزوجها شاهد إلا بإذنه ، إلا رمضان »[2] . رواه أحمد والبخاري ومسلم .

وقد حمل العلماء هذا النهي على التحريم ، وأجازوا للزوج أن يفسد صيام زوجته لو صامت دون أن يأذن لها لافتياتها على حقه (لتعديها على حقه) ، وهذا في غير رمضان كما جاء في الحديث ، فإنه لا يحتاج إلى إذن من الزوج .

وكذلك لها أن تصوم من غير إذنه إذا كان غائباً ، فإذا قدم له أن يفسد صيامها . وجعلوا مرض الزوج وعجزه عن مباشرتها مثل غيبته عنها في جواز صومها دون أن تستأذنه .

النهي عن وصال الصوم

(متابعة بعضه بعضاً دون فطر أو سحور) .

١ — عن أبي هريرة : أن النبي — ﷺ — قال : إياكم والوصال » قالها ثلاث مرات » قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله ؟ قال : إنكم لستم في ذلك مثلي ، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني (أي يجعل الله له قوة الطاعم) فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون »[3] . رواه البخاري ومسلم .

---

(١) انظر صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب « الصوم في السفر والإفطار » ج ١ ص ٢٣٣ فقد ورد الحديث عن حمزة بلفظ « إن شئت فصم وإن شئت فأفطر » .

انظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب « التخيير في الصوم والفطر في السفر » ج ٢ ص ٧٨٩ حديث رقم ١٠٤ / ١١٢١ فقد ورد حديث بلفظه ردا على سؤال حمزة بن عمرو الأسلمي .

(٢) انظر صحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « ما أنفق العبد من مال مولاه » ج ٢ ص ٧١١ حديث رقم ٨٤ / ١٠٢٦ من رواية لأبي هريرة من حديث طويل نصه « لا تصم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن في بيته وهو شاهد إلا بإذنه ... الخ » .

وانظر سنن ابن ماجه ، كتاب الصيام ، باب « في المرأة تصوم بغير إذن زوجها » ج ١ ص ٥٦٠ حديث ١٧٦١ من رواية لأبي هريرة .. قال : « لا تصوم المرأة وزوجها شاهد يوما من غير شهر رمضان إلا بإذنه » .

(٣) انظر صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب « التنكيل لمن أكثر الوصال » ج ١ ص ٣٣٦ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة بلفظ : « إياكم والوصال مرتين ، قيل : إنك تواصل . قال : إني أبيت يطعمني ربي ويسقين ، فاكلفوا من العمل ما تطيقون » .

وانظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب « النهي عن الوصال في الصوم » ج ٢ ص ٧٧٤ حديث ٥٨ / ١١٠٢ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة بلفظ « إياكم والوصال » قالوا . فإنك تواصل ، يا رسول الله ؟ قال . إنكم لستم في ذلك مثلي إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني ، فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون » .

وقد حمل الفقهاء النهي على الكراهة .

وجوز أحمد وإسحاق وابن المنذر الوصال إلى السحر ، ما لم تكن مشقة على الصائم لما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري — رضي الله عنه — أن النبي — ﷺ — قال : « لا تواصلوا ، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر »[١].

صيام التطوع

رغب رسول الله ﷺ في صيام هذه الأيام الآتية :

— صيام ستة أيام من شوال :

روى الجماعة إلا البخاري والنسائي عن أبي أيوب الأنصاري : أن النبي — ﷺ — قال : « من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر »[٢] (هذا لمن صام رمضان كل سنة) . قال العلماء : الحسنة بعشر أمثالها ، ورمضان بعشرة شهور ، والأيام الستة بشهرين .

وعند أحمد : أنها تؤدى متتابعة وغير متتابعة ، ولا فضل لأحدهما على الآخر .

وعند الحنفية والشافعية : الأفضل صومها متتابعة عقب العيد .

— صوم عشر ذي الحجة وتأكيد يوم عرفة لغير الحاج :

١ — عن أبي قتادة — رضي الله عنه — قال ، قال رسول الله — ﷺ — : « صوم يوم عرفة يكفر سنتين : ماضية ومستقبلة ، وصوم يوم عاشوراء يكفر سنة ماضية »[٣] رواه الجماعة إلا البخاري والترمذي .

---

(١) انظر صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب « الوصال إلى السحر » ج ١ ص ٣٣٦ فقد ورد هذا الحديث عن حديث طويل لأبي سعيد .

(٢) انظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب « استحباب صوم ستة أيام من شوال اتباعاً لرمضان » ج ٢ ص ٨٢٢ حديث رقم : ٢٠٤ / ١١٦٤ لأبي أيوب بلفظ « من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر » .

وانظر سنن ابن ماجه «كتاب الصيام» باب صيام ستة أيام من شوال ج ١ ص ٥٤٧ حديث رقم ١٧١٦ من رواية لأبي أيوب مع اختلاف في بعض ألفاظه .

(٣) انظر سنن ابن ماجه «كتاب الصيام» باب « صيام يوم عرفة » وباب صيام يوم عاشوراء ج ١ ص ٥٥١ ، ص ٥٥٣ فقد ورد الحديث ١٧٣٠ عن أبي قتادة والحديث ١٧٣١ عن قتادة أيضاً في صوم يوم عرفة ، والحديث ١٧٣٨ عن أبي قتادة في صيام يوم عاشوراء وكلها تؤدي المعنى .

وانظر صحيح مسلم «كتاب الصيام» باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس ج ٢ ص ٨١٩ فقد ورد الحديث ١٩٧ / ١١٦٢ وهو حديث طويل لأبي قتادة ، جاء فيه أن رسول الله — ﷺ — سئل عن صوم يوم عرفة : فقال : « يكفر السنة الماضية والباقية » وعن صوم يوم عاشوراء ، فقال : « يكفر السنة الماضية » .

٢ — عن حفصة قالت : « أربع لم يكن يدعهن رسول الله — ﷺ — : صيام عاشوراء ، والعشر (أى من ذى الحجة) ، وثلاثة أيام من كل شهر ، والركعتين قبل الغداة »[1] . رواه أحمد والنسائى .

٣ — عن عقبة بن عامر قال : « قال رسول الله — ﷺ — : « يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الاسلام وهى أيام أكل وشرب »[2] رواه الخمسة إلا ابن ماجه ، وصححه الترمذى .

٤ — عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : « نهى رسول الله — ﷺ — عن صوم يوم عرفة بعرفات »[3] ، رواه أحمد والنسائى وأبو داود وابن ماجه .

قال الترمذى : قد استحب أهل العلم صيام يوم عرفة إلا بعرفة[4]

٥ — عن أم الفضل : أنهم شكّوا فى صوم رسول الله — ﷺ — يوم عرفة ، فأرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره فشربه ، متفق عليه .

صيام المحرّم وتأكيد صوم عاشوراء ويوماً قبلها ويوماً بعدها :

١ — عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله — ﷺ — : « أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ . قال : الصلاة فى جوف الليل . قيل : ثم أى الصيام أفضل بعد رمضان ؟ قال : شهر الله (الإضافة للتشريف) (الذى تدعونه) المحرم »[5] رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

٢ — عن معاوية بن أبى سفيان قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « إن هذا يوم عاشوراء ، ولم يكتب عليكم صيامه ، وأنا صائم فمن شاء صام ومن شاء فليفطر »[6] متفق عليه .

٣ — عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : « كان يوم عاشوراء يوما تصومه قريش فى الجاهلية ،

---

(١) انظر سنن النسائى ، كتاب الصيام ، باب كيف يصوم ثلاثة أيام .. الخ ج ١ ص ٢٢٠ فقد ورد الحديث بلفظه عن حفصة .

(٢) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم ، كتاب الصوم ، ج ١ ص ٤٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن عقبة بن عامر . وانظر سنن الترمذى ، كتاب الصوم ، باب كراهية صوم أيام التشريق ج ٢ ص ١٣٥ حديث رقم ٧٧٠ فقد ورد بلفظه .

(٣) انظر سنن ابن ماجه ، كتاب الصيام ، باب صيام يوم عرفة ج ١ ص [illegible] حديث [illegible] فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٤) انظر ، صحيح البخارى ، كتاب الصوم ، باب صوم يوم عرفة ج ١ ص ٣٤٠ فقد ورد هنا عن أم الفضل وانظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب استحباب الفطر للحاج يوم عرفة ج ٢ ص ٧٩١ حديث ١١٠ / ١١٢٣ مروى عن أم الفضل .

(٥) انظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب ، فضل صوم المحرم ، ج ٢ ص ٨٢١ فقد ورد الحديث ٢٠٣ / ١١٦٣ من رواية لأبى هريرة مع اختلاف فى ترتيب جملة فقد جمع الأسئلة أولا ، ثم الأجابة بعد ذلك .

(٦) انظر صحيح البخارى ، كتاب الصوم ، باب ، صيام يوم عاشوراء ، ج ١ ص ٣٤١ وقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن معاوية بن أبى سفيان .

والظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب ، صوم يوم عاشوراء ، ج ٢ ص ٧٩٥ حديث ١٢٦ / ١١٢٩ فقد ورد الحديث عن معاوية مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يصومه ، فلما قدم المدينة صامه وأمر الناس بصيامه . فلما فرض رمضان ـ ترك يوم عاشوراء : فمن شاء صامه ومن شاء تركه »[1] متفق عليه

٤ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : قدم النبي ـ ﷺ ـ المدينة فرأى اليهود تصوم عاشوراء . فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله فيه موسى وبني اسرائيل من عدوهم فصامه موسى . فقال النبي ـ ﷺ ـ : « أنا أحق بموسى منكم ، فصامه وأمر بصيامه »[2] .

٥ ـ عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال : كان يوم عاشوراء يوما تعظمه اليهود وتتخذه عيداً . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « صوموه أنتم »[3] متفق عليه .

٦ ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : لما صام رسول الله ـ ﷺ ـ يوم عاشوراء وأمر بصيامه ، قالوا : يا رسول الله : انه يوم تعظمه اليهود والنصارى .. فقال : « فإذا كان العام المقبل ـ إن شاء الله ـ صمنا اليوم التاسع »[4] قال : فلم يأت العام المقبل حتى توفى رسول الله ـ ﷺ ـ . رواه مسلم ، وأبو داود .

وفي لفظ قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع »[5] يعني مع يوم عاشوراء . رواه أحمد ومسلم .

وقد ذكر العلماء : أن صيام يوم عاشوراء على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى : صوم ثلاثة أيام : التاسع والعاشر والحادي عشر .

المرتبة الثانية : صوم التاسع والعاشر .

---

(1) انظر صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب صيام يوم عاشوراء ، ج ١ ص ٣٤١ فقد ورد الحديث من رواية عبد الله ابن مسلمة .. عن عائشة بلفظه .

(2) انظر صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب ، صيام يوم عاشوراء ، ج ١ ص ٣٤١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس .

وانظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب ، صوم يوم عاشوراء ، ج ٢ ص ٧٩٦ حديث ١٢٨ / ١١٣٠ من رواية لابن عباس مع اختلاف بعض ألفاظه .

(3) انظر صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب ، صيام يوم عاشوراء ، ج ١ ص ٣٤١ و ٣٤٢ فقد ورد الحديث من رواية لأبي موسى مع اختلاف في بعض ألفاظه .

وانظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب صوم يوم عاشوراء ج ٢ ص ٧٩٦ حديث ١٢٩ / ١١٣١ فقد ورد من رواية لأبي موسى بلفظه .

(4) انظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب أي يوم يصام في عاشوراء ج ٢ ص ٧٩٧ ـ ٧٩٨ حديث ١٣٣ / ١١٣٤ فقد ورد الحديث رواية لابن عباس بلفظه .

(5) انظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب أي يوم يصام في عاشوراء ج ٢ ص ٧٩٨ حديث ١٣٤ / ١١٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه .

المرتبة الثالثة : صوم العاشر وحده.

التوسعة يوم عاشوراء :

عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنه — : أن رسول الله — ﷺ — قال : « من وسّع على نفسه وأهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته »[1] رواه البيهقى فى الشعب وابن عبد البر .

صيام أكثر شعبان :

كان رسول الله — ﷺ — يصوم أكثر شعبان . قالت عائشة .. « ما رأيت رسول الله — ﷺ — استكمل صيام شهر إلا شهر رمضان ، وما رأيته أكثر صياماً منه فى شعبان »[2] . رواه البخارى ومسلم .

وعن أسامة بن زيد — رضى الله عنهما — قال : قلت يا رسول الله : لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان ؟ قال : « ذلك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان ، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين ، فأحب أن يرفع عملى وأنا صائم »[3] رواه أبو داود والنسائى وصححه ابن خزيمة .

وتخصيص صوم يوم النصف منه ظناً أن له فضيلة على غيره مما لم يأت به دليل صحيح .

صوم الأشهر الحرم :

الأشهر الحرم : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ويستحب الإكثار من الصيام فيها .

---

(١) انظر شعب « الإيمان للبيهقى » باب « تخصيص شهر المحرم بالذكر » ص ١٧٣ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صوم شعبان » ج ١ ص ٣٣٧ فقد ورد الحديث عن عائشة فى حديث طويل . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « صيام النبى — ﷺ — فى غير رمضان .. الخ » ج ٢ ص ٨١٠ فقد ورد الحديث ١٧٥ / ١١٥٦ من رواية لعائشة ولفظه « .. وما رأيت رسول الله — ﷺ — استكمل صيام شهر قط إلا رمضان ، وما رأيته فى شهر أكثر منه صياما فى شعبان » .

(٣) انظر سنن النسائى « كتاب الصيام » صوم النبى — ﷺ — ... الخ ج ٤ ص ٢٠١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأسامة بن زيد .

فعن رجل من باهلة : « أنه أتى النبى — ﷺ — فقال : يا رسول الله ، أنا الرجل الذى جئتك عام الأول . فقال : فما غيّرك وقد كنت حسن الهيئة ؟ قال : ما أكلت طعاماً إلا بليل منذ فارقتك . فقال رسول الله — ﷺ — : لم عذبت نفسك ؟ ثم قال : صم شهر الصبر ، ويوماً من كل شهر . قال : زدنى فإن بى قوة . قال صم يومين . قال : زدنى ، قال : صم من الحرم واترك ، صم من الحرم واترك . وقال بأصابعه الثلاثة ، فضمها ثم أرسلها (أى أشار إليه بصيام ثلاثة أيام وفطر ثلاثة أخرى)»[1] . رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة والبيهقى بسند جيد .

وصيام رجب ليس له فضل زائد على غيره من الشهور إلا أنه من الأشهر الحرم . ولم يرد فى السنة الصحيحة أن للصيام فيه فضيلة بخصوصه . وأن ما جاء فى ذلك مما لا ينتهض للاحتجاج به .

قال ابن حجر : « لم يرد فى فضله ولا فى صيامه ولا فى صيام شىء منه ولا فى قيام ليلة مخصوصة منه حديث صحيح يصلح للحجة .

صوم يومى الاثنين والخميس :

عن أبى هريرة أن النبى — ﷺ — كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس . فقيل له : (أى سئل عن الباعث على صوم يومى الاثنين والخميس) فقال : « إن الأعمال تعرض كل اثنين وخميس فيغفر الله لكل مسلم ، أو لكل مؤمن إلا المتهاجرين فيقول : أخرهما »[2] . رواه أحمد بسند صحيح .

وفى صحيح مسلم أنه — ﷺ — سئل عن صوم يوم الاثنين ؟ فقال : « ذاك يوم ولدت فيه ، وأنزل على فيه »[3] أى نزل على الوحى فيه .

صيام ثلاثة أيام من كل شهر :

قال أبو ذر الغفارى — رضى الله عنه — : « أمرنا رسول الله — ﷺ — : أن نصوم من الشهر

---

(١) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « صيام أشهر الحرم » ج ١ ص ٥٥٤ فقد ورد الحديث ١٧٤١ عن أبى مجيبة الباهلى ، عن أبيه أو عن عمه فى هذا مع اختلاف فى بعض ألفاظه وزيادة فى آخره « وصم أشهر الحرم » .
وانظر سنن أبى داود « كتاب الصوم » باب « فى صوم أشهر الحرم » ج ٢ ص ٨٠٩ ، ١١٠٠ حديث رقم ٢٤٢٨ من رواية الباهلى .

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٢٩ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ... الخ » ج ٢ ص ٨١٩ فقد ورد الحديث ١٩٧ / ١١٦٢ حديث طويل لأبى قتادة الأنصارى جاء فيه السؤال عن صوم يوم الاثنين . وانظر الحديث ١٩٨ / ١١٦٢ لأبى قتادة — أيضاً — .

ثلاثة أيام ، البيض : ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة وقال : هي كصوم الدهر »(١) رواه النسائي وصححه ابن حبان . »

وجاء عنه ـ ﷺ ـ أنه كان يصوم من الشهر : السبت والأحد والاثنين . ومن الشهر الآخر : الثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأنه كان يصوم من غرة كل هلال ثلاثة أيام ، وأنه كان يصوم الخميس من أول الشهر والاثنين الذي يليه ، والاثنين الذي يليه .

صيام يوم وفطر يوم :

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو قال : قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ : « لقد أخبرت أنك تقوم الليل وتصوم النهار . قال : قلت : يا رسول الله ، نعم . قال : فصم وأفطر ، وصلّ ونم ، فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك (ضيفك) عليك حقاً ، وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام . فقال : فشددت فشدّد عليّ . قال : فقلت يا رسول الله : إني أجد قوة . قال : فصم من كل جمعة ثلاثة أيام . قال فشددت فشدد عليّ . قال فقلت : يا رسول الله إني أجد قوة . قال : صم صوم نبي الله داود ولا تزد عليه . قلت : يا رسول الله : وما كان صيام داود عليه الصلاة والسلام ؟ قال : كان يصوم يوماً ويفطر يوماً »(٢) رواه أحمد وغيره .

وروى ـ أيضاً ـ عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أحبُّ الصيام إلى الله صيام داود ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود . كان ينام نصفه ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً »(٣).

---

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب الصوم » باب « صيام أيام البيض ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة » ج ١ ص ٣٣٩ فقد ورد حديث عن أبي هريرة بلفظ « أوصاني خليلي ـ ﷺ ـ بثلاث صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتي الضحى . وأن أوتر قبل أن أنام » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقصرها » باب استحباب صلاة الضحى .. الخ » ج ١ ص ٤٩٩ فقد ورد الحديث ٨٥ / ٧٢١ لأبي هريرة والحديث ٨٦ / ٧٢٢ لأبي الدرداء ذكر فيهما صيام ثلاثة أيام من كل شهر .

وانظر سنن النسائي « كتاب الصوم ـ ذكر الاختلاف على موسى بن طلحة في الخبر .. الخ » ج ٤ ص ٢٢٢ فقد وردت عدة روايات لأبي ذر في هذا .

(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ١٩٨ فقد ورد الحديث عن عبد الله بن عمرو .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به .. الخ ج ٢ ص ٨١٠ فقد ورد الحديث ١٨١ / ١١٥٩ من رواية عبد الله بن عمرو بلفظ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن أحب الصيام إلى الله صيام داود ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود ـ عليه السلام ـ كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوماً » .

جواز فطر الصائم المتطوع

١ ــ عن أم هانئ ــ رضى الله عنها ــ «أن رسول الله ــ ﷺ ــ دخل عليها يوم الفتح ، فأتى بشراب فشرب ثم ناولنى . فقلت : إنى صائمة ، فقال : إن المتطوع أمير على نفسه ، فإن شئت فصومى وإن شئت فأفطرى »[١] رواه أحمد والدار قطنى والبيهقى .

ورواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ولفظه : « الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر »[٢] .

وعن أبى جحيفة قال : « آخى النبى ــ ﷺ ــ بين سلمان وأبى الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء متبذلة ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا .

فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال : كل قال فإنى صائم . قال : ما أنا بآكل حتى تأكل . قال فأكل . فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم . قال : نم . فنام ، ثم ذهب يقوم فقال : نم . فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصليا فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً . ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذى حق حقه ، فأتى النبى ــ ﷺ ــ فذكر ذلك له . فقال النبى ــ ﷺ ــ : « صدق سلمان »[٣] رواه البخارى والترمذى .

وعن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ قال : صنعت لرسول الله ــ ﷺ ــ طعاماً ، فأتانى هو وأصحابه ، فلما وضع الطعام قال رجل من القوم : إنى صائم ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ : « دعاكم أخوكم وتكلف لكم . ثم قال : أفطر وصم يوماً مكانه إن شئت »[٤] رواه البيهقى بإسناد حسن كما قال الحافظ .

---

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٣٤٣ فقد ورد الحديث عن أم هانئ .
(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٣٤١ فقد ورد الحديث عن أم هانئ وبزيادة « ان شاء صام وإن شاء أفطر » .
(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب من أقسم على أخيه ليفطر فى التطوع .. الخ ج ١ ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى جحيفة .
(٤) انظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب التخيير فى القضاء إن كان صومه تطوعاً ج ٤ ص ٢٧٩ .

وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى جواز الفطر لمن صام متطوعاً ، واستحبوا له قضاء ذلك اليوم استدلالاً بهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة .

آداب الصيام

يستحب للصائم أن يراعى في صيامه الآداب الآتية :

١ ـــ السحور :

وقد أجمعت الأمة على استحبابه وأنه لا إثم على من تركه فعن أنس ـــ رضى الله عنه ـــ : أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال : « تسحروا فإن فى السحور بركة »[١] (السحور بالفتح المأكول ، وبالضم المصدر والفعل) رواه البخارى ومسلم .

وعن المقدام بن معد يكرب عن النبى ـــ ﷺ ـــ قال : عليكم بهذا السُّحور ، فإنه هو الغداء المبارك »[٢] رواه النسائى بسند جيد .

وسبب البركة : أنه يقوى الصائم وينشطه ويهوّن عليه الصيام .

بم يتحقق :

ويتحقق السحور بكثير الطعام وقليله ولو بجرعة ماء . فعن أبى سعيد الخدرى ـــ رضى الله عنه ـــ : أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال : « السحور بركة فلا تدعوه ، ولو أن يجرع أحدكم جرعة ماء ، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين »[٣] رواه أحمد .

وقته :

وقت السحور من منتصف الليل إلى طلوع الفجر ، والمستحب تأخيره . فعن زيد بن ثابت ـــ رضى الله عنه ـــ قال : « تسحرنا مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ ثم قمنا إلى الصلاة . قلت : كم كان قدر ما بينهما ؟ قال : خمسين آية »[٤] . رواه البخارى ومسلم .

(١) انظر صحيح البخارى ، كتاب الصوم ، باب ، بركة السحور ، ج ١ ص ٣٢٩ فقد ورد الحديث من رواية أنس بن مالك . وانظر صحيح مسلم ، كتاب الصوم ، باب ، فضل السحور ، الخ ج ٢ ص ٧٧٠ حديث رقم ٤٥ / ١٠٩٥ فقد ورد الحديث من رواية لأنس بن مالك .

(٢) انظر سنن النسائى ، كتاب الصيام ، باب ، تسمية السحور غداء ، ج ٤ ص ١٤٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن المقدام بن معد يكرب .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٢ ، ٤٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى سعيد الخدرى .

(٤) انظر صحيح البخارى ، كتاب الصوم ، باب ، بركة السحور ، ج ١ ص ٣٢٩ فقد ورد الحديث من رواية لزيد بن ثابت . وانظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب ، فضل السحور ... الخ ، ج ٢ ص ٧٧١ حديث رقم ٤٧ / ١٠٩٧ فقد ورد الحديث من رواية لزيد بن ثابت .

وعن عمرو بن ميمون قال : « كان أصحاب محمد ـ ﷺ ـ أعجل الناس إفطاراً وأبطأهم سحوراً »[1] رواه البيهقي بسند صحيح .

وعن أبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً : « ما تزال أمتي بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور »[2] وفي سنده سليمان بن أبي عثمان ، وهو مجهول .

الشك في طلوع الفجر :

ولو شك في طلوع الفجر ، فله أن يأكل ويشرب حتى يستيقن طلوعه ولا يعمل بالشك ، فإن الله ـ عز وجل ـ جعل نهاية الأكل والشرب التبين نفسه لا الشك . فقال : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر »[3] .

وقال رجل لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : « إني أتسحر ، فإذا شككت أمسكت ، فقال ابن عباس : كل ما شككت حتى لا تشك » .

وقال أبو داود : قال أبو عبد الله (أحمد بن حنبل) : « إذا شك في الفجر يأكل حتى يستيقن طلوعه » .

وهذا مذهب ابن عباس وعطاء والأوزاعي وأحمد .

وقال النووي : وقد اتفق أصحاب الشافعي على جواز الأكل للشاك في طلوع الفجر .

٢ ـ تعجيل الفطر :

ويستحب للصائم أن يعجل الفطر متى تحقق غروب الشمس .

فعن سهل بن سعد : أن النبي ـ ﷺ ـ قال : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر »[4] رواه البخاري ومسلم .

وينبغي أن يكون الفطر على رُطبات وتراً ، فإن لم يجد فعلى الماء .

---

(١) انظر سنن البيهقي ، كتاب الصيام ، باب ما يستحب من تعجيل الفطور وتأخير السحور ج ٤ ص ٢٣٨ فقد ورد الحديث من رواية لعمرو بن ميمون .

(٢) انظر سنن البيهقي ، كتاب الصيام ، باب ، تعجيل الفطور وتأخير السحور فقد وردت أحاديث متعددة في هذا الشأن عن سهل بن سعد ، وأبو هريرة عن أبي عطية .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٧

(٤) انظر صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب تعجيل الإفطار ، ج ١ ص ٣٣٥ فقد ورد الحديث بلفظه وانظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب ، فضل السحر .. الخ ، ج ٢ ص ٧٧١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية سهل بن سعد .

فعن أنس — رضى الله عنه — قال : « كان رسول الله — ﷺ — يفطر على رطبات قبل أن يصلى ، فإن لم تكن فعلى تمرات ، فإن لم تكن حسا حسوات (أى شرب) من ماء »[1] رواه أبو داود والحاكم وصححه ، والترمذى وحسنه .

وعن سلمان بن عامر : أن النبى — ﷺ — قال : « إذا كان أحدكم صائماً فليفطر على التمر ، فإن لم يجد التمر فعلى الماء فإن الماء طهور »[2] رواه أحمد والترمذى وقال حسن صحيح .

وفى الحديث دليل على أنه يستحب الفطر قبل صلاة المغرب بهذه الكيفية ، فإذا صلى ، تناول حاجته من الطعام بعد ذلك . إلا إذا كان الطعام موجوداً فإنه يبدأ به . قال أنس : قال رسول الله — ﷺ — : « إذا قدم العشاء فابدؤا به قبل أن تصلوا صلاة المغرب ، ولا تعجلوا عن عشائكم »[3] رواه الشيخان .

٣ — الدعاء عند الصيام وأثناء الصيام :

روى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص : أن النبى — ﷺ — قال : « إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد » وقال عبد الله إذا أفطر يقول : « اللهم إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شىء أن تغفر لى »[4] .

ويروى مرسلاً : أنه ﷺ كان يقول : « اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت »[5] .

وثبت أنه ﷺ كان يقول : « ذهب الظمأ وابتلت العروق ، وثبت الأجر — إن شاء الله تعالى — »[6] .

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٦٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن أنس . وانظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » ج ٤ ص ٢٣٩ .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء على ما يستحب الفطر » ج ١ ص ٥٤٢ حديث ١٦٩٩ فقد ورد عن سلمان بن عامر . قال : قال رسول الله — ﷺ — : « إذا أفطر أحدكم ، فليفطر على تمر ، فإن لم يجد فليفطر على الماء فإنه طهور » .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الأذان » باب « إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة » الخ ج ١ ص ١٢٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن أنس بن مالك .

وانظر صحيح مسلم « كتاب المساجد ومواضع الصلاة » باب « كراهة الصلاة بحضرة الطعام .. الخ » ج ١ ص ٣٩٢ حديث رقم ٦٤ (...) من رواية ابن شهاب عن أنس بن مالك بلفظ « إذا قرب العشاء وحضرت الصلاة .. » الخ .

(٤) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « فى الصائم لا ترد دعوته » ج ١ ص ٥٥٧ حديث ١٧٥٣ من رواية لعبد الله بن عمرو بن العاص فقد ورد الحديث بلفظه .

(٥) سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب ما يقول إذا أفطر ج ٤ ص ٢٣٩ فقد ورد الحديث من رواية لابن عمر .

(٦) انظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب « ما يقول إذا أفطر » فقد ورد الحديث من رواية عن معاذ بن زهرة . ج ٤ ص ٢٣٩

وروى الترمذى بسند حسن أنه ــ ﷺ ــ قال : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر (يستفاد منه استحباب الدعاء طول مدة الصيام) ، الإمام العادل والمظلوم »

٤ ــ الكف عما يتنافى مع الصيام :

الصيام عبادة من أفضل القربات ، شرعه الله ــ تعالى ــ ليهذب النفس ويعودها الخير . فينبغى أن يتحفظ الصائم من الأعمال التى تخدش صومه حتى ينتفع بالصيام وتحصل له التقوى التى ذكرها الله فى قوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾[1] .

وليس الصيام مجرد إمساك عن الأكل والشرب ، وإنما هو إمساك عن الأكل والشرب وسائر ما نهى الله عنه .

فعن أبى هريرة أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « ليس الصيام ، من الأكل والشرب ، وإنما الصيام من اللغو والرفث ، فإن سابك أحد ، أو جهل عليك ، فقل إنى صائم . إنى صائم »[2] رواه ابن خزيمه . وابن حبان والحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

وروى الجماعة إلا مسلماً عن أبى هريرة : أن النبى ــ ﷺ ــ قال : من لم يدع (يترك) قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه »[4] (أى ليس لله إرادة فى قبول صيامه : أى إن الله لا يقبل صيامه) .

وعنه أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « رُب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، ورُب قائم ليس له من قيامه إلا السهر »[5] رواه النسائى وابن ماجة والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى .

---

(١) انظر سنن ابن ماجه ، كتاب الصيام ، باب ، فى الصائم لا ترد دعوته ، ج ١ ص ٥٥٧ فقد ورد الحديث ١٧٥٢ عن أبى هريرة بلفظ « ثلاثة لا ترد دعوتهم ، الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول : بعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٣ .

(٣) انظر الترغيب والترهيب ، كتاب الصوم ، باب ، ترهيب الصائم من الغيبة والفحش والكذب .. إلخ ، ج ٢ ص ١٤٧ ــ ١٤٨ . فقد ورد الحديث رقم ٤ عن أبى هريرة بلفظه .

وقال : رواه ابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحهما ، والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

(٤) انظر صحيح البخارى ، كتاب اللباس ، باب قول الله تعالى : ﴿ واجتنبوا قول الزور ﴾ ج ٤ ص ٩٠ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة بلفظ قال : « من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه » .

(٥) انظر سنن ابن ماجه ، كتاب الصيام ، باب ، ما جاء فى الغيبة والرفث للصائم ، ج ١ ص ٥٣٩ فقد ورد الحديث ١٦٩٠ عن أبى هريرة بلفظه .

٥ ــ السواك :

ويستحب للصائم أن يتسوّك أثناء الصوم ، ولا فرق بين أول النهار وآخره .

قال الترمذى : « ولم ير الشافعى بالسواك أول النهار وآخره بأساً » . وكان النبى ــ ﷺ ــ يتسوك وهو صائم .[١]

٦ ــ الجود ومدارسة القرآن :

الجود ومدارسة القرآن مستحبان فى كل وقت ، إلا أنهما آكد فى رمضان روى البخارى عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : « كان رسول الله ــ ﷺ ــ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة »[٢] (أى فى الإسراع والعموم) .

٧ ــ الاجتهاد فى العبادة فى العشر الأواخر من رمضان :

روى البخارى ومسلم عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أن النبى ــ ﷺ ــ « كان إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر »[٣].

وروى الترمذى وصححه عن على ــ رضى الله عنه ــ قال : « كان رسول الله ــ ﷺ ــ يوقظ أهله فى العشر الأواخر ، ويرفع المئزر »[٤]

---

(١) انظر سنن ابن ماجه ، كتاب الصيام ، باب « ما جاء فى السواك والكحل للصائم » ج ١ ص ٥٣٦ حديث رقم ١٦٧٧ ، فقد ورد عن عائشة قالت : قال رسول الله ــ ﷺ ــ « من خير خصال الصائم السواك » قال وفى الزوائد فى إسناده مجالد وهو ضعيف ، لكن له شاهد من حديث عامر بن ربيعة . رواه البخارى وأبو داود والترمذى .

(٢) انظر صحيح البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب « صفة النبى » ج ٢ ص ٢٧٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس .

(٣) انظر صحيح البخارى ، كتاب الصوم ، باب « العمل فى العشر الأواخر » ج ١ ص ٣٤٤ فقد ورد الحديث عن عائشة وانظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب « الاجتهاد فى العشر الأواخر من شهر رمضان » ج ٢ ص ٨٣٢ فقد ورد الحديث رقم ٧ / ١١٧٤ فقد ورد عن عائشة « كان إذا دخل العشر أحيا الليل » الخ وورد الحديث رقم ٨ / ١١٧٥ عن عائشة قالت : « كان رسول الله ــ ﷺ ــ يجتهد فى العشر الأواخر ما لا يجتهد فى غيره » .

(٤) انظر سنن الترمذى ، كتاب الصوم ، باب « ما جاء فى ليلة القدر » حديث ٧٩٢ فقد ورد الحديث عن عائشة ولم يرد فيه « ويرفع المئزر » .

مباحات الصيام

يباح في الصيام ما يأتي :

١ ـ نزول الماء والانغماس فيه :

لما رواه أبو بكر بن عبد الرحمن ، عن بعض أصحاب النبي ـ ﷺ ـ : أنه حدث فقال : « وقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يصب على رأسه الماء وهو صائم ، من العطش أو من الحر »[١] رواه أحمد ومالك وأبو داود بإسناد صحيح .

وفي الصحيحين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ـ ﷺ ـ : « كان يصبح جنباً وهو صائم ثم يغتسل »[٢] فإن دخل الماء في جوف الصائم عن غير قصد **فصومه صحيح** .

٢ ـ الاكتحال والنظرة ونحوهما مما يدخل العين سواء أوجد طعمه في حلقه أم لم يجده ، لأن العين ليست بمنفذ إلى الجوف .

وعن أنس : « أنه كان يكتحل وهو صائم »[٣] .

وإلى هذا ذهبت الشافعية ، وحكاه ابن المنذر عن عطاء والحسن والنخعي والأوزاعي وأبي حنيفة وأبي ثور .

وروى عن ابن عمر وأنس وابن أبي أوفى من الصحابة . وهو مذهب داود . ولم يصح في هذا الباب شيء عن النبي ـ ﷺ ـ كما قال الترمذي .

٣ ـ القبلة : لمن قدر على ضبط نفسه :

فقد ثبت عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : « كان النبي ـ ﷺ ـ يقبل وهو صائم ، ويباشر وهو صائم ، ولكنه أملككم لإربه »[٤] .

---

(١) انظر سنن البيهقي ، كتاب الصيام ، باب الصائم يصب على رأسه [illegible] ج ٤ ص ٢٦٣ من رواية [illegible] عن جدته .

(٢) انظر صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب الصائم يصبح جنباً ، ج ١ ص ٣٢٩ فقد أخرجه عن عائشة وأم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يدركه الفجر وهو جنب من أهله ثم يغتسل ويصوم .

وانظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب ، ج ٢ ص ٧٧٩ ـ ٨٧٠ فقد ورد الحديث رقم ٧٥ / ١١٠٩ ، فقد أخرجه عن عائشة وأم سلمة أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان النبي ـ ﷺ ـ يصبح جنباً من غير حلم ثم يصوم ، وانظر الأحاديث بعده .

(٣) انظر سنن ابن ماجه ، كتاب الصيام ، باب ما جاء في السواك والكحل للصائم ، ج ١ ص ٥٣٦ فقد ورد الحديث ١٦٧٨ أن عائشة قالت : اكتحل رسول الله ـ ﷺ ـ وهو صائم .

(٤) انظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة .. الخ ، ج ٢ ص ٧٧٧ حديث رقم ٦٥ / ١١٠٦ عن رواية عائشة وقد ورد الحديث بلفظه وانظر الحديث قبله والحديث بعده .

وعن عمر ــ رضي الله عنه ــ أنه قال : « هششت (نشطت) يوماً ، فقبلت وأنا صائم ، فأتيت النبي ــ ﷺ ــ فقلت : صنعت اليوم أمراً عظيماً ، قبلت وأنا صائم ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ : أرأيت لو تمضمضت بماء وأنت صائم ؟ قلت : لا بأس بذلك . قال : ففيم (أي ففيم السؤال) .

قال ابن المنذر : رخص في القبلة عمر وابن عباس وأبو هريرة وعائشة وعطاء والشعبي والحسن وأحمد وإسحاق .

ومذهب الأحناف والشافعية : أنها تكره على من حركت شهوته ولا تكره لغيره ، لكن الأولى تركها ، ولا فرق بين الشيخ والشاب في ذلك ، والاعتبار بتحريك الشهوة وخوف الإنزال . فإن حركت شهوة شاب أو شيخ قوي كرهت ، وإن لم تحركها لشاب أو شيخ ضعيف ، لم تكره والأولى تركها .

وسواء قبّل الخد أو الفم أو غيرهما ، وهكذا المباشرة باليد والمعانقة لهما حكم القبلة .

٤ ــ الحقنة : مطلقاً سواء كانت مغذية أو لغيرها ، وسواء أكانت في العروق ، أم تحت الجلد فإنها وإن وصلت إلى الجوف فإنها تصل إليه من غير المنفذ المعتاد .

٥ ــ الحجامة (أخذ الدم من الرأس) : فقد احتجم النبي ــ ﷺ ــ وهو صائم (رواه البخاري) إلا إذا كانت تضعف الصائم فإنها تكره له . قال ثابت البناني لأنس : أكنتم تكرهون الحجامة للصائم على عهد رسول الله ــ ﷺ ــ : قال : « لا . إلا من أجل الضعف »[1] رواه البخاري وغيره .

٦ ــ المضمضة والاستنشاق : إلا أنه تكره المبالغة فيهما . فعن لقيط بن صبرة أن النبي ــ ﷺ ــ قال : « فإذا استنشقت فبالغ ، إلا أن تكون صائماً »[2] رواه أصحاب السنن وقال الترمذي حسن صحيح .

وقد كره أهل العلم السَّعوط (وضع الدواء في الأنف) للصائم ورأوا أن ذلك يفطر ، وفي الحديث ما يقوّي قولهم .

---

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب الصوم » باب « الحجامة والقيء للصائم » ج ١ ص ٣٣٦ فقد ورد الحديث عن ابن عباس وآخر عن أنس .

(٢) انظر سنن ابن ماجه ، كتاب الطهارة وسننها ، باب المبالغة في الاستنشاق والاستنثار ج ١ ص ١٤٢ فقد ورد حديث رقم ٧ : عن لقيط بن صبرة عن أبيه لقيط ، قال : قلت : يا رسول الله : أخبرني عن الوضوء ، قال : « أسبغ الوضوء ، وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً » .

قال ابن قدامة : وإن تمضمض أو استنشق فى الطهارة فسبق الماء إلى حلقه من غير قصد ولا إسراف فلا شيء عليه ، وبه قال الأوزاعى وإسحاق والشافعى فى أحد قوليه ورُوى ذلك عن ابن عباس ، وقال مالك وأبو حنيفة : « يفطر لأنه أوصل الماء إلى جوفه ذاكراً لصومه » فأفطر ، كما لو تعمد شربه .

قال ابن قدامة مرجحا الرأى الأول ، ولنا أنه إذا وصل الماء إلى حلقه من غير اسراف ولاقصد ، فأشبه مالوطارت ذبابة الى حلقه ، وبهذا فارق المتعمد . (قال ابن عباس : دخول الذباب فى حلق الصائم لا يفطر) .

٧ — وكذا يباح له ما لا يمكن الاحتراز عنه ، كبلع الريق وغبار الطريق وغربلة الدقيق والنخامة ونحو ذلك .

وقال ابن عباس : لا بأس أن يذوق الطعام الخلّ والشيء يريد شراءه .

وكان الحسن يمضغ الجوز لابن ابنه وهو صائم ، ورخص به ابراهيم .

وأما مضغ العلك (اللبان) فإنه مكروه ، إذا كان لا يتفتت منه أجزاء وممن قال بكراهته : الشعبى والنخعى ، والأحناف والشافعى والحنابلة .

ورخصت عائشة وعطاء فى مضغه ، لأنه لا يصل إلى جوفه فهو كالحصاة يضعها فى جوفه . هذا إذا لم تتحلل منه أجزاء ، فإن تحللت منه أجزاء ونزلت إلى الجوف . أفطر به .

قال ابن تيمية : « وشم الروائح الطيبة لا بأس به للصائم ، وقال : ما الكحل والحقنة وما يقطر فى إحليله ، ومداواة المأمومة والجائفة ، فهذا مما تنازع فيه أهل العلم ، فمنهم من لم يفطر بشيء من ذلك ، ومنهم من فطّر بالجميع لا بالكحل ، ومنهم من فطر بالجميع لا بالتقطير . ومنهم من لا يفطر بالكحل ولا بالتقطير ، ويفطر بما سوى ذلك .

ثم قال مرجحاً الرأى الأول : والأظهر أنه لا يفطر بشيء من ذلك ، فإن الصيام من دين الإسلام ، الذى يحتاج إلى معرفته الخاص والعام .

فلو كانت هذه الأمور مما حرمها الله ورسوله فى الصيام ويفسد الصوم بها ، لكان هذا مما يجب على الرسول بيانه ، ولو ذكر ذلك لعلمه الصحابة وبلغوه الأمة كما بلغوا سائر شرعه . فلما لم ينقل

أحد من أهل العلم عن النبي — ﷺ — في ذلك ، لا حديثاً صحيحاً ولا ضعيفاً ولا مسنداً ولا مرسلاً علم أنه لم يذكر شيئاً من ذلك .

قال : فإذا كانت الأحكام التي تعمُّ بها البلوى ، لابد أن يبينها الرسول — ﷺ — بياناً عاماً ، ولابد أن تنقل الأمة ذلك . فمعلوم أن الكحل ونحوه مما تعمُّ به البلوى كما تعمّ بالدهن والإغتسال والبخور والطيب .

فلو كان هذا مما يفطر لبينه النبي — ﷺ — كما بيّن الإفطار بغيره ، فلما لم يبين ذلك ،عُلم انه من جنس الطيب والبخور والدهن والبخور قد يتصاعد إلى الأنف ويدخل في الدماغ ، وينعقد أجساماً .

والدهن يشربه البدن ويدخل داخله ويتقوى به الإنسان ، وكذلك يتقوى بالطيب قوة جيدة .

فلما لم ينه الصائم عن ذلك دل على جواز تطيبه وتبخره وادهانه ، وكذلك اكتحاله .

وقد كان المسلمون في عهده — ﷺ — يجرح أحدهم إما في الجهاد وإما في غيره ، مأمومة وجائفة ، فلو كان هذا يفطر ، لبين لهم ذلك فلما لم ينه الصائم عن ذلك ، علم أنه لم يجعله مفطراً . ثم قال : فإن الكحل لا يغذي البته ، ولا يدخل أحد كحلاً إلى جوفه ، لا من أنفه ولا من فمه .

وكذلك الحقنة يقصد الحقنة الشرجية ،فإنها لا تفطر الصائم ـ وإن كان بعض المذاهب تعدها من المفطرات ـ لأنها لاتغذى بل تستفرغ ما في البدن ، كما لو شم شيئا من المسهلات ، أو فزع فزعا أوجب استطلاق جوفه ، وهي لاتصل الى المعدة والدواء الذي يصل الى المعدة ، في مداواة الجائفة (أي : الجراحة التي تصل إلى الجوف) ، والمأمومة (أي : الشجة في الرأس تصل الى أم الدماغ ومداواتهم ليست تغذية) لاتشبه مايصل إليها من غذائه .

والله سبحانه قال : ﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾(١) .

وقال ﷺ : « الصوم جنة »(٢) . وقال : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مجاريه بالجوع والصوم »(٣) .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٣

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل الصيام » ج ٢ ص ٨٠٦ حديث رقم ١٦٢ / ١١٥١ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة بلفظ « الصيام جنة » .

(٣) انظر صحيح البخاري ج ٩ ص ٨٧ « كتاب الأحكام .. الخ » فقد ورد الحديث ولم يرد فيه « فضيقوا مجاريه بالجوع والصوم » وكذلك في مسند أحمد وغيره من غير هذه الزيادة .
وانظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٥٨ فقد ورد الحديث بلفظه .

فالصائم نهى عن الأكل والشرب ، لأن ذلك سبب التقوى ، فترك الأكل والشرب الذى يولد الدم الكثير الذى يجرى فيه الشيطان ، إنما يتولد من الغذاء ، لا عن حقنة ، ولا كحل ولا ما يقطر فى الذكر ، ولا ما يداوى به المأمومة والجائفة » . انتهى .

٨ ــ ويباح للصائم أن يأكل ويشرب ويجامع حتى يطلع الفجر ، فإذا طلع الفجر وفى فمه طعام وجب عليه أن يلفظه أو كان مجامعاً وجب عليه أن ينزع .

فإن لفظ أو نزع صح صومه ، وإن ابتلع ما فى فمه من طعام مختاراً ، أو استدام الجماع أفطر .

روى البخارى ومسلم عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ : أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « إن بلالاً يؤذن بليل ، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم »[1] .

٩ ــ ويباح للصائم أن يصبح جنباً .

١٠ ــ الحائض والنفساء إذا انقطع الدم من الليل جاز لهما تأخير الغسل إلى الصبح وأصبحتا صائمتين ، ثم عليهما أن يتطهرا للصلاة .

ما يبطل الصيام

ما يبطل الصيام قسمان .

١ ــ ما يبطله ويوجب القضاء .

٢ ــ وما يبطله ويوجب القضاء والكفارة .

فأما ما يبطله ويوجب القضاء فقط فهو ما يأتى :

١ ، ٢ ــ الأكل والشرب عمداً :

فإن أكل أو شرب ناسياً أو مخطئاً أو مكرهاً فلا قضاء عليه ولا كفارة .

فعن أبى هريرة أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « من نسى وهو صائم فأكل أو شرب ، فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه »[2] رواه الجماعة .

(١) انظر صحيح البخارى ، كتاب الصوم ، باب « لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال » ج ٢ ص ٣٢١ فقد ورد عنه من حديث عائشة وفيه « ... فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر » .

وانظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب « بيان أن الدخول فى الصوم يحصل بطلوع الفجر .. » ج ٢ ص ٧٦٨ حديث ٣٨ / ١٠٩٢ فقد ورد حديث عن ابن عمر وورد مثله عن عائشة .

(٢) انظر صحيح البخارى ، كتاب الصوم ، باب « الصائم إذا أكل أو شرب ناسياً » ج ٢ ص ٣٢٠ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة مع اختلاف يسير .

وانظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب « أكل الناسى وشربه وجماعه لا يفطر » ج ٢ ص ٨٠٩ حديث رقم ١٧١ / ١١٥٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

وقال الترمذي : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم . وبه يقول سفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق .

وروى الدارقطني والبيهقي والحاكم . وقال — صحيح على شرط مسلم — عن أبي هريرة — رضي الله عنه — أن النبي — ﷺ — قال : « من أفطر في رمضان ناسياً فلا قضاء عليه ولا كفارة »[1] قال الحافظ بن حجر: إسناده صحيح .

وعن ابن عباس — رضي الله عنها — أن النبي — ﷺ — قال : « إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما إستكرهوا عليه »[2] رواه ابن ماجة والطبراني والحاكم .

٣ — القيء عمداً :

فإن غلبه القيء فلا قضاء عليه ولا كفارة .

فعن أبي هريرة — رضي الله عنه — ، أن النبي — ﷺ — قال : « من ذرعه (غلبه) القيء فليس عليه قضاء . ومن استقاء (تعمد القيء واستخرجه ، بشم ما يقيئه أو بإدخال يده) عمداً فليقض »[3] رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان والدار قطني والحاكم وصححه .

قال الخطابي : لا أعلم خلافاً بين أهل العلم في أن من ذرعه القيء لا قضاء عليه ، ولا في أن من استقاء عامداً عليه القضاء .

٤ ، ٥ — الحيض والنفاس ، ولو في اللحظة الأخيرة قبل غروب الشمس ، وهذا مما أجمع عليه العلماء .

٦ — الاستمناء : (تعمد اخراج المني بأي سبب من الأسباب) ، سواءاً كان سببه تقبيل الرجل لزوجته أو ضمها إليه ، أو كان باليد ، فهذا يبطل الصوم ويوجب القضاء .

فإن كان سببه مجرد النظر أو التفكر فإنه مثل الاحتلام نهاراً في الصيام ، لا يبطل الصوم ولا يجب فيه شيء .

---

(١) انظر سنن البيهقي ، كتاب الصيام ، باب من أكل أو شرب ناسياً فليتم صومه ولا قضاء عليه ، ج ٤ ص ٢٢٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة .

(٢) انظر سنن ابن ماجه ، كتاب الطلاق ، باب طلاق المكره والناسي ، ج ١ ص ٦٥٩ حديث ٢٠٤٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس .

(٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الصيام ، باب ما جاء في الصائم يقيء ، ج ١ ص ٥٣٦ حديث ١٦٧٦ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة .

وكذلك الذى لا يؤثر فى الصوم قلّ أو كثر .

٧ ـ تناول ما لا يتغذى به من المنفذ المعتاد إلى الجوف مثل تعاطى الملح الكثير ، فهذا يفطر فى قول عامة أهل العلم .

٨ ـ ومن نوى الفطر وهو صائم بطل صومه ، وإن لم يتناول مفطراً .

فإن النية ركن من أركان الصيام ، فإذا نقضها قاصداً الفطر ومتعمداً له انتقض صيامه لا محالة .

٩ ـ إذا أكل أو شرب أو جامع ظاناً غروب الشمس أو عدم طلوع الفجر فظهر خلاف ذلك ، فعليه القضاء عند جمهور العلماء ، ومنهم الأئمة الأربعة .

وذهب إسحاق وداود وابن حزم وعطاء وعروة والحسن البصرى ومجاهد : إلى أن صومه صحيح ولا قضاء عليه لقول الله تعالى : ﴿ **وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم** ﴾[1] .

ولقول رسول الله ﷺ : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[2] رواه ابن ماجة والطبرانى والحاكم .

وروى عبد الرزاق قال : حدثنا معمر عن الأعمش عن زيد بن وهب قال : أفطر الناس فى زمن عمر بن الخطاب فرأيت ـ عساساً (أى : أقداحاً ضخاماً . قيل : إن القدح نحو ثمانية أرطال) أخرجت من بيت حفصة فشربوا ، ثم طلعت الشمس من سحاب فكأن ذلك شق على الناس . فقالوا : نقضى هذا اليوم . فقال عمر : لمَ ؟ والله ما تجانفنا الإثم » (التجانف : الميل ، أى لم نمل لارتكاب الإثم) .

وروى البخارى عن أسماء بنت أبى بكر ـ رضى الله عنها ـ قالت : أفطرنا يوما من رمضان فى غيم على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ ، ثم طلعت الشمس »[3] .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥ .

(٢) انظر سنن ابن ماجه ، كتاب الطلاق ، باب ، طلاق المكره والناسى ، ج ١ ص ٦٥٩ حديث ٢٠٤٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس ، وانظر الحديث ٢٠٤٣ .

(٣) انظر صحيح البخارى ، كتاب الصوم ، باب إذا أفطر فى رمضان ثم طلعت الشمس ج ١ ص ٣٣٥ فقد ورد حديث بلفظه عن أسماء بنت أبى بكر .

قال ابن تيمية : وهذا يدل على شيئين :

الأول : يدل على أنه لا يُستحب مع الغيم التأخير إلى أن يتيقن الغروب ، فإنهم لم يفعلوا ذلك ولم يأمرهم به النبي — ﷺ — ، والصحابة — مع نبيهم — أعلم وأطوع لله ولرسوله ممن جاء بعدهم.

والثاني يدل على أنه لا يجب القضاء . فإن النبي — ﷺ — لو أمرهم بالقضاء لشاع ذلك كما نقل فطرهم . فلما لم ينقل ، دل على أنه لم يأمرهم به .

وأما ما يبطله ويوجب القضاء والكفارة فهو الجماع لا غير عند الجمهور .

وعن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي — ﷺ — فقال : هلكت يا رسول الله . قال : « وما أهلكك ؟ » قال : وقعت على امرأتي في رمضان . فقال : هل تجد ما تعتق رقبة ؟ قال : لا . قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين . قال : لا . قال : فهل تجد ما تطعم ستين مسكينا ؟ قال : لا . قال : ثم جلس ، فأتى النبي — ﷺ — بعرق (مكيال يسع ١٥ صاعاً) فيه تمر فقال : تصدق بهذا . قال : أعلى أفقر منا ؟ فما بين لابتيها (جمع لابة وهي الأرض التي فيها حجارة سود والمراد ما بين أطراف المدينة أفقر منا) . أهل بيت أحوج إليه منا . فضحك النبي — ﷺ — حتى بدت نواجذه وقال : اذهب فأطعمه أهلك »[1] رواه الجماعة .

ويستدل بهذا من ذهب إلى سقوط الكفارة بالإعسار ، وهو أحد قولي الشافعي ، ومشهور مذهب أحمد . وجزم به بعض المالكية والجمهور على أن الكفارة لا تسقط بالإعسار) .

ومذهب الجمهور : أن المرأة والرجل سواء في وجوب الكفارة عليهما ، ما داما قد تعمدا الجماع ، مختارين في نهار رمضان (فإن كان الصيام قضاء رمضان ، أو نذراً وأفطر بالجماع ، فلا كفارة في ذلك) ناويين الصيام . فإن وقع الجماع نسياناً ، أو لم يكونا مختارين ، بأن أكرها عليه ، أو لم يكونا ناويين الصيام ، فلا كفارة على واحد منهما . فإن أكرهت المرأة من الرجل ، أو كانت مفطرة لعذر وجبت الكفارة عليه دونها .

ومذهب الشافعي : أنه لا كفارة على المرأة مطلقاً . لا في حالة الاختيار ولا في حالة الإكراه — وإنما يلزمها القضاء فقط .

---

(١) انظر صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر ، ج ١ ص ٣٣١ فقد ورد حديث عن أبي هريرة مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ .
وانظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان ... الخ ، ج ٢ ص ٧٨١ — ٧٨٢ حديث ٨١ (١١١١) فقد ورد حديث عن أبي هريرة مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ .

قال النووى : والأصح ـ على الجملة ـ وجوب كفارة واحدة عليه خاصة عن نفسه فقط ، وأنه لا شىء على المرأة ولا يلاقيها الوجوب لأنه حق مال مختص بالجماع فاختص به الرجل دون المرأة ، كالمهر .

قال أبو داود : سئل (هذه إحدى الروايتين عن أحمد) أحمد عمن أتى أهله فى رمضان ، أعليها كفارة ؟ قال : ما سمعنا أن على امرأة كفارة .

قال فى المغنى : ووجه ذلك : أن النبى ـ ﷺ ـ أمر الواطىء فى رمضان أن يعتق رقبة ، ولم يأمر فى المرأة بشىء مع علمه بوجود ذلك منها .

والكفارة على الترتيب المذكور فى الحديث ، فى قول جمهور العلماء .

فيجب العتق أولاً . فإذا عجز عنه صام شهرين متتابعين (ليس فيهما رمضان ولا أيام العيدين والتشريق) فإن عجز عنه أطعم ستين مسكيناً من أوسط ما يطعم منه أهله (مذهب أحمد لكل مسكين مد من قمح ، أو نصف صاع من تمر ، أو شعير ونحوهما . وقال أبو حنيفة : من القمح نصف صاع ومن غيره صاع . وقال الشافعى ومالك : يطعم مداً من أى الأنواع شاء . وهذا رأى أبى هريرة وعطاء والأوزاعى ، وهو أظهر . فإن العرق الذى أعطى للأعرابى يسع ١٥ صاعاً) . وأنه لا يصح الانتقال من حالة إلى أخرى ، إلا إذا عجز عنها . ومذهب المالكية ورواية لأحمد : أنه مخير بين هذه الثلاث فأيها فعل أجزأ عنه .

لما روى مالك وابن جريج ، عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة « أن رجلاً أفطر فى رمضان ، فأمره رسول الله ـ ﷺ ـ أن يكفر بعتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكيناً »[1] رواه مسلم ، و « أو » تفيد التخيير .

ولأن الكفارة بسبب المخالفة ، فكانت على التخيير ، ككفارة اليمين .

قال الشوكانى : وقد وقع فى الروايات ما يدل على الترتيب والتخيير ، والذين رووا الترتيب أكثر ومعهم الزيادة .

وجمع المهلب والقرطبى بين الروايات بتعدد الواقعة . قال الحافظ : وهو بعيد لأن القصة واحدة والمخرج متحد ، والأصل عدم التعدد . وجمع بعضهم بحمل الترتيب على الأولوية ، والتخيير على الجواز وعكسه بعضهم . انتهى .

---

(١) انظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب تغليظ تحريم الجماع فى نهار رمضان على الصائم [illegible] ج ٢ ص ٧٨٢ حديث ٨٤ ـ ١١١١ فقد ورد الحديث من رواية أبى هريرة .

ومن جامع عامداً فى نهار رمضان ، ولم يكفر ثم جامع فى يوم آخر منه فعليه كفارة واحدة عند الأحناف ، ورواية عن أحمد ؛ لأنها جزاء عن جناية تكرر سببها قبل استيفائها ، فتداخل .

وقال مالك والشافعى ، ورواية عن أحمد : عليه كفارتان ، لأن كل يوم عبادة مستقلة ، فإذا وجبت الكفارة بإفساده لم تتداخل كرمضانين . وقد أجمعوا : على أن من جامع فى نهار رمضان عامداً وكفر ، ثم جامع فى يوم آخر ، فعليه كفارة أخرى .

وكذلك أجمعوا على أن من جامع مرتين فى يوم واحد ولم يكفر عن الأول : أن عليه كفارة واحدة .

فإن كفر عن الجماع الأول : يكفر ثانياً عند جمهور الأئمة . وقال أحمد : عليه كفارة ثانية

قضاء رمضان

قضاء رمضان لا يجب على الفور ، بل يجب وجوباً موسعاً فى أى وقت وكذلك الكفارة .

فقد صح عن عائشة أنها كانت تقضى ما عليها من رمضان فى شعبان (رواه أحمد ومسلم) ولم تكن تقضيه فوراً عند قدرتها على القضاء .

والقضاء مثل الأداء ، بمعنى أن من ترك أياماً يقضيها دون أن يزيد عليها .

ويفارق القضاء الأداء فى أنه لا يلزم فيه التتابع . لقول الله ــ تعالى ــ : ﴿ **ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾[1] . أى ومن كان مريضاً ، أو مسافراً فأفطر ، فليصم عدة الأيام التى أفطر فيها فى أيام أخر متتابعات أو غير متتابعات ، فإن الله أطلق الصيام ولم يقيده .

وروى الدارقطنى عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ ، أن النبى ــ ﷺ ــ قال فى قضاء رمضان : « إن شاء فرق وإن شاء تابع »[2] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٢) نظر سنن الدار قطنى ، كتاب الصيام ، ج ٢ ص ١٩٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عمر تحت رقم ٧٤ .

وإن أخر القضاء حتى دخل رمضان آخر صام رمضان الحاضر ثم يقضي بعده ما عليه ، ولا فدية عليه ، سواء كان التأخير لعذر أو لغير عذر .

وهذا مذهب الأحناف والحسن البصري .

ووافق مالك والشافعي وأحمد وإسحاق في أنه لا فدية عليه إذا كان التأخير بسبب العذر .

وخالفوهم فيما إذا لم يكن له عذر في التأخير . فقالوا : عليه أن يصوم رمضان الحاضر ، ثم يقضي ما عليه بعده ، ويفدي عما فاته عن كل يوم مداً من طعام .

وليس لهم في ذلك دليل يمكن الاحتجاج به .

فالظاهر ما ذهب إليه الأحناف ، فانه لا شرع إلا بنص صحيح .

من مات وعليه صيام

أجمع العلماء على أن من مات وعليه فوائت من الصلاة فإن وليه لا يصلي عنه ، هو ولا غيره ، وكذلك من عجز عن الصيام لا يصوم عنه أحد أثناء حياته . فإن مات وعليه صيام وكان قد تمكن من صيامه قبل موته فقد اختلف الفقهاء في حكمه .

فذهب جمهور العلماء ، منهم أبو حنيفة ومالك والمشهور عن الشافعي إلى أن وليّه لا يصوم عنه ويطعم عنه مدّاً عن كل يوم (يرى الحنفية أن الواجب نصف صاع من قمح ، وصاع من غيره) .

والمذهب المختار عند الشافعية أنه يستحب لوليه أن يصوم عنه ويبرأ به الميت ولا يحتاج إلى إطعام عنه .

والمراد بالولي القريب ، سواء كان عصبة ، أو وارثاً أو غيرهما .

ولو صام أجنبي عنه ، صح إن كان بإذن الولي ، وإلا فإنه لا يصح .

واستدلوا بما رواه أحمد والشيخان عن عائشة أن النبي ﷺ — قال : « من مات وعليه صيام ،

صام عنه وليه »[1] زاد البزار لفظ : إن شاء وسندها حسن وروى أحمد وأصحاب السنن : عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : « يا رسول الله ، إن أمي ماتت وعليها صوم شهر ، **أفأ قضيه عنها** ؟ فقال : لو كان على أمك دين أكنت قاضية عنها ؟ قال : نعم . قال : فدين الله أحق أن يقضى »[2] .

قال النووي : « وهذا القول هو الصحيح المختار الذي نعتقده وهو الذي صححه محققو أصحابنا الجامعون بين الفقه والحديث لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة .

ـــ التقدير في البلاد التي يطول نهارها ويقصر ليلها :

اختلف الفقهاء في التقدير في البلاد التي يطول نهارها ويقصر ليلها ، والبلاد التي يقصر نهارها ويطول ليلها على أي البلاد يكون ؟

فقيل : يكون التقدير على البلاد المعتدلة التي وقع فيها التشريع كمكة والمدينة ، وقيل : على أقرب بلاد معتدلة إليهم .

ليلة القدر

ـــ فضلها :

ليلة القدر أفضل ليالي السنة لقوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾[3] .

ـــ أي القرآن : ﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن** ﴾[4] .

أي العمل فيها من الصلاة والتلاوة والذكر خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر .

---

(1) انظر صحيح البخاري ، كتاب الصوم « باب « من مات وعليه صوم » ج ١ ص ٣٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة . وانظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام « باب « قضاء الصيام عن الميت » ج ٢ ص ٨٠٣ حديث ١٥٣ / ١١٤٧ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة .

(2) انظر صحيح البخاري ، كتاب الصوم « باب « من مات وعليه صوم » ج ١ ص ٣٣٤ فقد ورد الحديث عن عائشة . وانظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام « باب « قضاء الصيام عن الميت » ج ٢ ص ٨٠٤ حديث ١٥٥ / ١١٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة .

(3) سورة القدر الآيات ١ ـــ ٣

(4) سورة البقرة الآية ١٨٥

— استحباب طلبها :

ويستحب طلبها فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان ، فقد كان النبى — ﷺ — يجتهد فى طلبها فى العشر الأواخر من رمضان .

فقد كان إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر (أى اعتزل النساء واشتد فى العبادة)[1] .

— أى الليالى هى ؟

للعلماء آراء فى تعيين هذه الليلة ، فمنهم من يرى أنها ليلة الحادى والعشرين ، ومنهم من يرى أنها ليلة الثالث والعشرين ، ومنهم من يرى أنها ليلة الخامس والعشرين ، ومنهم من ذهب إلى أنها ليلة التاسع والعشرين . ومنهم من قال : انها تنتقل فى ليالى الوتر من العشر الأواخر .

وأكثرهم على أنها ليلة السابع والعشرين .

روى أحمد بإسناد صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان متحريها فليتحرها ليلة السابع والعشرين »[2] .

وروى مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى وصححه عن أبى بن كعب أنه قال : « والله الذى لا إله إلا هو إنها لفى رمضان — يحلف ما يستثنى — ووالله انى لأعلم أى ليلة هى . هى الليلة التى أمرنا رسول الله — ﷺ — بقيامها . هى ليلة سبع وعشرين . وأمارتها أن تطلع الشمس فى صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها »[3] .

— قيامها والدعاء فيها :

١ — روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »[4] .

(١) انظر صحيح مسلم ، كتاب الاعتكاف ، باب « الاجتهاد فى العشر الأواخر من شهر رمضان » ج ٢ ص ٨٣٢ فقد ورد حديث رقم ٧ / ١١٧٤ عن عائشة فى ذلك .

(٢) انظر مسند الإمام احمد ج ٢ ص ١٥٧ فقد ورد الحديث من رواية لابن عمر .

(٣) انظر صحيح مسلم ، كتاب الصيام ، باب فضل ليلة القدر .. الخ ج ١ ص ٨٢٨ حديث ٢٢٠ ٧٦٢ فقد ورد الحديث عن أبى بن كعب فى هذا .

(٤) انظر صحيح البخارى ، كتاب الصوم ، باب « فضل ليلة القدر » ج ١ ص ٣٤٣ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة فقط : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .
وانظر صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب « الترغيب فى قيام رمضان وهو التراويح » ج ١ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ فقد ورد الحديث رقم ١٧٥ / ٧٦٠ من رواية لأبى هريرة بلفظ البخارى .

٢ ــ وروى أحمد وابن ماجه والترمذى وصححه عن عائشة رضى الله عنها ــ قالت : قلت : يا رسول الله ، أرأيت إن علمت أى ليلة ليلة القدر ، ما أقول فيها ؟ قال : قولى : « اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى »[١] .

الإطعام

قوله تعالى فى كفارة الظهار : ﴿ فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ﴾ أى : من أوسط ما يطعم منه أهله ﴿ ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ أى : لتصدقوا بأحكامه وتمتثلوا أمره وأمر رسوله وليحدث لكم كمال الإيمان ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ أى : الجاحدين لأحكام الله ــ تعالى ــ الخارجين عن التصديق بما بعث به نبيه ــ ﷺ ــ والعذاب الأليم هو المؤلم الذى قال الله فيه : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾[٢]

كتاب الظهار

والآن نبدأ بالتفصيل ما جاء عن الفقهاء من أحكام فى الظهار ، فنقول وبالله التوفيق :

تعريفه :

الظهار : مشتق من الظهر ، وهو قول الرجل لزوجته : أنت علىّ كظهر أمى

قال فى الفتح :

« وإنما خص الظهر بذلك دون سائر الأعضاء ، لأنه محل الركوب غالباً ، ولذلك سمى المركوب ظهراً ، فشبهت المرأة بذلك ، لأنها مركوب الرجل » .

والظهار كان طلاقاً فى الجاهلية ، فأبطل الإسلام هذا الحكم ، وجعل الظهار محرماً للمرأة حتى يكفر زوجها .

---

(١) انظر : سنن ابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب ، الدعاء بالعفو والعافية ، ج ٢ ص ١٢٦٥ حديث ٣٨٥٠ فقد ورد الحديث عن عائشة .

(٢) سورة النساء الآية ٥٦

فلو ظاهر الرجل يريد الطلاق ، كان ظهاراً ، ولو طلق يريد ظهاراً ، كان طلاقاً ، فلو قال : « أنت على كظهر أمى » ، ونوى به الطلاق ، لم يكن طلاقاً ، وكان ظهاراً لا تطلق به المرأة .

قال ابن القيم : « وهذا لأن الظهار كان طلاقاً فى الجاهلية ، فنسخ ، فلم يجز أن يعاد إلى الحكم المنسوخ ، وأيضاً أن أوس بن الصامت إنما نوى به الطلاق على ما كان عليه ، وأجرى عليه حكم الظهار دون الطلاق ، وأيضاً فإنه صريح فى حكمه ، فلم يجز جعله كناية فى الحكم الذى أبطله الله بشرعه ، وقضاء الله أحق ، وحكم الله أوجب » .

وقد أجمع العلماء على حرمته ، فلا يجوز الإقدام عليه لقول الله — تعالى — : ﴿ **الذين يظاهرون منكم من نسائهم ، ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور** ﴾ .

وأصل ذلك ما ثبت فى السنن أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت مالك بن ثعلبة . وهى التى جادلت فيه رسول الله — ﷺ — واشتكت إلى الله ، وسمع الله شكواها من فوق سبع سموات . فقالت : « يا رسول الله ، إن أوس بن الصامت تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىّ ، فلما خلاسنى ، ونثرت بطنى ، جعلنى كأمه عنده ، فقال لها رسول الله ، ﷺ — : « ما عندى فى أمرك شىء » .

فقالت : « اللهم إنى أشكو إليك » .

وروى أنها قالت : « ان لى صبية صغاراً ، ان ضممهم اليه ضاعوا ، وان ضممتهم إلىّ جاعوا » . فنزل القرآن .

وقالت عائشة : « الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات » ، لقد جاءت خولة بنت ثعلبة تشكو إلى رسول الله — ﷺ — وأنا فى كسر البيت يخفى علىّ بعض كلامها ، فأنزل الله — عز وجل — : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير** ﴾ .

فقال النبى — ﷺ — :

« ليعتق رقبة ! قالت : لا يجد ! قال : فيصوم شهرين متتابعين . قالت : يا رسول الله ، إنه شيخ كبير ، ما به من صيام . قال : فليطعم ستين مسكيناً . قالت : ما عنده من شىء يتصدق به . قال :

سأعينه بعرق من تمر ! قالت : وأنا أعينه بعرق آخر . قال : أحسنت فأطعمي عنه ستين مسكيناً ، وارجعي إلى ابن عمك »[١] .

وفي السنن أن سلمة بنت صخر البياضي ، ظاهر من امرأته مدة شهر رمضان . ثم واقعها ليلة قبل انسلاخه . فقال له النبي — ﷺ — : أنت بذاك يا سلمة . قال : قلت : أنا بذاك (أي أنت المتلبس بذلك والمرتكب له) يا رسول الله ؟ — مرتين — وأنا صابر لأمر الله ، فاحكم فيّ بما أراك الله . قال : حرر رقبة . قلت : والذي بعثك بالحق نبياً ما أملك — رقبة غيرها — وضربت صفحة رقبتي ، قال : فصم شهرين متتابعين . قال : فهل أصبت الذي أصبت إلا في الصيام ؟ قال : فأطعم وسقاً من تمر ستين مسكيناً . قلت : والذي بعثك بالحق لقد بتنا وحشيين (أي بتنا مقفرين لا طعام لنا) ، ما لنا طعام . قال : فانطلق إلى صدقة بني زريق فليدفعها إليك ، فأطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر ، وكل أنت وعيالك بقيتها . قال : خرجت إلى قومي فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ، ووجدت عند رسول الله السعة وحسن الرأي ، وقد أمر لي بصدقتكم »[٢] .

— هل الظهار يختص بالأم ؟

ذهب الجمهور إلى أن الظهار ، يختص بالأم كما ورد في القرآن وكما جاء في السنة . فلو قال لزوجته : أنت عليّ كظهر أمي ، كان مظاهراً ، ولو قال لها : أنت عليّ كظهر أختي لم يكن مظاهراً . وذهب البعض ، ومنهم الأحناف والأوزاعي والثوري والشافعي في أحد قوليه ، وزيد بن علي ، إلى أنه يقاس على الأم جميع المحارم ، (قال الأئمة الثلاثة ورواية عن أحمد ، إذا قالت المرأة لزوجها : أنت عليّ كظهر أمي ، فإنه لا كفارة عليها ، وقال أحمد في الرواية الأخرى — وهي أظهرها — يجب عليها الكفارة إذا وطئها . وهي التي اختارها الخرقي) .

فالظهار عندهم هو تشبيه الرجل زوجته في التحريم بإحدى المحرمات عليه ، على وجه التأبيد بالنسب أو المصاهرة أو الرضاع ، إذ العلة هي التحريم المؤبد .

ومن قال لامرأته : إنها أختي أو أمي على سبيل الكرامة والتوقير فإنه لا يكون مظاهراً .

والظهار لا يكون إلا من الزوج العاقل البالغ المسلم . لزوجة قد انعقد زواجها انعقاداً صحيحاً نافذاً .

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٦ ص ٤١٠ ، ٤١١ فقد ورد الحديث عن خولة بنت ثعلبة .

(٢) انظر سنن ابن ماجه ، كتاب الطلاق ، باب الظهار ج ١ ص ٦٦٥ — ٦٦٦ حديث رقم ٢٠٦٢ فقد ورد الحديث من رواية سلمة بن صخر البياضي .. مع اختلاف في بعض ألفاظه .

ـ الظهار المؤقت :

الظهار المؤقت هو إذا ظاهر من امرأته إلى مدة ، مثل أن يقول : « أنت علىّ كظهر أمي إلى الليل » ثم أصابها قبل انقضاء تلك المدة .

وحكمه أنه ظهار كالمطلق .

قال الخطابي :

واختلفوا فيه إذا بر فلم يحنث :

فقال مالك وابن أبي ليلى : إذا قال لامرأته : « أنت علىّ كظهر أمي إلى الليل » لزمته الكفارة وإن لم يقربها .

وقال أكثر أهل العلم : لا شيء عليه إن لم يقربها .

قال : وللشافعي في الظهار المؤقت قولاً : أحدهما أنه ليس بظهار .

ـ أثر الظهار :

إذا ظاهر الرجل من امرأته ، وصح الظهار ، ترتب عليه أثران :

الأثر الأول : حرمة إتيان الزوجة حتى يكفر كفارة الظهار ، لقول الله سبحانه : ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ .

وكما يحرم المسيس ، فإنه يحرم كذلك مقدماته ، من التقبيل والمعانقة ونحو ذلك ، وهذا عند جمهور العلماء .

وذهب بعض أهل العلم (هذا رأى الثوري ، وأحد قولي الشافعي) إلى أن المحرم هو الوطء فقط ، لأن المسيس كناية عن الجماع .

والأثر الثاني : وجوب الكفارة بالعود .

وما هو العود ؟

اختلف العلماء في العود ... ما هو ؟

فقال قتادة ، وسعيد بن جبير ، وأبو حنيفة وأصحابه :

« انه إرادة المسيس لما حرم بالظهار ، لأنه إذا أراد ، فقد عاد من عزم ، إلى عزم الفعل ، سواء فعل أم لا .

وقال الشافعي :

بل هو إمساكها بعد الظهار وقتاً يسع الطلاق ، ولم يطلق إذ تشبيهها بالأم يقتضي إبانتها، وإمساكها نقيضه ، فإذا أمسكها فقد عاد فيما قال ، لأن العود للقول مخالفته .

وقال مالك وأحمد :

بل هو العزم على الوطء فقط ، وإن لم يطأ .

وقال داود وشعبة ، وأهل الظاهر :

بل إعادة لفظ الظهار فالكفارة لا تجب عندهم إلا بالظهار المعاد ، لا المبتدأ .

— المسيس قبل التكفير :

إذا مس الرجل زوجته قبل التكفير ، فإن ذلك يحرم ، والكفارة لا تسقط ولا تتضاعف ، بل تبقى كما هي ، كفارة واحدة .

قال الصلب بن دينار : سألت عشرة من الفقهاء عن المظاهر يجامع قبل أن يكفر ؟ فقالوا : كفارة واحدة .

— ما هي الكفارة ؟

والكفارة هي : عتق رقبة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً . يقول الله سبحانه : ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً** ﴾ .

وقد روعي في كفارة الظهار التشديد ، محافظة على العلاقة الزوجية وصوناً من ظلم المرأة ، فإن الرجل إذا رأى أن الكفارة يثقل عليه الوفاء بها ، احترم العلاقة الزوجية ، وامتنع عن ظلم زوجته .

الظهار وكفارته فى الإسلام

تحت هذا العنوان كتب الشيخ الصابونى فى كتابه (روائع البيان — تفسير آيات الأحكام) فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ان أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وان الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ .

التحليل اللفظى

﴿ سمع الله ﴾ : السمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة ، والحياة والإرادة ، فهما من صفات الذات ، لم يزل الخالق سبحانه متصفاً بهما .

ومعنى السميع : المدرك للأصوات من غير أن يكون له أذن لأنها لا تخفى عليه .

قال أبو السعود : ومعنى سمعه — تعالى — لقولها : إجابة دعائها ، لا مجرد علمه — تعالى — بذلك كما هو المعنى بقوله — تعالى — : ﴿ والله يسمع تحاوركما ﴾ أى : يعلم تراجعكما الكلام .

﴿ تجادلك ﴾ أى : تراجعك فى شأن زوجها ، والمجادلة : المناظرة والمخاصمة .

وفى الحديث : (ما أوتى قوم الجدل إلا ضلوا)[1] والمراد بالحديث الجدل على الباطل ، وطلب

---

(١) هذا جزء حديث رواه الترمذى عن أبى أمامة فى [كتاب التفسير] لتفسير سورة الزخرف ج ٥ ص ٣٧٨ رقم ٣٢٥٣ ولفظه : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، ثم تلا رسول الله — ﷺ — هذه الآية : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ﴾ .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه ابن ماجه فى المقدمة ج ١ ص ١٩ رقم ٤٨

وانظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٢٥٢ .

المغالبة به . لإظهار الحق ، فإن ذلك محمود — لقوله — تعالى — : ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾[1] والمراد هنا : المراجعة فى الكلام .

﴿ وتشتكى ﴾ الشكوى : إظهار البث وما انطوت عليه لنفس من الهمّ والغم . وفى التنزيل : ﴿ قال إنما أشكو بثّى وحزنى إلى الله ﴾[2] وشكا واشتكى بمعنى واحد .

﴿ تحاوركما ﴾ المحاورة : المراجعة فى الكلام ، من حار الشىء ، يحور ، حوراً ، أى : رجع يرجع رجوعاً ، ومنه حديث : « نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر »[3] ومنه : فما أحار بكلمة ، أى : فما أجاب . قال عنترة :

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمى

يريد به فرسه ، أى : لو كان يعلم الكلام لكلمنى .

﴿ يظاهرون ﴾ الظهار : مشتق من الظهر ، وهو قول الرجل لزوجته : أنت علىّ كظهر أمى . ومعناه الأصلى : مقابلة الظهر بالظهر ، يقال : ظاهر فلان فلاناً ، أى : قابل ظهره بظهره ، ثم استعمل فى تحريم الزوجة بجعلها محرمة كظهر أمه .

قال الألوسى : الظهار لغة : مصدر ظاهر ، وهو (مفاعلة) من الظهر ، ويراد به معان مختلفة ، راجعة إلى الظهر معنى ولفظاً باختلاف الأغراض .

فيقال : ظاهر زيد عمراً ، أى : قابل ظهره بظهره حقيقة .

وظاهره : إذا غايظه وإن لم يقابل حقيقة ، باعتبار أن المغايظة تقتضى ذلك .

وظاهره : إذا ناصره ، باعتبار أنه يقال : قوّى ظهره : إذا نصره .

وظاهر بين ثوبين : إذا لبس أحدهما فوق الآخر .

وظاهر من امرأته : إذا قال لها : أنت علىّ كظهر أمى .

وهذا الأخير هو المعنى الذى نزلت فيه الآيات .

---

(١) من الآية ١٢٥ من سورة النحل .

(٢) من الآية ٨٦ من سورة يوسف .

(٣) جزء حديث رواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الدعاء) باب ما يدعو به الرجل إذا سافر ج ٢ ص ١٢٧٩ رقم ٣٨٨٨ بلفظ : « اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، والحور بعد الكور ، ودعوة المظلوم ، وسوء المنظر فى الأهل والمال » .

وانظر الجامع الصحيح للترمذى ج ٥ ص ٤٩٨ رقم ٣٤٣٩ .

قال في الفتح : « وإنما خص الظهر بذلك دون سائر الأعضاء ، لأنه محل الركوب غالباً ، ولذلك سمى المركوب ظهراً ، فشبهت المرأة بذلك لأنها مركوب الرجل » .

﴿ اللائى ﴾ : جمع التى ، فيقال : اللاتى ، واللائى . قال – تعالى – : ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن ﴾[1] .

﴿ منكراً ﴾ المنكر من الأمر : خلاف المعروف ، وكل ما قبحه الشرع وحرّمه وكرهه فهو منكر .

﴿ زوراً ﴾ الزور : الكذب والباطل الواضح ، ومنه شهادة الزور .

﴿ تحرير رقبة ﴾ حرّرته ، أى : جعلته حراً لوجه الله . والرقبة فى الأصل : العُنق ، ثم أطلقت على ذات الإنسان تسمية للشيء ببعضه . والمراد بها المملوك عبداً أو أمة .

قال الآلوسى : وذلك من تسمية الكل باسم الجزء .

﴿ يتماسا ﴾ المسّ : مسك الشيء باليد ، ثم استعير للجماع ، لأنه لمس والتصاق . لأن فيه التصاق الجسم بالجسم ، والمس هنا : كناية عن الجماع .

﴿ مسكيناً ﴾ المسكين : الذى لا شيء له ، وقيل : الذى لا شيء له يكفى عياله . وأصل المسكين فى اللغة : الخاضع .

والمراد به هنا ما يعم الفقير . والمسكين أحسن حالاً من الفقير .

وقد قالوا : المسكين والفقير إذا اجتمعا (يعنى فى اللفظ) افترقا (فى المعنى) وإذا افترقا اجتمعا .

﴿ حدود ﴾ الحد : الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أحدهما بالآخر ، أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر ، وجمعه : حدود وحدود الله : الأشياء التى بيّن تحريمها وتحليلها . وأمر أن لا يتعدى شيء منها فيتجاوز إلى غير ما أمر فيها أو نهى عنه منها ومنع من مخالفتها .

وهنا قوله : ﴿ تلك حدود الله ﴾[2] يعنى الحدود بين معصيته وطاعته . فمعصيته الظهار ، وطاعته الكفارة .

---

(١) من آية ٣٤ من سورة النساء .
(٢) من آية ١٣ من سورة النساء .

المعنى الإجمالى

إن الله ــ تعالى ــ سميع قريب ، يجيب دعوة الداع إذا دعاه ، وهذه امرأة جاءت إلى رسول الله ــ ﷺ ــ تشكو ظلم زوجها لها ، حيث حرّمها على نفسه بلفظ كانت الجاهلية تستعمله . أفيبقى هذا اللفظ محرماً فى الإسلام ؟ !

جادلت رسول الله ــ ﷺ ــ وتوجهت بالدعاء إلى المولى جل وعلا ، الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، تشكو إليه وحدتها ، فلا أهل لها ولا معيل ولا نصير ، وقد كبر سنها ، وأولادها صغار ، إن تركتهم عنده ضاعوا ، وإن ضممتهم إليه جاعوا .

ورسول الله ــ صلوات الله عليه ــ لا يشرّع من قبل نفسه ، وإنما يتبع الوحى الذى يأتيه من ربه ، ولم يوح إليه فى الظهار بشىء . ولذلك ما كان يجزم بالتحريم ، وإنما كان يقول : « ما أراك إلا قد حُرمت عليه »(١) فكانت تجادله

استجاب الله دعاء هذه المرأة الضعيفة الوحيدة ، ونزل الوحى ليقول للزوج : زوجك التى ظاهرت منها ليست بأمك . فأمك هى التى ولدتك حقيقة ، وحرمت عليك بذلك ، فكيف تصف ما أباحه الله لك بما حرمه عليك ؟ إنك تقول قولاً يمقته الشرع ، فضلاً عن كونه كذبا وزوراً ، ومع ذلك فإن الله عفو عمن أخطأ ثم تاب ، غفور لمن وقف عند حدود الشرع ، واتبع أمر الله الذى أنزله على نبيه .

فمن ظاهر من زوجه وقال لها : أنت علىّ كظهر أمى ، ثم أراد أن ينقض قوله ، ويعود إلى ما أحله الله له من زوجه ، فالواجب عليه أن يحرر عبداً مملوكاً قبل أن يمسك زوجه ، هذا حكم من ظاهر ليتعظ به المؤمنون ، وليعلموا أن الله ــ جل وعلا ــ خبير بكل ما يعملونه ، فعليهم أن ينتهوا عما نهاهم عنه .

فمن لم يجد الرقبة بأن كان لا يملك ثمنها ، أو لا يجد عبداً يشتريه ويعتقه فليصم شهرين متتابعين من قبل أن يقرب زوجه ، فإذا كان ضعيفاً لا يقوى على الصوم ، أو مريضاً يضعفه الصوم ، فعليه أن يطعم ستين مسكيناً ما يشبعهم ، ذلك هو حكم الله فى الظهار ، لتؤمنوا أن هذا منزل من عند الله ــ تعالى ــ وتتبعوه وتقفوا عند حدود ما شرع لكم فلا تتعدوها .

---

(١) الحديث رواه ابن كثير عن ابن أبى حاتم فى تفسير سورة المجادلة ٤ ص ٣٢٠ طبع الحلبى .

سبب النزول

أولاً : عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت :

« تبارك الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة وكلمت رسول الله ــ ﷺ ــ وأنا فى جانب البيت أسمع كلامها ، ويخفى علىّ بعضه ، وهى تشتكى زوجها وتقول : يا رسول الله ! أكل شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك .

قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات »[1] . رواه البخارى ، والنسائى مختصراً ، ورواه الواحدى فى أسباب النزول ، والطبرى ، والحاكم فى المستدرك وصححه ووافقه الذهبى ، ورواه ابن ماجه فى سننه بسند صحيح ، والبيهقى فى سننه .

ثانياً : وقال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ :

« كان الرجل إذا قال لامرأته فى الجاهلية : أنت علىّ كظهر أمى ، حرمت عليه ، فكان أول من ظاهر فى الإسلام (أوس) ثم ندم ، وقال لامرأته : انطلقى إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فسليه ، فأتته ، فنزلت هذه الآيات »[2] . رواه البيهقى فى السنن ، والسيوطى فى الدر ونسبه لابن مردويه والنحاس .

ثالثاً : وعن خولة بنت مالك بن ثعلبة قالت :

ظاهر منى زوجى أوس بن الصامت ، فجئت رسول الله ــ ﷺ ــ أشكو إليه وهو يجادلنى فيه ويقول : « اتقى الله فإنه ابن عمك » . فما برحت حتى نزل القرآن : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها** ... ﴾ إلى الفرض أى : إلى قوله ــ تعالى ــ ﴿ **فتحرير رقبة من قبل أن**

---

(1) انظر صحيح البخارى (كتاب التوحيد) ج ٩ ص ١٤٤ فقد رواه مختصراً . ورواه أيضا النسائى فى سننه فى (الظهار) ج ٥ ص ١٦٨ مختصر .

وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الطلاق) باب الظهار ج ١ ص ٦٦٦ رقم ٢٠٦٣ .

وانظر المستدرك للحاكم (كتاب التفسير) تفسير سورة المجادلة ج ٢ ص ٤٨١ .

ورواه البيهقى فى السنن الكبرى فى (كتاب الظهار) بروايتين ج ٧ ص ٣٨٢ .

ورواه السيوطى فى الدر المنثور فى (تفسير سورة المجادلة) ج ٧ ص ٦٩ ، ٧٠ .

ورواه الطبرى فى تفسيره (تفسير سورة المجادلة) ج ٢٨ ص ٥ .

(2) الحديث رواه البيهقى فى السنن فى (كتاب الظهار) ج ٧ ص ٣٨٢ . وانظر الدر المنثور للسيوطى فى (تفسير سورة المجادلة) ج ٧ ص ٦٩ .

يتماسا ... ﴾ الآية. قال: «يعتق رقبة» قلت: لا يجد، قال: «فيصوم شهرين متتابعين» قلت: يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام. قال: «فليطعم ستين مسكيناً» قلت: ما عنده شيء يتصدق به. قال: «فإني سأعينه بعرق من تمر»، قلت: يا رسول الله وإني أعينه بعرق آخر. قال: «قد أحسنت، اذهبي فأطعمي بهما عنه ستين مسكيناً وارجعي إلى ابن عمك»[1]، قال: والعرق: ستون صاعاً. رواه أبو داود، والإمام أحمد بمعناه.

وجوه القراءات

أولاً: قوله ــ تعالى ــ: ﴿ **قد سمع الله** ﴾ بإظهار الدال.

وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بإدغام الدال في السين.

قال الكسائي: من قرأ (قد سمع) فبيّن الدال فلسانه أعجمي ليس بعربي.

قال الآلوسي: «ولا يلتفت إلى هذا، فكلا الأمرين فصيح متواتر، بل الجمهور على البيان».

ثانياً: قوله ــ تعالى ــ: ﴿ **تجادلك في زوجها** ﴾ قراءة الجمهور تجادلك من المجادلة وهي المراجعة في الكلام.

وقرىء ﴿ **تحاورك** ﴾ أي: تراجعك الكلام.

ثالثا: قوله ــ تعالى ــ: ﴿ **يظاهرون من نسائهم** ﴾ قرأ حفص وعاصم ﴿ **يُظاهرون** ﴾ بضم الياء وكسر الهاء.

وقرأ نافع وابن كثير وعمرو ﴿ **يَظَّهَّرون** ﴾ بتشديد الظاء والهاء وحذف الألف وفتح الياء.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ **يَظَّاهرون** ﴾ بفتح الياء وتشديد الظاء والألف.

وقرأ الحسن وقتادة: ﴿ **يظهرون** ﴾ بفتح الياء وفتح الظاء مخففة مكسورة الهاء مشددة والمعنى (يقولون هن: أنتن كظهور أمهاتنا).

رابعاً: قوله ــ تعالى ــ: ﴿ **ماهن أمهاتهم** ﴾ الجمهور بكسر التاء وهي لغة أهل الحجاز.

وقرأ المفضل عن عاصم (أمهاتُهم) بالرفع على لغة تميم.

وقرأ ابن مسعود: (بأمهاتهم) بزيادة الباء.

---

(١) انظر سنن أبي داود (كتاب الطلاق، باب في الظهار ج ٢ ص ٢٦٦ رقم ٢٢١٤ ورواه الإمام أحمد في مسنده (حديث خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها) ج ٦ ص ٤١٠، ٤١١.

وجوه الإعراب

أولاً : قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ وتشتكي إلى الله ﴾ عطف على ﴿ تجادلك ﴾ فهو من عطف الجمل ، لا محل لها من الإعراب لكونها صلة للتي .

وجوّز بعضهم أن تكون حالاً ، أي : تجادلك شاكية حالها إلى الله ـــ تعالى ـــ ويقدر مبتدأ ، أي : وهي تشتكي لأن المضارعية لا تقترن بالواو في الفصيح ، بتقدير معها المبتدأ تكون اسمية .

ثانياً : قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ﴾ اسم الموصول ﴿ الذين ﴾ مبتدأ ، خبره محذوف ، أي : مخطئون ، وأقيم دليله ـــ وهو قوله تعالى : ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ مقامه .

ثالثاً : قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ .

وقال ابن الانبارى : خبره ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ أى : ما تسوّغهم أمهاتهم .

قال الفراء : وانتصاب الأمهات ههنا بإلقاء الباء ، وهي قراءة عبد الله ﴿ ما هن بأمهاتهم ﴾ ومثله : ﴿ ما هذا بشراً ﴾[1] أى : ما هذا ببشر فلما ألقيت الباء ألقى أثرها ، وهو النصب ، وعلى هذا كلام أهل الحجاز ، فأما أهل نجد فإنهم إذا ألقوا الباء رفعوا وقالوا ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ و ﴿ ما هذا بشر ﴾ .

وقال أبو حيان : أجرى (ما) مجرى (ليس) في رفع الاسم ونصب الخبر كما في قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ ما هذا بشراً ﴾ وقوله : ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾[2] .

أقول : هذا هو الصحيح ، لأن (ما) بمعنى ليس فهي نافية حجازية وهي لغة القرآن .

رابعاً : قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ﴾ انتصب ﴿ منكراً وزوراً ﴾ على الوصف لمصدر محذوف ، وتقديره : وإنهم ليقولون قولاً منكراً ، وقولاً زوراً .

خامساً : قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة ﴾ اسم الموصول (الذين) مبتدأ . وقوله ـــ تعالى ـــ : (فتحرير رقبة) مبتدأ آخر خبره مقدر ، أي : فعليهم تحرير رقبة ، أي : فكفارتهم تحرير رقبة .

والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر الموصول . ودخلت الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط .

---

(١) من الآية ٣١ من سورة يوسف .

(٢) من الآية ٤٧ من سورة الحاقة .

سادسا : قوله – تعالى – : ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾

قال ابن الانبارى : الجار والمجرور فى موضع نصب لأنه يتعلق بـ ﴿ يعودون ﴾ و ﴿ ما ﴾ مصدرية . وتقديره : يعودون لقولهم . والمصدر فى موضع المفعول ، كقولك : ﴿ هذا الثوب نسج اليمن ﴾ أى : منسوجه ، ومعناه يعودون للإمساك المقول فيه الظهار ولا يطلق . وقيل : اللام فى ﴿ لما قالوا ﴾ بمعنى (إلى) أى : يعودون إلى قول الكلمة التى قالوها أولاً ، من قولهم : أنت على كظهر أمى . وهذا مذهب أهل الظاهر .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى :

يقول علماء اللغة : ﴿ قد ﴾ حرف يوجب به الشىء ، وهى إذا دخلت على الماضى تفيد ﴿ التحقيق ﴾ ، وإذا دخلت على المضارع تفيد ﴿ التقليل ﴾ لأنها تميل إلى الشك . تقول : قد ينزل المطر ، وقد يجود البخيل . وأما فى كلام الله فهى للتحقيق سواء دخلت على الماضى أو المضارع ، كقوله – تعالى – : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾[1] .

قال الجوهرى : (قد) حرف لا يدخل إلا على الأفعال .

قال الزمخشرى : « معنى (قد) التوقع لأنه – ﷺ – والمجادلة كانا متوقعين أن يسمع الله فى شكواهما ما يفرج عنها » .

ومعنى سمعه – تعالى – لقولها اجابة دعائها ، لا مجرد علمه – تعالى – بذلك ، وهو كقول المصلى : سمع الله لمن حمده .

اللطيفة الثانية :

قال الإمام الفخر : هذه الواقعة تدل على أن من انقطع رجاؤه عن الخلق ، ولم يبق له فى مهمه أحد سوى الخالق كفاه الله ذلك الأمر . وصيغة المضارع (يسمع) تفيد التجدد ، للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور وتجدده ، وذكرها مع الرسول فى سلك الخطاب (تحاوركما) تشريف لها بهذا الخطاب الكريم . واظهار الاسم الجليل فى الموضعين لتربية المهابة والروعة فى قلوب المؤمنين .

قوله – تعالى – : ﴿ والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ .

---

(١) من الآية ١٨ من سورة الأحزاب

• اللطيفة الثالثة :

قال ابن منظور : كانت العرب تطلّق النساء فى الجاهلية بهذه الكلمة : ﴿ **أنت علىّ كظهر أمى** ﴾ وإنما خصوا (الظهر) دون البطن ، والفخذ ، والفرج — وهذه أولى بالتحريم — لأن الظهر موضع الركوب ، والمرأة مركوبة اذا غشيت ، فكأنه أراد أن يقول : ركوبك للنكاح علىّ حرام كركوب أمى للنكاح ، فأقام الظهر مقام الركوب ، وهذا من لطيف الاستعارات للكناية .

وقال الفخر الرازى : ليس الظهار مأخوذاً من الظهر الذى هو عضو من الجسد ، لأنه ليس الظهر أولى بالذكر فى هذا الموضع من سائر الأعضاء ، التى هى موضع المتعة والتلذذ ، بل الظهر هٰهنا مأخوذ من العلو ، ومنه قوله — تعالى — : ﴿ **فما سطاعوا أن يظهروه** ﴾[1] أى : يعلوه ، وكل من علا شيئاً فقد ظهره ، ومنه سُمّى المركوب ظهراً ، لأن راكبه يعلوه ، وكذا امرأة الرجل ظهره لأنه يعلوها بملك البضع ، فكأن امرأة الرجل مركوب للرجل وظهر له .

ويدل على صحة هذا المعنى أن العرب تقول فى الطلاق : نزلت عن امرأتى ، أى : طلقتها ، وفى قولهم : أنت على كظهر أمى (حذف وإضمار) لأن تأويله : ظهرك علىّ ، أى : ملكى إياك ، وعلوّى عليك حرام ، كما أن علوّى على أمى وملكها حرام علىّ .

• اللطيفة الرابعة :

المظاهر شبه الزوجة بالأم ، ولم يقل هى أم ، فكيف كان ذلك منكراً وزوراً ؟

قال الامام الفخر فى الجواب عن ذلك : إن الكذب إنما لزم لأن قوله : « أنت على كظهر أمى » إما أن يكون اخباراً ، أو انشاءً .

فعلى الأول : انه كذب لأن الزوجة محللة ، والأم محرمة ، وتشبيه المحللة بالمحرمة فى وصف الحل والحرمة كذب .

وعلى الإنشاء : كان ذلك أيضاً كذباً ، لأن معناه أن الشرع جعله سبباً فى حصول الحرمة ، فلما لم يرد الشرع بهذا التشبيه كان جعله إنشاء فى وقوع هذا الحكم كذباً وزوراً .

---

(١) من الآية ٩٧ من سورة الكهف .

- اللطيفة الخامسة :

روى أن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — مر فى خلافته على امرأة ، وكان راكباً على حمار والناس معه ، فاستوقفته تلك المرأة طويلا ووعظته ، وقالت له : عهدى بك يا عمرو أنت صغير تدعى عميراً ، ثم قيل لك : يا عمر ، ثم قيل لك : يا أمير المؤمنين ، فاتق الله يا عمر فى الرعية ، واعلم أن من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب .

وهو واقف يسمع كلامها ، فقيل له : يا أمير المؤمنين : أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟

فقال : والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره ، لا زلت إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز ؟ هذه (خولة بنت ثعلبة) التى سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟ .

أقول : رضى الله عنك يا عمر فهذه أخلاق الصديقين .

- اللطيفة السادسة :

قوله — تعالى — : ﴿ الذين يظاهرون منكم ﴾ الخطاب بلفظ ﴿ منكم ﴾ فيه مزيد توبيخ للعرب ، وتهجين لعادتهم فى الظهار ، لأنه كان من أيمان الجاهلية خاصة ، دون سائر الأمم .

- اللطيفة السابعة :

روى الإمام الترمذى عن (سلمة بن صخر البياضى) أنه قال : « كنت امرأ أصيب من النساء ما لا يصيب غيرى ، فلما دخل رمضان خفت أن أصيب من امرأتى شيئاً يتابع بى حتى أصبح ، فظاهرت منها حتى ينسلخ رمضان ، فبينما هى تخدمنى ذات ليلة إذ انكشفت لى منها شىء ، فما لبثت أن نزوت عليها ، فلما أصبحت أخبرت قومى ، فقلت : امشوا معى إلى النبى — ﷺ — فقال : « أنت بذاك يا سلمة » ، قلت : أنا بذاك يا رسول الله — مرتين — وأنا صابر لأمر الله ، فاحكم فيما أراك الله .

قال : حرر رقبة ، قلت : والذى بعثك بالحق ما أملك رقبة غيرها — وضربت صفحة رقبتى .

قال فصم شهرين متتابعين .

قلت : وهل أصبت الذى أصبت إلا من الصيام .

قال : فأطعم وسقاً (الوسق — بالفتح — ستون صاعاً بصاع النبى ﷺ) من تمر بين ستين مسكيناً .

قلت : والذى بعثك بالحق لقد بتنا وحشين (مقفرين لا طعام لنا) ما لنا من طعام .

قال : فانطلق إلى صاحب صدقة بنى زريق فليدفعها إليك ، فأطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر ، وكل أنت وعيالك بقيتها ، فرجعت إلى قومى فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأى ، ووجدت عند النبى — ﷺ — السعة وحسن الرأى ، وقد أمر لى بصدقتكم [1] .

رواه الترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والحاكم ، وحسنه الترمذى .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول :

هل الظهار مشروع كالطلاق أم هو محرمٌ ؟

كان الظهار فى الجاهلية طلاقاً ، بل هو أشد أنواع الطلاق عندهم ، لما فيه من تشبيه الزوجة بالأم التى تحرم حرمة على التأبيد بل لا تجوز بحال من الأحوال ، وجاء الإسلام فأبطل هذا الحكم ، وجعل الظهار محرماً قربان المرأة حتى يكفر زوجها ، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتبرونه فى الجاهلية .

فلو ظاهر الرجل يريد الطلاق كان ظهاراً ، ولو طلق يريد به الظهار كان طلاقاً ، والعبرة باللفظ لا بالنية ، فلا يقوم أحدهما مقام الآخر .

قال ابن القيم : « وهذا لأن الظهار كان طلاقاً فى الجاهلية فنسخ ، فلم يجز أن يُعاد إلى الحكم المنسوخ ، وأيضاً ، فإن (أوس بن الصامت) إنما نوى به الطلاق على ما كان عليه ، وأجرى عليه

(١) انظر الجامع الصحيح للترمذى (كتاب التفسير) باب : ومن سورة المجادلة ج ٥ ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ رقم ٣٢٩٩ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه أبو داود فى سننه فى (كتاب الطلاق) باب فى الظهار ج ٢ ص ٦٥٥ ، ٦٦٢ رقم ٢٢١٣ وقد رواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الطلاق) باب الظهار ج ١ ص ٦٦٥ ، ٦٦٦ رقم ٢٠٦٢ وانظر نيل الأوطار للشوكانى (كتاب الظهار) ج ٦ ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ وقال : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، وأخرجه — أيضاً — الحاكم .

وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده (حديث سلمة بن صخر الزرقى الأنصارى) ج ٤ ص ٣٧ .

وانظر المستدرك للحاكم (كتاب التفسير) تفسير سورة المجادلة ج ٢ ص ٢٠٣ قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى فى التلخيص .

حكم الظهار دون الطلاق ، وأيضا فإنه صريح في حكمه ، فلم يجز جعله كناية في الحكم الذى أبطله الله بشرعه ، وقضاء الله أحق ، وحكم الله أوجب » .

وقد دلت الآية الكريمة وهى قوله ـ تعالى ـ : « وإنهم ليقولون منكرا من القول وزوراً » على أن الظهار حرام ، بل لقد قال فقهاء الشافعية : إنه من الكبائر ، فمن أقدم عليه اعتبر كاذباً معانداً للشرع .

وقد اتفق العلماء على حرمته ، فلا يجوز الإقدام عليه ، لأنه كذب وزور وبهتان ، وهو يختلف عن الطلاق ، فالطلاق مشروع ، وهذا ممنوع ، ولو أقدم الإنسان عليه يكون قد ارتكب محرماً ويجب عليه الكفارة .

الحكم الثانى :

ماذا يترتب على الظهار من أحكام ؟

إذا ظاهر الرجل من امرأته ترتب عليه أمران :

ـ الأول : حرمة إتيان الزوجة حتى يكفر كفارة الظهار ، لقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا** ﴾ .

ـ والثانى : وجوب الكفارة بالعود ، لقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا** .. ﴾ الآية . وسنتحدث عن معنى العود في الحكم الثالث إن شاء الله .

وكما يحرم المسيس ، فإنه يحرم كذلك مقدماته ، من التقبيل ، والمعانقة وغيرها من وجوه الاستمتاع ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء (الحنفية والمالكية والحنابلة) .

وقال الثورى والشافعى (فى أحد قوليه) : ان المحرم هو الوطء فقط ، لأن المسيس كناية عن الجماع .

حجة الجمهور

أ ـ أن العموم الوارد فى الآية (من قبل أن يتماسا) فإنه يشمل جميع وجوه الاستمتاع .

بيانه ــ مقتضى التشبيه الذى هو سبب الحرمة (كظهر أمي) فكما يحرم مباشرة الأم والاستمتاع بها بجميع الوجوه ، فكذلك يحرم الاستمتاع بالزوجة المظاهر منها بجميع الوجوه عملاً بالتشبيه .

ج ــ أمْرُ الرسول ــ ﷺ ــ للرجل الذى ظاهر من زوجته بالاعتزال حتى يكفر . الحديث رواه أصحاب السنن عن ابن عباس وفيه قال ــ ﷺ ــ له : « ما حملك على ذلك يرحمك الله ؟ » قال : رأيت خلخالها فى ضوء القمر ، قال : « لا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله »(١) .

حجة الشافعى والثورى :

أ ــ الآية ذكرت المسيس وهو كناية عن الجماع فيقتصر عليه .

ب ــ الحرمة ليست لمعنى يُخلُّ بالنكاح فأشبه الحيض ، الذى يحرم الاستمتاع فيه فيما بين السرة والركبة .

أقول : رأى الجمهور أحوط من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، سيما وقد نقل الإمام الفخر ان للشافعى فيه قولين : (أحدهما) أنه يحرم الجماع فقط . (والثانى) أنه يحرم جميع جهات الاستمتاعات قال : وهو الأظهر . وكفى الله المؤمنين القتال .

الحكم الثالث :

ما المراد بالعود فى الآية الكريمة ؟

اختلف الفقهاء فى المراد من العود فى قوله ــ تعالى ــ : (ثم يعودون لما قالوا) على عدة أقوال :

أ ــ قال أبو حنيفة : العود : هو عبارة عن العزم على استباحة الوطء والملامسة .

ب ــ وقال الشافعى : العود : هو أن يمسكها بعد الظهار مع القدرة على الطلاق .

ج ــ وقال مالك وأحمد : العود : هو العزم على الوطء فقط ، أو على الوطء والإمساك .

د ــ وقال أهل الظاهر : العود : أن يكرر لفظ الظهار مرة ثانية فإن لم يكرر لا يقع الظهار .

والآراء الثلاثة الأولى متقاربة فى المعنى ، لأن العود إلى الإمساك ، أو الوطء ، أو إبقائها بعد الظهار بدون طلاق ، كلها تدل فى معنى الندم وإرادة المعاشرة للزوجة التى ظاهر منها . فاللام فى (لما) بمعنى (فى) .

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى جامعه الصحيح فى (كتاب الطلاق) باب : ما جاء فى المظاهر يواقع قبل أن يكفر ج ٣ ص ٤٩٤ رقم ١١٩٩ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح .

ورواه أبو داود معناه فى سننه فى (كتاب الطلاق) باب فى الظهار ج ٢ ص ٦٦٨ رقم ٢٢٢٣ .

وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الطلاق) باب : الظاهر يجامع قبل أن يكفر ج ١ ص ٦٦٦ ، ٦٦٧ رقم ٢٠٦٥ .

ورواه النسائى فى سننه فى (كتاب الطلاق) باب الظهار ج ٦ ص ١٦٨ من طريق عكرمة مرسلاً .

وانظر نيل الأوطار للشوكانى (حكم إذا واقع قبل أن يكفر) ج ٦ ص ١٦١ رقم ٣ .

والمعنى : يرجعون إلى تحليل ما حرّموا على أنفسهم بالعزم على الوطء ، وقد عدّ القرطبي فيها سبعة أقوال .

قال الفراء : معنى الآية يرجعون عمّا قالوا ، وفي نقض ما قالوا .

ــ دليل الظاهرية

قال أهل الظاهر : ان العود معناه تكرار لفظ الظهار واعادته ، فلا تلزم الكفارة إلا إذا أعاد اللفظ ــ يعني ظاهر مرة ثانية ــ .

وقالوا : الذي يعقل من قولهم : عاد إلى الشيء ، أي : أنه فعله مرة ثانية ، كما قال ــ تعالى ــ : ﴿ ولو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾[1] .

فإذا لم يكرر الظهار لا يقع التحريم .

قال الزجاج : وهذا قول من لا يدري اللغة .

وقال أبو علي الفارسي : ليس هو كما ادّعوا ، لأن العود قد يكون إلى شيء لم يكن عيه الإنسان فيه ، وسميت الآخرة معاداً ولم يكن فيها أحد ثم عاد الناس إليها ، قال الهذلي :

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى الحق شيئاً واستراح العواذل

وقال ابن العربي : « ويشبه أن يكون هذا من جهالة داود وأشياعه ، وهو باطل قطعاً ، لأنه قد رويت قصص المظاهرين وليس فيها ذكر لعود القول منهم ، وأيضاً فإن المعنى ينقضه ، لأن الله ــ تعالى ــ وصفه بأنه منكر من القول وزور ، فكيف يقال له : إذا أعدت القول المحرّم والسبب المحظور وجبت عليك الكفارة ؟ » .

أقول : ما قاله جمهور الفقهاء أن المراد بالعود ليس تكرار اللفظ ، إنما هو العود إلى معاشرتها والعزم على وطئها هو الصحيح المعقول لغة وشرعاً ، لأن المظاهر قد حرّم على نفسه قربان الزوجة ، فهو يريد أن ينقض ذلك ويعيدها إلى نفسه فيلزمه التكفير بهذا العزم .

---

(1) من الآية ٢٨ من سورة الأنعام .

وأما ما قاله أهل الظاهر فباطل لا يقوم عليه دليل ، بل هو من آثار الفهم السقيم الذى تخ
فيه هؤلاء فى كثير من الأحكام الشرعية ، ويكفى لبطلانه حديث (أوس بن الصامت) فإنه لم يك
الظهار ، وقد ألزمه — ﷺ — الكفارة . وحديث (سلمة بن صخر) فقد أمره — ﷺ — بالكفا
مع أنه لم يكرر اللفظ . وكفى بذلك حجة قاطعة ، ولا رأى لأحد أمام قول المعصوم — ﷺ —

ـ الحكم الرابع : هل يصح ظهار غير المسلم كالذمى والكتابى ؟

ذهب الجمهور (الحنفية والمالكية والحنابلة) إلى أن ظهار الذمى لا يقع لأن الله — تعالى — يقول
﴿ الذين يظاهرون منكم ﴾ وظاهر قوله : ﴿ منكم ﴾ أن غير المسلم لا يتناوله الحكم .

وقالوا أيضا : إن الذمى ليس من أهل الكفارة ، لأن فيها إعتاق رقبة ، والصوم ، ولما كان الص
عبادة لا تصح من غير المسلم ، إذن فلا يصح ظهاره .

فالظهار عندهم لا يكون إلا من الزوج العاقل البالغ المسلم .

ـ مذهب الشافعى : قال الشافعية : كما يصح طلاق الذمى ويترتب عليه أحكامه ، كذلك ي
ظهاره .

قال الألوسى : والعجب من الإمام الشافعى — عليه الرحمة — أن يقول بصحته مع أنه يشتر
النية فى الكفارة ، والإيمان فى الرقبة ، والكافر لا يملك المؤمن .

أقول : الراجح رأى الجمهور ، واستدلالهم بالكفارة فى (العتق والصيام) قوى ، وأما استدلا
بمفهوم الصفة فى الآية الكريمة (منكم) فليس بذاك ، لأن الآية وردت مورد (التهجين والتشنيع
لما مرّ أن الظهار لم يعرف إلا عند العرب فليس فيها ما يدل لهم . والله أعلم .

ـ الحكم الخامس : هل يصح الظهار من الأمة ؟

أ ـ ذهب (الحنفية والحنبلية والشافعية) إلى أن الرجل لو ظاهر من أمته لا يصح ، ولا يترتب ع
أحكام الظهار . لقوله — تعالى — : ﴿ من نسائهم ﴾ لأن حقيقة إطلاق النساء على (الزوجات
دون (الإماء) بدليل قوله — تعالى — : ﴿ أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن ﴾[1] . فقد غاير بينهن
فالمراد بالنساء فى الآية الحرائر .

---

(١) من الآية ٣١ من سورة النور .

قال الله ـ سبحانه وبحمده ـ : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ يقول : إذا تحركت الأرض بأهلها فزلزلت من نواحيها وارتجت من مشرقها ومغربها فلا تزال كذلك حتى يتكسر ما على ظهرها من جبل وبناء فلا تسكن حتى يدخل فى بطنها جميع ما خرج منها . وزلزلتها من شدة صوت إسرافيل ـ عليه السلام ـ وذلك إذا فرغت أحيان الدنيا (أحيان الدنيا ، أى : مدتها ، والحين : الوقت ، ويجمع أيضاً على : أحايين وسنينها وشهورها وأوقاتها وأعوامها وأيامها وحلالها وحرامها . وذلك إذا خمد الحق وظهر الباطل وترك الناس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وركبوا المآثم واستحلوا المحارم ، وكثر بينهم القتال ، وترك الجهاد ، وظهر الفساد ، وفشا الربا ، وكثر اللواطة والزنى ، وركبوا الفواحش والفجور ، واستعانوا على ذلك كله بشرب الخمور ، وأمر قوم بالمعروف وتركوه ونهوا عن المنكر وفعلوه ، وأظهروا الخير وأبطنوا خلافه ، وقرئ القرآن فلم يعمل به ، واسودت القلوب ، وكثرت الفواحش والعيوب ، وتزين الفساق بالمعاصى والعيوب (أى : تباهوا بها وأظهروها ولم يتستروا عنها . وهذا واقع فى عصرنا ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله) فإذا كانوا كذلك اشتد غضب الجبار ـ جل جلاله ـ عليهم فعند ذلك يقول الله : يا إسرافيل . انفخ نفخة الصعق (صعق الرجل : غشى عليه ، وصعق من فى السموات ومن فى الأرض ، أى : مات ، وهو المراد هنا) .

فينفخ إسرافيل ـ عند ذلك بأمر الجبار ـ جل جلاله ـ فتزلزل الأرض من مشرقها إلى مغربها ، وذلك من شدة غضب الجبار على المنافقين والفجار .

صفة إسرافيل

وإسرافيل (اسم أعجمى ، ويقال فيه : إسرافين ، أيضاً بالنون) ـ عليه السلام ـ ملك عظيم جناح له بالمشرق وجناح له بالمغرب ، ورجلاه تحت تخوم الأرض السابعة السفلى بخمسمائة عام ، والسموات السبع إلى ركبتيه ، وعنقه ملوى تحت العرش ، والعرش على كاهله ، وقد مد الرجل اليمنى وأخر اليسرى ، واللوح محفوظ بين عينيه وقد التقم الصور وشخص ببصره نحو العرش ، وأنصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر بالنفخ فى الصور ؟ والصور : قرن من نور .

قال النبى ـ ﷺ ـ : ﴿ الصور قرن من نور ، والذى نفسى بيده ، إن أعظم شارة فيه كما بين السماء والأرض ﴾[1] .

---

(1) ورد فى الترمذى ـ (كتاب تفسير القرآن) تفسير سورة الزمر ج ٥ ص ٣٧٢ حديث رقم ٣٢٤٤ عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال أعرابى : يا رسول الله : ما الصور ؟ قال : « قرن ينفخ فيه » .
وقال الترمذى : هذا حديث حسن ، وفى الدر المنثور ج ٧ ص ٢٦٦ وقال فيه : (إن أعظم دارة فيه كعرض .. الخ) .

وروى عنه ـ ﷺ ـ أنه قال : « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته وشخص ببصره نحو العرش وأنصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر أن ينفخ في الصور »(١) (الصور : القرن ، وقيل : هو جمع صورة) فإذا نفخ فيه مات أهل السموات والأرض إلا أربعة أملاك فإنهم لا يموتون إلا بعد موت الخلائق وهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت . فمن شدة صوت إسرافيل تتحرك الأرض من مشرقها إلى مغربها ، فلا يبقى عليها بناء إلا انهدم إلا المساجد فإن أساسها يبقى لا ينهدم لفضلها عند الله ـ تبارك وتعالى ـ لما عبد فيها ووحد وقرىء كلامه فيها . ومثل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾(٢) .

جاء في التفسير أن الأشياء كلها تهلك إلا عملاً يراد به وجه الله ـ تعالى ـ . والمساجد لا تهلك لأنها إنما بنيت لوجه الله تعالى .

خشية النبي من هبوب الريح

روى عن النبي ـ ﷺ ـ أنه كان إذا هبت الريح تغير لونه . وكان يدخل ويخرج مرة بعد أخرى من شدة خوف قيام الساعة وزلزلة الأرض .(٣)

فإذا كان رسول الله ـ ﷺ ـ يخاف هذا الخوف كله وهو أكرم الخلق على الله ، فكيف بمن أفنى عمره في السهو والغفلات ؟ وقطع أيامه باللهو والبطالات ؟ وضيع أوقاته في العصيان حتى مات ؟ وأنشدوا :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم
وشغلك فيما سوف تكره غبه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم
وفعلك فعل الجاهلين بربهم ... وعمرك في النقصان بل أنت ظالم

---

(١) ورد في تاريخ بغداد للخطيب ج ٥ ص ١٥٣ رقم ٢٥٨٧ حديث بلفظ : « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن ، وحنى جبهته ينظر نحو العرش كأن عينيه كوكبان دريان لم يطرف قط مخافة أن يؤمر من قبل ذلك » والحديث رواه أنس بن مالك .

(٢) من الآية ٨٨ من سورة القصص .

(٣) روى ابن ماجه في سننه ج ٢ ص ١٢٨٠ ، ١٢٨١ رقم ٣٨٩١ عن عائشة قالت : كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا رأى مخيلة (سحابة تكون مظنة المطر) تلون وجهه وتغير ، ودخل وخرج ، وأقبل وأدبر ، فإذا أمطرت سُرّي عنه قال : فذكرت له عائشة بعض ما رأت منه ، فقال : « وما يدريك ؟ لعله كما قال قوم عاد : فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا .. الآية » .

وانظر مسند الإمام أحمد (مسند عائشة ـ رضي الله عنها ـ) ج ٦ ص ١٠ فقد رواه بلفظ « كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا رأى الريح قد اشتدت تغير وجهه »

وانظر مجمع الزوائد ج ٢ ص ٢١١ فقد رواه عن أنس .

فلا أنت في الأيقاظ يقظان حازم ... ولا أنت في النوام ناج وسالم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى ... كما سر باللذات في النوم حالم
فلا تحمد الدنيا ولكن فذمها ... ولا تكثر العصيان ، إنك ظالم

وروى عن النبي — ﷺ — أنه قال : « انتهيت ليلة أسرى بي إلى السماء السابعة ، فرأيت إسرافيل قد حنى جبهته وقدم رجلا وأخر أخرى والعرش على منكبه (مجمع عظم العضد والكتف) والصور في فيه بين شدقيه . وقد تهيأ للنفخ في الصور . فما ظننت أن أبلغ الأرض حتى لنفخ النفخة ، كما رأيت من تهيئه للنفخة »[1] .

سئل رسول الله — ﷺ — عن إسرافيل فقال : « إنه جناح بالمشرق وجناح له بالمغرب ، ورجلاه تحت الأرض السابعة السفلى والعرش على كاهله (ما بين الكتفين) وإنه ليفكر كل يوم ثلاث ساعات في عظمة الله — تعالى — فيبكي من خوف الجبار حتى تجرى دموعه كالبحار ، فلو أن بحرا من دموعه أذن له أن يسكب لضاق بين السموات والأرض ، وإنه ليتوضع ويصغر حتى يصير كالوضع » والوضع طير صغير يشبه العندليب . والعندليب أصغر ما يكون من الطير .

فالله يا معشر من آمن بالله واليوم الآخر ، استعد ليقيام الساعة وزلزالها .

قال الله — تعالى — : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ تتحرك الأرض وتمخض ، وتتطاير الجبال وتنقلع الشجر ، وتنهدم المباني ، فلا يبقى على ظهرها من جبالها وشجرها ونباتها شيء إلا دخل في جوفها .

قال عكرمة : إنما تقوم الساعة على شر الخلق .

متى ينفخ في الصور ؟

قال حذيفة : كان الناس يسألون النبي — ﷺ — عن الخير وكنت أنا أسأله عن الشر مخافة أن يصيبني . فكان النبي — ﷺ — يقول : « في آخر الزمان فتن كقطع الليل المظلم فإذا غضب الله — تعالى — على أهل الأرض أمر الله — تعالى — إسرافيل أن ينفخ نفخة الصعق ، فينفخ على غفلة من الناس ، فمن الناس من هو في وطنه ، ومنهم من هو في سوقه ، ومنهم من هو في حرثه ، ومنهم

(١) انظر أحاديث الصور وبدء خلق وصوت الملائكة ومنت الموت في الدر المنثور ج ٧ ص ٢٤٩ — ٢٦٢ .

من هو في بفره ، ومنهم من يأكل فلا يرفع اللقمة إلى فيه حتى يخمد ويصعق ، ومنهم من يحدث صاحبه فلا يتم الكلمة حتى يموت ، فتموت الخلائق كلهم عن آخرهم .

وإسرافيل لا يقطع الصيحة حتى تغور عيون الأرض وأنهارها ، ونبتها وأشجارها وجبالها وبحارها ، ويدخل الكل بعضه في بعض في بطن الأرض ، والناس جمود صرعى ، فمنهم من هو صريع على بطنه ، ومنهم من هو صريع على ظهره ، وعلى جنبه ، وعلى خده ، ومنهم من يكون لقمة في فيه يموت ولم يدرك أن يبتلعها ، وتنقطع السلاسل التي فيها قناديل النجوم فتستوى بالأرض من شدة الزلزلة ، وتموت ملائكة السبع السموات ، والحجب والسرادقات والصافون والمسبحون ، وحملة العرش والكرسي ، وأهل سرادقات الكروبيين (طائفة من الملائكة ، سموا كروبيين لشدة حزنهم وصبر عبادتهم وهم كالأوتاد في الناس) ويبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت — عليهم السلام — .

كيف يموت جبريل ؟

فيقول الجبار — جل جلاله — : يا ملك الموت من بقى ؟ — وهو أعلم — فيقول ملك الموت : سيدى ومولاى أنت أعلم ، بقى إسرافيل ، وبقى جبريل ، وبقى ميكائيل وبقى عبدك الضعيف ملك الموت ، خاضع ذليل قد ذهلت نفسه لعظيم ما عاين من الأهوال ، فيقول له الجبار — تبارك وتعالى — : انطلق إلى جبريل فاقبض روحه . فينطلق ملك الموت إلى جبريل — عليه السلام — فيجده ساجداً وراكعاً . فيقول له : ما أغفلك عما يراد بك يا مسكين ، قد مات بنو آدم وأهل الدنيا والأرض والطير والسباع والهواء وسكان السموات وحملة العرش والكرسي والسرادقات وسكان سدرة (شجرة) المنتهى . وقد أمرنى المولى بقبض روحك ! فعند ذلك يبكى جبريل — عليه السلام — ويقول متضرعاً إلى الله تعالى : يا الله : هون على سكرات الموت . فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه فيخر جبريل — صريعاً . فيقول الجبار — جل جلاله — : من بقى يا ملك الموت ؟ — وهو أعلم — فيقول : مولاى وسيدى بقى ميكائيل وإسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت .

كيف يموت ميكائيل ؟

فيقول الجبار — جل جلاله — : انطلق إلى ميكائيل فاقبض روحه ، فينطلق ملك الموت إلى ميكائيل كما أمره الله — تعالى — فيجده ينتظر الماء ليكيله على السحاب ، فيقول له : ما أغفلك يا مسكين عما يراد بك ! ما بقى لبنى آدم رزق ولا للأنعام ولا للوحوش ، ١١٧ .

الأرضين وأهل الحجب والسرادقات وحملة العرش والكرسي وسرادقات المجد والكروبيون والصادقون والمسبحون . وقد أمرني ربي بقبض روحك ، فعند ذلك يبكي ميكائيل ويتضرع إلى الله ويسأله أن يهون عليه سكرات الموت فيحتضنه ملك الموت ويضمه ضمة يقبض فيها روحه فيخر صريعاً ميتاً لا روح فيه ، فيقول الجبار — جل جلاله — : من بقي — وهو أعلم — يا ملك الموت ؟ فيقول : مولاي وسيدي : أنت أعلم ، بقي إسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت

كيف يموت إسرافيل ؟

فيقول الجبار — تبارك وتعالى — : انطلق إلى إسرافيل فاقبض روحه ، فينطلق كما أمره الجبار إلى إسرافيل فيقول له : يا إسرافيل ، مسكين عما يراد بك ! قد مات الخلائق كلهم ولم يبق أحد ، وقد أمرني ربي ومولاي أن أقبض روحك . فيقول إسرافيل : سبحان من قهر العباد بالموت ، سبحان من تفرد بالبقاء . ثم يقول : مولاي : هون علي مرارة الموت . فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه فيخر ميتاً صريعاً . فلو كان أهل السموات في السموات وأهل الأرض في الأرض لماتوا كلهم من شدة رجة وقعته .

كيف يموت ملك الموت ؟

فيقول الجبار — تبارك وتعالى — : من بقي يا ملك الموت ؟ وهو أعلم .. فيقول : مولاي وسيدي : أنت أعلم بمن بقي . بقي عبدك الضعيف ملك الموت . فيقول الجبار — تعالى — : وعزتي وجلالي لأذيقنك ما أذقت عبادي ، انطلق بين الجنة والنار ومت ، فينطلق بين الجنة والنار ، فيصيح صيحة لولا أن الله — تبارك وتعالى — أمات الخلائق ، لماتوا من عند آخرهم من شدة صيحته ، فيموت ، فتبقى السموات خالية من أملاكها ، ساكنة أفلاكها ، وتبقى الأرض خاوية من إنسها وجنها وطيرها وهوامها وسباعها وأنعامها ، ويبقى الملك لله الواحد القهار ، الذي خلق الليل والنهار . فلا ترى أنيساً ، ولا تحس حسيساً . قد سكنت الحركات ، وخمدت الأصوات ، وخلت من سكانها الأرضون والسموات .

لمن الملك اليوم ؟

ثم يطلع الله — تبارك وتعالى — إلى الدنيا فيقول : يا دنيا : أين أنهارك ؟ وأين أشجارك ؟ وأين سكانك ؟ وأين عمارك ؟ وأين الملوك وأبناء الملوك ؟ وأين الجبابرة وأبناء الجبابرة ؟ أين الذين أكلوا رزقي ، وتقلبوا في نعمتي وعبدوا غيري . لمن الملك اليوم ؟

فلا يجيبه أحد ، فيقول ــ تعالى ــ : الملك لله الواحد القهار ، فينظر الجبار ــ جل جـ
إلى عبده موتى من بين صريع على خده ، ومن بين بال في قبره ، ثم يقول : يا دنيا : أين أ
وأين شجارك ؟ وأين سكانك وأين عمارك ؟ وأين الملوك ؟ وأين الجبابرة ؟ لمن الملك اليوم ؟ فـ
أحد . فيقول ــ تعالى ــ : لله الواحد القهار . فتبقى الأرضون والسموات ليس فيها من يتنـ
من يتنفس ما شاء الله من ذلك ، وقد قيل : تبقى أربعين يوماً وهو مقدار ما بين النفختين ،
ذلك ينزل الله ــ تبارك وتعالى ــ من السماء السابعة ــ من بحر يقال له : بحر الحيوان ــ مـ
مني الرجال ينزله ربنا أربعين عماً ، فيشق ذلك الماء الأرض شقاً ، فيدخل تحت الأرض إلى
البالية فتنبت بذلك الماء كما ينبت الزرع بالمطر .

كيفية بعث الموتى

قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ﴾ إلى قوله : ﴿
نخرج الموتى ﴾[1] الآية . كما أخرج النبات بالمطر ، كذلك يخرج الموتى بماء الحياة . فتجتمـ
والعروق واللحوم والأشعار فيرجع كل عضو إلى مكانه الذى كان فيه في دار الدنيا . حتى
بقدرة الجبار ــ جل جلاله ــ وتبقى بلا أرواح ، ثم يقول الجبار ــ جل جلاله ــ : ليحيى إ
فيقوم إسرافيل ــ عليه السلام ــ حياً بقدرة الله ــ تعالى ــ فيقول له الجبار : يا إسرافيل : النفـ
وازجر عبادى لفصل القضاء ، فأول ما يحيى الله ــ تبارك وتعالى ــ إسرافيل ويأمره أن يلتقم

صفة الصور .

والصور : قرن من نور فيه أثقاب على عدد أرواح العباد فتجتمع الأرواح كلها فتحل في

أين يقف إسرافيل ؟

ويأمر الجبار إسرافيل أن يقف على صخرة بيت المقدس وينادى في الصور ، وهو في فيه قد
والصخرة أقرب ما في الأرض إلى السماء ، وهو قوله ــ تعالى ــ : ﴿ واستمع يوم ينادى
مكان قريب ﴾[2] .

---

(1) الآية ٥٧ من سورة الأعراف

(2) الآية ٤١ من سورة ق

ذكر أن العبد إذا خرج من قبره ، وجد عمله السوء حزمة وملك من ملائكة العذاب واقف عليها ، فإذا نظر إلى ما قدم فى أيامه ؛ قال له الملك : يا عدو الله خذ عملك فاحمله على ظهرك كما كنت تلتذ به فى الدنيا ولم تراقب مولاك . وقد علمت أنه مطلع عليك ويراك ، فيأخذ العبد المسكين تلك الحزمة فيجدها على ظهره أثقل من جبال الدنيا ، والنار تسوقه إلى الموقف ، وملك يسوقه سوقاً حثيثاً بالعنف والانتهار والإغلاظ عليه ، والحر يشهد عليه مع علم الله — تعالى — فيه . وأنشدوا :

كيف احتيالى إذا جاء حساب غداً ... وقد حشرت بأثقالى وأوزارى
وقد نظرت إلى صحفى مسودة ... من شؤم ذنب قديم العهد أوطارى
وقد تجلى عند الحشر خالقنا ... يوم المعاد ويوم الذل والعار
يفوز كل مطيع للعزيز غداً ... بدار عدن وأشجار وأنهار
لهم نعيم خلود لانفاد له ... يخلدون بدار الواحد البارى
ومن يعصى فى قعر النار مسكنه ... لا يستريح من التعذيب فى النار
فابكوا كثيراً فقد حق البكاء لكم ... خوف العذاب بدمع واكف جارى

فالله الله يا أولى الألباب ، تفكروا فى هول يوم الحساب ، ولا تنسوا المطالبة برد الجواب ، وأشفقوا على أنفسكم من أليم العقاب . وارجعوا إلى طاعة رب الأرباب ، وابكوا على ما سلف من ذنوبكم بانتحاب .

مدة النفخ فى الصور

ذكر أن إسرافيل — عليه السلام — لا يقطع النداء فى الصور حتى تخرج الأرض جميع ما فيها من الموتى ومما أودعها الله — تعالى — من شىء ، فإذا كمل العباد فى الموقف وكل إنس الأرض وجنها ، ووحوشها ودوابها ، وطيرها وأنعامها وهوامها حتى الذباب ، قطع إسرافيل النداء بأمر الله — تعالى — وذلك بعد تبديل الأرض غير الأرض والسموات ، ففى تبديلها قولان :

هيئة أرض الحساب

أحدهما : أن الأرض التى يحاسب العباد عليها هى أرض من فضة بيضاء ، لا جبل فيها ولا بناء ، ولا غار ولا أنهار ولا أشجار ، لم يسفك عليها دم ، ولا عصى الله — تعالى — عليها . يأتى بها من غامض علمه . ويقول لها : كونى فتكون ، وقد أضرم تحتها النيران ، وتكون هذه الأرض فى عظم تلك الأرض مثل الشعرة البيضاء فى الثور الأسود .

وقد قيل : ان تبديل الأرض هدم مبانيها ، وغور مياهها ، وانقطاع أشجارها ، وتسجير بحارها ، وتسيير جبالها ، وتبديل السماء ، وتكوير شمسها وقمرها ، وانكدار نجومها ، وتعطيل أفلاكها ، وتشققها ، فهذا تبديل الأرض والسموات . والله أعلم بحقيقة ذلك .

كيف يقف الناس فى المحشر ؟

فإذا قطع إسرافيل — عليه السلام — النداء وقف الخلائق كل واحد منهم ينظر إلى السماء ، ولا يرتد إليه طرفه ولا يدرى أحد من يقف بجواره ، لا رجل ولا امرأة ، ولا يدرى لأخ بأخيه ، ولا الوالد بولده ، ولا الأم بابنها ، كل إنسان منهم مشغول بما هو فيه من عظيم الأهوال ، وكل واحد منهم يفكر فيما جاء به من العصيان ، وفرط فيه من الطاعة والنسيان ، فالكل ينظر إلى ما ينزل به الأمر من السماء من شقاوة أو سعادة .

مقدار زمن المحشر

ويقال — والله أعلم — : ان الوقوف يكون مقدار ثلاثمائة سنة من سنين الدنيا . لا خبر ينزل ولا خبر يصعد ، قد كثر الزحام فلا تسمع إلا همس الأقدام ، حيارى نادمون فيما فرطوا فيه من استزلال القدم ، يومئذ لا ينفع البكاء ولا الندم . وأنشدوا :

ليس فى الدنيا لمن آ ... من بالبعث سرور
إنما يفرح بالد ... نيا جهول أو كفور
إنما الدنيا متاع ... كل ما فيها غرور
فتذكر هول يوم ... السما فيه تمور

بكاء النبى من أهوال القيامة

روى عن رسول الله — ﷺ — أنه قال : « خوفنى جبريل — عليه السلام — من أهوال يوم القيامة حتى أبكانى ، فقلت له : حبيبى جبريل : أليس قد غفر الله لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر ؟

فقال : يا محمد : لتشاهدن من الأهوال يوم القيامة ما ينسيك المغفرة . فبكى رسول الله ــ ﷺ ــ حتى بلت دموعه لحيته »[1]

فإذا كان رسول الله ــ ﷺ ــ يبكي من هول يوم الحساب وقد أمَّنه الجبار من أليم العذاب ، ووعده بالجنة وحسن المآب . فكيف بأمثالنا المساكين ؟ وكيف بمن ترك الحق والصواب ، وخالف السنة والكتاب ، وأطاع الشيطان ، وأفنى عمره في معصية الملك الوهاب ؟ وقد قيل في قوله ــ تعالى ــ : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكًّا دكًّا ﴾[2] هو تحريكها ، وقيل : دكًّا دكًّا : اذهاباً .

معنى دكِّ الأرض وانشقاقها

سئل بعض العلماء عن معنى تكرار هاتين الكلمتين . دكًّا دكًّا ، وصفاً صفاً ؟ فقال :

تدكدك الأرض دكًّا بعد دك ، أي : تحريك مرة بعد أخرى حتى لا يبقى عليها أثر من بناء أو جبل أو شجر . وقوله : صفاً صفاً : تأتي الملائكة صفاً بعد صف ، كل ملك قد شغل بنفسه ، لعظم ما يرى من ظهور الأهوال ، فإذا كثر زلزال الأرض ﴿ وحُملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾[3] حتى تنقطع الجبال من أصولها ، وتنشق الأرض وتغور فيها أنهارها وعيونها ، ويندحض فيها كل قصر مشيد ، من بين قديم وجديد . فياله من يوم ما أهوله !! ومن بلاء ما أطوله !! ومن جبار ما أعدله !! قد أفنى العباد بحسام (الموت) فلا يرى أحد من الأنام . فإذا استوى الأولون والآخرون في أرض القيامة ، أمر الله ــ تبارك وتعالى ــ السموات أن تنشق ، فتنشق كل سماء ، وتتقطع كتقطع السحاب ، وقيل : كما يتطاير القطن بين يدى القطانين إذ ندفوه .

فمثل لنفسك صوت انشقاقها في سمعك ، وكيف يثبت له فؤادك ، ويستقر لفظاعة هوله قدمك ، فقدم في أيام حياتك ما يقيك تلك الأهوال ، لأن الخلق في أهوال يوم القيامة على قدر أعمالهم في الدنيا من خير وشر ، فمن عمل صالحاً وخاف من ربه ، وخاف من هول ذلك اليوم ، أمنه الله من جميع أهواله وكروبه ، ومن لم يقدم في دنياه عملاً صالحاً لآخرته لقيته صعاب الخطوب ، وترادفت عليه الغموم والكروب ، فيندم حين لا تنفعه الندامة ، إذا حل في أهوال القيامة .

---

(١) انظر مختصر التذكرة (تذكرة القرطبي) للإمام الشعراني ، باب ذكر ما يلقى الناس في الوقف من الأهوال والشدائد ص ٥٠ قد أورده عن ابن الجوزي غير معزو إلى مرجع من كتب الحديث .

(٢) الآية ٢١ من سورة الفجر .

(٣) الآية ١٤ من سورة الحاقة .

الأمن والخوف

روى عن رسول الله – ﷺ – أنه قال : يقول الله – تبارك وتعالى – : « إذا خافني عبدي في الدنيا أمنته يوم القيامة وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة » فإذا انشقت السموات بلغت القلوب الحناجر ، وأيقن كل عبد وأمة أنه قادم على ما عمل في الضمائر والسرائر ، إذا انشقت السموات عمت المصائب ، وكثرت النوائب ، وندم الصبى على ما فرط في الدنيا وضيع من الثواب والرغائب .

فإذا انشقت السموات عظمت الرزيات ، وكثرت الآفات ، وظهر العذاب ، وجحد العقوبات ، وأخذ له محبات السرورات ، وندم العبد المغرور على ما أذنب في الأيام والأوقات ، وما جرى في الشهور والساعات .

فإذا انشقت السموات كثرت الأحزان ، وبرزت النيران – وأزلفت الجنان ، وندم العاصى على ما عمل من العصيان ، وعلى ما فرط فيه من طاعة الرحمن .

فانتبهوا لهذه الأهوال ، يا معشر الأخوان ، يا أهل الإسلام والإيمان ، فإن الهول – والله – عظيم ، والخطب كبير جسيم .

ملائكة سماء الدنيا

إذا انشقت السموات وتقطعت وتزلت الملائكة بأجمعها ، فإذا نزلت ملائكة سماء الدنيا فزع منهم أهل الأرض ، وظنوا أنه قد أمر فيهم بأمر ، فتقول لهم ملائكة سماء الدنيا : لا تجزعوا منا ، فإنا نخاف من الذى تخافون ، وتكون ملائكة سماء الدنيا أكثر من أهل الأرض إنسها وجنها ، وأنعامها وطيرها ووحوشها ، وجميع خلق برها وبحرها ، سبعين ضعفاً ، فيبقى العبد يموج بعضهم في بعض .

ملائكة السماء الثانية

ثم تنزل ملائكة السماء الثانية وهم أكثر عدداً وأعظم خلقاً من جميع من في الأرض سبعين ضعفاً ، فتجزع منهم ملائكة سماء الدنيا وجميع من في الأرض ، فيقولون لهم : لا تجزعوا ، نحن مشغولون

أنفسنا ، ونخاف مما تخافون منه . فلا تزال ملائكة كل سماء تنزل ويجزع منهم جميع من سبقهم ، ويكون أهل كل سماء أكثر وأعظم ممن سبقهم سبعين ضعفاً ، وكان أهل كل سماء في صف واحد على حدة ، كل واحد منهم قد شغل نفسه من عظيم ما يرى وما يبدو له . وأنشدوا : —

يا غافلين أفيقوا قبل بعثكم ... وقبل يؤخذ بالأقدام واللمم
والناس أجمع صرعى حصون غداً ... لا ينطقون بلا بكم ولا صمم
والخلق قد شغلوا والحشر جامعهم ... والله طالبهم بالحل والحرم
وقد تبدى لأهل الجمع كلهم ... وعد الإله من التعذيب والنقم
وكل نفس لدى الجبار شاخصة ... لا ينطقون ، بلا روح من الرحم

الجبابرة فى الحشر كالذر

روى أن الجبابرة يحشرون يوم القيامة على صورة الذر (صغار النمل ، وقد وردت جملة أحاديث تؤيد ذلك ، وخصوصاً فى قصة الإسراء عند الكلام على رؤيته — ﷺ — للعصاة والمذنبين ، أصغر الناس خلقة ، لتجبرهم على العباد فى الدنيا ، قد صارت العزة للغنى الحميد ، ولزمت الذلة على كل جبار عنيد ، وشيطان مريد ، قد ترادفت عليهم الهموم والأهوال ، وظهرت لهم العقوبات والأنكال ، وندم كل مذنب بطال . فحينئذ لا حيلة لمحتال فى (يوم لا بيع فيه ولا خلال)[1] .

شعر :

مقام المذنبين غداً عسير ... إذا ما النار قربها القدير
وقد نصب الصراط لكى تجوزوا ... فلا ينجو لكبير ولا لصغير
وقد نسفت جبال الأرض نسفاً ... وسجرت البحور فلا تحور
وبرزت الجحيم لكل عبد ... على أهل المعاد لها زفير

عباد الله تفكروا واعتبروا ، وابكوا وتباكوا ، واستعدوا لليوم الثقيل ، والهول الكبير ، والخطب الجليل ، والعذاب الشديد الطويل .

حديث فى أهوال يوم القيامة

ذكر فى بعض الأخبار عن المختار — ﷺ وعلى آله الأخيار ، دوام اختلاف الليل والنهار — أنه قال : « ليوم القيامة مائة ألف هول ، كل هول أعظم من الموت مائة ألف مرة » .

---

(١) من الآية ٣١ من سورة إبراهيم

فاندم يا مسكين على ما صنعت وفات، وأصلح بالتوبة النصوح ما هو آت، من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، ليس للظالمين من نصير، ولا للعاصين من مجير، ولا لأحد من ملجأ ولا نكير.

شدة الحر والظل

فإذا تكامل أهل السموات، وأهل الحجب والسرادقات، وحملة العرش والكرسي، وجميع أهل الأرض في عرصة القيامة، وازدحمت الخلائق واختلفت الأقدام، وشخصت الأحداق، وتطاولت الأعناق واشتد من شدة العطش، واجتمع زحام الخلائق وأنفاسهم وشدة حر الشمس وضيق الناس، ارتفع العرق على وجه الأرض حتى يعلو على الأبدان، ويعم العباد على قدر منازلهم ورتبهم التي أنزلتهم عليها أعمالهم التي عملوها في دار الدنيا، وقد زيد في حر الشمس ما يضاعف - قيل حر عشر سنين - ولا ظل يومئذ إلا ظل العرش، فلا يصيب منه عبد ولا أمة إلا على قدر عمله، فكم بين مستظل ناعم بظل العرش، وبين ضاح باد بحر الشمس ؟

مطر الرحمة

وقد قيل: إن الله - تعالى - يمطر يوم القيامة الغيث على طائفة من عباده وترمي جهنم شررها على طائفة أخرى، فكم بين مسترخ ببرد الأمطار وبين ملتهب بحر شرر النار؟ فمن قطع عمره في الدنيا بطاعة الرحمن وعمل بالسنة والقرآن، خلصه مولاه من جميع الهموم والأحزان.

ترهيب من أهوال الحشر

فمثل لنفسك وقد نظرت للجبال قد تقلعت من أصولها، وصارت مثل السراب، وتقطعت السموات وتطايرت مثل قطع السحاب، وقد أيقن كل فاجر وكافر بالحلول في أليم العذاب، وقد صارت العزة لذي البطش الشديد، وذمت الزلة كل جبار عنيد، ثم رجعت السماء كالمهل - وهو دردي الزيت الذي يجلس في قعر الإناء (والمهل أيضاً: النحاس المذاب. والمهل: قيح والصديد) قيل: ترجع السماء كالدهن الرقيق، وترجع الجبال كالعهن المنفوش، وهو أضعف ما يكون من الصوف، وتصير الخلائق كالفراش وهو العوض، وقيل: كالجراد المنتشر إذا خرجت عليه الشمس لا يأخذ جهة واحدة، كذلك الخلق يموج بعضهم في بعض، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه. قد اجتمعت القيامة بأهوالها، ووضعت الحوامل أحمالها، وزلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، وشهد على

الأمم بأعمالها ، وشاب الوليد ، وحضر الوعد وحق الوعيد ، وعظم الهول الشديد ، وذل كل متكبر وجبار عنيد ، قد خضعت الرقاب لرب الأرباب ، وخاب كل كفار كذاب ، واشتد الهول وعظم العذاب ، فتفكروا فيما تسمعون يا معشر الأحباب ، وانظروا لأنفسكم ياجماعة الإخوان والأصحاب ، واستعدوا لأهوال القيامة يا أولى العقول والألباب . وأنشدوا :

مثل لنفسك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
قد كورت (1) شمس النهار وأضعفت (2) ... حرًا على رؤوس العباد تفور
وإذا الجبال تقلعت بأصولها ... فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت ... وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا العشار تعطلت عن أهلها ... خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لدى القيامة أحضرت ... وتقول للأملاك أين نسير
فيقال سيروا تشهدون فضائحا ... وعجائبا قد أحضرت وأمور
وإذا الجنين بأمه متعلق ... خوف الحساب وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف جنايته ... كيف المصر على الذنوب دهور ؟

جهنم فى المحشر

فإذا اشتد الفرق ، وسال العرق ، أمر الجبار — جل جلاله — أن يؤتى بجهنم — أعاذنا الله وإياكم منها ، وزحزحنا وإياكم عنها برحمته — فيؤتى بها وأهوالها وأنكالها وسلاسلها وأغلالها ، وقد اشتد جحيمها ، وغلى حميمها ، وكثر زقومها ، وغضب زبانيتها ، وعظم سم حياتها وعقاربها ، واسودت جبالها ، وهاجت بحارها ، ونتن صديدها ، وغلى سمومها ، وقد جمعت مما خلق الله فيها من عظيم بلائها . فأبرزت للخلائق وهم ينظرون إليها من مسيرة خمسمائة عام .

وصف جهنم

قال الله — تعالى — : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ (3) فيراها الخلائق كلهم وهى تتغاظ على العباد ، وتغضب لغضب الجبار — جل جلاله — وتتغيظ وتسعر ، عليها سبعون ألف زمام من حديد ،

(1) كورت الشمس : قال ابن عباس : غورت . وقال قتادة : ذهب ضوؤها . وقال أبو عبيدة : مثل تكوير العمامة ، تلف فتمحى .
(2) أضعفت : أى : زيد عليها مثلها أو أكثر ، ويريد أن الشمس زادت حرارة بعد تكويرها .
(3) الآية ٣٦ من سورة النازعات .

قد تعلق بكل زمام سبعون ألف ملك من ملائكة النار يحبسونها عن الخلائق ، وهي تريد أن تنفلت من أيديهم وتأتي على أهل الموقف ، والملائكة الذين يحبسونها : وجوههم مثل الجمر ، وأعينهم مثل البرق الخاطف . فإذا تكلم أحدهم تناثرت النار من فيه ، بيد كل واحد منهم أرزبة من حديد ... من نار فيها اثنان وسبعون ألف رأس من نار كأمثال الجبال الراسيات العظام ، ورءوسها كرءوس الأفاعي . وهي أخف في يدى الملك من الريشة ، وأعينهم زرق ، ووجوههم كالحة ، قد خلقوا من نار السموم . تريد جهنم أن تنفلت من أيدى الملائكة من غضب الجبار — جل جلاله — هذا كما قاله الصحابة عن الأئمة عن ابن عباس — رضى الله تعالى عنهم —

بطش جهنم

فإذا جاءت جهنم بأمر الله — تبارك وتعالى — جاءت بالهول الأكبر ، والفزع الأعظم . فيخرج من نفس وهج شديد ، ويسمع من جوفها دوى سلاسل الحديد فإذا قربت من الخلائق سمعوا لها شهيقاً ورأوا لها حريقاً ، فإذا نظرت في أهل المعاصي ثارت وفارت ، وأرادت أن تثب عليهم ، فخافت وتمحصت إليهم ، وأرادت أن تأتي على جميع الخلائق ، فلا يجدون منفذاً ولا مكاناً يستغيثون إليه ، ومنادى ينادى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾[1] ، أي : حجة ، ثم ترجع جهنم بسلطانها على جرائها لشدة غضب الجبار على من عصى الله وخالف رسوله . فإذا انفلتت من أيدى الزبانية ، أرادت أن تقبض على كل من في الموقف ، فيعرض لها — صلوات الله وسلامه عليه — محمد الرسول ، وكل نبي يومئذ بنفسه مشغول .

رد الرسول جهنم عن الخلائق

يأخذ محمد — ﷺ — بزمامها ، ويقبض عن خطامها ، فيردها على عقبها ، وهو — ﷺ — يقول لها : كفى عن أمتي . فتخمد من نوره — ﷺ — وتناديه : أيها النبي الكريم ، والرسول المشرف المعظم ، خل سبيلي من يديك ، فما جعل الله لي ولا لغيرى من سلطان عليك . فيناديها منادى الجبار : هذا محمد حبيبي سيد الأبرار ، ووزير الأخيار ، فالطاعة لمن له الوسيلة والشفاعة ، فعند ذلك تضع جهنم رأسها خاضعة كالحة كئيبة تحت سكون وخمود ، بإذن الملك المعبود ، محمد — ﷺ — صاحب الحوض المورود ، والمقام المحمود ، واللواء المعقود ، والكرم والجود ، وإقامة الخلائق والحدود . ولو تركها خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، لأهلكت الخلائق أجمعين ، غضباً لغضب رب العالمين ، أعاذنا الله وإياكم برحمته منها — إنه أرحم الراحمين .

---

(١) الآية ٣٣ من سورة الرحمن

من أسباب غفران الذنوب

حكي عن بعض العارفين ـ رحمه الله ـ أنه قال: حضرت سنة من السنين الوقوف بعرفات، فإذا بضجة الناس، فتذكرت يوم القيامة، وذكرت رحمة الله، فأردت أن أحلف أن الله قد غفر لكل من في الجمع، فتذكرت أني فيهم فأمسكت. وأنشدوا:

يا كثير الذنوب أقصر قليلاً ... قد بلغت المدى من الإسراف

فإذا اشتد بالخلائق سعي، وكثر منهم الخوف والجزع، وبلغت القلوب الحناجر، من خوف من يعلم الظواهر والسرائر، نادى الملك الرحمن: «يا عباد: لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون»(١). فإذا سمع الخلائق هذا النداء طمع كل منهم فيه. فيقول ـ سبحانه ـ: **﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾(٢)** فعندئذ يأس من الرحمة جميع الكفار والمنافقين والفجار. ويطمع فيها من آمن بالواحد القهار، واتبع سنة محمد المختار.

عند ذلك تنشر الدواوين، وتوضع الموازين، وتتطاير الصحف في الآفاق، فكل امرئ بما اكتسب معترف، فندم من ندم، وخسر الآثم. وظهرت في الصحائف الفضائح، وكثر الخجل، واشتد الوجل، وبدت الفضائح. وشهدت على كل امرئ حفظته والجوارح.

وأنشدوا:

طال والله بالذنوب اشتغالي ... وتماديت في قبيح فعالي
ليت شعري إذا أتيت فريداً ... والموازين قد نصبن حيالي
والدواوين قد نشرن وجئنا ... والنبيون يشهدون سؤالي
ما اعتذاري وما أقول لربي ... في سؤالي وما يكون مقالي؟
أورثتني الذنوب نار جحيم ... لست أبقى لها ولا تبقى لي
يا عظيم الجلال ما لي عذر ... بل حقيق أنا بنار النكال
غير أن الرجاء منك مكين ... فارحم العبد يا جميل الفعال
وتفضل على شقي مسيء ... ليس يرجو سواك يا ذا الجلال

(١) الآية ٦٨ من سورة الزخرف

(٢) الآية ٦٩ من سورة الزخرف

هذا يوم الدين

روى عن رسول الله ــ ﷺ ــ أنه قال: «إذا جمع الله ــ تبارك وتعالى ــ الأولين والآخرين نادى مناد: هذا يوم الدين، هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون»(١).

فانظر لنفسك يا مسكين، يا ضعيف الإيمان واليقين، يا من يقول إنه من المؤمنين المصدقين، وهو يعمل أعمال المكذبين المخالفين، التاركين لسنن سيد المرسلين وخاتم النبيين. ما أجرأك أن تكون عند الله من الكاذبين، لو خفت من عذاب يوم الدين، لعملت بقرآن مبين، ولو كنت من المؤمنين المصدقين، لأطعت رب الأولين والآخرين. فسل مولاك أن يخرج عنك ما قد نزل بك من داء الذنوب، وهتك سترك من القبائح والعيوب. وأنشدوا:

يا طبيب الذنوب والآثام … هل دواء أبرأنه من سقامي؟
إن داء الذنوب أضعف جسمي … ومشيبي مؤذن بحمامي
وشقائي أعيا الأطباء إني … قد تعديت منتهى بآخره
وركبت الذنوب سراً وجهراً … وتباعدت من محل الكرام
كيف بالطب أن يعالج سقمي … وكلامي يزيد قرح كلامي(٢)
أيها الناس قد علمتم ذنوبي … واغتراري وشقوتي واجترامي
وأنا أرغب الدعاء فجدوا … في فكاكي من الذنوب العظام
واشتياق إلى الطواف شديد … وإلى الركن والصفا والمقام
وإلى يثرب يحن فؤادي … كي أزور النبي خير الأنام
فسلوا الله في الوصول فإني … ذو اشتياق لحج بيت حرام
علّ الإله يغفر جرمي … وينجيني من هول يوم القيام
ويفك ذو الجلال عبداً ضعيفاً … مات خوفاً من عذاب الغرام

---

(١) روى ابن كثير في تفسيره (تفسير سورة المرسلات) ج ٤ ص ٤٦١ عن ابن أبي حاتم بسنده عن أبي عبد الله الجدلي قال: أتيت بيت المقدس فإذا عبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو وكعب الأحبار يتحدثون في بيت المقدس. فقال عبادة: «إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي، ويقول الله: هذا (يوم الفصل جمعناكم والأولين. فإن كان لكم كيد فكيدون) اليوم لا ينجو مني جبار عنيد ولا شيطان مريد».

(٢) الأولى: كلامه، أي: ألفاظه ــ بفتح الكاف ــ والثانية بكسرها، أي: جروحه.

موعظة كعب الأحبار

روى أن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قال لكعب : يا كعب خوفنا . فأطرق برأسه ثم رفع رأسه وعيناه تذرفان دموعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين : والذى نفس كعب بيده ، إن جهنم لتزفر زفرة فتقطع السلاسل التى بأيدى الزبانية الذين يمسكونها بها حتى تفيض على أهل الجمع ، وتلقى الزبانية على وجوههم ، وينهزم مالك خازنها من بين يديها ، فلو كان لكل آدمى عمل مائة ألف نبىّ ، ومائة ألف صدّيق ، ومائة ألف شهيد ، لحقر عمله ولظن أنه لا ينجو منها . فعند ذلك يعرض لها النبى ــ ﷺ ــ وقد أشرقت القيامة من نور وجهه ، فيأخذ بزمامها ويقول لها : كفى عن أمتى ، كفى عن أمتى ، كفى عن أمتى (ثلاثاً) فتقول له : يا أيها النبى الكريم ، والرسول الرءوف الرحيم ، ما جعل الله لى عليك ولا على أمتك من سبيل . فعند ذلك يتعلق العبد المذنب إذ رأى لأهوال العظام بالنبى ــ عليه الصلاة والسلام ــ فيقول : يا رسول الله : أنقذنى من عذاب الله . فيقول له : ألم أبلغك رسالة ربى فلم عصيت ؟ فيقول له العبد المذنب : يا رسول الله غلبت على شقوتى . فيقول ــ ﷺ ــ : لا شقوة على أحد من أمتى . ولا على من قال فى الدنيا مخلصاً : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فيشفع له إلى الله تعالى فيشفع فيه .

وأنشدوا :

ألا أكـرم بـأحمد ذى الأيـادى ... شفيـع النـاس فى يـوم التنـادى
إذا نشر الخلائـق مـن قبـور ... عـراة يبتغـون نـدا المنـادى
وقـربت الجحيم لمن يراهـا ... فبـالله مـن خـوف العبـاد
وقـد زفـرت جهنـم فاستكانـوا ... سقوطـاً كالفـراش والجراد
وقـد بلـغت حناجرهـم قلـوب ... وقـد شخصوا بـأبصار حـداد
فيـا جبار عفـواً منـك فالطـف ... ويـا رحمن رفقـاً بالعبـاد
ونـودوا للصراط ألا هلمـوا ... فهـذا ويحكـم يـوم المعـاد
تسوقكـم إليـه سوق عنـف ... مقامـع مـن زبانيـة شداد
ألا يـا معشر الاسلام هـبوا ... مـن الإغفـال فى غمـر الرقـاد

حديث في الترهيب

روى عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: « كل عين باكية يوم القيامة إلا عين بكت من خشية الله ، وعين غضت عن محارم الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله »(١) .

فقدموا عباد الله في اليسير من الأيام ، ما يقيكم الأهوال العظام ، والخطوب الجسام ، والزلازل والطوام ، والعذاب الغرام ، فإن العمر يسير ، والأجل قصير ، والزاد قليل ، والهول جليل ، والعذاب طويل ، واليوم مهول ثقيل ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على من قطع أيامه في العصيان ، واستبدل الجنة بالنيران ، والربح بالخسران ، وترك العز ورضى بالهوان ، وعوض عن الزيادة بالنقصان .

فتفكر فيما تسمع أيها الإنسان ، وأنا وأنت وكلنا ذلك الإنسان .

وأنشدوا :

مقام المذنبين غداً ذليل	وقدر الطائعين غداً جليل
إذا مد الصراط على جحيم	تصول على العصاة وتستطيل
ونادى مالكاً خذ من عصاني	فإني اليوم ليس لهم أقيل

سجود جهنم

ذكر في بعض الأخبار أن جهنم ـ أعاذنا الله منها ، وزحزحنا برحمته عنها ـ تستأذن يوم القيامة في السجود ، فيؤذن لها ، فتسجد ما شاء الله من ذلك ثم يقال لها : ارفعي رأسك فترفع رأسها وهي تقول : الحمد لله الذي خلقني لينتقم بي ممن عصاه ولم يجعل شيئاً من خلقه ينتقم به مني .

إلهي : قد اشتد بلائي وأحمدت نارى ، وغلا حميمى وزقومى ، وكثر نتنى وغسلينى (ما انغسل من لحوم أهل النار ودمائهم) وأكل بعضى بعضاً ، إلهي : عجل على بأهلى ، فو عزتك لأنتقمن لك ممن عصاك واتبع هواه ، وجحد آياتك وكذب رسلك ، وجعل معك إلهاً غيرك ، لا إله إلا أنت . فنادى نداء يسمعه أهل الموقف جميعاً ، ثم تغتاظ على أهل المعاصي فترمى بشرر وفي القرآن : ﴿ إنها ترمى بشرر كالقصر ﴾(٢) .

---

(١) الحديث رواه السيوطي في الدر المنثور ج٦ ص ١٧٨ في (تفسير سورة النور) تفسير الآية ٣٠ ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ... ﴾ الآية . وعزاه إلى ابن أبي الدنيا والبيهقي .
وانظر تفسير ابن كثير في نفس الآية ولفظه : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت عن محارم الله ، وعينا سهرت في سبيل الله ، وعينا خرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله » .
(٢) الآية ٣٢ من سورة المرسلات

وفسره ابن عباس بأعناق النخل. وقال الزمخشري: أعناق النخل وأعناق الإبل، وقال الهروي: أعنق الإبل، كعدد النجوم في السماء، وزبد البحر ورمل البرونبات الأرض على رءوس الخلائق، فيقع على رءوس العصاة، فمن كان له عمل صالح صار حجاباً بينه بين شرر جهنم، ومن لم يكن له عمل صالح صار رأسه غرضاً لشرر جهنم. أعاذنا الله منها، وزحزحنا عنها برحمته. يارب العالمين. آمين.

مجلس في ذكر الميزان والصراط

قال الله ــ سبحانه وتعالى ــ: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً..﴾[1] الآية، عباد الله، ما لقلوبكم لا تخشع؟ وما لآذانكم لا تسمع؟ وما لدعائكم لا يسمع؟ وما لعيونكم لا تدمع؟ وما لبطونكم من السحت (بسكون الحاء وضمها: الحرام، وأسحت في تجارته: إذا اكتسب السحت) والحرام لا تشبع؟ وما لعملكم محمود لا يرفع؟.

إخواني: من شغل نفسه بخدمة المعبود محمود؟ من خاف من ورود النار بئس الورد والمورود؟

افتخار الوحوش على بني آدم

ذكر في بعض الأخبار أن الوحوش تجتمع يوم القيامة فتخر ساجدة، فيقال لها: ما هذا يوم السجود، فتقول: إنما سجدنا شكراً لله الذي لم يجعلنا من ولد آدم، وجعلنا ممن يشهد فضائح ابن آدم.

فالله الله يا إخواني. اقبلوا النصيحة، قبل يوم الخجل والفضيحة فإذا كان يوم القيامة وجيءت جهنم بأهوالها، يضرب الصراط على متنها، طوله خمسمائة عام، وقد قيل: طوله ستة وثلاثون ألف سنة من سنين الدنيا، أدق من الشعر، وأحدُّ من الموسى، وقيل: أحدُّ من السيف، وأحر من الجمر. وقد قيل: إنه شعرة من جفن مالك خازن جهنم يمدها على متن جهنم، عليه حسك وكلاليب (حسك: شوك السعدان، والحسك أيضاً: ما يعمل من الحديد على مثاله للمحاربين. والكلاليب: آلة من الحديد كالخطاف) قد تعلق بكل كلوب منها عدد نجوم السماء من الزبانية، لو أن واحداً منها أذن الله له أن يتنفس في الدنيا لأحرقها بإنسها وجنها، وجميع ماذرأ الله فيها. لأذاب جبالها وحقق بحورها

---

(١) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء

صفة الصراط

والصراط أسود مظلم من شدة سواد جهنم ، فلا يجوز يومئذ إلا من كان له نور ، ولا يكون النور يومئذ إلا من الأعمال الصالحة ، فمن عمل عملاً صالحاً نجاه من النار ، وجاز إلى دار الراحة والقرار . ومن لم يقدم فى الدنيا عملاً صالحاً حرم من النظر إلى وجه الجبار ، وهوى فى دار الندامة والبوار . فى دار عذابها سموم وشرابها حميم (ماء حار) وظلها لا بارد ولا كريم ، وطعامها الزقوم (اسم طعام للعرب ، فيه تمر وزبد . قال الله — تعالى — : ﴿ **إن شجرة الزقوم . طعام الأثيم . كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم** ﴾[1] ، يتردى — أهله — فى دار عذابها أليم ، ومسكنها جحيم ، وساكنها أبداً فى العذاب مقيم ، يتردى — والله — فى نار قعرها بعيد ، وعذابها شديد ، وشرابها صديد ، ومقامعها حديد ، وما هى من الظالمين ببعيد .

وأنشدوا :

أما آن يا أخى أن تستفيق ... وأن تتناسى الحمى والعقيقا
وقد ضحك الشيب فى عارضيك ... وبانت مساويك فيه بروقا
وركب أتاهم وقد عرضوا ... على أتباع المنايا طروقا
أدارت عليهم كئوس الحمام ... صبوحاً تلازمهم أو غبوقاً
ومازال فيهم غراب الحمام ... فيمعهم للمنايا نعيقا
ويحجل فى عرصات القبور ... حتى أعاد الفسيحات ضيقا
ألا فازجر النفس عن عيا ... عساك تجوز الصراط الدقيقا
مقام به تذهل المرضعات ... وتنقى الحوامل، وعداً صدوقا
وتبرز للناس نار الجحيم ... لها عنق تترامى حريقا
شرابهم المهل فى قعرها ... تقطع أمعاءهم والعروقا
إذا طبقت فوقهم لم يكن ... لتسمع إلا البكاء والشهيقا
أذلك خير أم القاصرات ... تخال مباسمهن البروقا
قصرن على حب أزواجهن ... ممتنانة تتلقى مشوقا
لقد فاز من كان للمصطفى ... بدار المقامة يوماً رفيقا

---

(١) الآيات ٤٣ — ٤٦ من سورة الدخان

حسن العمل والصراط

فمثل نفسك يا مسكين وقد جئت إلى الصراط ، وقد رأيت العاملين وقد جازوا . وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، ورأيت البطالين فى ظلمات البطالات ، وغمرات الجهالات . فالله الله يا جماعة الضعفاء ، يا من قطع عمره فى الخلاف والجفاء ، خذوا لأنفسكم بالاحتياط . واحذروا الأهوال الصعبة عند جواز الصراط ، لأن الصراط لا يجوزه آثم ، ولا ينجو منه ظالم . والصراط حق دقيق ، لا ينجو منه من خالف التحقيق ، وترك السنة ومنهاج (الطريق الواضح) الطريق . الصراط طويل بعيد ، لا يجوزه إلا من أخذ نفسه بالحزم الشديد ، واستقام على طاعة الولى الحميد . الصراط مهول عوق ، لا يجوزه إلا من أغاث الملهوف ، وأطاع الرحيم الرءوف . الصراط صعب مهول ، لا يجوزه إلا من تبع سنة محمد الرسول ، وأطاع ربا لا يحول ولا يزول . الصراط كثير الزبانية (جمع زبانى ـ الشرطى ـ وأصل الزبن : الدفع ، لأنها تدفع العصاة إلى النار) لا يجوزه إلا من أطاع مولاه فى العلانية . وراقب الله فى السر والعلانية .

ذكر فى بعض الأخبار أنه لا يجوز الصراط العبد والأمة إلا من بعد نشر الدواوين ، ووضع الموازين .

الموازين يوم القيامة

ذكر أن لكل إنسان ميزاناً يوزن به عمله ، فمن عمل عملاً سيئاً خف ميزانه وهوى فى النار ، وقد قيل : إن الميزان هو منصوب بين يدى عرش الرحمن ، يوزن به أعمال العباد .

وكان الحسن ـ رضى الله عنه ـ يقول : لكل إنسان ميزان يوزن به عمله من خير وشر ، واستدل على ذلك بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾[1] الآية . وأما قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وأما من ثقلت موازينه ، وأما من خفت موازينه ﴾ فهو ميزان الحسنات وميزان السيئات ، وقوله : ﴿ ثقلت وخفت ﴾ فقوله : ﴿ ثقلت ﴾ يقول : لا إله إلا الله ، بالإخلاص ، و ﴿ خفت ﴾ من الحسنات بالشرك والنفاق والرياء والسمعة ، لأن العبد قد يقول : لا إله إلا الله على معصية ، ويقول : لا إله إلا الله والله أكبر على أخذ مال مسلم ، فإنما ذلك نفاق ، لأن النبى ـ ﷺ ـ

(١) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء

قال : « من قال : لا إله إلا الله مخلصاً رجح ميزانه ونجا من النار ودخل الجنة » فقيل : يا رسول الله : وما إخلاصها ؟ فقال : « أن تزجركم عما حرم الله تعالى »[١].

وزن الأعمال

ذكر فى بعض الأخبار أنه يقدم عبد يوم القيامة للحساب يخرج له تسعة وتسعون سجلاً مملوءة بالسيئات فتوضع فى كفة الميزان ليشتدهم العبد وكربه ، فيقول الجبار ــ جل جلاله ــ : لعبدى عندى ذخيرة ادخرتها له ، فيأمر الله تبارك وتعالى أن يخرج له رقعة صغيرة فيها مكتوب ، مات فلان وهو يشهد ويقول : لا إله إلا الله مخلصاً[٢].

كلمة التوحيد

فيقول الله ــ تعالى ــ : ضعوها فى ميزان عبدى ، فتوضع فى ميزانه ، فيميل الميزان بها ، وترجح على جميع سيئاته ، فعند ذلك يفرح العبد ، فيأمر الله تبارك وتعالى به إلى الجنة .

وأنشدوا :

أعددت لله حين ألقاه ... أشهد أن لا إله إلا الله
أقولها للإله خالصة ... يرحمنى فى القيامة الله
لعل يوم الحساب أنجو بها ... يوم العقوبة يوم بلواه
يوم يفوز التقى قائلها ... ويخسر الجاحدون نعماه
فهى لدار الخلود قائدة ... ومن عصى فالجحيم مأواه
من قالها للإله مخلصة ... فهو الذى قد أتاه تقواه
وهو الذى فى الجنان سكنه ... الله قد خصه وأرضاه
قد فاز عبد يكون ذاكرها ... بدار عدن جوار مولاه
يحظى بدار الخلود قائلها ... طوبى لمن قالها وطوباه[٣]
من كان عند الممات قائلها ... فاز بدنياه وأخراه

(١) الحديث فى تاريخ بغداد للخطيب ج ١٢ ص ٢٤ عن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ .
(٢) انظر سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ج ٢ ص ١٤٣٧ رقم ٤٣٠٠ .
(٣) الطوبى : فعلى من الطيب ، واسم شجرة فى الجنة .

فالله الله عباد الله ، ارغبوا إلى مولاكم أن يثبتكم على الكلمة المباركة الخفيفة فى اللسان ، الثقيلة فى الميزان ، المزينة للديون ، بها يرضى الملك الرحيم ، وبها يسخط اللعين الشيطان ، وبها ينجو العبد المذنب من النيران ، وبها يصل العبد إلى نعيم الخلد والإيمان .

فضل الصدقة

ذكر أن العبد إذا قدم إلى ميزانه وأخرجت سجلات سيئاته أعظم من جبال الدنيا ، فإذا وجدت له صدقة طيبة تصدق بها لم يرد بها إلا وجه الله — تعالى — ولم يطلب بها جزاء من مخلوق ، ولا رياء ولا سمعة ولا محمدة ولا شكراً ، فإن تلك الصدقة توضع فى الميزان بأمر الملك الخلاق ، فترجح على جميع سيئاته ولو كانت سيئاته مثل وزن الجبال .

وأنشدوا :

يا جامع المال يرجو أن يدوم له	كل ما استطعت قدمه للموازين
ولا تكن كالذى قد قال إذ حضرت	وفاته ثلث مالى للمساكين[1]

واعلموا عباد الله أن الميزان إذا نصب للعبد فهو من أعظم الأهوال يوم القيامة ، لأن العبد إذا نظر إلى الميزان تزداد ، وكثرت خطوبه ، وعظمت كروبه (الكرب : الغم الشديد الذى يأخذ النفس) فلا تهدئ روعة العبد حتى يرى أيثقل ميزانه أم يخف ؟ فإن ثقل ميزانه فقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خف ميزانه فقد خسر خسراناً مبيناً ، ولقى من العذاب أمراً عظيماً .

شفاعة الرسول

ذكر فى الأخبار أن أمة محمد — ﷺ — إذا قدموا إلى الميزان عظمت كروبهم ، حتى أظهرت لهم فضائحهم وعيوبهم ، ووزنت أوزارهم (آثامهم وأثقالهم) وذنوبهم ، وضاقت حيلهم ، وتغيرت أحوالهم ، فعند ذلك يأتيهم النبى الشفيع محمد — ﷺ — فإذا نظر إلى أمته قد تحيروا عند الميزان دعا الله أن يثقل موازينهم ، فيأمره الله — تعالى — أن ينظر إلى موازين أمته ، فينظر — ﷺ — إليها فترجح موازينهم من نظره ونور وجهه — ﷺ —

ذكر أن الميزان بيد جبريل — عليه السلام — وله كفتان : إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب ، وأن الذرة والخردلة (الذرة : أصغر النمل ، والخردلة : حب صغير جداً) والحبة من أعمال العباد من الخير والشر توضع في الكفة ، فتميل بها بقدرة الله — تعالى — فالله أعلم بحقيقة ذلك .

فلا يحقرن أحدكم حسنة يعملها وإن صغرت في عينه ، فربما ثقلت الميزان ، ولا يحقرن أحدكم سيئة يعملها وإن صغرت ، فربما خففت الميزان ، لأن الذنب الصغير في عين محتقرة يأتي يوم القيامة وهو في الميزان أعظم من الجبال الرواسي .

ما يثقل الميزان

قال الله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾[1] الآية . روى أبو هريرة — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[2] وقيل : جاء رجل إلى رسول الله فقال : يا رسول الله : جئتك تعلمني ما يدخلني الجنة ، وينجيني من النار . فقال له النبي — ﷺ — : « ألا أدلك على كلمتين ثقيلتين في الميزان ، خفيفتين على اللسان ، ترضيان الرحمن وتسخطان الشيطان ؟ تقول : سبحانه الله والحمد لله ، فإنهما المقربتان ، يقربان من الجنة ، ويبعدان من النار »[3] فكل من زعم أن الميزان ليس هو حق ، فقد رد على الله في كتابه ، وعلى رسوله — ﷺ — في سنته .

الرأس في الخير والرأس في الشر

روى عن الحسن — رضي الله عنه — قال : يؤتى يوم القيامة بالميزان فيوضع بين يدى الله — تبارك وتعالى — ثم يدعى العباد للحساب ، فإذا كان العبد أو الأمة رأساً في الخير (يريد الرأس في الخير : من سن سنة خير فانتشرت وعمل الناس بها ، كما أن رأس الشر : من سن سنة سوء فانتشرت وعمل الناس بها . وفي الحديث : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ،

---

(١) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

(٢) انظر صحيح البخاري بحاشية السندي (كتاب التوحيد) ج ٤ ص ١١٤ ، ص ٣١١ (كتاب التوحيد) وانظر صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الذكر والدعاء) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ج ١٧ ص ١٩ ورواه الترمذي في (كتاب الدعوات) ج ٥ ص ٥١٢ رقم ٣٤٦٧ ورواه ابن ماجه في (كتاب الأدب) ج ٢ ص ١٢٥١ رقم ٣٨٠٦ .

(٣) انظر الحديث قبله ، حيث ، أنظر عليه في المراجع التي بين يديك .

ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة »[١] والسنة : الطريقة والسيرة ، يدعو إليه ويأمر به دعي باسمه ، ثم قرب من الميزان فتوزن حسناته وسيئاته ، لو كانت حسنة واحدة ولو كانت سيئاته أكثر من حسناته وأثقل من جبال الدنيا ، لأن الله — تعالى — إذا تقبل من العبد أو الأمة حسنة واحدة غفر له جميع ذنوبه وإن كثرت ذنوبه .

وقد قال رسول الله — ﷺ — لعائشة : « يا عائشة : لو قبل الله تعالى من العبد سجدة واحدة لأدخله بها الجنة » فقالت : يا رسول الله ، فماذا يصنع بأعمال العباد ؟ فقال رسول الله — ﷺ — : « يأكلها الرياء والسمعة كما تأكل النار الحطب » . وإذا كان العبد أو الأمة رأساً في الشر يأمر به ويدعو إليه دعي باسمه فقدم إلى الميزان ، فتوضع حسناته وسيئاته ، فترجح سيئاته على حسناته ولو كانت سيئاته سيئة واحدة ، ولو كانت حسناته أكثر وأثقل من جبال الدنيا ، لأن الله — تعالى — أحبطها ولم يتقبل منها حسنة واحدة ، ويأمر بهم ذات الشمال إلى النار ، فقال أصحابه — رضي الله عنهم — : يا رسول الله : أما كانوا مسلمين ؟ فقال — ﷺ — : « كانوا يصلون كما تصلون ، ويصومون كما تصومون ، ويزكون كما تزكون ، ويقومون من الليل برهة ، ولكن كانوا إذا عرض عليهم درهم حرام وثبوا عليه كالذئب ، فأحبط الله أعمالهم بذلك ، ولم يتقبل منهم حسنة واحدة ، وإذا لم يتقبل الله من العبد حسنة واحدة فأحرى أن يؤثر في الميزان ، لأن الحسنات لا تنفع ولا تثقل الميزان إذا لم يتقبلها الله — تعالى — لأنه — تعالى — لا يقبل إلا ما كان لوجهه خالصاً » .

فالله الله عباد الله ، إذا عملتم عملاً فأخلصوا لله ، فإن الله لا ينفعكم ولا يتقبل منكم إلا ما كان لوجهه خالصاً .

وأنشدوا :

من كان يعلم أن الله باعثه ... يوم الحساب لدى نشر الدواوين
فلا يرد بفعال البر أجمعها ... إلا الحساب وتثقيل الموازين

فقدموا عباد الله للميزان بلزوم طاعة الرحمن ، قدموا للموازين بطاعتكم سلطان السلاطين . إخواني : وأعظم مصيبة وحسرة من خفت موازينه من الحسنات ، وأمر به إلى العذاب والعقوبات . الويل ثم الويل لمن خفت موازينه من صالح الأعمال ، وغضب عليه ذو الجود والإفضال ، وأمر به إلى العذاب والنكال ، وإلى السلاسل والأغلال .

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الزكاة) باب الحث على الصدقة ج ٧ ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ فقد رواه عن المنذر بن جرير عن أبيه .
وانظر سنن ابن ماجه (المقدمة) باب من سن سنة حسنة أو سيئة ج ١ ص ٧٤ رقم ٢٠٣ .

وزن أعمال العباد

يا إخوانى : فإذا وزنت أعمال العباد ، وخف من خف ، وثقل من ثقل ، أمروا أن يمضوا إلى الصراط ، فيجىء كل إنسان إلى الصراط ، فمن الناس من يقع عليه قدمه ، فيزل من أول قدم يضعها فيهوى فى النار ، ومن الناس من يمشى القليل منه ويزل فى النار ، ومنهم من يجوزه كالبرق الخاطف ، ومنهم من يجوزه كالريح الهبوب ، ومنهم من يجوزه كالطير السريع فى طيرانه ، ومنهم من يهرول (الهرولة : ضرب من السير بين المشى والعَدْو) ومنهم من يكون كالضعيف إذا مشى ، ومنهم من يكون كالمبطون (العليل البطن) الذى يمشى على يديه ورجليه ، ومن الناس من يأتى إلى الصراط فتخرج النار فتأخذه فتهوى به ، كل هذا على قدر أعمال العباد وأنواعهم ورتبهم ، وعلى قدر القبول من الله — تبارك وتعالى — بها ، وعلى قدر تثقيل الموازين وتخفيفها ، فإذا أتى العبد من أمة محمد — ﷺ — إلى الصراط ، فمن كان من أهل الذنوب ولم يكن له عمل يجوز به على الصراط بقى متحيراً لا يقدر على الجواز ، فبينما هم فى شدة الفزع من هول الصراط إذ أقبل محمد — ﷺ — .

نور الرسول على الصراط

فإذا نظر — صلوات الله وسلامه عليه — إليهم كساهم نور وجهه — ﷺ — ما يجوزهم الصراط ، فيأخذ كل واحد من نور وجه المصطفى — ﷺ — على قدر صلاته عليه فى الدنيا ، فيستبق العباد فى الجواز على قدر ما أخذوا من النور الذى أخذوا من نور وجه المصطفى ، وكلما أخذ الخلق من نور وجهه — ﷺ — زاد الله — تبارك وتعالى — فى النور فى وجه الحبيب — محمد ﷺ — فأكثروا من الصلاة على نبيكم — ﷺ — فإن صلاتكم عليه مبلغة إليه .

فضل الصلاة على النبى

قال النبى — ﷺ — : « أنجاكم من أهوال يوم القيامة ومواطنها أكثركم على صلاة ، وأولاكم بشفاعتى أكثركم على صلاة »[1] فأكثروا من الصلاة عليه يا معشر المذنبين ، فهو شفيعكم يوم الجزاء والدين — صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، وجعلنا بالصلاة عليه من الآمنين من عقابه والفائزين برحمته من عذابه إنه منهم كريم — وأنشدوا :

---

(١) انظر جامع الأحاديث للسيوطى ج ٧ ص ٥٨٠ فقد أورده بلفظ « يا أيها الناس إن أنجاكم يوم القيامة من أهوالها ومواطنها أكثركم على صلاة » ، وعزاه إلى الديلمى عن أنس .

ألا أكـرم بـأحمد ذى المعـالى ... شفيـع النـاس يـوم السؤال
إذا مـد الصراط على جـحيم ... تصول على العبـاد باستطـال
إذا كان النبـى لـنا شفيعـاً ... سنجـو مـن ملاحـمه الطـوال
ولـو كانت خطايانـا جسامـاً ... تشبـه بالثقـال مـن الجبـال
جزنـا فى الصراط بـغير حـزن ... إلى دار الخلـود مـع الجلال

روى عن النبى — ﷺ — أنه قال: « يمر الناس على الصراط فالزالون والزالات كثير، وأكثر ما تزل النساء »[1] ذكر أن الصراط المستقيم عليه زبانية ينظرون إلى وجوه العباد، فمن رأوا في وجهه نوراً، تركوه أن يتحول ويجوز، ومن لم يروا فى وجهه نوراً كبكبوه فى النار، ولا يكون النور يومئذ إلا من العمل الصالح.

جسور جهنم

روى بعض العلماء عن التابعين وعن بعض أصحابه أنهم قالوا: إن جهنم — أعاذنا الله منها — عليها سبعة جسور وهى القناطر، ثلاثة دون الرب — سبحانه وتعالى — الرابعة الوسطى عليها الرب — جل جلاله — لا حدَّ ولا كيف، تسليماً وإيماناً وتصديقاً.

القنطرة الأولى

والصراط أحد من السيف، فيقول الله — تبارك وتعالى — حين يقفون على القنطرة الأولى ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ما لكم لا تناصرون ﴾[2] فيحبسون فيحاسبون على الصلاة. فمن وجدت صلاته تامة نجا من تلك القنطرة، ومن لم توجد له صلاة تامة هوى فى النار فيتجو من نجا ويهلك من هلك.

القنطرة الثانية

ثم يحبسون على القنطرة الثانية فيحاسبون على الأمانة، وهى أمانة الخالق وأمانة الخلق، وإذا أراد الله بعبده خيراً جعل الغنى فى قلبه، وجعله أميناً لله، وأعانه على أداء الأمانات التى تعرض عليه.

---

(1) هذا جزء حديث أورده صاحب كنز العمال ج ١٤ ص ٣٨٦ رقم ٣٩٠٣٦ وعزاه إلى البيهقى فى شعب الإيمان وضعف عن أنس.

(2) الآيتان ٢٤ — ٢٥ من سورة الصافات.

جلاله — من الوضوء والاغتسال والصلاة والصيام والزكاة ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحفظ لحدود الله ، فذلك العبد الذى ألهمه الله — تعالى — رشده ، وبصره بعيوب نفسه ، وجعل غناه فى قلبه .

تأدية الأمانة وتضييعها

وإذا أراد بعبده شراً جعل فقره بين عينيه وفى قلبه ، كسله عن أداء الأمانات من افتراض الذى افترض عليه وعلى جميع عباده ، وغيب عنه رشده ، وسلط عليه الشيطان فزين له سوء عمله ، وحبب إليه عيوبه ، فإذا كان العبد كذلك فلا يبالى عما قال ولا عما قيل فيه ، ولا يكون همه إلا فى دنياه وإصلاحها ، ولا يبالى بتلف دينه ، فذلك العبد الذى قد سخط عليه مولاه ، وأبعده عن أبواب الخير كلها ، وقربه من أبواب الشر كلها ، قال الله — تعالى — : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾(1) .

تضييع الأمانة

ذكر فى بعض الأخبار أنه يؤتى بمضيع الأمانة فيقال له : أد ما ضيعت ، فيقول : يارب ذهبت الدنيا ، فمن أين أؤديها ؟ فيخلق له مثلها فى قعر جهنم ، أعاذنا الله منها — فيقال : أنزل إليها فأخرجها إلى صاحبها ، فينزل العبد المسكين إليها فيرفعها على كتفه ، فهى أثقل من جبال الدنيا كلها ، فإذا صار الشقى المسكين إلى أعلى جهنم وقعت عن كتفه فى قعر جهنم ، فيقال له : أنزل إليها فينزل مرة أخرى ويرفعها ، فإذا صار إلى أعلى جهنم وقعت به . فلا يزال هذا عذابه إلى ما شاء الله — تعالى — من ذلك .

هذا كله عند جواز الصراط — والله أعلم — وعند العبد — والله أعلم — الذى ضيع أمانات الناس .

أنشدوا :

خرجت من الدنيا وقد خنت أهلها ... وسرت إلى النيران بالوزر والإثم

وطالبنى الجبار بالصدق والوفا ... ولا لأهل الجمع ما كان من جرمى

وقيل لكل الخلق هذا مضيع ... أمانة رب العرش والذكر والحكم

(1) الآية ٢٧ — من سورة الأنفال .

القنطرة الثالثة

ثم يحاسبون على القنطرة الثالثة وهى أدنى من الرب ـ جل جلاله ـ بلا تكييف ولا تحديد ـ فيحاسبون على صلة الرحم كيف وصلوها ؟

صلة الرحم

ولم قطعوها ؟ والرحم يومئذ تنادى : اللهم من وصلنى فصله ، ومن قطعنى فاقطعه ، فينجو من نجا ، ويهلك من هلك .

القنطرة الرابعة

ثم يمرون على القنطرة الرابعة فيحاسبون على بر الوالدين ، فينجو من نجا ، ويهلك من هلك وهو السؤال العظيم ، لأن الله ـ تعالى ـ قد قرن شكره بشكر الوالدين فقال ـ جل اسمه ، وعز وجهه ـ : ﴿ **أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير** ﴾[1] فالله ـ تعالى ـ يقول فى بعض كتبه المنزلة :

شكر الوالدين

أرض والديك ، فإن رضائى فى رضا الوالدين وسخطى فى سخط الوالدين ، فلو أن عبداً جاء يوم القيامة بعمل ألف صديق وكان عاقاً لوالديه ما نظر الله ـ تبارك وتعالى ـ فى شىء من عمله ، وكان مصيره إلى النار ، وما من عبد مسلم أو أمة مسلمة ضحك فى وجه والديه أو أحدهما إلا غفر الله له ما كان من الذنوب والخطايا ، وكان مصيره إلى الجنة .

وأنشدوا :

الوالدان إلى شكر الإله وصول	والوالدان إلى دار السلام سبيل
صل والديك ولا تقطع حبالهما	ليجزينك فى دار البقاء جليل

(١) وصول : أى : بسبب برهما ودعائهما تصل إلى رضاء الله ـ تعالى ـ ورحمته ، كما أنهما طريق إلى الجنة ، وهى دار السلام . وقد أمرنا الله تعالى ببرهما فى القرآن عند قوله : ﴿ **فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً** ﴾[2] الآية .

---

(١) من الآية ١٤ من سورة لقمان .
(٢) من الآية ٢٣ من سورة الإسراء .

القنطرة الخامسة

ثم يحبسون على القنطرة الخامسة فيحاسبون على حفظ اللسان من الغيبة والنميمة وشهادة الزور ، فينجو من حفظ لسانه ويهلك من سرح لسانه بما لا يعنيه ، لأنه ليس من جوارح العبد أشد ذنباً من اللسان ، لأن كلمة يتكلم بها العبد أو الأمة تكون سبباً لدخول النار .

ترك الغيبة والنميمة

وقد كان بعض الخائفين إذا أصبح أخذ لوحاً ودواة وجعلهما بجواره ، فإذا تكلم كلمة كتبها في اللوح ويقول لنفسه : هكذا أثبتها عليك الملك بأمر المليك ، فإذا غربت الشمس وصلى صلاة المغرب وضع اللوح بين يديه وجعل يقرأ ويبكي ، ويقول في بكائه ونحيبه وتعزيره لنفسه : يا نفس كأني بك وقد سئلت عن هذا عند جواز الصراط ، يا نفس تراك بأي كلمة من هذه تدخلين النار ، فلا يزال يبكي حتى لا يجد بكاء وتفرغ دموعه فيغشى عليه ، فإذا أفاق مما هو فيه أخرج اللوح وكتب ما فيه بقرطاس وهو يقول متضرعاً : يا الله عفواً ورفقاً ولطفاً بعبدك . فلم يزل هذا دأبه حتى مات ، فرآه بعض الصالحين في المنام في حالة حسنة ، فسأله عما لقي من الله تعالى فقال : ما يلقى من الكريم إلا الكرم ، جعل محاسبتي لنفسي في الدنيا بدلاً عن الحساب في الآخرة ، وجعل دموعي التي بكيت في الدنيا أنهاراً ترويني يوم العطش الأكبر ، وتفضل الكريم على بدخول الجنة وبجواز الصراط ، ومن على بالفضيلة العظيمة والزيارة الكبرى إلى وجهه الكريم .

كلمة الشر وعذابها

وقد روى عن النبي — ﷺ — أنه قال : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة فينزل بها في النار بعد ما بين المشرق والمغرب ، فإذا أراد الله — تبارك وتعالى — بعبده خيراً أعانه على حفظ لسانه وشغله بعيوب نفسه عن عيوب غيره »(١) .

قيل : مر رجل على رجل فسلم عليه ، فقال له الرجل الذى سلم عليه : يا أخي لو كشف لك عن حالي ما سلمت عليّ . فقال له الرجل الذى سلم عليه : يا أخي لو كشفت لي عيوبك لكان لي في عيوبي ما يشغلني عن جميع عيوبك . فجلس كل منهما يبكي في ناحية حتى بل كل واحد منهما الأرض بدموعه ، ثم تفرقا .

---

(١) انظر مسند أحمد ٢ : ٣٧٩ فقد رواه عن أبي هريرة إلى قوله : « ما بين المشرق والمغرب » .

شهادة الزور

وروى عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « **من شهد شهادة زور على ذمّى أو مسلم أو من كان من الناس ، علق بلسانه فى الدرك الأسفل من جهنم** »[١] .

وفى بعض الأخبار أن شهادة الزور من أعظم الكبائر عند الله تعالى ، وشاهد الزور يعلق بلسانه بكل كلمة فى شهادة الزور ، وبكل حرف كتب فيها شهادته ألف عام على الصراط عند القنطرة الخامسة . ولو أن شاهد الزور جاء يوم القيمة بعمل سبعين نبياً ما نظر الله إليه . وكذلك صاحب الغيبة والنميمة لا يجوز من هذا الصنف الصراط إلا أن يعفو الله أو تدركه الشفاعة .

وأنشدوا :

إذا ازدحم العباد لكى يجوزوا	تساقط كل جبار أثيم
بقعر النار ليس لهم مغيث	ولا للعاصى يوماً من حميم
ومن يطع الإله فسوف ينجو	من التعذيب فى قعر الجحيم
إذا نصب الصراط على جحيم	فيا لله من هول عظيم
ألا يا معشر الإسلام توبوا	من العصيان للرب الرحيم

إخوانى : أطيعوا الله فى السر والإعلان ، واعملوا بالسنة والقرآن ، واتركوا الأوزار والعصيان ، واحذروا من هول الصراط المنصوب على سُمُوم النيران .

القنطرة السادسة

ثم يحبسون على القنطرة السادسة فيحاسبون على حفظ الجار ، فينجو من حفظ جاره وأكرم ضيفه . ويهلك من خان جاره ولم يكرم ضيفه .

إكرام الضيف

روى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »[٢] وكرامته أن يكرمه لوجه الله ، وتكون ضيافته من حلال ، وأما من أنفق على ضيفه من حرام فإنه لا ثواب له . فما أنفق على الضيف فى الخمر أو فيما لا يرضى الله ـ تعالى ـ به فإن ذلك الضيف يأتى يوم

---

(١) لم أعثر عليه فى المراجع التى بين يدى .

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان ج ١ ص ١١ (كتاب الإيمان) رقم ٢٩

القيامة يتعلق هذا بهذا ويلعن هذا بهذا ، ثم يأتيان إلى الصراط ، وكل واحد منهما يلوم صاحبه ، ويقول له : لعنك الله بالذى ساعدتنى على الإنفاق فى غير الله ـ ثم يقال لهما : جوزا الصراط ، فتى أول قدم يضعان على الصراط يهويان فى النار .

البركة مع الضيف

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « الضيف إذا دخل بيت المؤمن ، دخلت معه ألف بركة وألف رحمة ، ويكتب الله ـ تعالى ـ لصاحب المنزل بكل لقمة يأكلها الضيف حجة وعمرة » .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « درهم ينفقه الرجل على ضيفه أفضل من ألف دينار ينفقها فى سبيل الله ، ومن أكرم الضيف لوجه الله أكرمه الله ـ تعالى ـ يوم القيامة بألف كرامة ، وخلصه من النار وأدخله الجنة » .

وقد جاء فى حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ـ ﷺ ـ كان يقول لها : « يا عائشة لا تتكلفى للضيف فتمليه »[1] (ولذلك ندب أن يقدم الإنسان للضيف ما وجد ، سواء أكان قليلاً أم كثيراً ، لا كما يفعله الناس الآن من الاقتراض (ليبيضوا وجوههم أمام الضيف) وليس ذلك من السنة فى شىء ، فغاية الجود بذلك الموجودة وعلى الضيف أن لا يقترح ، بل يأكل ما يجد ويشكر عليه) وإنما أراد ـ ﷺ ـ مداومتها على إكرام الضيف .

وفى حديث على بن أبى طالب ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « يا على : إذا جاءك الضيف فاعلم أن الله ـ تعالى ـ قدمن عليك إذ بعثه إليك ليغفر لك ذنبك بذلك » .

ينزل الضيف برزقه

وفى حديث أبى هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أيها الناس لا تكرهوا الضيف ، فإنه إذا نزل نزل برزقه ، وإذا رحل رحل بذنوب أهل المنزل »[2] (ليس المراد أنه يحمل ذنوبهم ، بل إن الله ـ تعالى ـ يغفر لهم ذنوبهم بإكرامهم الضيف) .

---

(١) الحديث فى كنز العمال برقم ٢٥٨٩٠ وعزاه إلى البيهقى والرافعى عن عياض بن أبى قرصافة عن أبيه .

(٢) انظر كشف الخفاء للعجلونى ج ١ ص ٩١ فقد ذكره بلفظ : « إذا دخل الضيف على قوم دخل برزقه ، وإذا خرج خرج بمغفرة ذنوبهم » قال السخاوى رواه الديلمى بسند ضعيف عن أنس مرفوعاً ، وله شاهد عند أبى الشيخ عن أبى قرصافة .

وفى حديث معاذ بن جبل — رضى الله تعالى عنه — : « ما من منزل ينزل فيه ضيف إلا بعث الله — تبارك وتعالى — إلى ذلك المنزل قبل نزول الضيف به بأربعين يوماً ملكاً على صورة طائر ينادى : يا أهل المنزل فلان بن فلان ضيفكم فى يوم كذا وكذا ، والخلف من باب كذا وكذا . فتقول الملائكة الذين وكلوا بأهل الدار : وبعد الخلف ما يكون ؟ فيخرج لهم ذلك الملك كتاباً فيه مكتوب : قد غفر الله لأهل المنزل ولو كانوا فى ألف »[1] .

وفى حديث آخر أنه قال : « ما من عبد من عباد الله المؤمنين أكرم ضيفاً لوجه الله الكريم إلا نظر الله إليهم إن كانوا جماعة ، فإن كان الضيف من أهل جنة وكان رب المنزل من أهل النار جعله الله — تعالى — من أهل الجنة بإكرامه ضيفه »[2] .

وفى حديث آخر : « إن الضيف ورب المنزل — وأرباب المنزل إن كانوا جماعة — يأتون الصراط فيأخذ كل واحد منهم بيد صاحبه فيجوز الصراط أسرع من البرق اللامع . فإن لم يكن فيهم من له عمل يجوز به الصراط ، أمر الله الملك الموكل بنفقة الضيف أن يأخذ بيدهم ويجوز الصراط ولو كانوا مئة ألف »[3] .

إطعام الطعام

وإطعام الطعام ينقسم على ثلاثة أوجه : مخلوف ومسلوف ومتلوف ، فالمخلوف من يطعم لوجه الله لا يريد به غير الله — تعالى — ولا يطلب به جزاء من مخلوق . والمسلوف الذى تعطى مرة ويعطيك مرة أخرى . والمتلوف كل ما كان إطعامه على المعاصى . والمخلوف والمسلوف فيهما الأجر إلا أن المخلوف أعظم أجراً ، والمتلوف هو حسرة وندامة يوم القيامة .

وأنشدوا :

يا مكرم الضيف للرحمن خالقنا ... عند الصراط ستلقى الخير موفوراً

أكرم ضيوفك كى ترجو الجواز غداً ... على الصراط وترجو الخلد مجبوراً

(١) متفق عليه

(٢) متفق عليه

(٣) متفق عليه

حفظ الجار

وأما حفظ الجار فإن العبد أو الأمة يسأل عن حفظه . فمن حفظ جاره جاز الصراط ونجا من العذاب الأليم ، وصار إلى الجنة ودار النعيم

وروى عن رسول الله — ﷺ — أنه قال : « ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعان وجاره جائع ، أو بات ريان وجاره عطشان »[١] .

ومن كرامة حفظ الجار أن توقظه من الغفلات ، وتلهمه فى الطاعات ، وتأمره بإقامة الصلوات .

تعلق الجار بالجار

ذكر فى بعض الأخبار أن الجار يتعلق بجاره يوم القيامة يقول : يارب : جارى هذا خانني فى الدنيا . فيقول الله — تبارك وتعالى — : لم خنت جارك ؟ فيقول : وعزتك وجلالك ما خنته لا فى مال ولا فى أهل ، وأنت أعلم بذلك . فيقول له جاره : ما صدقت ذلك ولكن رأيتنى على المعاصى فلم تزجرنى عنها ، فيؤمر به وبصاحبه إلى النار ، ولا يغفر الله لهما .

وما من عبد مسلم — أو أمة مسلمة — حفظ جاره وأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر إلا جوزه الله — تبارك وتعالى — على الصراط قبل العباد بخمسمائة عام .

الوصية بحفظ الجار

وروى عن النبى — ﷺ — أن قال : « لقد أوصانى ربى بنية أمرى فى بحفظ الجار حتى ظننت أنه سيورثه » . وبعض العلماء يرى شفاعة الجار .

فكل من حفظ الجيران فقد أطاع الرحمن . وأسخط الشيطان ، وعمل بالسنة والقرآن .

روى أن الرجل الصالح والمرأة الصالحة يشفعان يوم القيامة فى سبعين من جيرانهما ويجوزانهم على الصراط .

---

(١) روى فى الآلئ المصنوعة ج ٢ ص ٨٢ بلفظ : « ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم » من حديث أنس .

عباد الله ـ من حفظ الجار نجا من النار ، وجاز الصراط إلى دار القرار ، ومن حفظ الجار فقد عمل بالسنة والكتاب ، وأطاع الملك الوهاب ، وأسخط الشيطان اللعين الكذاب ، وما من جار يلقى جاره المسلم فيسلم عليه إلا غفر الله لجاره ولو كان له ألف جار .

حفظ الجار قربة ووسيلة ، ودرجة عند الله وفضيلة .

وأنشدوا :

يا حافظ الجار ترجو أن تنال به عفو الإله وعفو الله مذخور(١)
الجار يشفع في الجيران كلهم يوم الحساب وذنب الجار مغفور

القنطرة السابعة

ثم يحبسون على القنطرة السابعة فيسألون عن الصدق ، من حفظ لسانه عن الكذب نجا من الصراط ونجا من النار ، وصار إلى الجنة مع الأبرار .

الصدق والكذب

ومن كذب فقد خالف الكتاب والسنة ، وقد حرم نعيم الجنة .

روى عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : « إذا كذب المؤمن كذبة من غير عذر تباعد منه الملكان مسيرة سنة من نتن ما جاء به . وكتب الله تبارك وتعالى عليه بكذبة ثمانين خطيئة . أقلها كأ يزني بأمه »(١) (لأن ذلك من أصعب الكبائر ، فضلاً عن استحالته عقلاً) .

(١) مذخور : أي : رأيته عند الله ذخيرة لك يوم القيامة ، وقد حكى عن المهلب بن أبي صفرة أنه كان يتكفل بأربعين بيتاً من كل جهة من بيته بالخبز والطعام والكسوة حتى لا يتكلفوا أن يصنعوا طعاماً في جواره أو يوقدوا تنوراً .

---

(١) جاء في صحيح الترمذي في (كتاب البر والصلة) باب ما جاء في الصدق والكذب جـ ٤ ص ٣٤٨ رقم ١٩٧٢ حديث فقط : عن ابن عمر أن النبي ـ ﷺ ـ قال : « إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلا من نتن ما جاء به » .
قال أبو عيسى : هذا حديث حسن جيد غريب .

كذبة المؤمن بثمانين خطيئة

وإذا كذب المؤمن من غير عذر يخرج من فيه شيء منتن حتى يبلغ العرش فتلعنه حملة العرش ،
وبلعنه ثمانون ألف ملك ، ويكتب عليه ثمانون خطيئة أهونها مثل جبل أحد (جبل بالمدينة كانت عنده
واقعة أحد الشهيرة) . الكذب نفاق ، والكذب من الكبائر ، وإذا استحل العبد الكذب فقد استحل
المحارم كلها ، وإذا لم يستحل العبد الكذب لم يقدر أن يباشر شيئاً من محارم الله ، وإن الصادق إذا
جاء الصراط سبقه نور وجهه مسيرة مائة عام — يمشى على الصراط — ومن صدق عمل بكتاب الله ،
واتبع سنة رسول الله ، والصادق أسرع جوازاً على الصرط وأسرع الناس دخولاً الجنة .

والكاذب فى أول قدم يضعها على الصراط يهوى فى النار فلا ينجو من الجسر السابع — وهو
أصعبها — إلا من صدق ، ويهلك من كذب .

جعلنا الله وإياكم — برحمته — ممن صدق فنجا .

وأنشدوا :

أصدق بربك إله العرش جنته — يوم المعاد ولا تولع بتكذيب
إن الصدوق لدى الرحمن منزله — دار الخلود بلا موت وتعذيب
يوم الجزاء على متن الصراط إلى — دار النعيم بلا حزن وتكئيب

ذكر فى بعض الأخبار أن الصادق يجوز على الصراط وهو لا يشعر به ولا يهو له ، فاتقوا الله عباد
الله : كونوا من الصادقين ، ولا تكونوا من الكاذبين ، وتأسوا بخاتم النبيين وسيد المرسلين — صلى الله
عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

نجاة الصادقين

ذكر فى بعض الأخبار أن الناس الذين ينجون من الصراط وهو له ، يحبسون بقنطرة بين الجنة
والنار ؛ يتقاصون مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة .

قال رسول الله — ﷺ — : « والذى نفسى بيده إن أحدهم مسكنه فى الجنة أدل منه ب ك...

الذى كان فى الدنيا »[١] . يا لها من كرامة ويا لها من نعمة ، ويا لها من فرحة . فتنعموا عباد الله اليوم من الأوقات والقليل من الساعات ما يجوزكم الصراط ، ويقيكم الآفات ، الصراط على متن جهنم ممدود ، لا يجوزه إلا من خاف من أهوال اليوم الموعود وأطاع الملك المعبود ، الغفور الودود .

الصلاة تجوز على الصراط

ذكر فى بعض الأخبار أن من صام ثلاثة أيام من كل شهر وقام فى ليلة من لياليها يصلى عشر ركعات يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثلاث مرات ، فإذا فرغ من صلاته صلى على محمد ـ ﷺ ـ عشر مرات ثم يقول : سبحان من كان ولا مكان ، سبحان الموجود بكل حين وأوان ، سبحان المعبود فى كل أوان ، سبحان المسبّح بكل لسان ، سبحان المنجى من الهلكات ، سبحان خالق الأرضين والسموات ، جوزه الله ـ تعالى ـ على الصراط أسرع من البرق خاطف . ولا يؤذيه حر النار ويمضى إلى الجنة مع أول زمرة من الصحابة والتابعين ، ويشفعه الله ـ تبارك وتعالى ـ فى سبعين من أهله وجيرانه . وهى أفضل ما يصام من الشهر وهى يوم ثلاثة عشر وأربعة عشر وخمسة عشر .

روى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « يمر الناس على الصراط فالزالون والزالات كثير ، وأكثر ما يزل النساء ، وجبريل ـ عليه السلام ـ آخذ بحجزتى (حجزة الإزار ، معقدة ، وحجزة السراويل : محل تكة) إذا عصفت الريح بأمتى فصاحوا : يا محمداه ، فلولا أن جبريل ـ عليه السلام ـ آخذ بحجزتى لأغثت أمتى ، فيبادرون جوازاً فلا يجوزه ظالم ، فيبقون متحيرين ثم يتداركهم الله برحمته وبفضل دعائى لهم ، فيقول : جوزوا على الصراط بعفوى فيجوزوا » اللهم اغفر لنا جميعاً برحمتك .

وأنشدوا :

لو علم الخلق ما يراد بهم ... وأيما مورد غداً يردوا
ما استعذبوا لذة الحياة ولا ... طاب لهم عيش إذا رقدوا
خوفاً من العرض والصراط على ... نار تلظى وحرها يقد
والناس فى هول موقف عسر ... قد عاينوا هوله الذى وعدوا

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى (باب ما جاء فى الرقاق) ج ١ ص ١٣٤ إلا أنه قال : « فو الذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة بمنزله كان فى الدنيا » .

يـا لك مـن موقـف يفـوز بـه قـوم هـمُ للجنـان قـد وفـدوا
مـع النبي اصطفاه خالقنـا صلى عليه المهيمن الصمد(١)

عباد الله : اشتروا أنفسكم من مولاكم باليسير من الأعمال ، وبالقليل من الأفعال ، وبالطيب من الأقوال ، من قبل حبسكم على الصراط لشدة الأهوال ، يوم لا بيع فيه ولا خلال ، بين يدى الكبير المتعال .

كيفية الجواز على الصراط

ذكر فى بعض الأخبار أن الناس ينقسمون فى جواز الصراط سبعة أقسام : فيجوز أول قسم من الرجال والنساء كطرفة عين ، والقسم الثانى كالبرق الخاطف ، والقسم الثالث كالريح العاصف . والقسم الرابع كالطير المجد . والقسم الخامس كالخيل فى جريها ، والقسم السادس كالماشى ، والقسم السابع كالمهرول .

أقسام الناجين على الصراط

فأما القسم الأول : فهم أصحاب الصدقات وقوام الليل والعلماء يقدمونهم .
والقسم الثانى : هم الذين استقاموا على أداء الفرائض ولم يفرطوا فيها وأدوها فى أوقاتها .
والقسم الثالث : هم الذين أدوا الزكاة ولزموا صحبة العلماء وأحبوهم .
والقسم الرابع : هم الذين وصلوا أرحامهم ، وطلبوا بصلتها رضاء مولاهم .

روى عن النبى — ﷺ — أنه أوصى عند موته بصلة الرحم ، وما من عبد وصل رحمه بنفسه أو ماله إلا جعله الله — تعالى — يوم القيامة على الصراط كالذى يمشى فى رياض الجنة ، ولا يرى من أهوال الصراط شيئاً ، ويدخل الجنة مع أول زمرة تجوز الصراط وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم .

والقسم الخامس : هم الذين غضوا أبصارهم عن محارم الله ، وصانوا فروجهم عن الفواحش ، وحفظوا أزواجهم عما لا يحل لهن ، وحجبوهن ولا ضغوهن ورفقوا بهن ، كما قال — ﷺ — (وفى هذا رد على من قال بأن المرأة الشرقية كانت مستعبدة من الأزل ، فقد أمرت الشريعة الإسلامية فى غير ما موضع بإكرامها وإعزازها ، وأباحت لها التصرف بمالها وتجارتها وساوتها بالرجل فى كثير من الأمور . هذا فى الوقت الذى كانت فيه المرأة الأوربية تحسب كالمتاع فى المنزل) .

(١) الصمد ، أى : السيد ، لأنه يصمد إليه فى الحوائج ، أى : يقصد .

حديث فى العناية بالنساء

« النساء ودائع الأحرار ، ولا يعزهن إلا عزيز ، ولا يذلهن إلا ذليل ، والذليل عند الله فى النار » وكذلك المرأة إذا عزت زوجها وأطاعته فيما يرضى الله تعالى .

آكل الربا

وقد ذكر أن آكل الربا يأتى الصراط ، فيجعل الله — تبارك وتعالى — كل درهم وكل حبة وكل ثوب وكل تمرة وكل شىء أكل أو اكتسبت يداه من الربا ثعباناً من نار يخطفه من على الصراط ، ويهوى به فى قعر جهنم مع اليهود ، ومن تاب تاب الله عليه وغفر له ما جنى .

والقسم السابع : هم الذين بروا الوالدين ، وبروا الأزواج ، وبروا اخوان ، وبروا الإخوان ، ولزموا المسجد ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وحفظوا حدود الله ، ولم تأخذهم فى الله لومة لائم ، وعملوا بكتاب الله وسنة رسوله — ﷺ — وأنشدوا :

أتطمع بالنجاة وكيف تنجو ... ولست على نجاتك بالحريص
ولو فى نيلها أعملت حرصاً ... لنلت الفوز بالثمن الرخيص
ولكنى أراك تريد عزاً ... وحالك حال ممتهن نقيص
وليس من تعرض للمعاصى ... هديت عن الضلالة — من محيص

المتصدقون سراً وعلانية

يا أحبابى : لما جاز الناس الصراط وجدوا خلقا كثيراً نساء ورجالا قد سبقوهم إلى الجنة فيقولون : من هؤلاء الذين سبقونا ؟ فتقول لهم الملائكة : هؤلاء الرجال الذين تصدقوا فى السر ابتغاء وجه الله ، وتصدقوا فى العلانية ليحيوا الصدقة إلى عباد الله ، هؤلاء الذين فرجوا عن المكروبين . وهؤلاء النسوة اللاواتى أطعن أزواجهن ، وحفظن فروجهن وحفظن ألسنتهن عن أذى الزوج وعن أذى الجيران ، وتصدقن فى السر والإعلان ، تسبق هذه الزمرة (الجماعة ، والزمر : الجماعات) جميع الناس إلى الصراط وجوازه بخمسمائة عام . ومن كان من إخوانهم من أهل الذنوب جازوا فى شفاعتهم ، فإذا جازت أول زمرة من الأولين السابقين ، وزمرة المتأخرين يبقى رجل واحد فيضع قدمه الواحدة فتزل فيبقى بالقدم الأخرى ، فيركب الصراط على بطنه والنار تصيبه على قدر ذنوبه .

آخر من يبقى على الصراط

فلا يزال يحبو ويتدرج ، ويبكي ويتضرع إلى الله ــ تعالى ــ حتى يجوز ، فإذا جازونجا رد رأسه ونظر إلى الصراط وأهوال أهل النار ، وعواء أهل النار (صياحهم ، والعواء : صياح الكلب والذئب) فى النار فيقول : سبحان الذى خلصنى منك ونجانى من أهوال النار . فبينما هو ينظر إلى الصراط ويقول هذا القول ، يبعث الله ــ تعالى ــ إليه بلطفه ملكاً من ملائكته فيأتيه فيأخذه بيده ويقول له : قم يا عبد الله فينطلق إلى غدير (قطعة من ماء ، يغدرها السيل ، أى : يتركها) من ماء على باب الجنة ، فيقول له الملك : اغتسل من هذا الماء واشرب منه ، فيغتسل العبد ويشرب كما أمره الملك فيعود كالقمر الطالع ليلة التمام ، وتعود رائحته كرائحة أهل الجنة ، ولونه كألوان أهل الجنة . ثم ينطلق به إلى قرب جهنم فيقول له : قف ها هنا حتى يأتيك إذن من ربك ، فينظر إلى أهل النار ويسمع عواءهم كعواء الكلب يستغيثون من شدة العذاب ، فإذا سمع العبد أهل النار وما هم فيه بكى وقال : يارب : اصرف وجهى عن أهل النار حتى لا أنظر إليهم ولا أسمع صوتهم ولا أسألك غير هذا ، فيأتيه ذلك الملك من عند رب العالمين فيحول وجهه عن أهل النار إلى أهل الجنة ، فينظر إلى ناحية أهل الجنة فيرى بينه وبين باب الجنة روضة خضراء ما رأى أحد قط مثلها . ثم ينظر إلى باب الجنة وجماله ، وعرضه مسيرة أربعين يوماً للطير المسرع ــ والله أعلم ــ من أى الأعوام ، يقول : يارب قد أحسنت إلى الإحسان كله جوزتنى الصراط وأنجيتنى من النار وأدنيتنى من باب الجنة ، هذه الروضة أسألك أن تبلغنى إليها ولا أسألك غير ذلك ، فيأتيه ذلك الملك فيقول له : يا ابن آدم ما أكذبك ، ألست قد عزمت إنك لا تسأل غير هذا المقام ؟ فيأخذ بيده وينطلق به الروضة فيدخله فيها .

بـاب الجنة

فينظر إلى باب الجنة ، وإلى بهجة تلك القصور وأطرافها من الجندل (الحجارة الكبيرة) الأخضر ، وحصباؤها (الحصباء : الحصا الصغير) من الياقوت الأحمر ، فيستنشق نسيم طيب الكافور والمسك ، ويسمع حسن تغريد الأطيار وخرير تلك الأنهار ، وما لا تصفه ألسنة الواصفين ولا يخطر ببال المتفكرين ، فإذا سمع العبد ذلك كله استخفه الطرب فيقول : يا مولاى لقد أنعمت علىّ نعماً أكمل النعم : جوزتنى الصراط ، وأنجيتنى من النار ، وصرفت وجهى عن أهل النار حتى لا أراهم ، ولكن أسألك ــ يا سيدى ومولاى ــ أن تدخلنى الجنة ، فاجعل هذا الباب بينى وبين أهل النار حتى لا أسمع

حسيسهم (الحسيس: الصوت الخفي، ومنه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾[١])
ولا أرى عذابهم. فيأتيه ذلك الملك فيقول له: يا ابن آدم ما أكذبك!! ألست قد زعمت أنك لا تسأل غير ما قد سألت؟ فيقول: وعزتك يارب لا أسألك غيره. فيأخذ الملك بيده فيدخله الباب، فينظر بعيد عن يمينه وعن شماله مسيرة سنة، فلا يرى إلا الشجر المثمر، وما رأى قط مثلها ولا خطر على قلب آدمي ولا جني، فينظر إلى أدنى شجرة فيرى عندها روضة فيها شجرة أصلها ذهب، وأغصانها فضة وورقها حلي ما رأى مثلها قط آدمي ولا جني ولا خطر على قلب بشر، وثمرها ألين من الزبد، وأحلى من العسل. فيقول العبد: يارب لقد أنعمت على عبدك، وتفضلت ونجيتني من النار، وأدخلتني جنة وأعطيتني وأرضيتني، وإنما بيني وبين هذه الروضة قليل فبلغني إليها، فو عزتك لا سألتك غيرها. فيأتيه ذلك الملك فيقول له: يا ابن آدم ما أكذبك، ألست قد زعمت أنك لا تسأل غير ما سألت؟ يا ابن آدم أين ما أقسمت به؟ أما تستحي من الله؟!

منازل الجنة

فيأخذ بيده فينطلق إلى أدنى منزل من منازلها، فإذا هو بقصر من لؤلؤة بيضاء بين يديه. فلا يملك نفسه حين ينظر إليه، فيقول: يارب أسألك هذا المنزل ولا أسألك غيره. فيأتيه الملك من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيقول له: يا ابن آدم ما أكذبك. ألست قد زعمت أنك لا تسأل غير ما أنت فيه؟ فينظر بين يديه فإذا بمنزل كأنما المنزل الأول والثاني وجميع ما خلق وراءه حلم. فيسأله فيعطيه، فلا يزال كذلك حتى يعطى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فلو نزل في أدنى قصر من قصوره الجن والإنس لكان عنده من الكراسي ما يجلسون ويتكئون عليها، ولكان عنده من الموائد ما يفضل عنهم، ولكان عندهم من الطعام والشراب ما يأكلون، وإذا أكلوا وشربوا لم ينقص من الطعام والشراب إلا بقدر ما أصاب رجل واحد ﴿ وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[٢].

وأنشدوا:

مقام المتقين غداً جليل	يطيب لهم مع الحور المقيل
وأنوال عليهم مشرقات	إذا ناداهم الملك الجليل

(١) من الآية ١٠٢ من سورة الأنبياء

(٢) من الآية ٣٦ من سورة الشورى

فائدة الجواز على الصراط

ذكر فى بعض الأخبار أن العبد أو الأمة إذا ذكر الصراط وهوله وصعوبته ودقته وطوله وبعد مسافته، ثم بكى ثم قام فصلى عشر ركعات يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة. وقل هو الله أحد ثلاث مرات، ويسلم عن كل ركعتين، فإذا فرغ من العشر ركعات صلى على النبى — ﷺ — وشرف وكرم مائة مرة ثم قال: سبحان الله من خلق ما شاء، ونخشى بما شاء، ونحمد لله على كل شىء — ثلاث مرات — ثم يقول: اللهم جوزنى الصراط ونجنى من هوله، الله لا إله إلا أنت لا شريك لك وصلى الله على سيدنا محمد وآله. فمن صلى هذه الصلاة وقال هذا القول جوزه الله — تبارك وتعالى — الصراط وهو لا يشعر به ولا يهوله مع أول زمرة تمر إلى الجنة.

فاغتنموا — رحمكم الله — هذا الثواب، وتحصنوا من أليم العذاب، يا أولى العقول والألباب (اللب: العقل أيضاً) لأن الصراط حاد دقيق، وطريقه بعد الطريق، لأنه من طريق لا يعين على جوازه أخ ولا صديق، إلا عمل صالح ورب رفيق.

واعلموا — وفقنا الله وإياكم — أن العمر يذهب، والدنيا تفنى وتخرب، والنفس تموت والمراد إلى الحى الذى لا يموت، فاستعدوا بكثرة الأنوار، وبالصلاة وفعل الخير فى الليل والنهار، وبالطاعة للنبى السيد المختار، وبالعمل بكتاب الله الملك الواحد القهار. وابكوا على هول الصراط المنصوب على متن النار. يسره الله لنا وهونه علينا. آمين يارب العالمين، إنه قريب مجيب.

شفاعة الناس بعضهم لبعض

ذكر أن العبد إذا جاوز الصراط وخلص، ذكر فى ذلك الموقف أباه وإخوانه وأشياعه وجيرانه، فعند ذلك يسأل الصديق فى صديقه، والوالد فى ولده، والجار فى جاره، والرجل فى زوجته، والمرأة فى زوجها، والإمام فى جماعته التى كان يصلى بها، فيشفع كل واحد منهم على قدر عمله ومنزلته عند ربه.

روى قتادة عن الحسن البصرى — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ —: ثلاثة مواطن لا يذكر فيها أحد أحداً: عند الميزان حتى ينظر أيثقل ميزانه أم يخف. وعند الصراط حتى ينظر أيجوز

ثم لا ، وعند الصحف حتى ينظر أيمينه يأخذ الصحيفة أم بشماله »[1] . فهذه ثلاثة مواطن لا يذكر فيها أحد حميمه ولا صديقه ولا حبيبه ولا قريبه ولا ابنه ولا والديه ، وذلك قول الله — تبارك وتعالى — : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[2] هو مشغول بنفسه عن غيره من شدة الأهوال العظام . أسأل الله أن يسهلها لنا برحمته ، ويهونها علينا بمنه ولطفه .

وأنشدوا :

بكيت على هول الصراط وذكره ... وهول زفير النار من أعظم الذكر
وكيف يطيق الصبر من كان عاصياً ... لخالق كل الخلق في السر والجهر
ومن يك ذا خوف شديد هوله ... فإن له أمناً من الهول في الحشر
فليس لمن يبكي هول صراطه ... جزاء سوى دار النعيم مع الفخر
فإنه من هول عظيم يجوزه ... رجال أطاعوا الله في سالف العمر

عباد الله : تفكروا في هول الصراط الدقيق البعيد ، وأشفقوا من الهول العظيم الشديد ، وأطيعوا الجبار الولي الحميد .

لا تقبل صلاة شُراب الخمر

ذكر أن شُراب الخمر إذا أتوا على الصراط تخطفهم الزبانية فتهوى بهم إلى عين الخبال ، وهي قيح أهل النار ، فيسقون بكل كأس شربوا من الخمر في الدنيا شربة من الخبال . لو أن تلك الشربة تصب من السماء السابعة لأحرقت السموات والأرضين بمن فيهن ومن عليهن . والأصل في شارب الخمر أنه يختطف من على الصراط أنه ليس في وجهه نور ، لأن النور لا يكون إلا من العمل الصالح ، وشارب الخمر ليس له عمل صالح . والأصل فيه أن الأعمال كلها لا تقبل إلا ممن صلى ، لأن الصلاة هي رأس الأعمال ، وشارب الخمر لا تقبل منه صلاة ما دام مصرًا على شرب الخمر ، فإذا لم تقبل منه صلاة فلا يقبل منه سائر عمله . فيأتي إلى الصراط ووجهه أسود ، وقد عهد إلى الزبانية الذين على الصراط أن لا يتركوا أن يجوز إلا من له نور ، ومن ليس له نور أن يكبوه في النار ، إلا من تاب وترك الخمر ورجع إلى الله تعالى .

---

(١) انظر سنن أبي داود (كتاب السنة) باب في ذكر الميزان ج ٤ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ رقم ٤٧٥٥ ولفظه : « أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً : عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل ، وعند الكتاب حين يقال ﴿ هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾ حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره ، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم » .

(٢) الآية ٣٧ من سورة عبس .

التوبة من الخمر وثوابها

يا إخواني : اعلموا أن شارب الخمر إذا تاب بترك الخمر لوجه الله ــ تعالى ــ كان يوم القيامة أفضل وأكثر نوراً على الصراط ، وأسرع جوازاً لمن يشربها . فالله الله يا معشر المذنبين ، توبوا إلى مولاكم أسرع الحاسبين ، يغفر لكم ذنوبكم أجمعين .

فضل المؤذنين

ذكر في بعض الأخبار أن المؤذنين إذا أتوا إلى الصراط يجدون نجائب من نور مسرجة بسرج الياقوت والزبرجد ، فيركبونها فتطير بهم على الصراط . ويشفع كل واحد منهم عند جواز الصراط في أربعين ألفاً كلهم قد استوجبوا النار ، ويجوز في نور المؤذن ألف رجل وألف امرأة ، وفي حديث آخر : أن المؤذن إذا جاء إلى الصراط سبقه نور الأذان ، يعني لا إله إلا الله ، ونور محمد رسول الله ، ونور الدعاء الذي يدعو الناس إلى توحيد الله ــ تبارك وتعالى ــ فيجوز الصراط في نور المؤذن أربعون ألفاً ممن ليس لهم نور ، وهم أهل الذنوب والخطايا (يكون المؤذن غالباً إذا أذن ابتغاء مرضاة الله ، وذكر عباده بأوقات الصلاة وأقامها وصلاها وواظب على ذلك ، انقطعت علائق نفسه السيئة عن ملاذ الدنيا ، ووجد للذة كل اللذة في ما هو بصدده) .

روى عن رسول الله ــ ﷺ ــ أنه قال : « ما من عبد مسلم حان عليه وقت الصلاة في أرض قفراء أو موضع ليس فيه جماعة ، فقام فأذن ثم قام فصلى إلا وأم من جنود الأرض ما لا يحصى عددهم إلا الله ــ تبارك وتعالى ــ ويكتب الله له بعددهم حسنات ، ويمحو بعددهم سيئات ، ويرفع له بعددهم في الجنة درجات ، لو دخل في أدنى درجة من درجاته الجن والإنس لوسعتهم ، ولكان فيها من الفرش والأسرة والموائد والطعام والشراب والخدم ما يغني عنهم ، وإن لم يؤذن واقتصر على الإقامة وحدها لم يصل خلفه إلا ملكاه اللذان يكتبان عمله » وفي حديث آخر : « إذا أذن العبد المسلم في فلاة من الأرض ثم أقام فصلى جعل الله ــ تبارك وتعالى ــ خلفه سبع صفوف من الملائكة المقربين ، أحد طرفي الصف بالمشرق والآخر بالمغرب ، فإذا فرغ من صلاته ودعا آمنوا على دعائه ، ويكتب الله ــ تبارك وتعالى ــ له بعددهم حسنات ، ويمحو عنه ــ جل وعلا ــ بعددهم سيئات ، ويرفع له ــ تعالى ــ بعددهم درجات ، كل درجة أعظم من الدنيا سبعين ألف مرة ، فيها من النعيم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فإذا جاء يوم القيامة إلى الصراط جاء معه أصحابه من الملائكة الذين صلوا خلفه ، كل ملك منهم معه نور من نور الجنة ، فيأخذون بيده وبأيدي أهله وبأيدي إخوانه الذين صحبوه وأحبوه في الله فيفرقون عليهم من تلك الأنوار ، ويجوزونهم الصراط في شفاعته ويمضون معهم إلى الجنة ولا يرون من هول الصراط ولا من حره ولا صعوبته شيئاً » .

فضل العلماء

ذكر فى بعض الأخبار أن العلماء إذا أتوا إلى الصراط تكون وجوههم كالشمس الضاحية ، وأنوارهم بين أيديهم ، وبيد كل عالم منهم لواء من نور الجنة يضيء له مسيرة خمسمائة عام ، وتحت لواء العالم كل من اقتدى بعلمه ، وكل من أحبه فى الله ، ومناد ينادى : هؤلاء أحباء الله ، هؤلاء أولياء الله ، هؤلاء الذين خلفوا الأنبياء ، هؤلاء الذين علموا عباد الله ، هؤلاء الذين دعوا إلى الله ، هؤلاء الذين حفظوا حدود الله ، هؤلاء مصابيح الدجى ، هؤلاء أئمة الهدى . فإذا دنوا من الصراط يوضع على رأس كل واحد منهم تاج من نور الجنة ، لو وضع ذلك التاج فى السماء السابعة العليا لخرق نوره إلى الأرض السابعة السفلى ، ويكسى كل واحد منهم حلة من حلل الجنة لو نشرت تلك الحلة بين السماء والأرض لغطى نورها نور الشمس ، ولمات الخلائق كلهم عشقاً إلى رؤيتها ، ولملأت الأرض والبحار من رائحة المسك ، وينزل على رأس كل واحد منهم غمامة من نور تقيه من حر شرور جهنم ومن حر الشمس ، وأنشدوا : -

يا طالب العلم ترجو أن تنال به ... عفو الإله وعفو الله موجود
أطلب بعلمك وجه الله خالقنا ... إن الصراط على النيران ممدود
عفو الإله لأهل العلم نائلهم ... وعفوه عند أهل الجهل مفقود
فاحرص هديت على التعلم مجتهداً ... وأنت عند إله العرش محمود
فاعمل بعلم رسول الله سيدنا ... وأنت بين عباد الله مسعود

واعلموا أن الله ــ تعالى ــ لا يقبل عملاً بلا علم . قال الله ــ تبارك وتعالى ــ : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾(١) فالعلماء قد أثبت لهم الجبار الخشية والتقى . قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾(٢) ومن لا يعلم لا يتقى ، وكيف يتقى من لا يدرى ما تقى ؟ وقد قال رسول الله ــ ﷺ ــ :

« تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، به يعرف الله ويعبد ، وبه يحمد الله ويوحد ، هو إمام العمل ، والعمل

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٨
(٢) سورة المائدة الآية ٢٧

تابعه ، يرفع الله بالعلم أقواماً فيجعلهم للخير قادة وأئمة يقتدى بهم ويجتبى إلى رأيهم »[1] .

فقد بين رسول الله ـ ﷺ ـ أن العبادة لا تكون إلا بالعلم ، لقوله ـ ﷺ ـ : « به يعرف الله ويعبد » ويستوى ذكر فضل العلم فى قول الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ . والمقصود فى هذا الموضع ذكر الصراط والجواز عليه .

فضل حملة القرآن

ذكر فى بعض الأخبار أن حملة القرآن يحشرون يوم القيامة على كثبان من مسك أسود ، وأنوار وجوههم تغشى بالأبصار ، فإذا أتوا إلى الصراط تلقتهم الملائكة ـ الذين وكلوا بحملة القرآن ـ فتأخذ بأيديهم ، وتضع التيجان على رؤوسهم ، والحلل عن أجسامهم ، وتقرب إليهم خيلاً من نور الجنة عليها سرج من المسك الأذفر ، والعنبر الأشهب ، ألجمها من اللؤلؤ والياقوت ، يركبونها فتطير بهم على الصراط ، ويجوز فى شفاعة كل واحد مائة ألف ممن قد استوجب النار ، ومناد ينادى : هؤلاء أحباب الله ، هؤلاء أولياء الله الذين قرءوا كتاب الله ، وعملوا به ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وهم أهل الله ، وهم أحباب الله ، من أحبهم فى الدنيا أحبه الله ، فجاوزوا الصراط وخلفوه بلا هول ولا هم ولا حزن ولا غم . وهذا إذا عملوا بالقرآن ، ووقفوا عند أوامره ونواهيه وأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وآمنوا بمحكمه ، ووقفوا عند متشابهه ، وسارعوا إليه ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[2] ، ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾[3] أولئك أولياء الله الصالحون ، أولئك الذين رضى الله عنهم ، ووفقهم وهداهم ، وآتاهم تقواهم .

من لم يعمل بالقرآن

وأما حامل القرآن إذا لم يعمل به فإنه يأتى إلى الصراط فتستقبله الزبانية بمقامع الحديد وأرازب النار ، وتسود وجوههم على قدر ما ضيعوا من العلم ، فمن تعلم علماً للتجبر والمباهاة أو الرياء أو السمعة ولم يرد به وجه الله تعالى وطلب به الرشا والبراطيل ، وكتمه ولم ينصح به عباد الله ، وطلب به الرياسة

---

(١) انظر احياء علوم الدين ج ١ ص ٢٠ باب فضيلة التعليم .
وانظر ابن حبان فى كتاب الثواب ، وابن عبد البر فى جمع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٥٤ ، ٥٥ وقال : ليس له اسناد قوى .
(٢) سورة المجادلة الآية ٢٢
(٣) سورة الأنعام الآية ٩٠

وصحبة الملوك ، ومشى به إلى أبواب أغنياء الدنيا ، وإلى دور الظلمة وأهل الجور ، وحكم به بغير العدل ، ألجم بلجام من نار جهنم ، وكان عمله عليه حجة وغمة ومحنة وحسرة وندامة وظلمة على الصراط . ثم يكون العلم للعامل نوراً وفرحة وسروراً وجنة وحبوراً . ينظر المغرور المسكين إلى وفود العلماء وزمر الأولياء وألويتهم على رءوسهم منشورة ، وقلوبهم مما بشروا به من الفوز بالجنان مسرورة ، وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، والملائكة تنادى : ﴿ **ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾(١) وأنت فى ظلمك حيران . أيقنت بالحلول فى سموم النيران ، إلا أن يتداركك بعفوه الملك الديان .

وقد أخذ الملك بيدك وهو ينادى عليك ولجام النار فى فمك لو كان ذلك اللجام فى الدنيا لأحرقها من مشرقها إلى مغربها ، وينادى عليك : هذا الذى ضيع حدود الله ، هذا الذى خالف أوامر الله ، هذا الذى بدّل عهد الله ، وخالف كتاب الله وسنة رسول الله ـ ﷺ ـ ، وآثر حب الدنيا على ما عند هؤلاء .

يا مسكين أخذت على العلم أجرة وبرطيلا (ليس المراد هنا أن يأخذ المدرس على التدريس جعلاً يعيش به ، ولكن المراد من جعل العلم وسيلة لكسب السحت من المال بأن أعان به ظالماً . أو مدح به جباراً غاشماً) واشتريت به ثمناً قليلاً ، ولم تراقب مولى كريماً حليلاً ، وتركت وراءك يوماً هائلاً ثقيلاً . وخسرت يا مغرور ملكا كبيراً دائما جزيلاً .

فسقة حملة القرآن

ذكر فى بعض الأخبار عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « الزبانية أسرع إلى فسقة حملة القرآن منهم إلى عبده الأوثان والنيران ، فيقولون : ويبدأ بنا قبل عبدة الأوثان والنيران ؟ فتقول الملائكة : ليس من يعلم كمن لا يعلم »(٢) .

وفى حديث آخر : « **إن الملائكة الذين جعلهم الله على الصراط إذا نظروا إلى حملة القرآن الفساق أخذوهم وزجوا فى أقفيتهم وألقوهم فى جهنم أو يعف الله ـ تعالى ـ عنهم** » .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٤٩

(٢) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ٧٦ ، كتاب العلم ، باب الترهيب من أن يخالف فعله قوله انظر كتاب الموضوعات لابن الجوزى ، ج ١ ص ٢٦٦ ، باب عقوبة فسقة العلماء .

اللهم أعف عنا وعن جميع إخواننا المسلمين ، واجعل القرآن حجة لنا ولا تجعله حجة علينا يا أرحم الراحمين وأنشدوا :

عظمت مصيبة حامل القرآن ... إن كان ملجؤه إلى النيران

فهو الجزاء لمن عصى رب العلا ... دار العذاب وموقف الخسران

عظمت خسارته وجل مصابه ... عند الصراط بظلمة وهوان

يارب عفواً عن قبيح فعالنا ... أنت الكفيل لجنة الرضوان

فاتقوا الله معشر أهل القرآن فى كتابه ، واشفقوا من أليم عذابه ، واعملوا بالقرآن وارغبوا فى جزيل ثوابه ؛ لأن القرآن هو لكم وهو عليكم ، إن لم تعملوا به ويل وثبور ﴿ **فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾[1] .

روى عن النبى — ﷺ — انه قال : « **عرضت على الذنوبُ كلها فلم أر فيها ذنباً أعظم من ذنب حامل القرآن وتاركه** »[2] ومعنى تاركه ، تارك العمل به ، العمل مع قلة العلم أعظم من كثرة العلم وقلة العمل .

روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : يسأل حمل القرآن عما يسأل عنه الأنبياء ، وإذا غضب حامل القرآن يقول له القرآن : أما تستحى . أنا معك وأنت تغضب ؟ اقتد بى تنج ، وأكرمنى بالطاعة أكرمك وأنجيك من الأهوال وأجوزك الصراط وأدخلك الجنة .

ويروى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « **ما من شفيع أفضل منزلة عند الله من القرآن لا نبى ولا ملك ولا غيره** »[3] . فإنا لله وإنا إليه راجعون على من لا يعمل بالسنة والقرآن ، كيف اختار النار على الجنان ، وعصى مولاه وأطاع الشيطان ، لقد ضل ضلالاً بعيداً ، وتبوأ عذاباً شديداً ، وبقى من الخير فريداً وحيداً . فيا لها من مصيبة ما أعظمها ، ومن حسرة ما أدومها .

---

(١) سورة لقمان الآية ٣٣

(٢) انظر مصنف ابن أبى شيبة ج ١٠ ص ٤٧٩ . كتاب فضائل القرآن . باب فى نسيان القرآن . رقم ١٠٠٤٧ .

(٣) الحديث فى كتاب احياء علوم الدين باب فضيلة القرآن .

وانظر صحيح مسلم ١ ص ٥٥٣ كتاب صلاة المسافرين وقصرها فى فضل القرآن بلفظ (قرءوا فإنه يجىء يوم القيامة شفيعاً لصاحبه)

ما خلف الصراط

روى الحسن عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « خلف الصراط جسر عليه الأمانة ، وجسر عليه الرب جل جلاله ، وجسر عليه الرحمة » . فيأيها السامع لما جاء من أحاديث الصفات والآثار المشكلات ، سلم الأمور لباريها ، وترك تأويلها إن كنت تاليها وقاريها ، وعليك بتربصة نفسك ، وأصلح ليوم رمست (الرمس : تراب القبر ، ورمس الميت : دفنه) وذلك الجسر عليه السؤال . ذلك الوقت يقول الله ـ جل جلاله وتقدست أسماؤه ـ : عبدى عملت كذا فى يوم كذا ؟ فيقول العبد : نعم يارب . فلا يزال الرب جل جلاله يعرف العبد ، والعبد يعترف ويقول نعم حتى يقول العبد : لإرسالك إلى النار أهون علىّ من هذا التوبيخ . فيقول له الله تعالى : يا عبدى ، يعنى إذا كنت عملت ذلك وكنت عبك شهيداً وملائكتى وأرضى ، ولكن سترت عليك بحلمى وجودى ، يا عبدى ، أنا سترتها فى الدنيا عليك وأنا أغفرها اليوم لك[1] . غفر الله لنا أجمعين ، وأماتنا برحمته مسلمين ثابتين على السنة وإسلامة على شهادة أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمداً رسول الله ـ ﷺ ـ .

مجلس فى قوله تعالى وتقدست أسماؤه :

﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ﴾[2]

هؤلاء الذين ذكرهم المولى ـ جل جلاله ـ بقوله : ﴿ **وعلى الأعراف رجال** ﴾ هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فحبسوا على الأعراف ، والأعراف هى مواضع مرتفعة على الصراط ، لأن الصراط سبع قناطر وهى الجسور بعضها أصعب من بعض ، وبعضها أشد سؤالاً من بعض ، وبعضها أكثر ارتفاعاً من بعض ، وعند كل جسر يسأل العبد فيها عن عبادته التى افترضها الله عليه فى الدنيا .

فنسأل الله التوفيق فى الدنيا والتسهيل فى الآخرة فى تلك المقامات .

سؤال العباد يوم القيامة

فأول ما يسأل عنه العبد الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الصيام ، ثم الحج ، ثم الأمانة ، ثم بر الوالدين ، ثم حفظ اللسان ، ثم حفظ الجار ، ثم صلة الرحم . وكذلك جميع ما أمر الله ـ عز وجل ـ به وجميع ما نهى عنه ، فكل من جاء إلى جسر من جسور الصراط سئل عن عبادته ، فإن أجابها جاز وصار

---

(١) (وقيل إن الأعراف سور بين الجنة والنار وسمى أعرافاً لمعرفة العباد أحوالهم عنده ، فمنهم شقى وسعيد) .

(٢) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٦ ، ٣٠٠ كتاب التوحيد ، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم

إلى الجنة ، ونور الإيمان يسعى بين يديه وعن يمينه وعن شماله ، وإن لم يأت بها نقص نوره ، وهو نور الإيمان لأن الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بطاعة الله وينقص بمعصية الله ، فكل من نقص ثوابه بالمعصية ، نقص نوره على الصراط . فمن أراد مولاه أن يعذبه أتم له النور فى بعض جسور الصراط وطفأ النور عنه فى بعضه . والصراط أسود مظلم من شدة سواد جهنم ، لو أن قطرة من ظلمة الصراط وضعت فى الدنيا لأظلم مشرق الدنيا ومغربها ، ولمات الخلق من شدة الظلمة ، وإنما حبس الله تعالى هؤلاء القوم على أعراف الصراط ليبين لأهل الجنة والملائكة والجن والإنس ولجميع ما خلق الله — تبارك وتعالى — فضل نبينا محمد — ﷺ — . وليظهر فخره وجاهه وقدره وحرمته عند ربنا — جل جلاله — وذلك أن الله — تبارك وتعالى — يأمر العباد بمضون على الصراط والصراط منصوب على متن جهنم ، وتأتى الخلائق إلى الصراط ، المؤمنون والكافرون ، فأما المؤمنون فيمضون وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم أى عن أيمانهم .

ظلمات الكفر والمعصية

وأما الكافرون فإنهم يمضون فى ظلمات الكفر ، وظلمات أعمالهم التى عملوا فى حال الكفر فى دار الدنيا ، فإذا أتوا إلى الصراط ، فأول قدم يضعونها على الصراط يهوون (يسقطون إلى أسفل) فى النار فتخطفهم الملائكة بالكلاليب فتلقيهم فى قعر جهنم ، فإذا مضى المؤمنون بنورهم ، مضى المنافقون فى آثارهم يتبعونهم وينادونهم : أنظرونا نقتبس من نوركم ، فنمشى فى ضوئكم ، فيقال : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . وهو قوله تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾(١) وذلك أنهم كانوا فى الدنيا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وأظهروا لهم الإيمان بألسنتهم واعتقدوا الكفر بقلوبهم ، والله تعالى يعامل العباد على عقائد قلوبهم ، والمنافقون كانوا يتربصون بالمؤمنين الدوائر ، فإذا كانوا على الصراط على آثار المؤمنين يمشوا فى نورهم قالوا للمؤمنين : أنظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . يظنون أن وراءهم نوراً يلتمسونه فيرجعون وراءهم . فيرفع لهم سرداب . فيظنون أن فى السرداب نوراً يجوزهم على الصراط ، فيقتحم بهم إلى أبواب جهنم . فإذا رأى المؤمنون المنافقين قد تساقطوا وتهافتوا فى النار ، فزعوا مما حل بالمنافقين ، فعند ذلك يقال لهم : ﴿ بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾(٢) وهذا لعذاب الذى فزعتم منه هو للمنافقين الذين عصوا الله ورسوله وجحدوا بآيات الله وخالفوا كتابه ، فعند ذلك يضرب بينهم بسور له باب .

---

(١) سورة النساء الآية ١٤٢

(٢) سورة الحديد الآية ١٢

السور الحاجز بين الجنة والنار

والسور هو الحائط له باب إلى الجنة ، وهو حائط بين الجنة والنار ، باطن هذا الحائط فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب — يعنى جهنم — والباطن فيه الرحمة — يعنى الجنة — فإذا رأى المنافقون المؤمنين لم يعرجوا عليهم (يعرجون : يرتقون ، وعرج فى السلم : ارتقى) ولم يلتفتوا إليهم ، ورأوهم فى حال السلامة والفوز . فيقول لهم المنافقون : ألم نكن معكم فى الدنيا على التوحيد وكنا نصلى معكم ؟ فيقول لهم المؤمنون : ألم نكن معكم فى الدنيا على التوحيد وكنا نصلى معكم ؟ فيقول لهم المؤمنون : بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم — أى عذبتم — وأحرقتم أنفسكم بالنار بخلافكم لرسول الله — ﷺ — وقولكم بألسنتكم ما ليس فى قلوبكم ، وتكذيبكم بلقاء الله — تبارك وتعالى — ، وكسبتم بهذا اليوم وتربصتم برسول الله — ﷺ وبالمؤمنين الدوائر ، وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغرور فيما تعلمتم برسول الله — ﷺ — وبالمؤمنين ، فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا — يعنى لا يؤخذ من كافر ولا منافق فداء .

صفة المنافقين

فالكافر ، هو الذى كفر فى السر والإعلان ، والمنافق ، الذى كفر فى السر وآمن فى الإعلان ، وآمن بلسانه وكفر بقلبه ، وقوله : ﴿ مأواكم النار ﴾ أى مرجعكم إليها ومستقركم فيها ، هذا كله غرور الشيطان بكم حتى جاءكم الموت ومتم على النفاق ، فإذا رجعوا وراءهم ليلتمسوا النور رأوا سرداباً فيدخلون ذلك السرداب ويظنون أن النور فيه فيهجم بهم على أبواب جهنم ، فتخطفهم الملائكة بالكلاليب فتقذفهم فى جهنم حتى يجاوزون الباب الأول من جهنم ، ثم يلقون فى الباب الثانى حتى يجاوزونه ، فلا يزالون من باب إلى باب حتى ينتهوا إلى الدرك الأسفل من النار ، فينتهى بهم إلى جب (الجب : البئر التى تبنى بالحجارة) يقال له جب الحزن ، فى ذلك الجب بئر يقال له الهبهب . فيها توابيت من نار وعليها أقفال من نار .

بئر الهبهب

على تلك البئر صخرة من كبريت فى تلك البئر باب إذا رفعت تلك الصخرة استغاثت نار جهنم من تلك النار التى تخرج منها فتأكل تلك النار التى تخرج من تلك البئر نيران جهنم وما فيها أسرع من طرفة عين ، فيؤتى بالمنافقين فيلقون فى تلك البئر ، وتوضع عليهم تلك الصخرة فلا يخرجون منها

أبداً ، كلما أكلت تلك النار لحومهم جدد الله لهم لحوماً غيرها ، فلا يخرجون من تلك النار أبداً ، فذلك بقوله عز وجل : ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾(١) وقوله : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾(٢) يعني بقوله : ﴿ ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾(٣) .

وأما المؤمنون الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم فإنهم يمشون على الصراط وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، حتى إذا كانوا على جسر الصراط ، وهو أعلى الجسور من الصراط وهي الأعراف وهي المواضع المرتفعة وأحدها عرف ، وتسمى النشز من الأرض وهو الموضع المرتفع عرفاً ، ومنها عرف الديك .

أهل الأعراف

فإذا صاروا على تلك المواضع من الصراط ، نقص نورهم وبقوا على أطراف أنامل أرجلهم ورأوا أن ذلك ظلمة ، وذلك أن الخلق في الصراط على قدر أعمالهم في الدنيا ، فمن الناس من يكون له من النور ما يضيء على الصراط مسيرة مائة عام ، ومنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة سنة ، وما يضيء مسيرة شهر ومسيرة جمعة ، ومسيرة يوم ، ومسيرة ساعة ، ومن الناس من يعطى من النور ما يضيء له موضع قدميه . على قدر منازلهم عندالله ـ تعالى ـ وعلى قدر أعمالهم في الدنيا ، فيستبقون في الجواز على قدر أنوارهم التي معهم فمن كان له نور كثير جاز في السعة ، ومن كان له نور قليل جاز في الضيق ، على قدر ما أعطى الله لكل عبد ، فإذا ثبت أصحاب الأعراف على أنامل أرجلهم في ذلك ولا ينظرون إلى موضع أقدامهم من شدة الظلمة ، والظلمة هي من شدة سواد جهنم ، أعاذنا الله وإياكم منها وسهل لجميعنا شدائدها وظلمتها ، وثبت على الصراط أقدامنا بمنه وفضله . والصراط أحد من السيف ، وأدق من الشعرة ، وأحر من الجمر ، عليه من الحسك (الشوك مثل حسك السعدان ، والحسك ما يعمل من الحديد على مثاله للحرب) والكلاليب أكثر من عدد الإنس والجن ، قد تعلق بكل كلوب من الزبانية عدد نجوم السماء بل تكلم واحد منهم تناثر النار من فيه ، لو أن واحداً منهم يسق في البحار الزاخرة لجففها . وإذا تكلم واحد منهم فزع صاحبه منه ، ولو سمع أهل الدنيا صوت واحد يتكلم بالكلام لمات كل من فيها من إنسها وجنها وجميع ما خلق الله ـــ تبارك وتعالى ـــ فيها من برها وبحرها من فظاعة كلامه ، ومن شدة صوته . وإذا صاح مالك خازن جهنم على خزنة جهنم يخشى عليهم من شدة صوته ، والصراط مع دقته ورقته يضطرب كما تضطرب السفينة

(١) سورة النساء الآية ١٤٥
(٢) سورة النساء الآية ١٤٢
(٣) سورة الحديد الآية ١٣

بأهلها إذا كانت الريح عاصفة ، فإذا ثبت القوم على أناملهم من أرجلهم لا يستطيعون الجواز وهم ينظرون إلى أهل النار كيف يعذبون فى النار ، قال الله تعالى : ﴿ **وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾[1] وهم يستغيثون ويتضرعون إلى مولاهم — جل جلاله — ويسألونه النجاة من النار ومن هول ما هم فيه من صعوبة الصراط ، فيمكثون كذلك ما شاء الله — تبارك وتعالى — مغمومين مكروبين محزونين لا يدرون أينجون أم يهلكون ، مع كل إنسان منهم حافظاه اللذان كانا يكتبان عليه عمله فى الدنيا ، فبينما هم كذلك إذ يلقى الله — تبارك وتعالى — ذكرهم فى قلوب إخوانهم من أهل الجنة وعلى ألسنتهم ، فيقول بعضهم لبعض : يا ليت شعرنا ما فعل إخوتنا من أهل الأعراف .

فيقولون : ما لنا علم بما صنعوا ولكنا نسأل الحفظة ومن معهم حتى يخبرون ما فعلوا فينادون من قصورهم : يا معشر الملائكة الذين مع أصحاب الأعراف ، ما فعل إخواننا من أصحاب الأعراف ؟

شفاعة أهل الجنة فى أصحاب الأعراف

فيقول الملائكة : يا معشر أهل الجنة : أصحاب الأعراف لم يدخلوها . وهم يطمعون بدخولها ، قد قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، وبقوا على أطراف أناملهم وأرجلهم ، وهم وقوف ينتظرون رحمة ربهم ، فذلك قوله — تعالى — : ﴿ **ونادوا أصحاب الجنة** ﴾ يعنى نادت الملائكة أصحاب الجنة ﴿ **أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون** ﴾[2] .

حياء آدم

فعند ذلك يلبس أهل الجنة الحلى والحلل ، ويضعون التيجان على رءوسهم ، ثم يمضون بأجمعهم حتى يأتوا آدم — عليه الصلاة والسلام — وهو فى قصره ، فينادون بأجمعهم : يا أبانا : أنت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك كرام ملائكته ، وأسكنك جنته ، إن ناساً من ولدك محبوسون على الصراط ، قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين . فيقول آدم — عليه السلام — : لست هنالك . أنا الذى عصيت ربى ، وأكلت من الشجرة فغفر لى ، وأنا أستحى أن أسأله بعد المغفرة شيئا . ولكن عليكم بابنى نوح الذى حمله الله فى السفن .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٤٧

(٢) سورة الأعراف الآية ٤٦

حياء نوح

فيأتوا نوحاً — عليه السلام — فينادون بأجمعهم : يا نوح : فيشرف عليهم من قصره فينظر إلى جماعتهم فيقول لهم نوح : يا أهل الجنة : ما الذى أزعجكم من منازلكم وما الذى جاء بكم ؟ فيقولون له : يا نوح : أنت الذى حملك الله فى الفلك ، إن ناساً محبوسون على الصراط ، قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين ، فيقول لهم نوح : لست هنالك ، أنا الذى خاطبت ربى فيما ليس لى به علم ، فغفر لى ، وأنا أستحى أن أسأله بعد المغفرة شيئاً ، ولكن عليكم بإبراهيم الذى اتخذه الله خليلاً ، وجعل النار عليه برداً وسلاماً ، فيأتون إبراهيم — عليه السلام — وهو فى قصره فينادون بأجمعهم : يا إبراهيم : أنت الذى اتخذك الله خليلاً ، إن ناساً محبوسون على الصراط ، قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين ، فيقول لهم : لست هنالك ، أنا الذى كذبت كذبتين — وقيل ثلاث — فغفر لى ، وأنا أستحى أن أسأله بعد المغفرة شيئاً ولكن عليكم بموسى ابن عمران كليم الله ونجيه .

حياء موسى

فيأتون موسى — عليه السلام — فينادونه ، فيشرف عليهم فيقولون له : يا موسى : أنت الذى كلمك الله بغير ترجمان ، وأنزل عليك التوراة وضرب لك طريقاً يبساً فى البحر ، وأراك العجائب من قدرته ، إن ناساً من إخواننا محبوسون على الصراط قل نورهم وطفىء سراجهم فاشفع لهم عند ديان يوم الدين ، فيقول لهم موسى : لست هنالك أنا الذى وكزت الرجل فقتلته فغفر لى وأنا أستحى أن أسأله بعد المغفرة شيئاً ولكن عليكم بعيسى بن مريم العذراء البتول (البتول من النساء العذراء المنقطعة من الأزواج الدائمة العبادة) البكر .

حياء عيسى

فيأتون عيسى ، وهو — ﷺ — فى قصره ، فينادونه بأجمعهم يا عيسى : فيشرف عليهم من قصره فيقول لهم : يا أهل الجنة : ما الذى أزعجكم من منازلكم ؟ وما الذى جاء بكم ؟ فيقولون له : يا عيسى : أنت الذى خلقك الله من غير بشر ، وأنت الذى جعلك الله آية للناس ، وأنت ابن الطاهرة البكر العذراء البتول ، إن ناساً محبوسون على الصراط ، قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين ، فيقول : لست هنالك ، أنا الذى زعمت النصارى أنى قلت لهم اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، فأستحى منه أن أسأله شيئاً ، ولكن عليكم بالذى كان آخر المرسلين وهو اليوم أولهم ، عليكم به فهو ، إمام المتقين ، وسيد العالمين وخاتم النبيين ، محمد — ﷺ — .

شفاعة محمد

فيأتون النبي — ﷺ — وهو فى قصره خير قصور الجنة ، فيقفون حول القصر والقصر قد أشرق نوره وبهجته على جميع قصور أهل الجنة ، فينادون بأجمعهم : يا محمد : يا أبا القاسم : يا أحمد : يا سيد العالمين : ، يا إمام المتقين : يا خاتم النبيين : ، فيشرف عليهم محمد — ﷺ — من قصره والنور من وجهه قد أشرق على قصور الجنة كلها ، فيقول لهم — صلوات الله وسلامه عليه — : ما الذى أزعجكم من منازلكم ؟ وما الذى جاء بكم ؟ فيقولون له : أنت الذى جعلك الله خاتم النبيين وسيد العالمين وإمام المتقين ، إن ناساً من أمتك على الصراط محبوسون . قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين .

دخوله جنة عدن

فيقول النبي — ﷺ — : أنا لها ، فيلبس — ﷺ — الحلى والحلل ويضع على رأسه التاج ، ويتبعه أهل الجنة حتى ينتهى إلى باب جنة عدن فيستفتح فيقال : من هذا؟ قال — ﷺ — : فأقول : أنا أحمد فيفتح لى ، فإذا خلف السرادق ملك يتلألأ نوراً فيهولنى ما أرى منه ، فيؤنسنى ويصحبنى فيقول : يا أحمد أنت عبد وأنا عبد مثلك ، ثم أمضى فأنتهى إلى سرادق ثالث ، فأستفتح فيقال : من هذا ؟ فأقول : أنا أحمد فيفتح لى ، فإذا خلف السرادق ملك عظيم أعظم خلقاً وأشد نوراً من الذى رأيت ، فيهولنى ما رأيت من عظمه ، فيؤنسنى ويصحبنى ويقول : يا أحمد : أنت عبد وأنا عبد مثلك فلا أزال أمشى فى عظم الملائكة وبعضهم أشد نوراً من بعض حتى أنتهى إلى السرادق السابع فأستفتح فيقال : من هذا ؟ فأقول : أنا أحمد ، فيفتح لى فإذا خلف السرادق جبريل — عليه الصلاة والسلام — ، فيقول : مرحباً بهذا الصوت لقد كنت إليه مشتاقاً . فأمضى حتى أنتهى إلى الحجب ، فترتفع الحجب فيتجلى لى رب العالمين — جل جلاله وعظمت قدرته — ، فإذا نظرت إليه خررت له ساجداً فأحمده بتحميد ما حمده بمثله ملك من حملة العرش ولا من حملة الكرسى ولا نبى مرسل حينئذ فى ذلك المكان ، حتى يقول الكروبيون والروحانيون وأصحاب السرادقات : إن هذا لأهل أن يشفعه الله فيمن يشفع .

سجوده بين يدى الله تعالى

فيقول الجبار — جل جلاله وعظمت قدرته — : يا أحمد : ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ، قال رسول الله — ﷺ — : فأرفع رأسى من السجود فإذا نظرت إلى ربى — جل جلاله — خررت

ساجداً وأحمده وأثنى عليه بمثل ما حمدته به فى المرة الأولى ، فأفعل ذلك ثلاث مرات وربى — جل جلاله — يقول لى فى كل مرة : إرفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ، فأقول : يارب : إن ناساً من أمتى محبوسون على الصراط قل نورهم وطفى سراجهم فأتمم لهم نورهم ، وأضيء سراجهم ، وهم الذين يقولون عند ذلك : ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴾[1] . حتى تمضى كما مضى إخواننا إلى الجنة ، فيبعث الله — تبارك وتعالى — الملائكة فيأتون بالنور من جنة عدن ، ثم يغمسون غمساً فيحيى الله نورهم ويضيء سراجهم . ثم تقبل الملائكة على أهل جهنم فيقولون لهم : ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾[2] وذلك أن أهل جهنم لما نظروا إلى أصحاب الأعراف محبوسين على الصراط قال بعضهم لبعض : والله ما حبسوا هؤلاء إلا ليدخلوا معنا فى جهنم ، فمن أجل ذلك قالت لهم الملائكة : (هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة) ثم تقبل الملائكة على أصحاب الأعراف .

جاه المصطفى العظيم

فيقولون لهم : ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ أى لا تحزنون ولا تموتون فى الجنة أبداً ، فيمضون والنور الذى جاءتهم به الملائكة من جنة عدن ، يسعى بين أيديهم وبأيمانهم حتى يجوزوا الصراط ويدخلوا الجنة ويلحقوا بمنازلهم وإخوانهم ونبيهم — ﷺ — ، وإنما حبسهم الجبار — جل جلاله وعظمت قدرته — ليظهر جاه محمد — ﷺ — وفضله وحرمته ودرجته ومنزلته ومكانه عند الله — تبارك وتعالى — . من الشفاعة — ﷺ — صلاة تشرف بها عقباه ، وتبلغه بها من الشفاعة العظمى رضاه ، آمين يارب العالمين ، صلاة دائمة منتهى الآباد ، طيبة باقية بلا انقطاع ولا نفاد ، صلاة تنجينا بها من حر جهنم وبئس المصير ، وتدخلنا الجنة مع صحابته الأبرار الطيبين . آمين يارب العالمين .

مجلس فى قوله تعالى

﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ﴾

﴿ وفى حساب الملائكة والرسل واللوح المحفوظ ﴾

روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « تقف للعرض الأكبر بين يدى رب العالمين فيفرقون على قدر أعمالهم » .

وروى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه قال : يقول الله — تبارك وتعالى — يوم القيامة : « يا بنى آدم انصتوا فطالما نصت لكم » .

---

(١) سورة التحريم آية ٨

(٢) سورة الأعراف الآية ٤٩

وفي رواية أخرى : « فقد نصت لكم من يوم خلقتكم إلى يومكم هذا ، أسمع قولكم وأنظر أعمالكم ، فانظروا اليوم أعمالكم تعرض عليكم ، فمن وجد خيراً فيحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، احشروا على عبادي فو عزتي وجلالي لا يجوزني ظلم ظالم » .

فكيف بك يا مسكين يا مغرور يا تارك الحق والصواب ، يا مخالفاً للسنة والكتاب ، يا ظالماً لنفسه يا غافلاً عن الحساب ، يا من بذل نفسه لأليم العذاب ، يا من تمادى في معصية رب الأرباب ، ونسي الجنة وحسن المآب . وأنشدوا :

إلى كم لا تفيق من التصابي ... وهذا العمر يؤذن بالذهاب
ويرضى بالقليل المرء حظاً ... ويزهد في كثير من الثواب
فقد ما غرت الدنيا أناساً ... كما غر الظمآن بالسراب
تمنيهم غروراً باطلات ... وتخدعهم بآمال كذاب
كأنك لا ترى في كل يوم ... جنائز تستحث إلى الخراب
خلقت من التراب وعن قريب ... ستلحق غير شك بالتراب
وتحيا بعد موتك كي تجازى ... بما قدمت في يوم الحساب
فإن تك بالمسيء بقبح فعل ... فحسبك بالعقاب مع العذاب
وإن كنت الذي قدمت خيراً ... جزيت به غداً حسن المآب

تبكيت الله تعالى للجبابرة

ذكر في بعض الأخبار أن الجبار — جل جلاله — إذا اجتمع الأولون والآخرون في عرصة القيامة نادى — سبحانه وتعالى — : أين الجبابرة وأبناء الجبابرة ؟ أين الملوك وأبناء الملوك قصمت(1) الجبابرة بسلطاني . وأذلت الملوك بعظمتي .

ذكر في الخبر أن الجبابرة يحشرون يوم القيامة على صور الذر أصغر الخلائق خلقة لتجبرهم على العباد . والجبابرة هم الذين تجبروا على الخلق وعن اتباع سنة رسول الله — ﷺ — . وقيل : الجبابرة هم الذين أجبروا المساكين والضعفاء على ما لا يطيقوا . وهذا الاسم قد اشترك في الخالق والمخلوق فالخالق — جل جلاله — هو جبار على الحقيقة .

---

(1) قصمهم : كسرهم

تفسير الجبار

وتفسير الجبار — في حق الله تعالى — الذي جبر عباده على ما أراد ، وقيل الذي يجير عن ظلم العباد : إن الله — تعالى جل اسمه — لا ينسب إليه الظلم لأن حد الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، لأن الدنيا والآخرة ملك لله تعالى ، والجبار من العباد هو الظالم الذي يضع الشيء في غير موضعه ، يأخذ ما ليس له بحق ويرده إلى ما قد ملكه الله — تبارك وتعالى — ، وإذا قضى الله — تبارك وتعالى — على عبده بقضاء فهو له خيرة . يقول رسول الله — ﷺ — : « لا يكمل المؤمن إيمانه حتى يرى أن الذي قضاه الله — تعالى — عليه أوله خير له من الذي أراد لنفسه » ، وقال رسول الله — ﷺ — : « في قضاء الله تعالى خيرة إلا قضاء النار » وإذا قضى الله تبارك وتعالى على عبده بالنار فهو عبده وهو خلقه لم يعنه أحد على خلقه ولا على رزقه ، وهو يفعل ما يريد لا شريك في ملكه . ثم ينادي الجليل جل جلاله : ﴿ يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾[1] فإذا سمع الخلق هذا النداء رفعوا رءوسهم وطمعوا كلهم في هذا النداء وقالوا كلهم نحن عباد الله ، ثم ينادي ثانية ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾[2] .

فعند ذلك ينكس رأسه من لم يكن مسلماً ، فتبقى أهل الأديان متحيرين ويفرح المسلمون ، ثم ينادي ثالثة : ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ أي كانوا يتقون الكبائر ، فينكس أهل الكبائر من أهل التوحيد رءوسهم ويرفع رءوسهم سائر أهل التوحيد الذين اجتنبوا الكبائر وتابوا عنها توبة نصوحا .

فكيف بك يا مغرور : يا مسكين : قد ارتكبت الكبائر والصغائر ، وعصيت مولاك في الخفيات والظواهر ، وأيقنت أنك مسئول يوم تبلى السرائر ، ولاق من العقوبة على ذلك الحظ الجزيل الوافر . وأنشدوا :

عصيت الله ألـــوان المعـــاصي   كـــأني لست أوقـــن بالـــقصاص
فمـــا لي لا أنـــوح على ذنـــوبي   وأبكـــي يـــوم يؤخـــذ بالـــنواصي

نصـــيحة

فانظر لنفسك يا مسكين : يا ضعيف الإيمان واليقين : قبل حلول الندم ، وزوال النعم ، ونزول النقم ، حيث لا ينفع الندم ، فاستعد للسؤال ، وتهيأ للجدال ، قال الله الكبير المتعال : ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾[3] .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٦٨ (٢) سورة الزخرف الآية ٦٩

السائق والشهيد

فإذا سمع العباد النداء وعلم كل عبد وأمة منزلته من جميع أهل الأديان ، نشرت الدواوين ، ووضعت الموازين ، وجيء بالنبيين ، ونصبت المنابر بالأنبياء والرسل ، فجلس كل نبي على منبره وأمته قد أحدقت به ، ونصبت الكراسي للصديقين والشهداء ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾[1] سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها ، فالناس يقسمون في السياقة على قسمين : قسم تسوقه الملائكة ببر وإكرام ، ورفق وإجلال ، وتؤمنهم وتهدىء روعاتهم كلما نظر العبد إلى من يعذب أو ينكل يقول له سائقه من الملائكة : يا عبد الله ما أنت مثل هذا ، هذا عصى الله وأنت أطعته ، والقسم الثاني يساقون بالإنتهار بالسطوة والإغلاظ ، يسوقه سائقه وهو يروعه ويقول له : يا عدو الله هذا حساب سوف تدري ، كلما نظر المسكين إلى من يعذب أو ينكل (نكل به جعله عبرة لغيره) قال له سائقه : ساعة تكون أنت مثل هذا ، هذا عصى الله وأنت عصيته ، أما علمت يا عدو الله أن الحساب والحشر أمامك ؟ وأنشدوا :

كأني بنفسي قد بلغت مدى عمري ... وأنكرت ما قد كنت أعرف من دهري
وطالبني من لا أقوم بدفعه ... وحولت من داري إلى ظلمة القبر
وفاز بميراثي أناس فشتتوا ... بإفسادهم ما كنت أجمع من أمري
وأغفلني من كان يبدي محبتي ... فأخلصه ودي ويغمره بري
فلم يسخ لي منهم صديق بدعوة ... إذا ما جرى يوماً بحضرته ذكري
وأضحى ثيبتي ساكناً مبهجاً به ... وفي اللحد بيتي لا أقوم إلى الحشر
فيا شقوتي إن لم يجد بنجاته ... إلهي ولم يجبر برحمته فقري
فقد أثقلت ظهري ذنوب لو أنها ... على ظهر طور[2] أثقلته من الوزر

فما أعظم مصيبتكم ، وما أطول حسرتكم إن لم يعف عنكم مولاكم ويجعل النار مأواكم ، فاغتنموا التجارة في دار الفناء والذهاب ، يجازيكم بها مولاكم عند مناقشة الحساب ، فالحساب عظيم عسير ، والهول — والله — جليل كبير ، والناقد مميز بصير ، واليوم عبوس قمطرير .

---

(١) سورة ق الآية ٢١

(٢) الطور : الجبل العظيم

اللوح المحفوظ

ذكر عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه قال : إذا جمع الله — تبارك وتعالى — الأولين والآخرين فى صعيد واحد ونشرت الدواوين ، ونصبت الموازين ، وأحضرت الأنبياء بأممها ، وحضر الصديقون والشهداء ، وحشر وحوش الأرض ، وهوامها وطيورها وأنعامها ، وسكان جبالها وبحارها ، ينادى مناد من قبل العرش : أين اللوح المحفوظ ؟ فيؤتى باللوح المحفوظ فيوقف بين يدى الجبار — جل جلاله — خاضعاً ذليلاً ، فيقول له تبارك وتعالى : ما صنعت بالوحى الذى أنزلت فيك ؟ واللوح من درة بيضاء ، صفحتاه من ياقوتة حمراء ، عرضه كما بين السماء والأرض ، ينظر الله تبارك وتعالى فيه فى كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة ، فيخلق فى كل نظرة ، ويحيى ويميت ويعز ويذل ، ويرفع أقواماً ويفعل بهم الخير ويؤنقهم بفضله . ويخفض أقواماً ويصدهم عن منهاج الهدى بعدله ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون يوم القيامة لأنهم ما قدروا الله حق قدره ولا عبدوه حق عبادته ، لأنه — جل جلاله — أجل وأعظم من أن يوفى فى لعبادة والطاعة والمعرفة حقه ، ما قدر على هذا نبى مرسل ولا ملك مقرب ، فسبحان من لا سبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته . قال فيقف اللوح بين يدى الجبار جل جلاله وعظمت قدرته فيقول ه : أيها اللوح المحفوظ ما صنعت بالذى أنزلت فيك ؟ فيقول اللوح المحفوظ : سيدى ومولاى بلغته عبدك ميكائيل .

رسالة ميكائيل

فينادى أين ميكائيل ؟ فيؤتى به — ﷺ — وهو ملك عظيم له ستة عشر ألف جناح لو نشر منها جناحاً واحداً فى لدنيا لما وسعته ، فيقف بين يدى الله تعالى خاضعاً ذليلاً قد بلغت نفسه إلى حنجرته فلا هى تدخل ولا هى تخرج خوفاً وجزعاً وهيبة من الجبار جل جلاله ، فيقول الله له : ما صنعت بالوحى الذى بلغ إليك االوح المحفوظ ؟ وهل تشهد له بالتبليغ ؟ وأنا أعلم بذلك منك ولكن سبق فى علمى أنى أسأل اليوم عبادى وجميع خلقى وأستشهد بعضهم على بعض ، فيقول ميكائيل : بلغنى اللوح المحفوظ وبلغته عبدك إسرافيل وأنت أعلم .

رسالة إسرافيل

فيبرأ اللوح المحفوظ بشهادة ميكائيل له ، ثم ينادى أين إسرافيل ؟ فيؤتى به — ﷺ — وهو ملك عظيم له جناح بالمشرق وجناح بالمغرب ، ورجلاه تحت تخوم الأرض السابعة السفلى والعرش على رأسه ،

فيقف بين يدى الله ــ تبارك وتعالى وجل ــ ، مع عظم خلقه ، خاضعاً ذليلاً قد ذهلت نفسه وتغير لونه ، وارتعدت فرائصه واضطربت أوصاله واصطكت ركبتاه ، وقد بلغت نفسه إلى حلقه فلا هى تدخل ولا هى تخرج خوفاً وجزعاً وهيبة من الله ــ تبارك وتعالى ــ . فيقول له الجبار ــ جل جلاله ــ : ما صنعت بالوحى الذى بلغك ميكائيل ؟ وهل بلغت وهل تشهد له بالتبليغ ؟ وأنا علام الغيوب . فيقول إسرافيل ــ عليه السلام ــ : نعم يا سيدى ومولاى قد بلغنى وأنت أعلم وقد بلغته عبدك جبريل ، فيبرأ ميكائيل بشهادة إسرافيل ــ عليهما السلام ــ .

رسالة جبرائيل

ثم ينادى : أين جبريل ؟ فيؤتى بجبريل ــ ﷺ ــ وقد تغير لونه وتبلبل لبه وارتعدت فرائصه واضطربت أوصاله واصطكت ركبتاه ، وقد بلغت نفسه إلى حلقه فلا هى تدخل ولا هى تخرج جزعاً وخوفاً من الجبار ــ جل جلاله ــ ، فيقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : يا جبريل ما صنعت بالوحى الذى بلغك عبدى إسرافيل وهل تشهد له بالتبليغ ؟ فيقول جبريل عليه السلام : نعم يا سيدى ومولاى بلغنى وبلغته نبيك نوحاً ــ عليه السلام ــ وأنت أعلم . فيبرأ إسرافيل بشهادة جبريل .

شهادة نوح

فيؤتى بنوح ــ عليه السلام ــ حتى يوقف بين يدى الجبار ــ جل جلاله ــ وقد ذهبت نفسه وتغير لونه وقد مات فزعاً وخوفاً من الجبار ــ جل جلاله ــ فيقول الجبار ــ جل جلاله ــ : يا نوح : ما صنعت بالوحى الذى بلغك عبدى جبريل وهل تشهد له بالتبليغ ؟ فيقول ــ عليه الصلاة والسلام ــ : نعم يا سيدى ومولاى قد بلغنى عبدك جبريل ــ عليه السلام ــ وقد بلغته قومى وأنت أعلم من جميع عبادك بذلك . فيقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : صدقت ، أنا أعلم من جميع خلقى ولكن قد سبق فى علمى أن أسأل جميع خلقى وأستشهد بعضهم على بعض وأنا الحاكم الجبار الذى لا أجور فى حكمى . ثم يدعى بقوم نوح ــ عليه السلام ــ فيقول لهم : ما صنعتم بالوحى الذى بلغكم نوح ؟ وهل بلغكم وهل تشهدون له بالتبليغ ؟ فيقول قوم نوح : ربنا ما جاءنا من نذير ولا رأيناه يوماً قط ولا سمعناه به ولا بلغ إلينا رسالة ، فإذا سمع نوح ــ عليه السلام ــ كلام قومه ذهبت نفسه وود لو بلعته الأرض ، ولو قضى الله ــ تبارك وتعالى ــ بالموت لمات نوح حين جحده قومه ، حياءً من الله ــ تبارك وتعالى ــ ، فيقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : يا نوح : هل تجد من يشهد لك أنك قد بلغت قومك الرسالة ؟ فينظر نوح ــ عليه السلام ــ فى الموقف يميناً وشمالاً ومشرقاً ومغرباً يفضح

ويتبصر من بين سائر الأنبياء والمرسلين ، وبين كراسى الشهداء والصديقين . فلا يرى فى المنابر أعلى ولا أنور ولا أحسن ولا أزهى من منبر محمد — ﷺ — .

جاه الرسول الأعظم

ولا يرى فى الأنبياء وجهاً أحسن من وجه محمد — ﷺ — ، ولا يرى نوح فى الكراسى أنور ولا أحسن من كراسى أمة محمد — ﷺ — ، ولا يرى أبهى ولا أنور ولا أحسن من كرسى أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — . ولا يرى فى الوجوه وجوهاً أحسن من وجوه أمة محمد — ﷺ — ، ولا يرى فى الصديقين والشهداء أحسن ولا أبهى ولا أنور من وجه أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — .

فضل أبى بكر الصديق

فيقول له نوح : قد أصبت من يشهد لى يا مولاى وسيدى ، فيقول الله — تبارك وتعالى — وهو أعلم — من يشهد لك يا نوح ؟ فيقول نوح — عليه السلام — يشهد لى محمد — ﷺ — وأمته بأنى قد بلغت قومى الرسالة ، فينادى مناد : أين النبى الأمى العربى التهامى ؟ أين أحمد ؟ أين سيد المرسلين ، وأين خاتم النبيين والمرسلين ، أين إمام المتقين ؟ فعند ذلك يقوم محمد — ﷺ — ، وعند ذلك يرفع أهل الجمع رءوسهم إذا رأوا رسول الله — ﷺ — فيمضى — صلوات الله وسلامه عليه — حتى ينتهى إلى ربه — عز وجل — فيقول له ربه يا أحمد — ونوح قائم ينظر — ما تقول هل بلغ نوح الرسالة إلى قومه ؟

فيقول محمد — ﷺ — : نعم يا سيدى ومولاى قد بلغ وأقام يدعوهم إلى الإيمان ألف سنة إلا خمسين عاماً . فيقول الجبار — جل جلاله — : صدقت يا أحمد . فعند ذلك يفرح نوح — عليه السلام — ويتهلل وجهه ، ثم يقول الله تعالى : يا محمد : هلم أمتك إلى الحساب والشهادة ، فتجمع كل أمة حول نبيها وتنظر أمة محمد — ﷺ — يميناً وشمالاً فلا يرون النبى — ﷺ — ، والأمم قد أحدقت بأنبيائها وينظر الأنبياء والأمم إلى منبر رسول الله — ﷺ — خالياً .

منبر الرسول والمحشر

فيقول بعضهم لبعض : لمن هذا المنبر الذى لا يرى فى الموقف مثله لحسنه وجماله ، ولا يرى أنور منه ولا أعلا ولا أبهى منه ، ونراه خالياً ولا نرى له صاحباً ؟

فبينا هم ينظرون إلى منبر النبي ـ ﷺ ـ إذ ينادى المنادى ، ألا إن هذا المنبر منبر محمد ـ ﷺ ـ ، وإن محمداً ـ ﷺ ـ يناجى ربه فى المذنبين من أمته يشفع لهم إلى الله ـ تعالى ـ : فبينا هذه الأمة وقوف مغمومون محزونون بما يأتى النبى ـ ﷺ ـ من عند ربه ـ عز وجل ـ ، إذ يخرج إليهم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من عند ربه ـ عز وجل ـ ، إذ يخرج إليهم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من عند ربه ـ جل جلاله ـ حتى ينتهى إليهم فيقوم بينهم فيرفعون رءوسهم وينظرون إليه فإذا رآهم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أرسل عينيه بالبكاء ، فإذا نظروا ﴿ تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾(١) الآية . ذلك يوم مهول عبوس ، يوم تشيب فيه الرءوس ، وتذهل فيه النفوس ، وتبلو كل نفس ما أسلفت ، وتقدم كل أمة على ما أقدمت ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ، يجد والله كل عبد وأمة ما عمل وقدم من خير ثواباً ونعيماً ، وسروراً مقيماً ، ورباً كريماً ، رءوفاً بعباده رحيماً . ويجد كل عبد وأمة ما عمل من شر خزياً جسيماً ، وناراً وجحيماً ، وعذاباً مقيماً ، ونكالاً أليماً ، ورباً غضباناً عظيماً ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت ﴾ .

الثواب والعقاب

يجد الطائع الثواب ، ويجد الفاسق العقاب ، يجد المؤمن لذة الوصال ، بالنظر إلى الكبير المتعال ، فى دار الخلد والجلال ، ويجد الكافر العذاب والنكال ، والسلاسل والأغلال ، والجحيم والخبال ، وفظاعة الأهوال ، يوم تجد كل نفس ما عملت ، يجد المؤمن النعيم والكرامة ، والأمن فى القيامة ، والعافية والسلامة ، والحلول فى دار المقامة ، ويجد الكافر الخزى والندامة ، والعذاب والملامة ، ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت ﴾ يجد المؤمن الدرجات ، ويجد الكافر العقوبات ، يجد المؤمن السرور ، ويجد الفاجر الثبور ، يجد المؤمن النعيم والخلود ، ويجد الفاجر عذاباً غير مردود ، يجد المؤمن ما قدم من الإحسان ، فى درجات الجنان فى جوار الرحمن ، مع الحورات الحسان ، ويجد الفاجر ما عمل من العصيان فى سموم النيران ، فى جوار الشيطان ، مع الذل والهوان . ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت ﴾ فى يوم هائل عظيم ، يوم تكثر فيه الغموم وتعظم فيه الهموم ، وينفصل الرب بين عباده وهو الحى القيوم ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت ﴾ يوم تندم على القبائح ، وتتأسف عند معاينة الفضائح ، وتوجد الأعمال فى الصحائف الصحائح ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت ﴾ يوم يندم الظالم ويخسر الآثم ، ويكون الجبار ـ جل جلاله ـ فى ذلك اليوم العدل الحاكم ، ذلك يوم الندامة والحسرة ، والأهوال والعبرة . وأنشدوا :

يا واحداً صمداً بغير قرين ارحم ضراعة عبدك المسكين
واعطف علىّ إذا وقفت مروعاً حيران بين يديك يوم الدين

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠ .

يا حسرتى بين العباد إذا هموا ... خافوا الحساب فخف عنهم دولى
ما حيلتى فى يوم نشر صحيفتى ... إذا قيل لى خذها بغير يمين
ما حيلتى عند الحساب ومولى ... إذا قصرت فى قوتى ويقينى
لا حيلة عندى ولا لى موئل ... إن خانتى طمعى وحسن ظنونى
يارب لا تترك عبيدك هالكاً ... وارحم بفضلك عبرتى وشئونى

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ أى تجده حاضراً عتيداً (العتيد الحاضر المهيأ) وتسأل عن أعمالك سؤالاً شديداً **﴿ وما عملت من سوء تودلو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾**[١] . قيل الأمد البعيد الذى يود من عمل سوءاً وعصى مولاه أن يكون بينه وبين عمله السوء كما بين المشرق والمغرب وقيل الأمد البعيد الغاية فى البعد الذى ينسى أنه تاب فى الدنيا وتبدل الشر بالخير حتى يمحى عنه السوء بالتوبة فلا يراه ولا يسمعه ولا يعاقب عليه إذا رأى التائبين غفر لهم بالتوبة ، وبدلت سيئاتهم بالحسنات والأوبة ، كما قال تعالى : **﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾**[٢] الآية .

فائدة التوبة

وقال ـ رسول الله ـ ﷺ ـ **« كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون »**[٣] فإذا رأى المسكين الذى عمل السوء وقد أحاطت به الكروب وترادفت عليه الهموم والخطوب ، واسود وجهه من ظلمات الذنوب ، وقد غضب عليه علام الغيوب ، ورأى الذين تابوا من إخوانه وأهله وأصحابه وجيرانه قد فازوا بالملك الكبير ، والحساب اليسير ، ولباس السندس والحرير والنظر إلى وجه السميع البصير ، قد جاء فى القرآن الكريم **﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾**[٤] ، وفى الحديث **« سترون ربكم كالقمر عند تمامه لا تضارون شيئاً عن رؤيته »**[٥] ورؤية الله ـ تعالى ـ يوم القيامة لا شك فيها وتلك أفضل الكرامة ، وقد أيدها الإمام أحمد بن حنبل بأحاديث صحيحة ورأى نفسه قد خسر وخاب ، وحرم الثواب ، ونوقش

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠.

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٨

(٣) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٦٦٨ كتاب صفة القيامة باب ١٩ رقم ٢٤٩٩ ط / دار الكتب العلمية ـ تحقيق كمال يوسف الحوت . وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث على بن مسعدة عن قتادة .
وانظر سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٤٢٠ . كتاب الزهد ، باب ذكر التوبة ، رقم ٤٢٥١ .

(٤) سورة القيامة الآيتان ٢٢ ، ٢٣

(٥) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٨٣ . كتاب التوحيد . باب قول الله ـ تعالى ـ ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ .
انظر سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٩٤ كتاب صفة الجنة وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

الحساب ، وحجب عن رب الأرباب ، وصار إلى أليم العذاب . يود لو كان تائباً ، ولم يكن من الرحمة خائباً ، يود لو كان السوء عنه بعيداً ولم يكن حاضراً عتيداً ، ولم يكن العذاب عليه شديداً . يود لو كان من التائبين ، ولم يكن من المحرومين ، يود لو كان من الآمنين ولم يكن من الخائفين ، يود لو كان من الطائعين ولم يكن من العاصين ، يود لو كان من المحسنين ولم يكن من الظالمين ، يود لو كان من أهل الجنان ولم يكن من أهل النيران ، يود لو كان من أهل الثواب ولم يكن من أهل العقاب ، يود لو كان من أهل النعيم ولم يكن من أهل الجحيم ، يود لو كان من الأولياء ولم يكن من الأشقياء . يود لو كان من أهل الوفاق ، ولم يكن من أهل النفاق . يود لو كان من أهل الفوز بالجنة ، ولم يكن من أهل العذاب والمحنة . يود لو كان سعيداً رشيداً ، ولم يكن عن الله بعيداً . لا أبعدنا الله وإياك من رحمته ، وقربنا وإياكم بالفوز لجنته .

عمل العبد يلازمه

ذكر في بعض الأخبار أن العبد إذا مات أحضر عمله كله عند رأسه حين يغسل خيراً كان أو شراً ، فإذا صلى عليه ومضى إلى قبره وانصرف الناس عنه بقى عمله معه في قبره ولا يزال معه في قبره إلى يوم يخرج من قبره فإذا خرج خرج معه ، فإذا قدم إلى الحساب اجتمع عمله كله خيره وشره حتى حركاته وأنفاسه ووفاته وخلاله ، يجد الكل مجموعاً لم يُنس منه شيء من الكبائر ولا من الصغائر ، ولا من الظواهر ولا من السرائر .

الحض على التوبة

فالله الله معشر المذنبين ، ابعدوا عن عمل السوء بالتوبة إلى الرحمن ، ولا تغرنكم الحياة الدنيا فإنها غرور الشيطان ، واعلموا أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يمحو عنكم سيئاتكم بترك الذنوب والعزم على التوبة ، ويرحمكم يوم الحساب بحسن الأوبة . يا أخي وما عسى أن أقول لك من كرم مولاك الجليل ـ جل جلاله ـ لو أن الذنوب التي عملت في أيام طغيانك وعصيانك كانت مثل جبال الدنيا برمالها وبحارها وأنهارها ، وتبت توبة واحدة بصدق وحرقة وندامة ، ليغفرها لك مولاك الكريم بكرمه وفضله ، ولا تسأل عنها يوم القيامة . قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[1] ، وأنشدوا :

---

(1) سورة النساء، الآية ١١٦

نهاك الطبيب حبيبٌ على مطاعم لونــلتها لم تمت
وخاطبك الله جل اسمه بترك الذنوب التى حرمت
فأعرضت عن أمره لاهياً وأمنت نفسك ما خوفت
فأطمعتها أن تنال الرضا بجهلك فى فضل من قد عصت
فماذا تقول إذا أزعجت لتخرج بالكره فاستسلمت
فلا ندم حط أوزارها ولا توبة غسلت ما جنت
وأفردت وحدك فى ملحد بكت فيه نفسك ما أسلفت

ما تحويه الآية

يا أهل الذنوب تدبروا هذه الآية فإن فيها بلاغة لمن تذكر ، وزجراً لمن اعتبر ، وتخويفاً لمن تدبر ، ونهياً لمن تفكر . فالفكرة عبادة ، وخير وزيادة لأن مولاكم الكريم قد خوفكم وهددكم وزجركم بها زجراً شديداً فقال : **﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾**[1] .

ثم قال : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أى يحذركم عقابه وعذابه إذا عصيتموه ويجزل لكم ثوابه إذا أطعتموه ، فلا يحقرن أحدكم من الذنوب شيئاً وإن صغر ، فربما كان فيه شدة العذاب والعقاب ، ولا يحقرن أحدكم حسنة يعملها وإن قلت فربما كان فيها الرضا من الملك الوهاب ، واعلموا أن الذنب الذى يحقره صاحبه يكون يوم القيامة فى ميزان فاعله أثقل من جبال الأرض ، فازجر نفسك عن غيها وقدم فى حياتك ليوم فقرك . والأصل فى الذنب الصغير أن يكون سبباً لدخول صاحبه النار . إن العبد المغرور يعمل الذنب ويحقره ولا يفكر فى من قد عصاه وهو الجبار - جل جلاله - ، فعند ذلك يغضب عليه مولاه ويقول له : عبدى حقر ذنبه واستخف بحقى ، وعزتى وجلالى لأعذبنه عليه بالنار ، ومن تاب تاب الله عليه وغفر له بالتوبة .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠ .

وقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إياكم ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً »[١] قال الله ـ سبحانه ـ : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت ﴾ الآية . وأنشدوا :

قد ذهب الحي إلى عرسه ... وعذب الميت في رمسه

مرتهن النفس بأعمالها ... لا يأمن الإطلاق من حبسه

لنفسه صالح أعمالها ... وما سوى هذا على نفسه

حكاية عن أحد الصالحين

حكى أن المنصور بن عمار ـ رحمه الله ـ دخل على عبد الملك بن مروان ، فقال له عبد الملك : يا منصور مسألة ؟ وقد أمهلتك سنة كاملة ، من أعقل الناس ؟ ومن أجهل الناس ؟ قال : فخرج منصور إلى بعض الفضاء من القصر ليخرج فإذا الجواب قد حضره ، فرجع إلى عبد الملك ، فقال له عبد الملك : يا منصور ما الذى ردك إلينا ؟ قال : يا أمير المؤمنين أعقل الناس محسن خائف وأجهل الناس مسيء آمن . فبكى أمير المؤمنين حتى بل ثيابه بدموعه ثم قال : أحسنت والله يا منصور ثم قال له إقرأ على شيئاً من كتاب الله فهو الشفاء لما في الصدور ، وهو الدواء والنور ، فقرأ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ الآية . فقال عبد الملك : قتلتنى يا منصور ، وما معنى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ قال منصور : عقوبته يا أمير المؤمنين فبكى عبد الملك، ثم أفاق فبكى مرة أخرى ثم قال يا منصور : وما معنى (رءوف بالعباد) قال : رحيم غفار لمن تاب وأناب . قال : وما معنى ﴿ ما عملت من سوء محضراً ﴾ قال : كل صغيرة وكبيرة يجدها العبد يوم القيامة ، لم يغفر الله منها شيئاً . فبكى عبد الملك حتى غشى عليه ، فلما أفاق قال :

رقة عبد الملك بن مروان

إن ـ والله ـ من فكر في هذه الآية وعصى مولاه بعد ذلك لقد ضل ضلالاً بعيداً . وأنشدوا :

بكيت على عظم الذنوب وغزرها ... وما قل من يبكى لعظم سؤاله

تفكر في عظم السؤال وهو له ... وتندب دهراً زاد قبح فعاله

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٦١ ، ج ٨ ص ٤٨٣ . ط / الشعب .
وانظر سنن بن ماجة ج ٢ ص ١٤١٧ كتاب الزهد رقم ٣٢٤٣ بلفظ يا عائشة : إياك .. الحديث .
وانظر مسند أحمد ج ٦ ص ١٥١ وأيضا ج ٦ ص ٧٠

لعل إله العرش يرحم عبده — ويمنحه فى الحشر طول وصاله
ويغفر ما قد كان فى طول جهله — ويسكنه بالعفو دار جلاله
وإن نظر الرب العظيم جلاله — فذاك حسبه من جزيل نواله

﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا** ﴾ تجد والله كل نفس ما قدمت فى الأيام من الطاعات والإجرام ، ذلك يوم المصائب ويوم النوائب ، ويوم العجائب . يوم هتك الأستار ، يوم تسعر فيه النار ، يوم يفوز فيه الأبرار ، ويندم فيه الفجار ، وتعرض العباد على الواحد القهار . فالعجب كل العجب ممن قطع عمره فى الأغفال ، وضيع أيامه فى المحال ، وأفنى شبابه فى الضلال ، ولم يعمل بما فى كتاب ذى المجد والجلال ، قال الله الكبير المتعال : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا** ﴾ يقول الله تعالى : يا ابن آدم تطلب موعظة ساعة وتقيم على الذنب سنة وأنشدوا :

ما بال قلبك باللذات قد شغفا — وعن فوات صواب الفعل ما أسفا
وقد توعده الجبار خالقنا — وبالذنوب وبالعصيان قد كلفا

توبيخ الله تعالى للعباد

ذكر فى بعض الأخبار أن الله تعالى يقول فى بعض كتبه المنزلة على أنبيائه : يا عبدى ما الذى زهدك فى ورغبك فى غيرى ؟ عبدى أنا أتقرب إليك وتهرب عنى وأطلبك وتفر منى . عبدى بسطت لك غرور الدنيا فاشتغلت بها عنى ، وآثرتها علىّ وزهدت فى سعة رحمتى ، أهكذا يفعل المطيعون بأربابهم المحسنين إليهم ؟ عبدى ، من الذى سترك وكلأك وحفظك ووقاك ؟ هل كانت لك شركة فى نفسك معى ، أم هل كانت لك قوة بنفسك علىّ ؟ عبدى ما الذى قصرك عن عبادتى ؟ ما الذى زهدك فى طاعتى ؟ أين أنت من هادم اللذات ، أين أنت من نواح الآباء والأمهات ، أين أنت من المفرق بين البنين والبنات ، أين أنت ممن لا يستأذن على أصحاب القصور ، ولا يستأمر أرباب الدور ، أين أنت من قاصم الجبارين الموكل بأرواح المخلوقين ؟ عبدى ، أليس قد اضمحلت آثار الماضين ، ودرست معالم السالفين ، واتبع آثارهم الباقون . ومن ذا الذى يقوم بخلود الدهر غيرى ؟ ومن ذا الذى ينفع دوام الأبد غيرى ؟ عجزت عن الخلود الجبال الراسيات والأطواد العاليات والبحار الطاميات . أنا الذى تفردت بالبقاء ، وحكمت على عبادى بالفناء . أنا الله لا إله إلا أنا لا شريك معى فى ملكى ، ولا نظير لى فى حكمى ، ولا ضد لى فى سلطانى وأنشدوا :

أما والذى لا خلد إلا لوجهه — ومن ليس فى العز المنيع له كفو
لئن كان هذا العيش مراً مذاقه — لقد

السؤال لا يدع ذرة

واعلموا أن الله — تعالى — سائلكم عن الكبيرة والصغيرة ، والخفية والسريرة ، وعن كل ما قل ، وما دق وما جل ، لا يغفل عن شيء . يجد العبد ما عمل حاضراً ، ويجزى به وافراً ، ويسأل عما عمل سراً مظاهراً ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ تجد — والله — القليل والكثير ، والنقير والذرة والقطمير . وأنشدوا :

والله لو بكينا طول الأيام بدمع هامل سجام
وزرنا من الأهل والأوطان إلى الجبال والآكام[1]

خوفاً من ذلك المقام ، لكان ذلك لنا قليلاً خوفاً من سؤال الملك العلام . فكيف ونحن لا نفيق من الغفلات ، ولا ننتبه من السكرات ، ولا نخاف يوماً نجد فيه الحسنات والسيئات . ونسأل عن المظالم والتبعات . كما قال الذى فطر الأرض والسموات : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ﴾ .

سؤال الله تعالى للعباد

روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « إن الله — تعالى — يخلو بعبده يوم القيامة ليس بينه وبينه حجاب فيقول له : عبدى : عملت كذا وكذا فى يوم كذا . أما علمت أنى مطلع عليك ؟ يا عبدى أفجعلتنى أهون الناظرين إليك ؟ أما استحييت منى ، أما استحييت من ملائكتى ، أما خفت من عقابى ؟ عبدى أرويتك من الماء البارد وقويت جسمك ووسعت عليك من سعة رزقى نعصيتنى . حتى إن العبد ليذوب حياء من الله ويغمره العرق حتى ليكاد يموت من الفزع ، ثم يقول العبد : يارب : النار أهون على من حيائى منك ومن العباد . فيأمر الله — تعالى — به إلى النار ، فيمضى العبد وهو يرد رأسه ويقول : يارب : وعزتك وجلالك ما عصيت بهذا كله استخفافاً بحقك ، وما ظننت بك إلا أن تغفر لى كما سترت علىّ فى الدنيا ، وقد أيقنت أن عصيانى ذلك لا يضرك ، وأن رحمتك لى لا تنقصك . فيقول الله — تبارك وتعالى — : يا ملائكتى مروا بعبدى إلى الجنة . ومن العباد من يقول : يارب العذاب علىّ أهون من توبيخك لى أرسل بى إلى النار كما يفعل بالعبد الآبق[2] عن مولاه . فيقول الله — تبارك وتعالى — : عبدى ما وبختك إلا لأعرفك أن ذنوبك بعينى إذ عصيتنى بها ، وجعلت توبيخى لك كفارة لذنوبك وقد غفرتها لك وقد رحمتك وأنا أرحم الراحمين . مروا بعبدى إلى الجنة »[3] .

---

(١) الآكام : جمع أكمة ، وهى التل المرتفع من الرمل أو الحجارة

(٢) أبق العبد — بفتح الباء — هرب

(٣) انظر الحديث بمعناه فى اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ٤٦٩ ، ص ٤٧٠ .

جعلنا الله وإياكم من أهل الجنة أجمعين ، وتوفانا برحمته مسلمين ، وختم لنا عند فراق الدنيا بحسن الخاتمة ، وكلمة التقوى ، قول لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ــ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم ــ ، وحشرنا معه فى المقام الأعظم ، مع أصحابه وأزواجه الكرام أمهات المؤمنين ، آمين . يارب العالمين .

مجلس فى قوله تعالى

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ الآية .

قال الله ــ سبحانه وتعالى ــ : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ﴾ يجد المؤمن الحسنات فى قرار الجنات ، والقصور العاليات ، والحور والدرجات ، والنظر إلى رب الأرضين والسموات ، يجد الطائع البشرى ، ويجد الفاجر النار الكبرى ، يجد المؤمن الأمان مع السرور والرضوان ، ويجد الفاجر الهوان مع الذل والخسران ، يجد المؤمن الملك الجزيل ، مع الثواب والتفضيل ، وأنهار السلسبيل ، والنظر إلى وجه الملك الجليل ، ويجد الفاجر الويح والعويل ، والحزن الدائم الطويل ، والعذاب الشديد الثقيل ، يجد المؤمن الخلاص ، والتبجيل والإخصاص ، ويجد الفاجر العذاب وشدة القصاص . المؤمن يوم القيامة مرحوم والفاجر باللعنة مرجوم ، المؤمن عند الحساب مستور ، والفاجر عند السؤال مشهور . المؤمن عند الحساب يلاطف ، والفاجر عند الحساب يكاشف . المؤمن حسابه عتاب ، والفاجر سؤاله عذاب . المؤمن يجد من مولاه الرحمة ، والفاجر يجد من الله النقمة . المؤمن حسابه يسير والفاجر حسابه عسير . المؤمن يجد لباسه حرير الجنان ، والفاجر لباسه سرابيل القطران . المؤمن يجد عمله سروراً والفاجر يجد عمله ويلاً وثبوراً . المؤمن يجد الإتصال ، والفاجر يجد الإنفصال . المؤمن يجد الخلاص والفكاك ، والفاجر يجد الهوان والهلاك . المؤمن مع محمد النبى ، والفاجر مع الشيطان الغوى . المؤمن فى وجهه نضرة النعيم ، والفاجر فى وجهه ظلمة الجحيم ، المؤمن فى الحساب ريان ، والفاجر فى الموقف عطشان . وأنشدوا :

أنت المخاطب أيها الإنسان ... فأصخ[1] إلىَّ يلح لك البرهان
أودعت ما لو قلته لك قلت لى ... هذا لعمراك كله هذيان
فانظر لعقلك من بيانك واعتبر ... اتقان صنعته فثم الشان[2]

(١) أصاخ له : استمع .

(٢) أى إذا نظرت بعين فكرك وتدبرت بسديد رأيك صنع الله ــ تعالى ــ وإتقان هذا الصنع فى الذرة الصغيرة وفى الفيل الكبير لعلمت أنه حدث الشأن أو الدلالة على قدرته وعنايته .

وجزا مجالس فعلهم في حشرهم ... عند الإله وعنده الرضوان
هذا لعمري ظاهر لا يختفي ... نطق الرسول وبين الفرقان
وفي كل شيء له آية ، تدل على أنه الواحد

حكم قدسية

ذكر في بعض الحكم التي أنزلت على الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — : عجباً لمن لا يرحم نفسه كيف يرحم ، وعجباً لمن يدوم على المعصية كيف يرجو حسن المآب ، وعجباً لمن يعمل أعمال النيران وهو يطلب نعيم الجنان . كأنك يا أخي قد قربت من العرض والحساب ، ووقفت بين يدي الملك الوهاب ، فيأمر بك إلى الجنة وحسن المآب ، أو إلى النار وأليم العذاب ، تفكر في هذا كله يا مغرور لعل القسوة تنجلي من قلبك ، والوقر أن يزول عن سمعك ، والغطاء أن يرتفع عن بصر قلبك ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . فانظر يا أخي بنور فكرتك ، وأطلق الموعظة على بحر عبرتك ، فلعل العين أن تدمع ، ولعل القلب أن يرق ويخشع ، فإذا جرت الدموع وخشعت القلوب محيت الذنوب ، وبلغت المنى والمرغوب ، ويسر حسابك علام الغيوب . وأنشدوا :

تذكري المكث في التراب ... حتى أنادى إلى الحساب
هون كل البلاء عندي ... وهكذا الفقد للشباب[1]
ليت شعري وكم مقامي ... تحت الثرى أو متى إيابي
لو كان لي عقل ما هنالي ... نومي ولا ساغ[2] لي شرابي
ولا ضحكت ولست أدري ... ما لي لدى الله من حساب

النداء بأسماء الخلائق

ذكر في بعض الأخبار : أن الخلائق إذ وقفوا في أرض القيامة فيقف كل عبد وأمة إذا نادى المنادي باسمك يا مغرور على رءوس الأولين والآخرين . أين فلان بن فلان ؟ أو أين فلانة بنت فلان ؟ هلم إلى الحساب بين يدي رب العالمين ، فاستقر في سمعك يا مسكين أنك أنت المنادى من جميع الخلق ، فقمت على قدميك قد تغير من الفزع لونك ، وانخلع من الجزع قلبك ، واضطربت من الهلع مفاصلك ، وقد سمع من كان حولك حسيس قلبك بالخفقان ، وأوصالك قد اشتدت في الطيران ، فكادت نفسك

---

(١) أي يهون أيضاً فقدي للشباب وهو حقاً أشد ما ورد عليه الشيخ . وقيل : إن الشباب علة التصابي ، روائح الجنة في الشباب .
(٢) ساغ الشراب : سهل مدخله في الحلق

أن ترهق من خوف الرحمن ، فإذا نظر الملك الموكل بسوقك وقد تغير لونك وتحير لبك ، علم أنك أنت المنادى باسمه فإذا كنت من أهل النفاق والعصيان لملك الخلاق ، نظر على وجهك ظلمة الذنوب ، فعلم أنك عدو لعلام الغيوب ، فجمع بين ناصيتك وقدميك ، غضباً لغضب الله عليك .

أهل الرشاد والتوفيق

قال الله ــ تبارك وتعالى ــ : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾(١) وإن كنت من أهل الرشاد ، والتوفيق والسداد ، الذين وفوا الله بالميعاد ، وخافوا مولاهم رب العباد ، أخذ بيدك الملك وقادك ، يجوز بك بالرفق ورفع الخلائق أبصارهم إليك ، وتمنوا مثل ما من الله عليك وأنت سائر إلى ربك ليجازيك بسعيك ، ويعدل عليك بكسبك . فلما انتهى بك الملك إلى سلطان العظمة .

فإن كنت من أهل السر الصالح في الدنيا سترك جل جلاله بالنور ، وأبدى لك البشرى والسرور ، وقربك وأدناك ، وفضلك وحاباك ، فلم يطلع على حسابك ملك ولا نبي ولا رسول ، إلا الملك الجبار الذي لا يحول ولا يزول ، فيقول لك : عبدى : أنت الذى كنت تسهر والعباد نائمون ، وتصوم والعباد يشبعون ، وتبكى والعباد يضحكون ، وتحزن والعباد يفرحون ، وتخافنى والعباد آمنون ، أنت الذى كنت تجهد في عبادتى والعباد بطالون ، وتتصدق والعباد يبخلون ، وتبذل المعروف بين عبادى والناس يمنعون .

يقول المولى جل جلاله : لو عزتى وجلالى وملكى ومجدى وكبريائى وعظيم سلطانى وقدرتى على جميع العباد لأومنن روعك ، ولأبيحنك جنتى ، ولأوسعنك مغفرتى ورحمتى ، ولأعطينك من جزيل نوالى وحسن مآلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ولأبيحنك النظر إلى وجهى ، ولأرفعن قدرك وجاهك ، ولأشفعنك في إخوانك وأهلك وأحبابك وجيرانك من أهل الذنوب والخطايا .

شفاعة العبد المؤمن

يقول المولى جل جلاله : يا عبدى ، أخرج إلى موقف الحشر فانظر إلى من لقينى من أهل الذنوب على التوحيد ، قد شفعتك فيه ، خذ بيده وانطلق به إلى الجنة بلا خوف ولا حزن ، والله تعالى أعلم .

وأنشدوا :

(١) سورة الرحمن الآية ٤١

عنى إليك فما اللذات من شغلى ... ولا سبيل الصبا واللهو من سبلى
حال التقى دون ما قد كنت نعرفه ... فلست منه على زيغ ولا زلل[1]
فى الحشر لى شغل عن كل مشتغل ... بلذة وعن الألحاظ والمقل
هذا أطار الكرى عن مقلتى وزوى[2] ... عنى المنى وطوى المبسوط من أملى
كم ليلة بت فيها ساهراً أرقاً ... أخشى العقاب وأخشى سرعة الأجل

قال الله — تعالى — : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد** ﴾[3] رءوف — والله — بالمؤمنين ، ذو نقمة على الظالمين ، رءوف بأهل الإحسان ، وذو انتقام من أهل العصيان ، رءوف بأهل السداد ، وذو انتقام من أهل العناد ، يا مغرور تفكر فى هذه الآية فلك فيها من التخويف غاية ، ومن الزجر والتقريع نهاية ، فازجر نفسك عن هواها ؛ عساك تبلغها يوم العرض مناها .

حكاية عن ذى النون المصرى

حكى عن ذى النون المصرى بن إبراهيم الأخميمى (أخميم بلدة من صعيد مصر مشهورة ، وهى الآن مركز مهم يصنع فيه قماش جيد وذى النون المصرى من أعلام المتصوفين القدماء اشتهرت عنه ألفاظ من الحكمة العالية والفلسفة الإسلامية وربى كثيراً من المريدين . وله ترجمة وافية فى تاريخ الخطيب البغدادى) رحمة الله تعالى عليه أنه قال : خرجت مرة من المرات إلى ناحية الأردن من أرض الشام ، فلما علوت الوادى فإذا أنا بسواد قد أقبل وهو يقول ﴿ **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون** ﴾[4] فلما قرب منى السواد إذا هو شخص ، فتأملته ، فإذا هو امرأة عليها جبة صوف ، وخمار من صوف ، وبيدها ركوة[5] ، وبيدها الأخرى عكاز ، فقالت لى غير فازعة منى : من أنت ؟ فقلت لها رجل غريب ، فقالت : يا هذا وهل يوجد مع الله غربة وهو مؤنس الغرباء ، ومعين الضعفاء ، فاجعله أنيسك إذا استوحشت ، وهاديك إذا ضللت ، وصاحبك إذا احتجت . قال ذو النون : فبكيت من كلامها فقالت م بكاؤك ؟ قلت لها : وقع دواؤك على دائى وأنا أرجو أن يكون سبباً لشفائى ، قالت فإن كنت

---

(١) الزيغ : الإنحراف عن السبيل السوى ، والزلل : الخطأ والوقوع فى المعصية .

(٢) زوى الشىء يزويه زياً ، جمعه وقبضه ، وفى الحديث « زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها » وهى هنا بمعنى : منع وحجب . انظر الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢١٥ كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض . وانظر سنن الترمذى ج ٤ ص ٤٠٠ كتاب الفتن . باب ما جاء فى سؤال النبى ﷺ فى أمته

(٣) سورة آل عمران الآية ٣٠

(٤) سورة الزمر الآية ٤٧

(٥) والركوة . وعاء للماء يحمله المتزهدون ، ويصنع من الخشب غالباً . وترى مع المتسيحين كثيراً .

صادقاً فى مقالتك فلم بكيت ؟ قلت لها رحمك الله والصادق لا يبكى !! قالت : لا ، قلت لها : لم لا يبكى الصادق ؟ قالت لأن البكاء راحة القلب وملجأ يلجأ إليه ، وماكتم القلب أحر من الزفير والشهيق وذلك ضعيف عند أوليائه . قال ذو النون : فبقيت والله متعجبا من قولها ، فقالت لى : ما لك ؟قلت : أنا والله متعجب من قولك ، قالت : وهل نسيت القرحة التى ذكرتها ؟ قال قلت لها : رحمك الله إن رأيت أن تمنى على بالزيادة . فقالت : وما أفادك الحكيم فى مقاسك بين يديه من الفوائد ما يستغنى به عن طلب الزوائد ! قال : قلت لها : رحمك الله ما أنا بمستغن عن طلب الزوائد ، قالت : صدقت يا مسكين ، حب مولاك واشتق إليه فإن له يوماً يتجلى فيه لأوليائه كأسا لا يظمئون بعده أبدا ، ثم علا شهيقها ثم قالت : يا حبيب قلبى إلى ، كم تخلفنى فى دار لا أجد فيها صادقاً برئياً من الدعاوى الكاذبة يساعدنى على البكاء أيام حياتى . ثم تركتنى وانحدرت فى الوادى وهى تقول : اللهم إليك لا إلى النار ، حتى غاب شخصها عن بصرى ، وانقطع صوتها عن سمعى . قال ذو النون : لو الله ما ذكرت كلامها قط إلا كدر على احشائى وعيشى . قال ذو النون : فلقد ادبتنى واستقام حالى مذ رأيتها وأنشدوا :

أريـد وأنت تعلـم مـا مـرادى ... وتعلـم مـا تلجلـج فى فـؤادى
فـهب لى ذنـبى واغفـر ذنـوبى ... وسامحـنى بها يـوم التنـادى

رجع إلى الموعظة

يا أخى : مالك لا تفكر فى قول مولاك الذى لم يزل عليك شهيداً وهو يسمعك — ويراك ، قوله تعالى ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وماعملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً** ﴾[1] الآية . اقرع يا مسكين بهذا الكلام باب قلبك فسألك تذيل عنه الأقفال . وترده عن الغى والمحال ، وتوقظه عن السهو والإغفال ، قال الله الكبير المتعال ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾[2] ، ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً** ﴾ يوم يظهر الخفى من أعمالك ، يوم تبكى على قبيح أفعالك ، يوم يحزن المسىء من أقوالك ، يوم تنوح على خطاياك وضلالك .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠

(٢) سورة محمد لآية ٢٤

جهم وشدتها

ذكر أن الخلق إذا اجتمعوا في الموقف وضاق المتسع ، وعظم الفزع ، واشتد الجزع ، واختلفت الأقدام ، وكثر الإزدحام ، وحامت جهنم بالهول الأعظم ، والعذاب المقيم الألزم ، ووقفت بين يدى الجبار خاضعة للملك القهار أمر الجبار — جل جلاله — أن تفتح أبوابها . وترفع كل جلال[١] عليها ، وهي سبعة أبواب على كل باب سبعمائة ألف جلال ، وهي الحجب ، ولولا تلك الأجلال لاحترقت السموات ومن فيها والأرضون ومن عليها ، غلظ كل جلال خمسمائة عام . فإذا فتح منها الأبواب رفعت تلك الحجب من عليها ورمت النفط والقطران وحجارة الكبريت ويخرج منها عنق من نار أسود فيلتقط من الموقف كل ذهب وفضة وياقوتة وزبرجدة[٢] ولؤلؤة[٣] استعدت لزينة الدنيا .

زينة الدنيا الزائلة

فيأخذ الكل ويجمعه ، والجبار — جل جلاله — يقول لها : اتركى ما لم يكن لنا فكل ما كان من زينة لم يرد به وجه الله — تعالى — أخذته النار ، ومناد ينادى أصحابها : « هذه زينتكم التى إشتغلتم بها عن طاعة الله — عز وجل — وآثرتموها على ما عند الله ، ولم تتبعوا سنة النبيين ، ولا سير الصالحين » ثم ينادى المنادى : « اتبعوا زينتكم » فتخرج عنق من النار مرة أخرى فتلتقط أصحابها إلا من رحم الله .

صاعقة جهنم

فعند ذلك يقول كل عبد وأمة : يا ليت هذا كله جعلته فى جنب الله ، يا ليته لم يكن معى ، يا ليته بعد عنى ، ثم يأمر الله — تعالى — أن ترتفع صاعقة من جهنم سوداء ، فتسود وجوه أقوام من الرجال والنساء ، وتعمى أبصار قوم من الرجال والنساء ، وتخلد على أفواه قوم من الرجال والنساء ، فذلك قول الله — عز وجل — : ﴿ **يوم تبيض وجوه وتسود وجوه** ﴾[٤] ، يا أخى يا مسكين يا ضعيف ليقين مثلى : أتراك من أى الفريقين تكون ؟ أمن الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الملك الرحيم ، أو من الذين اسودت وجوههم فى العذاب الأليم ؟ أفهل تكون من الذين أبيضت وجوههم بالرحمة ، أم من الذين اسودت وجوههم بالنقمة ؟ فكل من اسود وجهه فقد أيقن بالنار ، وكل من

---

(١) جلال : جمع جل ، وهو يصنع للدواب ، وهنا بمعنى الحجاب ، أى الستار الموضوع على جهنم .

(٢) الزبرجد : جوهر ثمين معروف ، لونه أميل إلى الزرقة .

(٣) اللؤلؤ : ما يخرج من الأصداف .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٠٦

أبيض وجهه فقد أيقن أنه من أهل دار القرار ، فيا لها من فرصة ما أعظمها ، ويا لها من مصيبة ما أدومها ، فإذا نزل السواد في وجه من شاء الله — تبارك وتعالى — صار ذلك السواد حجاباً بينه وبين النظر إلى وجه مولاه ، وإذا نزل البياض في وجه من أراد الله — تبارك وتعالى — يبيض وجهه رفع ذلك النور حجاب الذنوب الذى يحجب العبد عن النظر إلى وجه علام الغيوب .

من أبيض وجهه

وذلك أن البياض نور المغفرة ، وهو نور الرحمة ، وهو نور القرب ، وهو نور الوصال .

والسواد أيضاً هو سواد البعد ، وهو سواد الإنفصال ، وهو سواد النكال وهو سواد النقمة ، وهو سواد الحجبة . قال الله — تعالى — : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾[1] . فالحجاب يا مسكين يا مغرور فى الدنيا وقع على قلبك باكتساب السيئات ، ودوامك على الخطيئات ، وإشتغالك عن رب الأرضين والسموات ، قال الله — تبارك وتعالى — : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾[2] .

فيا معشر المذنبين : أبعدوا السوء وأبدلوه بالإحسان ، وارغبوا فى نعيم الجنان ، وارجعوا عن الأوزار والعصيان ، فإنها تزيدكم من عذاب النيران . يا أخى : أبعد السوء وأبغضه بغضاً شديداً ، وكن على إبعاده بالتوبة جلداً جليداً ، من قبل أن يأتى يوم تود أن لو كان السوء عنك بعيداً ، ولم تتبع شيطاناً غوياً مريداً .

وأنشدوا :

يا من إليه جميع الخلق يبتهلوا ... وكل حى على رحماه يتكل
يا من نأى فرأى ما فى الغيوب وما ... تحت الثرى وحجاب الليل منسدل
يا من دنا فنأى عن أن تحيط به ... الأفكار طرا أو الأوهام والعلل
أنت الملاذ إذا ما أزمة شملت ... وأنت ملجأ من ضاقت به الحيل
أنت المنادى به فى كل حادثة ... أنت الإله وأنت الذخر والأمل
أنت الغياث لمن سدت مذاهبه ... أنت الدليل لمن ضلت به السبل
إنا قصدناك والآمال واقعة ... عليك والكل ملهوف ومبتهل
فإن غفرت فعن طول وعن كرم ... وإن سطوت فأنت الحاكم العدل

---

(١) سورة المطففين الآية ١٥

(٢) سورة آل عمران الآية ٣٠

حكاية ذى النون عن الراهب الصامت

قال ذو النون – رحمه الله – : ذكر لى عن راهب بالشام أنه لم يكلم أحداً مدة أربعين سنة ، فنهضت إليه فلم أزل أنادى تحت صومعته[1] وأقسم أن يشرف على حتى أشرف من أعلى صومعته ، فراودته على الكلام فأبى على ، فقلت له بالذى سكت من أجله ومن خوفه ألا أجبتنى عما أسألك عنه ، فقال لى : قل ولا تطل الكلام على ، قلت له : منذ كم أنت فى هذا الموضع ؟ فقال : منذ يوم واحد ، فقلت له : وكيف ذلك ؟ قال : سمعت الناس يقولون أمس واليوم وغداً ، فأما أمس فقد فات ، وأما اليوم فلى ، وأما الغد فلا أدرى أبلغه أم لا ، ثم أدخل رأسه فما كلمنى وهو يبكى ويقول : لا صبر لى على النار . وأنشدوا :

أيا نفس لا صبر على النار فاعلمى ... وكونى على خوف من النار ما عشت
ودومى على الأحزان ما دمت حية ... عسى تذهب الأحزان عنك إذا مت
يقولون فى طول الكلام بلاغة ... وقد علموا أن البلاغة فى الصمت
إذا العبد لم يلعب هواه بعقله ... عصى ربه وازداد مقتاً على مهقت

تقسيم العمر على الأعمال

معشر المذنبين : اجعلوا أعماركم ثلاثة أيام : يوم مضى ، ويوم أنتم فيه ، ويوم تنتظرونه لا تدرون بما يأتيكم من صلاح أو فساد ولعلكم لا تبلغونه ، فأصلحوا اليوم الذى مضى بالندم على ما فاتكم فيه من الطاعة والإحسان ، وما اقترفتم فيه من الذنوب والعصيان ، واليوم الذى مضى إنما تصلحونه فى اليوم الذى أنتم فيه بالبكاء والندامة ، وذم النفس مع الملامة . وأنشدوا :

حتى متى نحن والأيام نحسبها ... وإنما نحن فيها بين يومين
يوم تولى ويوم أنت تأمله ... لعله أجلب الأيام للحين[2]

آنس الله روعنى وروعكم يوم النشور ، وآنس وحشتى ووحشتكم فى القبور ، إنه على ذلك قدير ، وهو عليه يسير ، وأماتنا وإياكم على هذه الكلمة ، شهادة أن لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، غير مبدلين ولا مغيرين ولا مبتدعين . آمين . يارب العالمين .

(١) الصومعة : بناء صغير دقيق الرأس يسكنه رهبان النصارى وهى أشبه بـ (نيلا) صغيرة لسكنى فرد أو اثنين .
(٢) الحين : بالفتح – الهلاك ، وحان الرجل : هلك

مجلس فى قوله تعالى :

﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه ﴾ الآية

يا أخى يا مسكين يا حيران ، من الذنوب والعصيان ، يا من تعرض لسخط الملك الديان ، يا من أفزعن عدوه الشيطان ، بهاديه على الخذلان ، والضلال والبهتان ، والأوزار والطغيان ، يا مغرور : إنك آخذ كتاباً ، ووارد حساباً ، ونازل ثواباً ، أو عذاباً . فقم يا غافل فى دار الغرور ، ما تجده فى الكتاب المنشور ، من الثواب والحبور ، والفرح والسرور ، والضياء والنور ، من رحمة العزيز الغفور .

أين الكتب يوم القيامة ؟

روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « الكتب كلها تحت العرش ، فإذا كان يوم القيامة بعث الله — تبارك وتعالى — ريحاً تطيرها بالايمان وبالشمائل ، أول حرف فى الكتاب ﴿ إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾[1] ما أعدل الملك الوهاب ، إذ جعل الإنسان حسيب نفسه فى قراءة الكتاب . يا مسكين يا مغرور : إن أخذت الكتاب بالشمال فحسبك العذاب والنكال ، والمحن والأهوال ، والسلاسل والأغلال ، والحميم والخبال ، واللعنة والانفصال من ذى الجود والجلال . وإن أخذت الكتاب باليمين ، فحسبك المقام الأمين فى أعلى عليين ، مع الولدان والحور العين ، والاتصال برب العالمين ، ومحمد خاتم النبيين — صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين — . وإن أصررت فى الدنيا على جرمك ، ولم تتب إلى مولاك عن قبيح ذنبك ، فسوف تأخذ كتابك من وراء ظهرك ، فجد فيه ما يحزن قلبك ، ويعظم حزنك ويكثر كربك ، فيا معشر المذنبين : اعلموا أنما جعل الله الدنيا إبتلاء واختبارا ، وأوجب عليكم فيها حقوقاً كباراً ، فمتى ضيعتموها فقد أودعتم كتبكم آثاماً وأوزاراً ، ومتى وفيتم بها فقد ملأتم كتبكم سروراً وأنواراً ، وما من عبد ولا أمة إلا وله كتاب يقرؤه يوم العرض والحساب ، وإنما مثل الناس عند قراءتهم الكتاب ، كمثل الزارع إن زرع طيباً ، رفع طيباً ، وإن زرع خبيثاً رفع خبثاً ، يا أخى : فكأنك أنت كتبته بأقوالك ، وملأته بأفعالك ، وسودته بالقبائح من أعمالك . وأنشدوا:

كأنى بنفسى فى القيامة واقف   وقد فاض دمعى حين أعطى كتابيا
لعلمى بأفعالى وسوء مناقبى   وأن كتابى سوف يبدى المساويا

(١) الحديث فى التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة . للقرطبى . ص ٢٩١ باب ما جاء فى تطاير الصحف .
انظر المثنى فى ذلك . لسادة المتقين ج ١٠ ص ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ .

فيا أهل الذنوب مثلى : اعلموا أن الأعمال قد أثبتت عليكم فى الديوان ، من الإحسان والعصيان ، والزيادة والنقصان ، والنفاق والإيمان ، وأنت غافل فى سكرة الغرور ، وكتابك مملوء بالويل والثبور[1] . فبادروا إلى الصحائف واعوا ما فيها من القبائح ، ومحصوا[2] ما قد ثبت عليكم من الفضائح ، وذلك باكتساب الحسنات ، كما قال رب الأرضين والسموات : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾[3]

أول الناس حساباً

ذكر فى بعض الأخبار أن أول ما يحاسب الله من الأمم أمة محمد ـ ﷺ ـ فإذا اجتمع الأولون والآخرون فى أرض القيامة وقفت أمة محمد ـ ﷺ ـ ، فأول من يدعى منهم إلى الحساب ـ رجل من قريش من بنى مخزوم يقال له عبد الله بن عبد الأسد ، وله أخ يقال له الأسود بن عبد الأسد وفيهما نزلت هاتان الآيتان ﴿ **فأما من أوتى كتابه بيمينه** ﴾[4] إلى قوله ﴿ **فى الأيام الخالية** ﴾ نزلت هذه الآية فى عبد الله بن عبد الأسد . ﴿ **وأما من أوتى كتابه بشماله** ﴾[5] وهو لأسود بن عبد الأسد ، فأما عبد الله وهو المؤمن فيدخل من وراء الحجب فيوقف بين يدى لله عز وجل ، فترعد فرائصه ، وتنفك أوصاله ، وتذهل نفسه من شدة الخوف من الله تعالى ، فبينما هو على أشد الأحوال من الخوف بين يدى الجبار ـ جل جلاله ـ إذ يأتيه ملك من عند الله تعالى وبيده صحيفة بيضاء مختومة بخاتم الخلد ، فيقول له الملك :

كتاب الحسنات

هذا كتابك فيتناول الكتاب بيمينه . وكل من كان من أهل الشقاوة إذا أوتى كتابه يروم أن يمد اليمين لأخذه فلا يقدر ، لأنه يجد بينه كأنما علق فيها جبال الدنيا فلا يطيق أن يرفعها من الثقل ، وقيل أنها تفك يده ، وقيل أنها تلصق بجسده ، وقيل أن الملك يقول له : يا عدو الله خذ كتابك بشمالك فإنك من أصحاب الشمال ـ جعلنا الله وإياكم من أصحاب اليمين ـ .

(١) الثبور : الهلاك والخسران
(٢) تمحيص : الإبتلاء والإختبار
(٣) سورة هود الآية ١١٤
(٤) سورة الحاقة الآية ١٩
(٥) سورة الحاقة الآية ٢٥

فيتناول عبد الله أخو الأسود كتابه بيمينه ويقال له اقرأ ما عملت من جد وشر ولا تلومن إلا نفسك ، فيفض خاتم الكتاب فينشر كتابه فإذا هو مكتوب بخط أبيض فى باطن الكتاب السيئات وفى ظاهره الحسنات فيقال له اقرأ سيئاتك ، فأول حرف يجد فى الكتاب أصغر ذنب عمله فى الدنيا فإذا رأى ذلك الذنب ميل رأسه ونكسه حياء من الله — تعالى — وسال منه من العرق ما لو أن مائتين من الإبل أكلت حمضاً والتبت عطشاً ووردت على عرقه لشربت كلها ورجعت وقد رويت وما نقص من عرقه شىء .

كيفية السؤال

هذا كله حياء من الله عز وجل فيقول الجبار — جل جلاله — : عبدى فيقول : لبيك ربى وسعديك فيقول : ارفع رأسك أتعرف ذنبك هذا ؟ فيقول مولاى وسيدى وعزتك وجلالك أنى لأعرفه ، فيقول : عبدى تذكر يوم كذا وكذا ، فى موضع كذا وكذا ، وأنت على هذا الذنب ؟ فيقول : نعم ، وعزتك وجلالك ، فيقول له الجبار جل جلاله : عبدى أنك إذا أخفيت ذلك من الخلائق ، لقد علمت أنى كنت مطلعاً عليك فيقول : بلى يا سيدى ومولاى وعزتك وجلالك قد علمت ذلك . فيقول له جل جلاله : أما استحييت منى ؟ أما راقبتنى ؟ أما علمت أن مرجعك إلى ؟ والعبد فى هذا التوبيخ قد علاه العرق وزاب من شدة الفرق فيقول مولاى وسيدى : لأن ترسل بى إلى النار أهون على من هذا التوبيخ ، فيقول الله — تبرك وتعالى — : عبدى أليس قد سترتها عليك فى الدنيا ؟ فيقول العبد مولاى لقد فعلت ذلك بى فيقول جل جلاله : عبدى وعزتى وجلالى ومجدى وجودى، وكرمى لقد محوتها من قلوب الملائكة وقلوب الآدميين وأبقيتها بينى وبينك حتى تعلم نعمتى عليك وأفضالى لديك فى الدنيا والآخرة .

غفران الذنوب

فلا يزال — جل جلاله — يفعل به ذلك فى كل ذنب حتى يقرأ جميع ما فى كتابه من الذنوب فإذا أتى على آخر الكتاب وجد فيه ، عبدى : هذه سيئاتك قد غفرتها لك . فعند ذلك يبيض وجهه وتحسن بشرته ويذهب عنه الحزن والهم والجزع .

ثم يقول الله — جل جلاله — : قلب كتابك فاقرأ حسناتك ، فيقلب العبد كتابه فيقرأ حسناته ، كلما مر على حسنة إزداد قلبه فرحة وسروراً ، وازداد بياضاً وحسناً ونوراً ، ثم يؤتى بتاج من نور فيوضع على رأسه لو أخرج ذلك التاج إلى الدنيا لكسف نوره ضوء الشمس والقمر .

لباس المكرمين

ويؤتى بحلتين من حلل الجنة ، شبر منها خير من الدنيا وما فيها مائة ألف مرة ، فيلبسها ويحلى كل مفصل منه بحلى الجنة ، ويقال له : اخرج على الناس وأخبرهم وبشرهم أن لكل عبد وأمة من المؤمنين مثل ذلك . فعند ذلك يخرج عبد الله بن عبد الأسد وكتابه بيمينه وقد أشرق وجهه نورا ، وقلبه قد امتلأ سرورا . قد جرت على وجهه نضرة نعيم الجنان ، وتلك علامة لأهل الإيمان . والملك آخذ بيمينه وهو ينادى عليه نداء البشرى : ألا إن فلاناً قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، والخلائق قد رفعوا أبصارهم إليه وتمنوا مثل ما منّ الله به عليه وهو يقرأ : ﴿ هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾[١] ليس فيه سيئة واحدة قد غفر الله — تبارك وتعالى — جميع ذنوبى ومحاها عنى ﴿ إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ﴾[٢] إنى أيقنت فى الدنيا أنى ألقى هذا اليوم وكنت خائفاً من هوله ، ومن قراءتى كتابى ومن حساب ربى جل جلاله ، فلا يزال كذلك حتى ينتهى إلى أصحابه فيقولون : من هذا العبد الذى أكرمه الله ورضى عنه ؟ اللهم اجعله من أحبابنا وقربه منا حتى ننظر إلى ما قد فضله مولانا به ، فإذا قرب منهم سلم عليهم فيقولون له : من أنت يا عبد الله ؟ فيقول : أو ما تعرفونى ؟ فيقولون له : يا عبد الله ، لقد زينتك كرامة ربك — جل جلاله — حتى لا نعرفك ، فمن أنت ؟ فيقول لهم : أنا عبد الله بن عبد الأسد ، ألا وإن لكل واحد منكم مثل هذا ، وهكذا يفعل الله — تبارك وتعالى — بكل مؤمن يكون رأساً فى الخير يدعو إليه ويأمر به ، ثم يشفعه الله — تبارك وتعالى — فى كل من شاء من أهل الذنوب ، فعند ذلك يفرح أصحابه بما قد بشرهم به من المغفرة والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ﴿ فهو فى عيشة راضية ﴾[٣] قد رضى ورضيت نفسه ورضى عنه مولاه ، وهو راض بتلك العيشة ، والعيشة هى الجنة ﴿ فى جنة عالية ﴾[٤] فى غرفة ارتفاعها مسيرة مائة عام من لؤلؤة بيضاء أو من ياقوتة حمراء ، ملاطها المسك الأذفر ، والعنبر الأشهب والكافور الأبيض . ﴿ قطوفها دانية ﴾[٥] يعنى ثمارها دانية منهم ، إذا اشتهوها نزلت عليهم حتى تدخل عليهم فى منازلهم ، فتدنو منهم فيأكلون من ثمارها ما يشتهون وهم نيام أو قعود أو قيام على أى حال أرادوا ، ثم ترجع إلى أماكنها وذلك قوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً ﴾[٦] لا موت فيها ولا حزن ﴿ بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾[٧] يعنى الأيام الماضية ، وهى أيام الدنيا التى أطاعوا الله — تبارك وتعالى — فيها ، واستقاموا ولم يزوغوا عن طاعته . وأنشدوا :

---

(١) سورة الحاقة آية ١٩
(٢) سورة الحاقة آية ٢٠
(٣) سورة الحاقة آية ٢١
(٤) سورة الحاقة آية ٢٢
(٥) سورة الحاقة آية ٢٣
(٦) سورة الحاقة آية ٢٤
(٧) سورة الحاقة آية ٢٤

يابك عبد من عبيدك مذنب — كثير الخطايا جاء يسألك العفو
فأنزل عليه العفو يا من بمنه — على قوم موسى أنزل المن والسلوى
أيا عبدك المسكين فارحم تضرعى — ولا تجعل النيران يارب لى مثوى
وخفف من العصيان ظهرى إننى — بلغت من الأوزار غايتها القصوى

فهذا عبد الله بن عبد الأسد ، الذى أنزل الله تعالى فيه هذه الآية ، وعلى سيرته فى الحساب تجرى سائر المؤمنين من أمة محمد — ﷺ — على قدر أحوالهم واجتهادهم فى الدنيا فى الخير والإستقامة على طاعة الله

أشد الناس عذاباً

وأما قوله تعالى : ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله ﴾(١) فهو الأسود بن عبد الأسد المخزومى وهو اخو عبد الله بن عبد الأسد وذلك ان الله تعالى يدعو به على إثر اخيه عبد الله فيدخل الأسود حتى يوقف ، وبينه وبين الله ـ عز وجل ـ حجاب السخط ـ فيكون من وراء الحجاب لأن الله ـ تعالى ـ لا يراه إلا المؤمنون واما الكفار فلا يرونه . قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾(٢) فيوقف الأسود بين يدى الملائكة يرعد من خوف العذاب ، والملائكة الذين معه هم ملائكة العذاب ، فبينا هو كذلك إذ يأتيه ملك من ملائكة السخط فيأخذه بيده اليمنى ثم يهزها فيخلعها من موضعها فيعلقها من صلبه بجلده ، ثم يأخذ برأسه فيلوى عنقه فيحول وجهه فى قفاه

كتاب السيئات

ثم يأتيه ملك من وراء ظهره فى يده صحيفة سوداء فيها كتاب بخط أسود فى باطن الكتاب حسناته وفى ظاهره سيئاته والكتاب مختوم ، فيقال له : هذا كتابك خذه فلا يقدر أن يتناوله بيمينه لأن يمينه مخلوعة من منكبه ، فيتناول كتابه بشماله فيقال له : فض خاتم الكتاب فيفضه ، ويقال له : انشر كتابك واقرأه ، فينشر الصحيفة وهى سوداء فيبدأ بباطن الكتاب فيستقبله حسناته فيقرؤها ويفرح ويظن أنه سينجو من عذاب الله — تبارك وتعالى — ، حتى إذا بلغ آخر الصحيفة وجد فيها : هذه حسناتك قد ردت عليك لأنك لم ترد بها وجه الله — تعالى — والدار الآخرة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ من كان

---

(١) سورة الحاقة آية ٢٥
(٢) سورة المطففين آية ١٥

يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾[١] أى لا ينقصون ، نعجل لهم فى الدنيا أجور أعمالهم ولا يثابون فى الآخرة بشىء من أعمالهم ، ولا يتجاوز عنهم فى شىء من أعمالهم السيئة حتى يعذبهم الله — تعالى — عليها ، وأعمالهم الحسنة أحبطها الله — عز وجل — بالكفر ، والأعمال الصالحة التى يراد بها وجه الله — تبارك وتعالى — يجازى الله — تعالى — أصحابها بالثواب الباقى وهو نعيم الجنة ، والنظر إلى وجه الله الكريم ، فوجه الله باقٍ ونعيم الجنة باقٍ ، لأن الله تعالى خلق الجنة ثواباً لأهل الأعمال الصالحة التى يراد بها وجه الله — تعالى — : **﴿ كل شىء هالك إلا وجهه ﴾**[٢] وكل عمل يراد به وجه الله لا يهلك ، يبقى ثوابه لصاحبه ، وثوابه الجنة ، فإن الله — تبارك وتعالى — يثيب على العمل الباقى بالنعيم الدائم الباقى ، ويثيب على العمل الفانى ، وهو ما يعمل للدنيا وزينتها بالعرض الفانى وهو حطام الدنيا ، والمؤمن لا يرضى الله — عز وجل — أن يثيبه على عمله الصالح بعرض من الدنيا وإن وسع عليه فى الدنيا ، **أى بالمال والجاه والقوة** . فإنما يعطيه ذلك زيادة ومعونة يستعين بها على طاعته ، وأجر عمله ادخره له ليوم فقره إذا احتاج إليه . ثم يقال للأسود بن عبد الأسد : اقلب كتابك فاقرأ فيقلب ظاهره فتستقبله سيئاته مثل الجبال الرواسى وهى سود بخط أسود ، لأنها محبوطة بالكفر غير مقبولة ، فأول سيئة يقرؤها يسود وجهه ويسمج[٣] لونه ، كلما قرأ سيئة ازداد سماجة وقبحاً ، فإذا بلغ آخر الصحيفة وجد بها : هذه سيئاتك قد اضعفت ، إنى قد أضعف عليك العذاب بعملك السيئات .

صفة العذاب للكافر

فيرجع وجهه أشد سواداً من القار — وهو الزفت — ويعظم جسده للنار حتى يكون ما بين منكبيه مسيرة شهر ، وغلظ كل فخذ من فخذيه مسيرة ثلاثة أيام ، وما بين شفتيه العليا والسفلى أربعون ذراعاً . وقد خرجت أنيابه وأضراسه من بين شفتيه بادية وعيناه زرق ، وحدقتاه قد وقعتا على وجهه من شدة ما هو فيه من العذاب ، وكل ضرس من أضراسه أعظم من جبل أحد ، شعره كآجام القصب . وله سبعة جلود غلاظ ، كل جلد منها أربعون ذراعاً ، ما بين الجلد إلى الجلد مسيرة ثلاثة أيام فيها ديدان لها جثة كجثة الوحوش فى البرية ، فى جسده من الشعر ما لا يحصى عدده إلا الله — تعالى — ، فى أصل كل شعرة من الآلام والوجع والعذاب ما لو قسم على أهل الدنيا من يوم خلقهم الله — تعالى — إلى يوم يبعثهم لماتوا كلهم فى أسرع من طرفة عين . ثم يؤتى بسلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فتغل بها

---

(١) سورة هود آية ١٥

(٢) سورة القصص آية ٨٨

(٣) سمج : قبح — والسماجة : القباحة

يداه وعنقه ، ويدخل طرفها فى فيه ويخرج من دبره ، ثم يلف ما بقى منها على عنقه يوقد ويشتعل ناراً ، ثم يؤتى بصخرة من كبريت أعظم من الجبل العظيم ، لو وضعت على جبال الدنيا لذابت من حرها فتعلق فى عنقه وهى تشتعل ناراً ، ثم يؤتى بتاج من نار فيوضع على رأسه فيصعد حر الصخرة إلى وجهه ، ويترل حر التاج إلى وجهه ، ويجتمع مع حر الصخرة ، ولا يقدر أن يرفع عن وجهه يديه لأنهما مغلولتان إلى عنقه . قال الله تعالى : ﴿ **أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة** ﴾[1] وقال عز وجل : ﴿ **وتغشى وجوههم النار** ﴾[2] تغشى وجوه الكفار . ثم يؤتى بسربال (قميص) من قطران وهو نحاس جهنم ، قد انتهى فى شدة الحر فيلبسه ، لو أن ذلك السربال ألقى فى الدنيا لصارت الدنيا من مشرقها إلى مغربها جمرة واحدة أسرع من لمح البصر ، ثم يقرن مع شيطانه يكون ذلك الشيطان عليه أشد من كل عذاب يعذب به ، ثم يقال له : اخرج على الناس واخبر أصحابك أن لكل واحد منهم مثل هذا العذاب . فيخرج الأسود على أقبح الأحوال ، وكتابه بشماله ليس فيه حسنة واحدة ، وسيئاته ظاهرة للخلق ، والملك ينادى على الأسود ابن عبد الأسد : ياأهل الموقف ، قد شقى الأسود شقاوة لا يسعد بعدها أبدا . إلعنوه فإن الله تعالى قد لعنه وسخط عليه ، فينادى بأعلى صوته نداء يسمعه أهل الجمع : ﴿ **يا ليتنى لم أوت كتابيه** ﴾[3] أى يا ليتنى لم أعط كتابى بشمالى ولا يحل بى هذا البلاء الذى أنا فيه ﴿ **ولم أدر ما حسابيه** ﴾[4] اى يا ليتنى تبت وآمنت ولم أحاسب بهذا الحساب ، ولا نزل بى هذا العذاب . ﴿ **يا ليتها كانت القاضية** ﴾[5] أى ياليت الموت عاد إلىّ حتى يريحنى من هذا العذاب . ﴿ **ما أغنى عنى مالية** ﴾[6] يعنى المال الذى كان معه فى الدنيا وكان ينفقه فى غير الله ويبخل به فى ذات الله — تبارك وتعالى — ﴿ **هلك عنى سلطانيه** ﴾[7] أى انقطعت عنى حجتى واضمحلت . ثم يأمر الله — تعالى — أن يخرج له منبر من جهنم من نار فينصب له ، ويصعد عليه وتبدو كل قبيحه عملها فى الدنيا ، ويلعنه كل من فى الموقف ويعيره حتى يود لو أمر به إلى النار ، ثم يقول الله — تبارك وتعالى — للملائكة : ﴿ **خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه** ﴾[8]

فيبتدره سبعون ألف ملك خلقوا من نار السموم ، مع كل ملك منهم زمن العذاب خلاف ما مع الآخر فيأخذونه بينهم فيلقونه فى الهاوية من النار الحامية ، ويدخلون بسلسلة فى فيه ويخرجون طرفها

(١) سورة الزمر آية ٢١
(٢) سورة ابراهيم آية ٥٠
(٣) سورة الحاقة آية ٢٥
(٤) سورة الحاقة آية ٢٦
(٥) سورة الحاقة آية ٢٧
(٦) سورة الحاقة آية ٢٨
(٧) سورة الحاقة آية ٢٩
(٨) سورة الحاقة الآيات ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢

من دبره كما تصنع الخروة فى السلك ، ثم يطعم الغسلين وهو شىء أسود نتن — لو أن قطرة من الغسلين (هو ما أنغسل من لحوم أهل النار ودمائهم ، ويقال هو صديدهم) لو أخرجت إلى الدنيا ، لمات جميع أهلها من النتن .

طعام أهل النار

وإنما يطعم أهل النار الغسلين لأنهم كانوا فى الدنيا لا يرون أن يغتسلوا من الجنابة ، ولا يتوضأوا للصلاة فيحرق الغسلين مواضع الوضوء والاغتسال وما سقط منه أطعموه إياه جزاء بما ضيعوا فى الدنيا من حقوق الله — تعالى — ، وهذا العذاب كله للأسود بن عبد الأسد ، وكذلك لكل من كان فى الشر رأساً يأمر به ويدعو إليه ، يفعل به كما فعل بالأسود بن عبد الأسد ، وكل من كان فى الدنيا فى الخير رأساً يأمر به ويدعو إليه يفعل به كما فعل بعبد الله بن عبد الأسد ، يجزى الله — تعالى — الناس كلهم على هذا المنهاج فى الخير والشر ، والله يفعل ما يشاء ، لا إله إلا هو ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فنعوذ بالله من أعمال أصحاب الشمال .

مجلس فى قوله تبارك وتعالى

﴿ ووضع الكتاب ﴾ الآية .

يا أهل الذنوب مثل ، يا أهل العيوب مثل ، يا من يعصى ولا يتوب ، يا من الغى والمحال له صحوب ، يا من ضيع غاية المنى والمرغوب ، يا من سود كتابه بمعصية علام الغيوب ، اعلموا — عصمنا الله وإياكم — أن للعباد غداً صحائف يقرءون فيها الحسنات والقبائح ، فمن كتب له حافظاه خيرا فى الدار الفانية فهو خير له فى الدار الباقية ، ومن كان خائفا فى الدنيا من العذاب ، متحفظاً مما يثبت عليه فى الكتاب ، متجنباً لمعصية رب الأرباب ، وفقه الله مولاه للحق والصواب ، ويسر عليه برحمته الحساب ، ومحيت أوزاره من الكتاب ، ورضى عنه الملك الوهاب ، وأمر به إلى الجنة وحسن المآب .

ومن علم أن عمله يثبت عليه فى الديوان ، وهو يعرزه لا محالة بين يدى الرحمن ، فكيف يألف العصيان ؟ وكيف يتحرك منه اللسان ، بالزور والبهتان ، ومخالفة كتاب الملك الديان ؟

الفرق بين الحسنة والسيئة

ذكر فى بعض الحكم أن رجلاً كان يسوق دابته فعثرت ، فقال الرجل : تعست الدابة — يعنى عثرت — فقال ملك اليمين لملك الشمال : ليست بحسنة فاكتبها ، فأوحى الله — تعالى — لملك الشمال ما ترك صاحب اليمين فاكتبه أنت ، فكتب صاحب الشمال قول الرجل : تعست الدابة .

وأعظم من هذا أنه ما من عبد ولا أمة يتنفس نفساً إلا أثبت عليه فى الكتاب ، فإن خرج النفس فى طاعة الله أثبته صاحب اليمين ، وإن خرج النفس فى غير طاعة الله — تعالى — أثبته صاحب الشمال حتى يحكم الله — تعالى — يوم الحساب فيه بحكمه ، فمن علم هذا يقيناً فلا يحتاج أن تمر عليه ساعة من ساعاته ، ولا وقت من أوقاته ، ولا لحظة من لحظاته إلا فى ذكر الله وفى الفكرة فى عظمة الله .

النجاة فى ذكر الله

روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « ليس شيء أنجى للمؤمن من عذاب الله من ذكر الله ، وأكثر ما يجد المؤمن فى صحيفته يوم القيامة الإستغفار فى الليل والنهار »(١) فكل من كان فى الدنيا من قراءة كتابه خائفاً مشفقاً ، كان الله — تبارك وتعالى — به عند قراءته إياه رحيماً مرفقاً . ومن كان فى الدنيا من الغافلين ، كان عند قراءته من النادمين .

فلو رأيتم يا أهل الذنوب ما قد أثبت عليكم فى الديوان ، من الخطايا والعصيان ، والزور والبهتان ، والزيادة والنقصان ، والغفلة والنسيان ، لعظمت منكم المصائب ، وكثرت منكم النوائب ، وسارعتم إلى التواب والرحمن ، وتبتم إلى رب المشارق والمغارب . وأنشدوا :

ما بال عينك تبكى ما سلفا ذكر الذنوب وخوف النار والتلفا
يا أيها المذنب المحصى جرائمه لا تنس ذنبك واذكر منه ما سلفا
من الذنوب التى لم تبل جدتها وكيف تبلى وقد أودعتها صحفا
أما تخاف أما تخشى فضائحها إذا الغطاء انجلى عنهن وانكشفا

اعلموا معاشر المذنبين لو أن الله — تعالى — أطلع بعضنا على صحائف بعض ، وكشف له ما فيها من الذنوب لكان الناس يشتغلون عن معايشهم بتعيير بعضهم لبعض . ولعنة بعضهم . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

حكاية عن رقة ابن واسع

حكى عن محمد بن واسع — رحمه الله — أنه ما رآه أحد قط ضاحكاً ، وإن كان ليبكى حتى ترحمه الناس ، فذكر له ذلك فقال : يا أحبابى وكيف يضحك من لا يدرى ما أثبت عليه فى كتابه ولا يدرى بما يختم له ؟ اللهم اختم لنا بخير .

---

(١) انظر الترغيب والترهيب جـ ٢ صـ ٦٦٢ بمعناه
وانظر أيضاً الدار المنثور للسيوطى جـ ٥ صـ ٣٤٧ نحو قوله — تعالى — فى سورة الإسراء (وَيَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ)

وكان رجل يكلم محمد بن واسع فى حاجة ، فقال له محمد بن واسع : ادن منى فلو كانت للذنوب رائحة لما قدرت أن تدنو منى . فيا معشر المذنبين مثلى ، وكلنا مذنب ، لا تغتروا بستر الله — تعالى — عليكم فإن له يوماً يهتك فيه الأستار ، ويحاسب عباده على ما عملوا فى الليل والنهار ، فقوم إلى الجنة وقوم إلى النار . فالخير والشر قد حصل عليكم فى الكتاب الذى يوضع لكم يوم العرض والحساب ، بين يدى رب الأرباب ، قال الملك الوهاب ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾[1] . ووضع الكتاب للمؤمنين ، ووضع الكتاب للمجرمين . ووضع الكتاب لأهل الإيمان ، ووضع الكتاب لأهل النيران . ووضع الكتاب لأهل الثواب . ووضع الكتاب لأهل العقاب . ووضع الكتاب للطائعين . ووضع الكتاب للعاصين . ووضع الكتاب لأهل الإخلاص والوفاق ، ووضع الكتاب لأهل الرياء والنفاق . ووضع الكتاب لأهل الوفاء ، ووضع الكتاب لأهل الجفاء ، ووضع الكتاب للعاملين ، ووضع الكتاب للبطالين . ووضع الكتاب للقائمين ، ووضع الكتاب للنائمين ، ووضع الكتاب للمستغفرين ، ووضع الكتاب للغافلين . ووضع الكتاب للسعداء ، ووضع الكتاب للأشقياء .. ووضع الكتاب لأهل الجنة . ووضع الكتاب لأهل المحنة . ووضع الكتاب للأبرار ، ووضع الكتاب للفجار ، ووضع الكتاب لأهل الكرامة ، ووضع الكتاب لأهل الندامة . ووضع الكتاب لأهل الرشاد ، ووضع الكتاب لأهل الفساد . وضع الكتاب لأهل الحسنات ووضع الكتاب لأهل السيئات . وضع الكتاب لأهل النعيم والسرور ، ووضع الكتاب لأهل الويل والثبور . فكتب تبشر بالجنة ، وكتب آخرها بالمعنة والمحنة . جعلنا الله وإياكم ممن يبشره كتابه بالجنة برحمته .

إحاطة الكتاب بكل شيء

واعلموا يا معشر المذنبين أن الله تعالى — لم يدع شيئاً من القول إلا وقد فسره لعباده ، وأنزل بذلك كتابه العزيز فقال فيه — تبارك وتعالى — : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾[2] وقد أعلمنا إلهنا ومولانا أن ﴿ كل إنسان ألزمناه طائره ﴾[3] وأن كل إنسان لابد له من السؤال ولابد له من حساب ، ولابد له من ثواب أو حساب . ومولانا عز وجل قد أمرنا بالعمل الصالح ، ووعدنا عليه بالجنة ، ونهانا عن المعاصى وتوعدنا عليها بالنار . وما قدمتم من خير أو شر قد أثبت عليكم فى كتاب مكتوب ، بالحسنات والذنوب .

---

[1] سورة الكهف آية ٤٩

[2] سورة الأنعام آية ٣٨

[3] سورة الإسراء آية ١٣

حكاية فى كتابة الكتب

روى عن الحسن (هو الحسن البصرى) — رضى الله عنه — أنه قال: ما من عبد ولا أمة يدفن إلا دخل عليه ملك فى قبره معه دواة وقرطاس، فيأخذ الملك برأس الميت ويقعده ويرفع إليه ذلك القرطاس ويناوله قلماً ويقول له: اكتب جميع ما عملت فى عمرك الذى وجبت عليك فيه الحدود من خير وشر، فيأخذ الميت القلم فيكتب وإن لم يكن فى الدنيا كاتباً، فإن كان العبد من أهل السعادة فأول ما يجرى القلم بيده بإذن الله — تبارك وتعالى —: «بسم الله الرحمن الرحيم» لأن بسم الله الرحمن الرحيم لا تكون فى كتاب أهل الشقاوة، وإنما تكون فى كتاب أهل الإيمان والسنة والأمان والغفران لأن بسم الله الرحمن الرحيم هى آية الإيمان، وهى إخبار عن رحمة الله ولطفه جل جلاله.

يا أهل السنة من هذه الأمة، فإذا ثبت العبد فى كتابة بسم الله الرحمن الرحيم فقد أمن فى قبره من العذاب والضيقة.

البسملة وبركتها

وإذا لم يثبت فى كتابة بسم الله الرحمن الرحيم فقد حل به العذاب فى قبره، فإذا كتب العبد ما عمل من خير وشر شقياً كان أو سعيداً، يطوى الملك الكتاب ويعلقه فى عنقه. فإذا خرج العبد من قبره يوم القيامة جاءه ذلك الملك فأخذ الكتاب وتلوه إياه وقال: يا ولى الله أو يا عدو الله، أتعرف هذا؟ فيقول: نعم أنا كتبته، وأنا عملته، فيقول له: فاقرأه فيستقبله منه ما سبق له من سعادة أو شقاوة.

فالله الله معشر المذنبين، مثلى، المؤمنين. لا تضيعوا أيامكم بالقبائح، ولا تهملوا أعماركم فى الذنوب والفضائح، فإن جميع أعمالكم قد حصلت عليكم فى الصحائف الصحائح، وستقرؤونها بين يدى مولاكم، وتشهد عليكم الجوارح بالقبيح والحسن من أعمالكم. وأنشدوا:

سوف يأتى عليك ساعة خوف ... حين تعطى صحائف الأعمال

وكأنى أرى فضائح قوم ... قد يجلى لكشفها ذو الجلال

ليت شعرى إذا قرأت كتابى ... بيمينى أعطاه أم بشمالى

حكاية عن عيسى — عليه السلام —

روى عن محمد بن اللباد — رحمه الله — أنه قال: دخل عيسى ابن مريم — ﷺ — وعلى نبينا محمد — ﷺ — مدينة خربة فدخل قصراً من قصورها فنادى: يا خراب الآخرين أين أهلك وعمرك؟ فأجابه شيء من آخر القصر أيا ابن مريم بادوا وسيعودون. فاجتهد يا أخى لا تفرط فإن العظام قد بليت وبقيت أعمالهم فى رقابهم. وأنشدوا:

لا تحقرن من الذنوب صغيرها إن الصغير غداً يعود كبيرا
كل الذنوب وإن تقادم عهدها عند الإله مسطر مسطورا

أيها الرجل المقنع بالمشيب ، الملبس حلة المعاصي المريب ، قد خسرت أيام الشباب ، وبذلت مهجتك للعذاب ، بغفلتك عما في الكتاب ، واتباعك اللعين الكذاب ، وتهاونك بالحساب ، وصدودك عن الصواب ، ومعصيتك لرب الأرباب . ما حيلتك يا مكروب ، مثلي ، سودت كتابك بالذنوب ، وعصيت مولاك علام الغيوب ، وبعت الحظ الجزيل بالكذب المشوب ، وضيعت الجنة التي ليس فيها نصب ولا لغوب[1] واعلموا معشر المذنبين أن العبد إذا وفقه مولاه وأعطاه الفكرة في قراءة كتابه كان عند مولاه مستجاب الدعاء .

حكاية في الاعتماد على الله

حكي : عن مطرف بن الشخير ــ رحمه الله ــ أنه أرسل رسولاً عن عوزماه[2] وكان في زمان الحر . فأبطأ عليه الرسول ، وكان عنده جماعة قد عطشوا ، وكان معه قليل ماء ، فقام فتوضأ بذلك الماء ، ثم صلى ركعتين دعا فيهما مولاه ــ سبحانه ــ ، فأرسل الله ــ تبارك وتعالى ــ سحابة حتى شرب هو وأصحابه ، فقيل له : بم بلغت هذه المنزلة ؟ فقال : جعلت كتابي نصب عيني ، في ليل ونهاري حتى كأني أقرؤه بين يدي ربي ــ جل جلاله ــ .

حكاية عن مالك بن دينار

قال عبد الواحد بن زيد ــ رحمه الله ــ : كنا عند محمد بن واسع ومعه مالك بن دينار ، فجاء رجل فكلم مالكاً وأغلظ عليه في الكلام في قسمة قسمها وقال وضعتها في غير حقها ، وفضلت بها أهل مجلسك ليكثروا جمعك ، ولتصرف وجوه الناس إليك ، قال : فبكى مالك بن دينار وقال : ما أردت بها ، هذا الذي تقول ، قال : بلى والله لقد أردته ، فلما أكثر على مالك الكلام رفع جيب يديه وقال : اللهم إن هذا قد شغلنا عن ذكرك فأرحنا منه كيف شئت . فسقط الرجل ميتاً بإذن الله .

---

(١) النصب ــ بالفتح ــ : شدة التعب . اللغو : الإعياء .

(٢) أي عن شدة عوزهم واحتياجهم للماء كما يحصل غالبا في البلاد التي لم يكن بها نهر جار .

دعاء ابن واسع

وكان محمد بن واسع إذا جن عليه الليل يبكي ويقول في بكائه : ويلي من ذنوب قد أحصيت ، ومن صحيفة قد ملئت ، وربي قد علم ذلك ولم يخف عليه من ذلك شيء . فأورثه الله تعالى بكائه على كتابه ، وعلى حياته من ربه الإستجابة في الدعاء وتنور القلب . وأنشدوا :

أرى الشيب بالمقدار قد ألم ... كأن موتي عن قريب قد هجم
حط المشيب أسطراً في مفرقي ... فراعني ما خطه وما رقم
حل الفتى إذا اشتعلى شيبه ... إلا كزرع هاج[1] سوف يحطم
شاب الفؤاد قبل شيب لمتي[2] ... وعادل ضعف القوى قبل الهرم[3]
ويحي من التوبيخ من ربي غداً ... من ذلك الأمر الشديد المتهم
ويحي إذا نادى المنادي ألا ... قم عد سوء مسرع للعرض قم
ويحي إذا ما قال لي مقرراً ... وخص شيئاً بعد شيء ثم عم
ما قد صنعت في فروضي والذي ... قضيت منها هل صفا لي هل سلم
فجئت ربي خاسراً لقد تحملت ... ظهري ذنوبي كالحساب ارتكم .

قال الله — تبارك وتعالى — : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾[4] ووضع الكتاب لفصل القضاء ، ووضع الكتاب للحزن والبكاء ، وضع الكتاب لتبدو الفضائح ، ووضع الكتاب لتظهر القبائح ، وضع الكتاب تصح الصحائح .

الله الله يا معشر المذنبين : حاسبوا أنفسكم قبل يوم الحساب وارحموا أنفسكم قبل نزول العذاب وبادروا بالتوبة قبل غلق الباب ، واجتهدوا في بقية أعماركم قبل وضع الكتاب ، وسارعوا إلى المغفرة من ربكم قبل الخجل بين يدي رب الأرباب ، وقبل أن تطلبوا برد الجواب ، وتحبس الألسنة عن النطق والخطاب ، وتشهد الجوارح بما عملت من عصيان أو ثواب . وأنشدوا :

أبك لذنبك طوال الدهر مجتهداً ... في البكاء معول الأحزان
لا تنس ذنبك في الكتاب وعظمة ... في الذنوب تحيط بالإنسان

(١) هاج النبت : يبس وجف
(٢) اللمة : الشعر الذي يجاور شحمة الأذن ، فإذا بلغ المنكبين سمي جمة .
(٣) الهرم : كبر السن ، والهرم مشهور بمصر.
(٤) سورة الكهف ، آية ٤٩

مساكين أهل الذنوب ، ما أطاعوا الشيطان ، وعصوا الرحمن ، مساكين أهل الذنوب : جلت كروبهم ، وعظمت خطوبهم ، وكبرت عيوبهم ، وأحصيت عليهم فى الكتاب ذنوبهم ، مساكين أهل الذنوب : عصوا الجبار فى الليل والنهار ، وبذلوا مهجتهم لعذاب النار ، وسودوا صحفهم الخطايا والأوزار . مساكين أهل الذنوب : غفلوا عن الطاعة ، وخالفوا السنة والجماعة ، وخسروا أنفسهم قبل قيام الساعة ، وأنشدوا :

(من كان) يخشى الله جل جلاله ... فليكثر العبرات فى الخلوات
فلعله يعد التذكر والبكا ... يبدلت له العبرات بالحسنات
وتخفف الأوزار عن منشوره ... يوم الحساب وموقف الحسرات

عجائب الكتب

قال الله — تعالى — : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾[1] . عباد الله ، عند وضع الكتاب عجائب ، وأحزان ومصائب ، وكروب ونوائب . فواحد يوضع له الكتاب فيبكى ، وآخر يوضع له الكتاب فيفرح ويبكى . وآخر يوضع له الكتاب فتجرى على وجهه نضرة[2] النعيم . وآخر يوضع له الكتاب فتعلو وجهه ظلمة الجحيم . وآخر يوضع له الكتاب مختوماً بسخط الرب الجواد . وآخر يوضع له الكتاب مختوماً بالتوفيق والسداد .

اللهم وفقنا للطاعة ، وأمتنا على السنة والجماعة ، ونجنا من أهوال يوم الساعة ، وأدخلنا فى جملة أهل الشفاعة .

واعلموا معشر المؤمنين : أن الماء يمحو الكتاب من ألواح الصبيان ، والدمع يمحو من كتبكم الأوزار والعصيان ، والهموم والغموم والأحزان . فاجتهدوا فى البكاء معشر الإخوان ، وأكثروا الندامة فإنها توجب الغفران وأنشدوا :

دعونى على نفسى أنوح وأندب ... بدمع غزير واكف يتصبب
دعونى على نفسى أنوح فإننى ... أخاف على نفسى الضعيفة تعطب
وإنى حقيق بالتضرع والبكا ... إذا ما هذا النوام والليل غيهب[3]
وجاءت دواعى الحزن من كل جانب ... وغارت نجوم الليل وانقض كوكب

---

(١) سورة الكهف آية ٤٩ .
(٢) النضرة : الحسن والرونق . والنضار : الذهب .
(٣) الليل غيهب : شديد الظلام

كفى أن عينى بالدموع بخيلة — وأنى بآفات الذنوب معذب
فمن لى إذا نادى المنادى بمن عصى — إلى أين الجانى إلى أين أهرب ؟
وقد ظهرت تلك الفضائح كلها — وقد قرب الميزان والنار تلهب
فياطول حزنى ثم ياطول حسرتى — لئن كنت فى قاع الجحيم أعذب
فقد فاز بالملك العظيم عصابة — تبيت قياماً فى دجى الليل ترهب
إذا أشرف الجبار من فوق عرشه — وقد زينت حور الجنان الكواعب
فناداهم مهلاً وأهلاً ومرحباً — أبحت لكم دارى وما شئتم اطلبوا

فبادروا ، رحمكم الله فى هذه الأيام الشريفة ، إلى محو السيئات من الصحيفة .

ضرب مثل فى رقة القلب

يأخى : الخشبة اليابسة إذا دخل طرفها الواحد فى النار ، عرق طرفها الآخر ، وكذلك القلب إذا كانت فيه حرقة ندامة الذنوب التى حصلت فى الكتاب المكتوب الموضوع جادت العينان بواكف الدموع ، ولانت الجوارح بالخضوع ، والقلب بالإنابة والخشوع وأنشدوا :

كتبت بأدمعى فى صحن خدى — كتاباً بالتذلل والخضوع
فقالوا قد عفونا عنك لما — محوت قبيح فعلك بالدموع

حكاية عن التوبة

ذكر عن بعض الخائفين أنه قال : رأيت رجلاً واقفاً على صبى من الصبيان فى المكتب وهو يمحو لوحاً ، وكان اللوح قد كتبه بالحبر ، وكانت الكتابة قد ثبتت ولا تزول بالماء ، فجعل الصبى يحك اللوح بالحبل والتراب ، فقال الرجل الواقف عليه : يا بنى مالك تحك اللوح بالحبل ؟ فقال : ليزول الحبر الذى ثبت فيه فقال له الرجل : والحبل يا بنى يزيل الحبر ؟ قال : نعم ، ألا ترى أن الحبل شبه الخنادق فقال الرجل : ذلك بطول المدة ، فقال الصبى : لا ، يا نعم الرجل إلا بالحزم والإجتهاد وإياك يا نعم الرجل : بعيد الذهن ، قال الرجل : كيف ذلك يا بنى ؟ قال : لأنى قد قلت لك إشارة لو ألقيتها على قلبك لأفاق ومحى الحبر الذى عليه

فقال الرجل : يا بنى : كان على قلبى حبر قال يا عم وأى لون هو الحبر ؟ قال : هو أسود قال الصبى :

يا عم ألم أقل لك إنك بعيد الذهن ؟ رأى سواد أشد من سواد الذنوب على القلوب ؟ فصاح الرجل صيحة وخر مغشياً على وجهه ، ثم أخذه البكاء فقال له الصبى : أما الآن فقد وجدت الدواء لذنوبك ومحوها من كتابك وقلبك فقال الرجل يا بنى وما الدواء ؟ فقال له البكاء فقال : يا بنى : والبكاء يمحو الذنوب من الكتاب والقلب ؟ قال له : نعم ، والدليل على ذلك قول النبى - ﷺ - « إن الدموع تطفئ بحار النار يوم القيامة عن الباكى » .

الدموع تمحو الذنوب

فإذا محت الدموع بحار النار ، فأحرى أن تمحو من الكتاب القبائح والأوزار ، وإذا زالت من الكتاب الفضائح والأوزار ، رضى عنك الملك الغفار ، وأمر بك إلى دار الراحة والقرار ، وخلصت من عذاب البوار .

فابكوا يا جماعة المسلمين على ما أذنبتم فى الشهور والأعوام ، وفى الساعات والأيام ، من الخطايا والإجرام ، واكتساب الربا والحرام ، وظلم الضعفاء والأرامل والأيتام ، وما فرطتم فيه من أداء حقوق الملك العلام ، وأنشدوا :

وددت أن دموعى بحر فأسفحها ... من مقلتى على ما فات من زمنى
واها على أسف منى على وهل ... يجنى التأسف إلا غلة الشجن
والله لوصح تحقيق التأسف ما ... ألفيت مع إلا مع النوم فى الحزن
ياليت لى عيناً فى كل جارحة ... تبكى على بدمع مانع الوسن

فضل البكاء

فالواجب — والله يا أهل الإعلام — على كل مسلم علم من نفسه ذنباً أن يكثر البكاء عليه عساه يمحوه من كتابه مولاه ، ويتفضل عليه ويغفر له ما قد جناه ، فهو المنان الكريم ، المتفضل العظيم .

اللهم يا أكرم الأكرمين ، ويا آخر الغافرين ، تفضل علينا بتوبة وعلى جميع المذنبين ، تنقلنا بها من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، وثبتنا عليها حتى تخرجنا من الدنيا بلا ذنب ولا تباعة[1] على منهاج أهل السنة والجماعة ، الذين أوجبت لهم الرحمة والشفاعة

(١) التباعة والتبعة : ما اتبع به

اللهم إن الطاعة والمعاصى بقدرتك ، وفى يدك القلوب والنواصى ، فطهر قلوبنا بماء التوبة ، واغسلها
دنس الحوبة ، ومتعنا بالسلامة فى ديننا ودنيانا ، وفى أسماعنا وأبصارنا ، وجميع جوارحنا ما أبقيتنا ،
لا تردنا على أعقابنا بعد إذ هديتنا ، فإنك على كل شىء قدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

العلم المحيط

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾[1] .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . علمت ما كان وعلمت ما يكون وعلمت ما سيكون وعلمت ما لا يكون لو كان كيف كان يكون وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير .

الله يــدرى كل ما تضمــر ... يعلــم ما تخفــى وما تظهــر
وإن خدعت النــاس لم تستطــع ... خداع من يطوى ومن ينشر

قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله .

يا من يرى مد البعوض جناحه ... فى ظلمــة الليــل البهيم الأليــل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونه ... فى قــاع بحر ذاخــر متجــدل

سبحانك أنت القائل : ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ ، وأنت القائل : ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور . وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾[2] وأنت القائل :

---

(١) سورة المجادلة آية ٧

(٢) سورة هود آية ٥ ، ٦

﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[١] .

يقول تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم ، وسماعه كلامهم ، ورؤيته مكانهم حيث كانوا ، وأين كانوا ، فقال ــ تعالى ــ : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة ﴾ أى من سر ثلاثة ﴿ إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾[٢] أى مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم الله به وسمعه له كما قال تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾[٣] . وقال تعالى : ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾[٤] ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ولا شك فى إرادة ذلك . ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم ، وبصره نافذ فيهم ، فهو ــ سبحانه وتعالى ــ مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شىء . ثم قال تعالى : ﴿ ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾[٥] قال الإمام أحمد : إفتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم .

أحكام تتعلق بالنجوى

قوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا
اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ
فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا
بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

(١) سورة الملك الآيتان ١٣ ، ١٤
(٢) سورة المجادلة آية ٧
(٣) سورة التوبة آية ٧٨
(٤) سورة الزخرف آية ٨٠
(٥) سورة المجادلة آية ٧

معانى المفردات

الذين نهوا عن النجوى : هم اليهود والمنافقون ، بالإثم : أى : بما هو معصية وذنب ، والعدوان : الإعتداء على غيرهم كمعصية الرسول ومخالفته ، لولا يعذبنا الله : أى : هلا يعذبنا بسبب ذلك ، حسبهم جهنم : أى : عذاب جهنم كاف لهم ، يصلونها : أى : يقاسون حرّها .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر — سبحانه — أنه عليم بالسر والنجوى ، وأنه لا تخفى عليه خافية من أمرهم ، فهو عليم بما يكون من التناجى بين الثلاثة والخمسة والأكثر والأقل ، ومجازيهم على ما يكون به التناجى — خاطب رسوله معجّباً له من اليهود والمنافقين الذين نهوا عن التناجى دون المؤمنين ، فعادوا لما نهوا عنه ، وما كان تناجيهم إلا بما هو إثم وعدوان على غيرهم ، ثم ذكر أنهم كانوا إذا جاءوا الرسول حيّوه بغير تحية الله ، فيقولون له : السام عليك (يريدون الموت) ثم يقولون فى أنفسهم : لو كان رسولاً لعذبنا الله للإستخفاف به ، وإن جهنم لكافية حد الكفاية لعذابهم ، ثم نهى المؤمنين أن يفعلوا مثل فعلهم ، بل يتناجون بالبر والتقوى ؛ ثم بين أن التناجى بالإثم والعدوان من الشيطان ولن يضرهم شىء منه إلا بإذن الله ، فعليه فليتوكلوا .

سبب النزول

قال ابن عباس : نزلت فى اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون فيما بينهم ، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فيقول المؤمنون : لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة ، ويسوؤهم ذلك ، فشكوا إلى رسول الله فنهاهم — أى اليهود والمنافقين — عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت هذه الآية ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ﴾ .

وروى البخارى أن اليهود أتوا النبى ﷺ فقالوا : السام عليك — أى الموت عليك — قالت عائشة : ففهمتها . فقلت : عليكم السام ولعنكم الله ، وغضب عليكم ، فقال — عليه الصلاة والسلام — : مهلاً يا عائشة ، عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش ، قالت : أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال : أو لم تسمعى ما قلت ؟ رددت عليهم ، فيستجاب لى فيهم ، ولا يستجاب لهم . وفى رواية أخرى فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾[1] .

---

(١) انظر صحيح البخارى . جـ ٨ صـ ١٥ كتاب الأدب باب لم يكن النبى — ﷺ — فاحشا ولا متفحشا .

أضواء كاشفة

إن أمر هؤلاء الذين يؤمرون بترك شيء ، وينهون عنه ثم يعودون إليه إن أمر هؤلاء لعجيب ! ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى من المنافقين واليهود ، فإنهم كانوا يتناجون دون المؤمنين ،.ثم ينظرون إليهم ، ويتغامزون بأعينهم عليهم ، مع إيهامهم أن أقاربهم وإخوانهم أصابهم شر ، ولا يزالون كذلك حتى تعود أقارب المسلمين ، فلما كثر ذلك من المنافقين وإخوانهم اليهود ، شكاهم المسلمون للنبي ــ ﷺ ــ فنهاهم عن ذلك ، فعادوا لمثل فعلهم ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ﴾ (الإستفهام في الآية للإنكار والتعجب ، والتعبير بالمضارع في « يعودون » للدلالة على تكرر عودتهم وتجددها واستحضار صورتها العجيبة) ، ومع ذلك فهم يتناجون بما هو إثم عند أنفسهم ، ووبال عليهم لأن ضرره عائد لهم ، وبما هو عدوان على المؤمنين ، وبما هو تواص بمخالفة الرسول ــ ﷺ ــ ، انظر إلى هؤلاء أيها المسلم ، واحذر أن تكون ممن يتناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول التى هى رمز الأنتهاك القانون العام .

ولقد جر ذكر بعض صفاتهم إلى ذكر صفة أخرى ، تدل على سوء القصد ، وخبث النية ، فهؤلاء المنافقون واليهود كان يأتي بعضهم إلى النبي ، ويحييه بتحية لم يشرعها الله ، ولم يأذن بها ، وهي قولهم : السام عليك ، يريدون الدعاء عليه بالموت والهلاك ، فكان النبي ﷺ يرد عليهم قائلاً : وعليكم ، وما ليتهم وقفوا عند هذا الحد بل يقولون في أنفسهم : هل يعذبنا الله بما نقول ، والمراد : لو كان محمد نبياً لعذبنا الله بسبب قولنا هذا . والله يرد عليهم بقوله الفصل : حسبهم جهنم وكفى ، يدخلونها ويصطلون بنارها ، فبئس المصير مصيرهم .

يأيها الذين آمنوا : إن مقتضى هذا الإيمان أن تمتثلوا أمر الله ، وتبتعدوا عن كل ما يتنافى مع الإيمان الصحيح ، وعلامة التناجى بالإثم والعدوان فلا تتناجوا كما يتناجى المنافقون واليهود ، وليكن تناجيكم المشروع بالبر والتقوى ، وبالخير والصالح ، واتقوا الله في السر والعلن ، فإنه مطلع عليكم ، ثم إليه تحشرون . روى عن النبى ــ ﷺ ــ أنه قال : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه »(١) . أى من أجل أن يقع فى نفسه ما يحزن لأجله إن كثيراً ما يفهم أن الحديث عنه بما يكره .

(١) الحديث في صحيح مسلم جـ ٤ صـ ١٧١٨ كتاب السلام . باب تحريم مناجاة اثنين دون الثالث بغير رضاه . رقم ٣٦ / ٢١٨٣
ــ وانظر سنن الترمذى جـ ٥ صـ ١١٧ ، ١١٨ كتاب الأدب . باب ما جاء لا يتناجى إثنان دون ثالث . رقم ١٨٢٥ .
ــ وانظر صحيح البخارى . كتاب الاستئذان . جـ ٧ صـ ٨٠ ط / الشعب

إنما التناجي سراً أي مع وجود من يظن شراً من تزين الشيطان ليحزن الذين آمنوا إذ قد فهموا من تناجي اليهود والمنافقين أن إخوانهم أصيبوا بشر ، وليس التناجي بضارهم في شيء إلا بإذن الله ، وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون . أنظر إلى أدب القرآن في المناجاة ، وكيف يوجهها إلى البر والتقوى ، ويمنعها عن الإثم والعدوان .

التفسير

قال بن أبي نجيح عن مجاهد : (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه) قال اليهود ، وكذا قال مقاتل بن حيان وزاد : كان بين النبي — ﷺ — وبين اليهود موادعة وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبي — ﷺ — جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن ، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم ، فنهاهم النبي — ﷺ — عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى ، فأنزل الله — تعالى — : ﴿ **ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه** ﴾ وقال ابن حاتم بسنده عن ربيح بن عبد الرحمن بن أبي سعد الخدري عن أبيه عن جده قال : كنا نتناوب رسول الله — ﷺ — نبيت عنده ، يطرقه من الليل أمر وتبدو له حاجة فلما كانت ذات ليلة كثر أهل النوب والمحتسبون حتى كنا أندية نتحدث ، فخرج علينا رسول الله — ﷺ — فقال : « **ما هذه النجوى ؟ ألم تنهوا عن النجوى ؟** » قلنا : تبنا إلى الله يارسول الله . إنا كنا في ذكر المسيح فرقاً منه . فقال : « **الشرك الخفي أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل** »[1] هذا إسناد غريب وفيه بعض الضعفاء .

قوله تعالى : ﴿ **ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول** ﴾ أي يتحدثون فيما بينهم بالإثم وهو ما يختص بهم (والعدوان) وهو ما يتعلق بغيرهم ومنه معصية الرسول ومخالفته يصرون عليها ويتواصون بها .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله** ﴾ قال ابن أبي حاتم بسنده عن عائشة قالت : دخل على رسول الله — ﷺ — يهود فقالوا : السام عليك ياأبا القاسم . فقالت عائشة : وعليكم السام قالت : فقال رسول الله — ﷺ — : « **يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش** » . قلت : ألا تسمعهم يقولون : السام عليك ؟ فقال رسول الله — ﷺ — : « **أو ما سمعت أقول وعليكم ؟** » فأنزل الله تعالى : ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله** ﴾ . وفي

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٦٨ ط / الشعب وتفسير القرطبي ٥ / ١٨١

رواية في الصحيح أنها قالت لهم : عليكم السام والذام واللعنة وأن رسول الله — ﷺ — قال : « إنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا »(١) . وقال ابن جرير بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله — ﷺ — بينما هو جالس مع أصحابه ، إذ أتى عليهم يهودي فسلم عليهم ، فردوا عليه ، فقال النبي — ﷺ — « هل تدرون ما قال ؟ » قالوا : سلم يارسول الله . قال « بل قال سام عليكم » أي تسامون دينكم ، قال رسول الله — ﷺ — « ردوه » فردوه عليه ، فقال نبي الله : « أقلت سام عليكم » قال نعم ، فقال رسول الله — « إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا عليك »(٢) . أي عليك ما قلت ، وأصل حديث أنس مخرج في الصحيح ، وهذا الحديث في الصحيح عن عائشة بنحوه .

قوله تعالى : ﴿ ويقولون في أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ أي يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام ، وإيهام السلام ، وإنما هو شتم في الباطن ، ومع هذا يقولون في أنفسهم لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا ، فقال الله تعالى . ﴿ حسبهم جهنم ﴾ أي جهنم كفايتهم في الدار الآخرة ﴿ يصلونها فبئس المصير ﴾ . وقال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو أن اليهود كانوا يقولون بما نقول ؟ فنزلت هذه الآية ﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾(٣) إسناد حسن ولم يخرجوه ؛

وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله — ﷺ — إذا حيوه : سام عليك . قال الله تعالى : ﴿ حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾ . ثم قال — تعالى — مؤدباً عباده المؤمنين أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين : ﴿ ياأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴾ أي كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن ما لأهم على ضلالهم من المنافقين ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون ﴾ أي : فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم وسيجزيكم بها . قال الإمام أحمد بسنده عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل فقال : كيف

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٤ صـ ١٧٠٦ ، ١٧٠٧ كتاب السلام ، باب السلام ، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ، وكيف يرد عليهم رقم ١٠ ، ١١ / ٢١٦٥
وانظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٦٨ ، ٦٩ . تفسير سورة المجادلة ط / الشعب .

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٦٩ ط / الشعب وانظر تفسير الطبري جـ ٢٧ صـ ١١ .
انظر سنن الترمذي جـ ٥ صـ ٣٧٩ ، ٣٨٠ كتاب تفسير القرآن باب سورة المجادلة . رقم ٣٣٠١

(٣) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ صـ ١٧٠ مسند عبد الله بن عمرو .
— انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٦٩ ط / الشعب

سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : **« إنَّ الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أن قد هلك ، قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين »**(١) أخرجاه فى الصحيحين من حديث قتادة .

ثم قال تعالى : ﴿ **إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ أى : إنما النجوى وهى المسارة حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً . ﴿ **من الشيطان ليحزن الذين آمنوا** ﴾ يعنى : إنما يصدر هذا من المتناجين من تسويل الشيطان وتزيينه ﴿ **ليحزن الذين آمنوا** ﴾ أى : ليسوءهم وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ، ومن أحس من ذلك شيئاً فليستعذ بالله والتوكل على الله فإنه لا يضره شىء بإذن الله . وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى حيث يكون فى ذلك تأذ على مؤمن كما قال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : **« إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه »**(٢) أخرجاه من حديث الأعمش . وقال عبد الرزاق بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : **« إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث إلا بإذنه فإن ذلك يحزنه »**(٣) انفرد بإخراجه مسلم عن أبى الربيع وأبى كامل كلاهما عن حماد بن زيد عن أيوب به .

---

(١) انظر صحيح البخارى تفسير سورة هود ٦ صـ ٩٣
الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ صـ ٢١٢٠ كتاب التوبة ـ باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله . رقم ٥٢ / ٢٧٦٨ .
انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٧٠ ط / الشعب
وانظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ صـ ٧٤
(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ ١ صـ ٤٢١ ، ٤٣٢
(٣) انظر صحيح البخارى . كتاب الاستئذان جـ ٧ صـ ٨٠ ط / الشعب وانظر صحيح مسلم . كتاب السلام . باب تحريم مناجاة اثنين دون الثالث بغير رضاه . جـ ٤ صـ ١٧١٨ رقم ٣١ / ٢١٨٣

من آداب الإسلام

قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ
انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ
فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ
تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ (١٣)

التحليل اللفظى

تفسحوا : توسعوا فى المجلس وليفسح بعضكم عن بعض ، من قولهم : افسح عنى أى تنحّ ، يقال : بلدة فسيحة ، ومفازة فسيحة ، ولك فيه فسحة أى : سعة .

قال القرطبى : وفسَحَ يفسح مثل فتح يمنع ، أى وسّع فى المجلس ، وفسُح يفسُح مثل كرُم يكرُم ، أى : صار واسعاً ، ومنه مكان فسيح .

انشزوا : انهضوا وارتفعوا ، وأصله من النشز وهو المرتفع من الأرض ، قال فى اللسان : النشز : المرتفع عن الأرض ، ونشز الشيء : ارتفع ، وتل ناشز : مرتفع ، وفى التنزيل (وإذا قيل لكم انشزوا فانشزوا) قرأها الناس بكسر الشين ، وأهل الحجاز برفعها ، وهى لغتان ومعناه : إذا قيل انهضوا فانهضوا وقوموا .

درجات : أى : منازل رفيعة . جمع درجة وهى الرفعة فى المنزلة . مأخوذ من الدّرج الذى يرقى به إلى السطح .

قال فى اللسان : والدرجة : الرفعة فى المنزلة ، والدرجة واحدة الدرجات ، وهى الطبقات من المراتب ، ودرجات الجنة : منازل أرفع من منازل .

نجواكم : النجوى مصدر بمعنى التناجى وهو المسارّة . مأخوذة من (النجوة) وهى ما ارتفع من الأرض . فالمتناجيان يخلوان بسرهما كخلو المرتفع من الأرض عما يتصل به .

وقيل: النجوى من المناجاة وهى الخلاص، وكأن المتناجيين يتعاونان على أن يخلص أحدهما الآخر. ومعنى الآية: إذا أردتم مناجاة الرسول - ﷺ - لأمر من الأمور فتصدقوا قبلها.

أطهر: أى أزكى لأنفسكم وأطيب عند الله.

أأشفقتم: الإشفاق: الخوف من المكروه، والمعنى: أخفتم وبخلتم بالصدقة وشق ذلك عليكم؟ قال ابن عباس: «أأشفقتم» أى: أبخلتم بالصدقة وهو استفهام معناه التقرير.

المعنى الإجمالى

يقول الله - جل ثناؤه - ما معناه: يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم توسعوا فى المجلس لأخوانكم القادمين، فتوسعوا لهم، وافسحوا لهم، حتى يأخذ القادم مكانه فى المجلس، فإن ذلك سبب المودة والمحبة بينكم، ومدعاة للألفة وصفاء النفوس، وإذا فسحتم لهم فإن الله تعالى يفسح لكم فى رحمته، وينور قلوبكم، ويوسع لكم فى الدنيا والآخرة. وإذا قيل لكم - أيها المؤمنون - انهضوا إلى الصلاة، والجهاد، وعمل الخير فانهضوا، أو قيل لكم قوموا من مقاعدكم للتوسعة على غيركم فأطيعوا، فإن الله - تعالى - يحب من عباده الطاعة، ويرفع درجات المؤمنين، والعلماء العاملين الذين يبتغون بعلمهم وجه الله، فالعلماء ورثة الأنبياء، ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين، وليست الرافعة عند الله - تعالى - بالسبق إلى صدور المجالس، وإنما هى بالعلم والإيمان.

ثم أمر - تعالى - عباده المؤمنين إذا أرادوا مناجاته - عليه الصلاة والسلام - لأمر من الأمور، أن يتصدقوا قبل هذه المناجاة، تعظيماً لشأن الرسول - ﷺ - ونفعاً للفقراء، وتمييزاً بين المؤمن المخلص والمنافق المراوغ، فإن ذلك أزكى للنفوس، وأطهر للقلوب، وأكرم عند الله - تعالى -، فإذا لم يتيسر للمؤمن الصدقة فلا بأس عليه ولا حرج. ثم أخبر تعالى بأن عمل الخير كالصدقة وغيرها لا ينبغى أن يخاف منها الإنسان فقال ما معناه: أخفتم تقديم الصدقات لما فيها من إنفاق المال، فإذا لم تفعلوا ما أمرتم به، وتاب الله عليكم، ورخص لكم فى الترك، فأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة ولا تفرطوا فيهما وفى سائر الطاعات، لأن الله خبير بما تعملون.

سبب النزول

أ - روى أن النبى - ﷺ - كان يوم جمعة فى الصفّة، وفى المكان ضيق، وكان عليه - الصلاة والسلام - يكرم أهل بدر من (المهاجرين والأنصار) فجاء ناس من أهل بدر، منهم (ثابت بن قيس بن شمّاس) وقد سبقوا إلى المجلس، فقاموا حيال النبى - ﷺ - فقالوا: السلام عليك أيها النبى

ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي ـ ﷺ ـ ثم سلموا على القوم فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسّع لهم ، فلم يفسحوا لهم ، فشق ذلك على رسول الله ـ ﷺ ـ فقال لبعض من حوله : قم يا فلان ، وقم يا فلان ، فأقام نفراً مقدار من قدم ، فشق ذلك عليهم ، وعرفت كراهيته في وجوههم ، وقال المنافقون : ما عدل بإقامة من أخذ مجلسه ، وأحبّ قربه لمن تأخر عن الحضور ، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ﴾[1] (أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان) .

ب ـ وروى عن ابن عباس وقتادة : « أن قوماً من المسلمين كثرت مناجاتهم للرسول ـ ﷺ ـ ، في غير حاجة إلا لتظهر منزلتهم وكان ـ ﷺ ـ سمحاً لا يرد أحداً فنزلت هذه الآية ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول .. ﴾ الآية .

حـ ـ وروى عن مقاتل : أن الأغنياء كانوا يأتون النبي ـ ﷺ ـ فيكثرون مناجاته ، ويغلبون الفقراء على المجالس ؛ حتى كره ـ ﷺ ـ طول جلوسهم ومناجاتهم فنزلت الآية : ﴿ إذا ناجيتم الرسول ﴾ .

وجوه القراءات

١ ـ قوله تعالى : ﴿ إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس ﴾ قرأ الجمهور ﴿ تفسحوا ﴾

٢ ـ قرأ الجمهور ﴿ في المجلس ﴾ بالإفراد على إرادة معنى الجمع ، وقرأ عاصم وقتادة ﴿ المجالس ﴾ بالجمع .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ انشزوا فانشُزُوا ﴾ قرأ الجمهور بضم الشين فيهما . قال الفراء : وهما لغتان مثل : يعكفُون ويعرِشُون .

٤ ـ قرأ الجمهور ﴿ فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ﴾ بالإفراد ، وقرئ ﴿ صدقات ﴾ بالجمع لجمع المخاطبين .

وجوه الإعراب

١ ـ قوله تعالى : ﴿ يفسح الله لكم ﴾ يفسح مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب ، وحرّك بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين ، ومثله ﴿ يرفع الله ﴾ مجزوم لأنه جواب الأمر كأنه قيل : إن تنشزوا يرفع الله عز وجل المؤمنين جزاء امتثالهم درجات .

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٧١ ط / الشعب .

٢ ــ قوله تعالى : ﴿ والذين أوتوا العلم درجات ﴾ قال أبو حيان معطوفاً على الذين آمنوا عطف صفات .

والمعنى : يرفع الله المؤمنين العلماء درجات ، فالوصفان لذات واحدة واختار الطيبي : أن يكون فى اللفظ تقدير يناسب المقام نحو أن يقال : يرفع الله الذين آمنوا فى الدنيا بالنصر وحسن الذكر ، ويرفع الذين أوتوا العلم درجات تعظيماً لهم .

٣ ــ قوله تعالى : ﴿ أأشفقتم أن تقدموا ﴾ أن وما بعدها فى تأويل مصدر منعول لـ (أشفقتم) والله أعلم .

لطائف التفسير

ــ اللطيفة الأولى : لما نهى سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض والتنافر ، أمرهم فى هذه الآيات بما يكون سبباً لزيادة المحبة والمودة ، وقد كان الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ شديدى الحرص على القرب من رسول الله ــ ﷺ ــ والجلوس بين يديه حرصاً على استماع كلامه ، فأمرو بالتوسعة على إخوانهم فى المجلس تطييباً لقلوبهم ، وهذا هو السر فى مجىء هذه الآيات عقب آيات النهى عن التناجى بالإثم والعدوان .

ــ اللطيفة الثانية : ذكر ــ تعالى ــ فى أول الآية مكانة المؤمنين ، ثم عطف عليها بذكر مكانة العلماء ، والعطف فى مثل هذا الموطن هو من باب (عطف الخاص على العام) تعظيماً لشأن العلماء كأنهم جنس آخر ، ولذا أعيد اسم الموصول فى النظم الكريم فى قوله تعالى : ﴿ والذين أوتوا العلم درجات ﴾ .

ــ اللطيفة الثالثة : الأمر للمؤمنين بالصدقة عند مناجاة الرسول ــ ﷺ ــ فيه فوائد عديدة :

أولها : تعظيم الرسول ــ ﷺ ــ وتعظيم مناجاته .
ثانيها : نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة .
ثالثها : الزجر من الإفراط فى الأسئلة لرسول الله ــ ﷺ ــ .
رابعها : التمييز بين المخلص والمنافق ، ومحب الدنيا ومحب الآخرة .

ــ اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ﴾ : فى هذا اللفظ استعارة يسميها علماء البلاغة (استعارة تمثيلية) وأصل التركيب يستعمل فيمن له يدان كالإنسان فقد استعار

اليدين للنجوى ، وقيل إنها (استعارة مكنية) حيث شبه النجوى بإنسان ، وحذف المشبه به وهو الإنسان ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو اليدان على سبيل الاستعارة المكنية ومثله قوله تعالى : ﴿ بين يدى عذاب شديد ﴾ وذكر اليدين تخييل .

ـــ اللطيفة الخامسة : أشاد القرآن بمنزلة العلماء الرفيعة ، ومكانتهم السامية عند الله ـــ تعالى ـــ ، ويكفيهم هذا الشرف والفخر وقد قال ـــ ﷺ ـــ : (**من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام ، فبينه وبين النبيين درجة**)[1] . (أخرجه الدارمي عن عمر بن كثير عن الحسن) .
وقد ذكر بعض الظرفاء مناظرة رمزية بين (العقل والعلم) نذكرها لطرافتها قال بعض الأدباء :

علمُ العليمِ وعقلُ العاقلِ اختصما ... من ذا الذى منهما قد أحرز الشرفا ؟
فالعلم قال : أنا أدركتُ غايته ... والعقل قال : أنا الرحمن بى عُرِفا
فأفصح العلم إفصاحاً وقال له : ... بأيِّنا الله فى فرقانه اتصفا ؟
فبان للعقل أن العلم سيِّده ... فقبل العقل رأس العلم وانصرفا

الأحكام الشرعية

ـــ الحكم الأول : ما المراد بـ (المجالس) فى الآية الكريمة ؟ اختلف المفسرون فى المراد بالمجلس على ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المراد به مجلس الرسول ـــ ﷺ ـــ خاصة ، وهو قول مجاهد .

والثانى : أن المراد به مجلس الحرب ، ومقاعد القتال ، حيث كانوا لحرصهم على الشهادة يأبون التوسع ، وهو قول ابن عباس ، والحسن .

والثالث : أن المراد به مجالس الذكر كلها ، وهو قول قتادة وهو الأرجح .

قال الطبرى : « والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره أمر المؤمنين ، أن يتفسحوا فى المجلس ، ولم يخصص بذلك مجلس النبى ـــ ﷺ ـــ دون مجلس القتال ، وكلا الموضعين يقال له : مجلس ، فذلك على جميع المجالس ، من مجالس رسول الله ـــ ﷺ ـــ ومجالس القتال » .

وقال القرطبى : الصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر ، سواء كان مجلس حرب أو ذكر ، أو مجلس يوم الجمعة ، فإن كل واحد أحق بمكانه الذى سبق إليه .

---

(1) انظر سنن الدارمى جـ ١ صـ ٨٥ . باب فضل العلم والعالم .
ـــ انظر اتحاف السادة المتقين جـ ١ صـ ١٠٠

ـ الحكم الثانى : هل يباح الجلوس مكان الشخص بدون إذنه ؟ .

دلت الآية الكريمة على وجوب التوسع فى المجلس للقادم ، ومقا من مكارم الأخلاق التى أرشد إليها الإسلام ، ولكن لا يباح للإنسان أن يأمر غيره بالقيام ليجلس بمجلسه لقوله ـ ﷺ ـ : (**لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا**)[1] وقد جرى الحكم أن من سبق إلى مباح فهو أولى به ، والمجلس من هذا المباح ، وعلى القادم أن يجلس حيث انتهى به المجلس ، إلا أن الآداب الإجتماعية تقضى على الناس بتقديم أولى (الفضل والعلم) وبذلك جرى عرف الناس وعوائدهم فى القديم والحديث .

ولقد كان هذا الأدب السامى شأن الصحابة فى مجلس الرسول ـ ﷺ ـ فكانوا يقدّمون بالهجرة ، وبالعلم ، وبالسن ، وما فعله النبى ـ ﷺ ـ فى جماعة (ثابت بن قيس) من أهل بدر ، فإنما كان لتعليم الناس مكارم الأخلاق ، وخاصة مع أهل الفضل والعلم ، من المهاجرين والأنصار .

أ ـ روى ابن العربى بسنده عن انس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : « بينا رسول الله ـ ﷺ ـ فى المسجد وقد طاف به أصحابه ، إذ أقبل على بن أبى طالب فوقف وسلّم ، ثم نظر علساً يشبهه ، فنظر رسول الله ـ ﷺ ـ فى وجوه أصحابه أيهم يوسع له ، وكان أبو بكر جالساً على يمين النبى ـ ﷺ ـ فتزحزح له عن محله ، وقال : ها هنا ياأبا الحسن . فجلس بين النبى ـ ﷺ ـ وبين أبى بكر ، فقال ياأبا بكر : إنما يعرف الفضل ، لأهل الفضل ، ذوو الفضل »[2] .

ب ـ وثبت فى الصحيح أن عمر بن الخطاب كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة ، فكلموه فى ذلك فدعاهم ودعاه ، وسألهم عن تفسير : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ فسكتوا ، فقال ابن عباس : هو أجل رسول الله ـ ﷺ ـ أعلمه إياه ، فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم ، ثم قال : بهذا تقدمت الفتى »[3] .

وإذا قام الإنسان من مجلسه لحاجة ثم رجع إليه فهو أحق بالمجلس لقوله ـ ﷺ ـ : (**من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به**)[4] .

---

(١) انظر صحيح البخارى كتاب الجمعة باب . لا يقيم الرجل أخاه يوم الجمعة ويقعد فى مكانه جـ ٢ صـ ١٠ ط / الشعب

انظر صحيح مسلم كتاب السلام . باب تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذى سبق إليه

وانظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ صـ ٣٣٨ ، ٤٢٨ ، ٥٢٢ .

(٢) انظر كشف الخفاء جـ ١ صـ ٢٥٠

(٣) انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٥٢٩ ، ٥٣٠ تفسير سورة . إذا جاء نصر الله والفتح . ط / الشعب

(٤) انظر صحيح مسلم جـ ٤ صـ ١٧١٥ . كتاب السلام . باب إذا قام من مجلسه ثم عاد فهو أحق به . رقم ٣١ / ٢١٧٩ .

ـ الحكم الثالث : هل يجوز القيام للقادم إذا كان من أهل الفضل والصلاح . .

ذهب جمهور الفقهاء إلى جواز القيام للقادم إذا كان مسلماً من أهل الفضل والصلاح على وجه التكريم ، لأن احترام المسلم واجب ، وتكريمه لدينه وصلاحه مما يدعو إليه الإسلام ، لأنه سبيل المحبة والمودة ، وقد قال ـ ﷺ ـ : **« لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تُكلّم أخاك وأنت منبسط إليه بوجهك »**[1] .

فالقيام للقادم جائز على وجه التكرمة ، إن لم يكن فاسقاً ، ولم يكن سبيلاً للكبرياء والخيلاء ، وما لم يصبح ديدناً للإنسان عند كل دخول أو خروج ، وفى كل حين وآن فعند ذلك يكره .

قال العلامة ابن كثير : وقد اختلف الفقهاء فى جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال ، فمنهم من رخص فى ذلك محتجاً بحديث : (**قوموا إلى سيدكم**)[2] ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث : (**من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار**)[3] . ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم فى محل ولايته ، كما دلّ عليه قصة (سعد بن معاذ) فإنه لما استقدمه النبى ـ ﷺ ـ حاكماً فى بنى قريظة فرآه مقبلاً قال للمسلمين : **« قوموا إلى سيدكم »** ، وماذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه والله أعلم .

أقول : جمهور العلماء على جواز القيام للقادم ، إلا إذا كان فاسقاً ، أو عاصياً أو مرتكباً لكبيرة ، أو مشهوراً بالكبر وحب الظهور ، وأما ما استدل به بعضهم من منع القيام بحديث .. (**من أحب أن يتمثل له الناس قياماً ...**)[4] الحديث ، فليس فيه دليل لهم ، لأن الرسول ـ ﷺ ـ لم يطلق اللفظ وإنما قيّده بوصف يدل على الكبرياء وحب الظهور (من أحب أن يتمثل له الناس قياماً) ولم يقل ـ صلوات الله عليه ـ : (**من قام له الناس فليتبوأ مقعده من النار**) ولا شك أن هذا الوصف لا ينطبق إلا على المتكبر المغرور ، والفرق دقيق بين اللفظين فلا ينبغى أن يغفل عنه .

---

(١) انظر صحيح ابن حبان جـ ١ صـ ٣٤٦ . باب حسن الخلق .
ـ انظر الخرائطى . فى مكارم الأخلاق صـ ١٦ . بلفظ لا تقعدن ...... الطبعة السلفية .
(٢) الحديث فى صحيح مسلم . جـ ٣ صـ ١٣٨٨ كتاب الجهاد والسير . باب جواز قتال من نقض العهد . رقم ٦٤ /١٧٦٨
(٣) انظر سنن أبى داود جـ ٥ صـ ٣٩٠ ، ٣٩١ رقم ٥٢١٥ كتاب الأدب
انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٧٢ . ط / الشعب
انظر كنز العمال جـ ٩ صـ ١٣٨ رقم ٢٥٣٨٧
انظر تحفة الأحوذى جـ ٨ صـ ٣٠ رقم ٢٩٠٣ .
(٤) انظر سنن أبى داود جـ ٥ صـ ٣٩٠ ، ٣٩١ . كتاب الأدب

وأما ما يقوله بعضهم : من أن القيام ركن من أركان الصلاة فلذلك يحرم ، لأنه يشبه العبادة ، فهذا جهل مطبق لا يصدر من فقيه عالم يتصدى لاستنباط الأحكام .

كيف والصلاة تشتمل على أركان كثيرة كالقعود ، وقراءة القرآن والتشهد ، والصلاة على النبي — ﷺ — في بعض الأقوال — كما هو مذهب الإمام الشافعي — فهل يقول أحد : إن الجلوس بين يدى العالم حرام لأنه ركن من أركان الصلاة ؟ وإن الصلاة — على النبي عليه السلام — حرام في حضرة الناس لأنها ركن من أركان الصلاة ؟

وقياس القيام على الركوع والسجود في الحرمة ، قياس مع الفارق ، وهو قياس باطل ، لأن الركوع والسجود لا يجوز لغير الله كما قال — عليه السلام — : (**لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**)(١) وقد ورد في تحريمه النص القاطع ، أما القيام ، والقعود ، والاضطجاع ، فليس من هذا القبيل ، وكفانا الله شر الجهل ، وحماقة المتطفلين على العلم والعلماء .

— الحكم الرابع : هل الصدقة عند مناجاة الرسول — ﷺ — واجبة ؟
اختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ **فقدموا بين يدى نجواكم صدقة** ﴾ هل الأمر للوجوب أو الندب ؟

فقال بعضهم : إن الأمر للوجوب ، ويؤيد هذا قوله — تعالى — في آخر الآية : ﴿ **فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ ومثل هذا لا يقال إلا في الواجبات التي لا يصح تركها .

وقال آخرون : إن الأمر للندب والاستحباب ، وذلك لأن الله تعالى قال في الآية : ﴿ **ذلك خير لكم وأطهر** ﴾ ومثل هذا قرينة تصرف الأمر عن ظاهره ، وهو إنما يستعمل في التطوع دون الفرض .

ومن جهة أخرى : فإن الله تعالى قال في الآية التي بعد هذه مباشرة : ﴿ **أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات** ؟ ﴾ وهذا يزيل ما في الأمر الأول من احتمال الوجوب ، ويبقى الأمر للندب .

واتفق العلماء على أن الآية منسوخة نسختها الآية التي بعدها : ﴿ **أأشفقتم أن تقدموا** ﴾ وقد اختلفوا في مقدار تأخر الناسخ عن المنسوخ فقيل : بقى التكليف عشرة أيام ثم نسخ ، وقيل : ما بقى إلا ساعة من النهار ثم نسخ .

---

(١) الحديث في سنن الترمذي جـ ٣ صـ ٤٦٥ كتاب الرضاع ، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة ، رقم ١١٥٩ ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن

وقد روى عن على ـــ كرم الله وجهه ـــ أنه قال : (إن فى كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلى ، ولا يعمل بها أحد بعدى ، كان لى دينار ، فاشتريت به عشرة دراهم ، فكلما ناجيت الرسول ـــ ﷺ ـــ قدمت بين يدى نجواى درهماً ، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد)[١] .

قال القرطبى : (وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل ، وما روى عن على ـــ رضى الله عنه ـــ ضعيف ، لأن الله ـ تعالى ـ قال : ﴿ فإذ لم تفعلوا ﴾ وهذا يدل على أن أحداً لم يتصدق بشىء ، والله أعلم) .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : وجوب التوسعة فى المجلس للقادم لأنها من مكارم الأخلاق .
ثانياً : التوسعة للمؤمن فى المجلس سبب لرحمة الله ـــ عز وجل ـــ وطريق لرضوانه .
ثالثاً : الرفعة عند الله والعزة والكرامة إنما تكون بالعلم والإيمان .
رابعاً : وجوب تعظيم الرسول ـــ ﷺ ـــ وعدم الإثقال عليه فى المناجاة .
خامساً : تقديم الصدقة قبل المناجاة مظهر من مظاهر تكريم الرسول ـــ ﷺ ـــ .
سادساً : نسخ الأحكام الشرعية لمصلحة البشر تخفيف من الله ـــ تعالى ـــ على عباده .
سابعاً : الصلاة والزكاة أعظم أركان الإسلام ولهذا قرن القرآن الكريم بينهم فى كثير من الآيات .

حزب الشيطان

قال تعالى :

* ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب
وهم يعلمون ﴿١٤﴾ أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴿١٥﴾ اتخذوا أيمانهم
جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين ﴿١٦﴾ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم
من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿١٧﴾ يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، فى تفسير سورة المجادلة .

لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾

معانى المفردات

ألم تر : أى : ألم تعرف ، وهو أسلوب من الكلام يراد به التعجب وإظهار الغرابة للمخاطب ، والمراد من الذين تولوا : المنافقون ، والتولى : من الموالاة وهى المودة والمحبة ، والقوم : هم اليهود ، وغضب الله : سخطه والطرد من رحمته ، ما هم منكم ولا منهم : أى : لأنهم مذبذبون ، على الكذب : أى : على أنهم معكم على الإيمان ، جنة : أى وقاية وستراً على المؤاخذة ، على شىء : أى : من جلب منفعة أو دفع مضرة ، استحوذ على الشىء : حواه وأحاط به ، قال المبرد : ويقال : حاوزت الإبل ، وحزتها إذا استوليت عليها وجمعتها ، قالت عائشة : كان عمر أحوذياً نسيج وحده : أى : سائساً ضابطاً للأمور لا نظير له ، فأنساهم ذكر الله : أى : لم يمكنهم من ذكره بما زين لهم من الشهوات ، وحزب الشيطان : جنوده وأتباعه ، يحادون : أى يعادون ويشاقون ، فى الأذلين : أى : فى جملة أذل خلق الله ، لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر أن أصحاب رسول الله — ﷺ — كانوا يتنافسون فى القرب من مجلس رسول الله — ﷺ — لتلقى الدين عنه والإهتداء بهديه حتى كان يضيق بهم المجلس ، فأمروا أن يتوسعوا ولا يتضاموا ، ذكر هنا حال قوم من المنافقين يوادون اليهود ويطلعونهم على أسرار المؤمنين ، فهم عيون لهم عليهم ، وإذا لاقوا المؤمنين قالوا لهم : إنا معكم نؤيدكم على أعدائكم بكل ما أوتينا من قوة وهم كاذبون فى كل مايقولون ، وقد جعلوا الإيمان وقاية لستر ما يبطنون ، فأمنوا من المؤاخذة وجاسوا خلال ضعفاء المؤمنين يصدونهم عن الدين ، ويذكرون لهم ما يبغضهم فيه ؛ ثم أبان أن الله قد أعد لمثل هؤلاء عذاباً شديداً يوم القيامة ، وما هم فيه من مال وولد فى الدنيا لن يغنى عنهم شيئاً حينئذ ؛ ثم ذكر أن الذى جرأهم على ما فعلوا هو الشيطان ، فقد استولى على عقولهم ، وزين لهم قبيح أعمالهم ، فأنساهم عذاب اليوم الآخر ، ثم ذكر أن أولئك هم جند الشيطان ، وجنود الشيطان لن تفلح فى شىء ، وسيرد

الله عليهم كيدهم فى نحورهم ، ويحبط سعيهم ، ويظهر نور دينه ولو كره الكافرون . وبعد أن ذكر حال أولئك المنافقين الذين يحلفون كذباً إنهم مؤمنون ، ويمالئون المؤمنين طوراً واليهود طوراً آخر اكتساباً لرضا الفريقين ، ثم بين أن الذى حملهم على ذلك هو الشيطان ، إذ غلبهم على أمرهم حتى أنساهم ذكر الله ومايجب لله من تعظيم . والإيمان باليوم الآخر . ثم حكم عليهم بأن صفقتهم خاسرة ، لأنهم باعوا الباقى بالفانى ، والزائل الذى لا دوام له بما هو دائم أبداً سرمداً ، بين هنا سبب خسرانهم وهو أنهم شاقوا الله ورسوله وعصوا أمره ، فكتب عليهم الذلة فى الدنيا والآخرة .

أضواء كاشفة

انظر يا من يتأتى منه النظر — متعجباً — إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ، وهم اليهود وقد تولاهم المنافقون يسرون اليهم بالمودة ، ويحلفون لهم إنهم لمعكم ، ويعلم الله إن المنافقين لكاذبون ، كيف يتولون قوماً غضب الله عليهم ؟ حالة كونهم ما هم منكم ، ولا منهم أى : هؤلاء الذين تولوا اليهود ليسوا من المؤمنين الخلص ، ولا من الكافرين الخلص بل هم مذبذبون بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .

روى أن هذه الآية نزلت فى عبد الله بن نبتل ، المنافق — وكان أزرق أسمر قصيراً خفيف اللحية — وكان يجالس النبى — ﷺ — ، ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، فبينا نحن جلوس مع النبى فى إحدى حجراته إذ قال : « **يدخل عليكم الآن رجل قلبه جبار وينظر بعينى شيطان** »[1] فدخل عبد الله بن نبتل ، فقال النبى له : علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ، فقال له النبى : « **فعلت** » ، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فنزلت الآية ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **ويحلفون على الكذب وهم يعلمون** ﴾ نعم ، حلفوا بالله أيماناً فاجرة ، وهم يعلمون أنهم كاذبون ، وتلك هى اليمين الغموس .

هؤلاء أعد الله لهم عذاباً شديداً ، وهو الدرك الأسفل من جهنم ، إنهم بئس العمل عملهم ، هؤلاء اتخذوا أيمانهم الفاجرة الكاذبة جنة ووقاية لهم حتى أمنوا القتل ، وفى قراءة : « إيمانهم » أى : الظاهرى كان وقاية لهم من القتل ، فصدوا المؤمنين عن سبيل الله ، وهو جهادهم بقتلهم وأخذ أموالهم ، وقيل صدهم عن سبيل الله بإلقاء الأراجيف وتثبيط المسلمين عن الجهاد وتخويفهم من القتل ، وقد كان المنافقون كذلك ، ويترتب عليه أن لهم عذاباً ذا إهانة فى الدنيا والآخرة ، لن تنفعهم أموالهم التى جمعوها ، ولا أولادهم الذين يعتزون بهم ، ولن يغنوا عنهم من عذاب الله شيئاً من الإغناء ، وكيف تنفعهم فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ؟ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

---

(١) انظر تفسير القرطبى جـ ١٧ صـ ٣٠٤
— انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٧٨ ط / الشعب

تذكر يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له أنهم مؤمنون ، وما علموا أن ذلك لا ينفعهم أبداً ، ولا يليق بعاقل أبداً ، يحلفون لله كما يحلفون لكم ، ويحسبون أنهم على شيء من منفعة بسبب يمينهم ، ألا إنهم هم الكاذبون المبالغون فى الكذب ، حيث كذبوا بين يدى علام الغيوب يوم القيامة فى الحال التى يؤمن فيها الفاجر ، فلا عجب إذ يحلفون لكم الآن ، ولسائل أن يسأل عن السبب فى هذا ، والجواب أنه : استحوذ عليهم الشيطان فملك عنانهم ، وغلب على عقولهم حتى اتبعوه بلا عقل ولا روية ، وهذا هو سبب كذبهم وضلالهم السابق ، استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . حتى نسوا أنفسهم فتركوها ترتكب الآثام والأباطيل أولئك — والإشارة لبعدهم فى الغواية والبهتان — حزب الشيطان وجماعته المتجمعون على الإثم والعدوان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون وأى خسارة بعد هذا ؟

إن الذين يحادون الله ورسوله بمخالفة أمره ، واتباع الشيطان ، أولئك فى عداد الأذلين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون** ﴾ . هذ إخبار من الله — تبارك وتعالى — عن المنافقين الذين اتخذوا اليهود والنصارى أولياء . وهؤلاء المنافقون فى الحقيقة ليسوا من المؤمنين ولا من اليهود والنصارى . إنما هم كما قال — تعالى — : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير** ﴾[1]

(١) سورة البقرة الآيات من ٨ إلى ٢٠ .

وكما قال تعالى في سورة النساء : ﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً . بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً . وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً . الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً . يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً . إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾[١] .

وما أعظم قول الله تبارك وتعالى في سورة المائدة : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد إيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون . يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لايعقلون . قل يأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وماأنزل إلينا وماأنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون . قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل . وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون . وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون ﴾[٢] ﴿ لولا ينهاهم

(١) سورة النساء الآيات ١٣٧ — ١٤٦ .
(٢) سورة المائدة الآيات ٥١ — ٥٨ .

الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يصنعون . وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين . ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ﴾[1]

ثم قال تعالى منكراً على المنافقين فى موالاتهم الكفار فى الباطن وهم فى نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾[2] وقال ههنا : ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ يعنى اليهود الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم فى الباطن . ثم قال تعالى : ﴿ ما هم منكم ولا منهم ﴾ أى : هؤلاء المنافقون ليسوا فى الحقيقة منكم أيها المؤمنون ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود .

ثم قال تعالى : ﴿ ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ﴾ يعنى المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا وهى اليمين الغموس ولا سيما فى مثل حالهم اللعين عياذاً بالله منه فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا جاءوا الرسول حلفوا بالله أنهم مؤمنون . وهم فى ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه وإن كان فى نفس الأمر مطابقاً ولهذا شهد الله بكذبهم فى أيمانهم وشهادتهم لذلك . ثم قال تعالى : ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ أى : أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة وهى موالاة الكافرين ونصحهم ومعاداة المؤمنين وغشهم ولهذا قال تعالى : ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ﴾ أى : أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر واتقوا بالأيمان الكاذبة فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم فحصل بهذا صد عن

(١) سورة المائدة الآيات : ٥٩ — ٦٦
(٢) سورة النساء الآية : ١٤٣

سبيل الله لبعض الناس ﴿ **فلهم عذاب مهين** ﴾ أي : في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحانثة . ثم قال تعالى : ﴿ **لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً** ﴾ أي : لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم . ﴿ **أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً** ﴾ أي : يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحداً ﴿ **فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء** ﴾ أي : يحلفون بالله ــ عز وجل ــ أنهم كانوا على الهدى والاستقامة كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس ، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ولهذا قال : ﴿ **ويحسبون أنهم على شيء** ﴾ أي : حلفهم ذلك لربهم ــ عز وجل ــ ثم قال تعالى منكراً عليهم حسبانهم : ﴿ **ألا إنهم هم الكاذبون** ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب . وقال ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال : أن النبي ــ ﷺ ــ كان في ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل قال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان ، فإذا أتاكم فلا تكلموه » فجاء رجل أزرق فدعاه رسول الله ــ ﷺ ــ فكلمه فقال : « علام تشتمني أنت وفلان وفلان » نفر دعاهم بأسمائهم . قال فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له . واعتذروا إليه قال فأنزل الله عز وجل : ﴿ **فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون** ﴾[1] .

وحال هؤلاء كما أخبر الله ــ تعالى ــ عن المشركين في قوله : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون . ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون** ﴾[2] .. ثم قال تعالى : ﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله** ﴾ أي : استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله ــ عز وجل ــ وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه ، ولهذا قال أبو داود بسنده عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية »[3] . قال زائدة : قال السائب : يعني الصلاة في الجماعة .. ثم قال تعالى : ﴿ **أولئك حزب الشيطان** ﴾ يعني الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . ثم قال تعالى : ﴿ **ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ .

---

(١) مسند أحمد ١ / ٢٤٠ ، ٢٦٧ ، ٣٥٠ .
(٢) سورة الأنعام الآيات : ٢٢ ــ ٢٤ .
(٣) سنن أبي داود ــ كتاب الصلاة ــ باب في التشديد في ترك الجماعة ١ / ٣٧١ رقم ٥٤٧ .

ثم يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله يعني الذين هم في حد والشرع في حد أي مجانبون للحق مشاقون له هم في ناحية والهدى في ناحية : ﴿ أولئك في الأذلين ﴾ أي : في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب الأذلين في الدنيا والآخرة .

النفاق والمنافقون

إن المؤمنين في العهد المكي كانوا مبتلين ، يعذبون ويضطهدون ومع ذلك صبروا واحتسبوا فلم يكن في مكة حينئذ إلا فريقان : فريق المؤمنين الصابرين ، وفريق الكفار والمشركين الجبابرة و لم يكن هناك منافقون ، لأن النفاق طبيعة المراوغة والاحتيال وهذا الدين لم يكن يقدر عليه في مكة إلا المؤمنون الصادقون أما في المدينة ، وبعد قيام دولة المسلمين وهيمنة حكم الله وشرعه فقد وجد المنافقون وهذا أمر معهود من أصحاب النفوس الضعيفة الجبانة ، التي تخاف السلطة الإسلامية فتظهر لها الإسلام ، وتحب الكفر وأهله ولكنها لا تجرؤ على المصارحة به .

والمنافقون : قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل ، وابطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله ، فهم في الدرك الأسفل من النار كما قال تعالى : ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾ ١٤٥ النساء .

فالكافرون المجاهرون أخف منهم ، وهم فوقهم في درجات النار ، لأن الطائفتين اشتركا في الكفر ومعاداة الله ورسله ، وزاد عليهم المنافقون بالكذب والنفاق . وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين ولهذا قال تعالى في حقهم : ﴿ هم العدو فاحذرهم ﴾ ٤ المنافقون .

ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر . أي : لا عدو إلا هم ، ولكن لم يرد هنا حصر العداوة فيهم ، وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم ، بل هنا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف ، وأنه لا يتوهم بانتسابهم للمسلمين ظاهرا ، وموالاتهم له ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار ، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها .

فإن ضرر هؤلاء المخالطين المعاشرين لهم — وهم في الباطن على خلاف دينهم — أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم . لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر ، أما هؤلاء فمعهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً ، يدلون العدو على عوراتهم ، ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم .. صحبتهم توجب العار والشنار ، ومودتهم تحل غضب الجبار ، وتوجب دخول النار .

« من علقت به كلاليب كلبهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان ، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالاً ، ويمشى على عقبه القهقرى إدباراً منه وهو يحسب ذلك إقبالاً » .

وكان من نعمة الله ــ سبحانه وتعالى ــ على هذه الأمة أن لا يتركها مختلطة بغير تمييز بين المؤمن والمنافق ، ذلك أن عدم التمييز يؤدى إلى ضياع القدوة الحسنة فى المجتمع الإسلامى ، ويؤدى أيضاً إلى ذوبان الصورة الصادقة للمسلم الصادق .

« وفى المنتسبين للإسلام أناس « نفعيون » لا هم لهم إلا الحصول على المال أو أى مأرب من مآربهم الدنيئة ، فإذا انتصر المؤمنون كانوا معهم ، وإذا أصيبوا كانوا عليهم ، ثم إن منهم أصحاب الأهداف الخبيثة والأغراض الهدامة ممن قد امتلأت قلوبهم بالحقد والحسد ، فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر ، ويتظاهرون لهم بأنهم معهم ، ولكنهم يخونونهم فى أحرج المواقف » .

ولما كان الأمر كذلك ميز الله الصادق من الكاذب عن طريق الإبتلاء والإمتحان قال تعالى : ﴿ الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ ١ ــ ٣ العنكبوت ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ ١٤٠ ــ ١٤١ آل عمران ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ ١٧٩ آل عمران .

أجل : إنه لابد من التمييز بين الخبيث والطيب ، فالإبتلاء سنة ربانية عبوديتهم على السراء والضراء ، وفى حال العافية والبلاء ، فلله سبحانه على العباد فى كلتا الحالين عبودية بمقتضى الحال .. لا تحصل إلا بها ، ولا يستقيم القلب بدونها ، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد ، والجوع والعطش ، والتعب والنصب ، فتلك المحن والبلايا شرط فى حصول الكمال الإنسانى والاستقامة المطلوبة منه .

والحديث عن المنافقين طويل طويل والحديث هنا عن أبرز أفعال وصفات المنافقين فى كيدهم للدعوة الإسلامية .

(١) من أخطر ما ارتكبه المنافقون : موالاة اليهود والنصارى ضد المسلمين وقد فضحهم القرآن فى

عدة مواضع ومنها سورة الحشر ، قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ ١١ ــ ١٢ الحشر

. وقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ﴾ ١٤ المجادلة

ذكر السدى ومقاتل : أنها نزلت فى عبد الله بن أبىّ وعبد الله بن نبتل المنافقين : فقد كان أحدهما يجالس النبى ــ ﷺ ــ ثم يرفع حديثه إلى اليهود . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً ﴾ ١٤٣ النساء

ولقد نزلت سورة كاملة فيهم هى سورة « المنافقون » بيّن الله فيها أنهم يظهرون مالا يبطنون ، وأنهم يحرضون على إضعاف صف المسلمين .

﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ ٧ المنافقون .

وفيها أيضاً :

﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ . ٨ المنافقون .

روى البخارى ومسلم فى سبب نزولها عن جابر بن عبد الله ــ رضى الله عنهما ــ قال : « كنا غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصارى : ياللأنصار ، وقال المهاجرى : ياللمهاجرين ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ قالوا يارسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال : « دعوها فإنها منتنة » فسمعها عبد الله بن أبىّ فقال : قد فعلوها ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق : قال ــ ﷺ ــ « دعه . لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه »(1) .

(1) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب البر والصلة ــ باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما رقم ١٦٦٩

قال محمد بن إسحق عن عاصم بن عمرو بن قتادة : أن عبد الله بن عبد الله بن أبيّ لما بلغه ما كان عن أبيه أتى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : يا رسول الله : إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبيّ فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالديه منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبيّ يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا »[1] .

وذكر عكرمة وغيره : أن الناس قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبيّ على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبيّ قال له ابنه : وراءك ، فقال : مالك ويلك ! قال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن رسول الله ــ ﷺ ــ وكان إنما يسير ساقة ــ « من صفته ــ ﷺ ــ أنه يسوق أصحابه أى يقدمهم ويمشى خلفهم تواضعاً ولا يدع أحداً يمشى خلفه » فشكى له عبد الله بن أبيّ ابنه ، فقال الابن : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له ، فأذن له رسول الله ــ ﷺ ــ قال : أما إذا أذن لك رسول الله ــ ﷺ ــ فجز الآن[2] .

وحقاً إنها صورة رائعة لصدق الإيمان أن يقول الإبن لرسول الله : إن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه . إنه ما حمل هذا الإبن على هذا الفعل إلا قوة الإيمان وعمق الولاء والبراء فى نفسه .

(٣) من أقبح سفاهتهم : رفض التحاكم إلى شريعة الله ، والتحاكم إلى الطواغيت التى تحقق رغباتهم ، قال تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً . أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ . ٦٠ ــ ٦٣ النساء

ورفضهم لحاكمية الله رفض للإيمان كما قال تعالى :

---

(١) تفسير الطبرى ٢٨ / ٧٦ سورة المنافقون آية ٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ــ طبعة الشعب ــ سورة المنافقون آية ٨ ، ٨ / ١٥٩

﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين .
وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين .
أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴾ ٤٨ ــ ٥٠ النور

ثم يضع الله ميزاناً دقيقاً فى هذه القضية بين المؤمن والمنافق . فأما المؤمن الصادق فإنه ينقاد إلى حكم الله ويرضى به ويقول : سمعت وأطعت ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ ٥١ النور

هذه هي صفة المؤمن ، أما المنافق فصفته الإعراض والاستكبار عن حكم الله .

(٣) من صفاتهم وأعمالهم الدنية : التخذيل فى صف المسلمين ، والتجسس للكفار وكشف عورات المسلمين لهم . قال الله عنهم :

﴿ الذين قالوا لأخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ . ١٦٨ آل عمران .

ولقد أصيب المسلمون فى غزوة أحد بالدهشة حيث رجع ثلث الجيش بزعامة ابن أبي . وكذلك قعودهم عن غزوة تبوك وغيرها .

وفى موالاتهم للكفار يقول الله فى شأنهم :

﴿ أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ ١٣٨ ــ ١٣٩ النساء .

وأخبرنا سبحانه أنهم هم :

﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ، فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ . ١٤١ النساء .

ولقد فضحتهم سورة التوبة خاصة فقد ورد فيها قوله تعالى : ﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله

واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴾ . ٤٥ ــ ٥٠ التوبة .

ففي هذه الآيات بيان من الله للمؤمنين أن هؤلاء المنافقين لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً لأنهم جبناء ، مخذلون ، ولأسرعوا بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة . وقال الله فيهم أيضاً :

﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين . رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ ٨٦ ــ ٨٧ التوبة .

ولهم مواقف أخرى كثيرة . ولكنه سبحانه وتعالى حذر المؤمنين منهم وبين لرسوله ﷺ ــ أنه سبحانه وتعالى لو شاء لأراهم لرسول الله عياناً ولكنهم يعرفون بلحن القول ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾ ٣٠ محمد .

حزب الله

قال الله تعالى :

كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

معانى المفردات

كتب الله : أى قضى وحكم ، لأغلبن : أى بالحجة والسيف ، وأيدهم : أى قواهم ، بروح منه : أى بنور يقذفه فى قلب من يشاء من عباده ، تحصل له الطمأنينة والسكينة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد ما حكم الله تعالى على المنافقين بالخسران وحكم على الذين يحادون الله ورسوله بأنهم فى الأذلين ، قضى قضاء لا يتغير بأن الغلبة والنصر له سبحانه ولرسله الكرام وأن الذلة لأعدائه ثم ذكر أن الإيمان الحق لا يجتمع مع موالاة أعدائه مهما قرب بهم النسب بأن كانوا آباء أو أبناء أو إخوانا أو من ذى العشيرة ، لأن المحادين كتبت عليهم الذلة ، وأولئك كتبت لهم العزة ، وقواهم ربهم بالطمأنينة والثبات على الإيمان ، وهم جند الله وناصرو دينه ، وحزب الله مفلح لا محالة وقد كتبت له السعادة فى الدارين ، كما قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[1] .

أضواء كاشفة

إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وما سبب ذلك ؟ الجواب : **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى** أى قدر وأراد إرادة مؤكدة كأنه أقسم عليها ، ولذا جاء الجواب باللام المؤكدة فى قوله : **لأغلبن أنا ورسلى** ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾[2] ولا غرابة إن ربك لقوى قادر عزيز غالب . لا تجد قوماً يؤمنون بالله ورسوله حقاً إيماناً كاملاً ، يوادون من حاد الله ورسوله بقلوبهم مخلصين ، والغرض من هذا الأسلوب بيان أنه لا ينبغى أن يجتمع فى قلب واحد إيمان كامل مع موادة الكفار ، وحقه أن يمتنع ، ولا يوجد بحال ، وهذا مبالغة فى النهى عنه والزجر عن سلوك طريقه ، والنهى عنه الإخلاص القلبى للكافر ، ولو كان أباً أو إبناً أو أخاً أو من العشيرة ، وقد كان الصحابة لا يفضلون على حب الله ورسوله شيئاً بل بعضهم قتل وصفع وأهان بعض أقاربه فى سبيل الله ، أولئك الممتثلون أمر الله ، الذين يجدون حلاوة الإيمان فى حب الله ورسوله . وهم بالطبع لا يوادون أعداء الله وأعداء الإسلام والقرآن ، أولئك كتب الله فى قلوبهم الإيمان وثبته ، وأيدهم بروح من عنده ، وأنار قلوبهم للحق فاعتنقوه ،

(١) سورة محمد الآية : ٧
(٢) سورة الصافات الآيات : ١٧١ — ١٧٣

وسيدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الرحمن المخصوصون بالقرآن ، ألا إن حزب الله هم المفلحون وحدهم ، وأى فلاح بعد ذلك ؟ ! !

التفسير

قوله تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ أى : قد حكم وكتب فى كتابه الأول وقدره الذى لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، وأن العاقبة للمتقين ، كما قال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾[1] وقال هنا : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ أى : كتب القوى العزيز أنه الغالب لأعدائه وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ أى لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين . كما قال تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه ﴾[2] . الآية . وقال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[3] .

وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ إلى آخرها ، فى أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر ولهذا قال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — حين جعل الأمر شورى بعده فى أولئك الستة — رضى الله عنهم — ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته . وقيل فى قوله تعالى : ﴿ ولو كانوا آباءهم ﴾ نزلت فى أبى عبيدة قتل أباه يوم بدر ﴿ أو أبناءهم ﴾ فى الصديق هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ﴿ أو إخوانهم ﴾ فى مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿ أو عشيرتهم ﴾ فى عمر قتل قريباً له يومئذ فالله أعلم .

---

(١) سورة غافر الآيتان : ٥١ — ٥٢

(٢) سورة آل عمران الآية : ٢٨

(٣) سورة التوبة الآية : ٢٤

ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ـ ﷺ ـ المسلمين فى أسارى بدر فأشار الصديق بأن يفادوا فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنوا العم والعشيرة ولعل الله تعالى أن يهديهم وقال عمر : لا أرى ما رأى، يارسول الله ، هل تمكننى من فلان . قريب لعمر فأقتله ، وتمكن علياً من عقيل وتمكن فلاناً من فلان ليعلم الله أنه ليست فى قلوبنا موادة للمشركين .

وقوله تعالى : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ أى : من اتصف أنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه فهذا ممن كتب الله فى قلبه الإيمان أى كتب له السعادة وقررها فى قلبه وزين الإيمان فى بصيرته . قال السدى : (كتب فى قلوبهم الإيمان) جعل فى قلوبهم الإيمان . وقال ابن عباس : (وأيدهم بروح منه) أى : قواهم وقوله تعالى : ﴿ ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدينَ فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ هذا جزاؤهم عند الله فالكريم إذا وعد وفّى وأنجز إذا أوعد فهو بالخيار إن شاء عفا وإن شاء عاقب .

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

سبحانك أنت القائل : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ وأنت القائل : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾[1] .

رضاك خير من الدنيا وما فيها ... يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك ياسؤلى ويا أملى ... خير إلىّ من الدنيا وما فيها

سمع أحد الصالحين رجلاً فى مجلسه يقول : اللهم ارض عنى ، فقال له : لو رضيت عن الله لرضى الله عنك . قال الرجل : وكيف أرضى عن الله ؟ قال له : يوم تسر بالنقمة سرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله .

(١) سورة التوبة الآية ٧٢

ما مسنى قدر بكرة أو رضى إلا اهتديت به إليك طريقا
أمضى القضاء على الرضا منى به ـ إنى عرفتك فى البلاء رفيقاً

إلهى : ـ شعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا .

أنا لا أضام وفى رحابك عرق أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى
يارب حبك فى دمى وكيانى نور أغر يذوب فى وجدانى

أستحى أن أسألك وأنا أنا ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت إن كانت ذنوبى لها حد وغاية ، فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

فعلنا خطايانا وسترك مسبل وليس لشىء أنت ساتره كشف
إذا نحن لم نخطىء وتعفو تكرماً فمن غيرنا يعفو وغيرك من يعفو

يارب : ـ إن لم أكن أهلاً لبلوغ رحمتك فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى ، فأنت القائل : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾ وأنا شىء فلتسعنى رحمتك .

يا بارىء الكون فى عز وتمكين وكل أمر جرى بالكاف والنون
يا من لطفت بحال قبل تكوينى لا تجعل النار يوم الحشر تكوينى

قوله تعالى : ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ أى : هؤلاء حزب الله أى عباد الله وأهل كرامته .

وقوله تعالى : ﴿ ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم فى الدنيا والآخرة فى مقابلة ما ذكر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان . ثم قال : ﴿ ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ . وقد قال ابن أبى حاتم بسنده كتب أبو حازم الأعرج إلى الزهرى : اعلم أن الجاه جاهان ، جاه يجريه الله تعالى على أيدى أوليائه لأوليائه ، وأنهم الخامل ذكرهم ، الخفية شخوصهم ، ولقد جاءت صفتهم على لسان رسول الله ـ ﷺ ـ « إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا

حضروا لم يدعوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة ، فهؤلاء أولياء الله تعالى الذين قال الله فيهم : ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[1]

وقال نعيم بن حماد بسنده عن الحسن قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندى يداً ولا نعمة ، فإنى وجدت فيما أوحيته إلى ». ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ . قال سفيان : يرون أنها نزلت فيمن يخالط السلطان . رواه أبو أحمد العسكرى[2] .

قضية ذات أهمية بالغة

بعد الحديث عن حزب الله وحزب الشيطان ، نرى لزاماً على كل مسلم أن يقف طويلاً طويلاً أمام تلك القضية التى يجب على كل مسلم أن يعلمها ويعمل بمقتضاها ويدرك مبناها ومعناها ويقف على حقيقة مرماها ومغزاها . وهذه القضية تدور حول سؤالين : لمن يكون الولاء ؟ وممن يكون البراء ؟

وعندما نتحدث عن هذه القضية نبدأ حديثنا بقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[3]

وقوله جل شأنه : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق . يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ﴾[4] .

«اللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليك

---

(1) سنن ابن ماجه ـ كتاب الفتن ـ باب من ترجى له السلامة من الفتن ٢ /١٣٢٠ رقم ٣٩٨٩

(2) انظر تفسير ابن كثير ـ طبعة الشعب ، سورة المجادلة ، آية ٢٢ ٨ /٨٠

(3) سورة التوبة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

(4) « : الممتحنة الآيتان : ١ ، ٢

نسمى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك الجد بالكفار ملحق . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم . فلمن يكون الولاء ولمن يكون البراء ؛ وتحت هذين السؤالين تندرج بحوث كثيرة نسأل الله تعالى أن يلهمنا العمل بما نعلم كما نسأله أن يبصرنا بعيوبنا .

قال الشيخ : محمد بن سعيد بن سالم فى هذه القضية التى بين أيدينا :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتدى ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ — وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله واهتدى بهداه وسلم تسليماً كثيراً أما بعد :

فإنه من رحمة الله — سبحانه وتعالى — وعظيم لطفه بخلقه : أن جعل الرسالة المحمدية هى خاتمة الرسالات السماوية وجعلها سبحانه وتعالى كاملة صافية نقية لا يزيغ عنها إلا هالك . وكتب تبارك اسمه وتعالى جله السعادة فى الدارين لأتباع هذه الرسالة الذين قدروها حق قدرها وقاموا بها على وفق ما أراد الله وعلى هدى نبى الله - ﷺ - وسماهم أولياء الله وحزبه ، وكتب عز وجل الشقاء والذلة على من حاد عن هذه الشريعة وتنكب الصراط المستقيم سماهم أولياء الشيطان وجنده .

وأصل هذه الرسالة الخالدة : كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

هذه الكلمة العظيمة — كما يقول ابن القيم : — « التى لأجلها نصبت الموازين ووضعت الدواوين ، وقام سوق الجنة والنار ، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار والأبرار والفجار وأسست الملة ولأجلها جردت السيوف للجهاد وهى حق الله على جميع العباد » وحقيقة هذه الكلمة : « مركبة من معرفة ما جاء به الرسول — ﷺ — علماً ، والتصديق به عقداً ، والاقرار به لطقاً والانقياد له محبة وخضوعاً ، والعمل به باطناً وظاهراً وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان وكماله فى الحب فى الله والبغض فى الله والمنع فى الله وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده والطريق إليه : تجريد متابعة رسوله — ﷺ — ظاهراً وباطناً » ، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله . هذه الكلمة العظيمة بكل مفاهيمها ومقتضياتها قد غابت عن حس الناس اليوم إلا من رحم الله ، ومن هذه المفاهيم بل من أهمها موضوع : الولاء والبراء .

ولكن كان هذا المفهوم العقدى الهام قد غاب اليوم عن واقع حياة المسلمين — إلا من رحم ربك — فإن ذلك لا يغير من حقيقته الناصعة شيئاً .

ذلك أن الولاء والبراء : هما الصورة الفعلية للتطبيق الواقعي لهذه العقيدة وهو مفهوم ضخم في حس المسلم بمقدار ضخامة وعظمة هذه العقيدة .

ولن تتحقق كلمة التوحيد في الأرض إلا بتحقيق الولاء لمن يستحق الولاء والبراء ممن يستحق البراء .

ويحسب بعض الناس أن هذا المفهوم العقدي الكبير يندرج ضمن القضايا الجزئية أو الثانوية ولكن حقيقة الأمر بعكس ذلك . إنها قضية إيمان وكفر كما قال الله تعالى : —

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله . وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾[1] .

وقال جل جلاله :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾[2]

وقد قال أحد العلماء — وهو الشيخ حمد بن عتيق رحمه الله — « إنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم — أي الولاء والبراء — بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده » ولقد قادت الأمة الإسلامية قيادة البشرية دهراً طويلاً حيث نشرت هذه العقيدة الغراء في ربوع المعمورة وأخرجت الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ثم ما الذي حدث ؟

لقد تقهقرت هذه الأمة إلى الوراء بعد أن تركت الجهاد وأخذت بأذناب اللهو .

تراجعت بعد أن زهدت في الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام .

تبعت الأمم الأخرى بعد أن ركنت إلى حياة الدعة والرفاهية والبذخ والمجون

(١) سورة التوبة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

(٢) سورة المائدة الآية : ٥١

تبلبلت أفكارها بعد أن خلطت بعها الصافى بالفلسفات الجاهلية والهرطقة البشرية .

دخلت هذه الأمة فى طاعة الكافرين واطمأنت إليهم ، وطلبت صلاح دنياها بذهاب دينها فخسرت الدنيا والآخرة .

وبرزت صور موالاة الكفار فى أمور شتى منها : ــ

(١) محبة الكفار وتعظيمهم ونصرتهم على حرب أولياء الله ، وتنحية شريعة الله عن الحكم فى الأرض ورميها بالقصور والجمود وعدم مسايرة العصر ومواكبة التقدم الحضارى .

(٢) ومنها : استيراد القوانين الكافرة ــ شرقية كانت أم غربية ــ وإحلالها محل شريعة الله الغراء وغمز كل مسلم يطالب بشرع الله بـ : التعصب والرجعية والتخلف .

(٣) ومنها : التشكيك فى سنة رسول الله ــ ﷺ ــ والطعن فى دواوينها الكريمة والحط من قدر أولئك الرجال الأعلام الذين خدموا هذه السنة حتى وصلت إلينا .

(٤) قيام دعوات جاهلية جديدة تعبر ردة جديدة فى حياة المسلمين ذلك مثل دعوة القومية الطورانية والقومية العربية والقومية الهندية .. و .. و .. الخ .

(٥) إفساد المجتمعات الاسلامية عن طريق وسائل التربية والتعليم وبث سموم الغزو الفكرى فى المناهج والوسائل الإعلامية بكل أصنافها .

وأمام هذه الصورة وغيرها من الصور الكثيرة تنشأ أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابات صادقة وافية يدعمها الدليل من الكتاب والسنة والاسترشاد بآراء العلماء الأعلام ومن هذه الأسئلة : لمن ينتمى المسلم ؟ ولمن يكون ولاؤه ؟ وممن يكون براؤه ؟ ما حكم تولى الكفار ونصرتهم ؟ وما حكم الإسلام فى المذاهب الفكرية التى يروج لها المستغفلون أو الحاقدون من أبناء أمتنا وممن يتطنون بألستنا ؟

كيف ينبغى أن تكون صورة الولاء للمسلمين الذين يضطهدون اليوم وغير اليوم فى مشارق الأرض ومغاربها حيث تكالبت عليهم قوى الشر والكفر ؟

ما هو طريق الخلاص بعدما تقبل المسلمون لباس العبودية العقلية الذى خلعته عليهم المدنية الأجنبية ؟
يستثير هذه الأسئلة وغيرها غياب المفهوم الصحيح لكلمة التوحيد وبعد ذلك عن واقع المسلمين اليوم حيث مسخت مفاهيمها حتى صار من يقر بتوحيد الربوبية فقط دون توحيد الألوهية يعتبر موحداً عند كثير من الناس .

أما كون لا إله إلا الله ولاء وبراء أما كونها توحيد ألوهية وعبادة : فهذه معان لا تخطر على أذهان الكثير — إلا من رحمه الله — ورحم الله الإمام الداعية شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب حين قال : « إن الانسان لا يستقيم له إسلام ولا وحدانية وترك الشرك إلا بعداوة المشركين كما قال تعالى فى سورة المجادلة : —

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ .

لما عرف الصحابة رضوان الله عليهم الجاهلية ، ثم عرفوا الإسلام خرجوا — نتيجة للتربية القرآنية والعناية النبوية وهم أعظم جيل عرفه تاريخ هذه الدعوة .

ترى ما سر تلك العظمة التى نقرأ عنها ونسمع وكأنها شبه أحلام نظراً للهوة السحيقة التى وصلنا إليها ؟ ذلك الجيل الذى كان الواحد منهم إذا دخل فى الإسلام خلع على عتبته كل ماضيه فى الجاهلية وانتقل نقلة بعيدة من عالم مظلم سحيق وتصور ومفاهيم كليلة وعبودية للمال والعبيد إلى حياة رحبة فسيحة وعالم يملؤه نور الله وتصور كامل شامل ، واستعلاء على كل عبودية إلا العبودية لله — عز وجل —

إن سر ذلك النجاح وتلك العظمة هو نقطة البدء التى بدأ بها رسول الله — ﷺ — وهى كلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » هذه الكلمة التى مزقت كل رابطة ، وأهدرت كل وشيجة إلا وشجة العقيدة . رابطة الحب فى الله ، رابطة المؤاخاة الإيمانية التى يتهاوى دونها كل عرق ودم وتراب وجنس ولون .

ورد فى صحيح مسلم عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال « قال رسول الله — ﷺ — » إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى . اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى «[1] .

---

(١) صحيح مسلم — كتاب البر والصلة — باب فى فضل الحب فى الله ٤ /١٩٨٨ رقم ٢٥٦٦

وعن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال النبى ـ ﷺ ـ « إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى » قالوا : يارسول الله تخبرنا من هم ؟ قال : « هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس »(١) وقرأ هذه الآية : ـ

﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(٢)

ولقد مكث رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس إلى هذه العقيدة ويمكنها فى نفوس العصبة المسلمة مما جعل آثار ذلك تنعكس فى أفعالهم الحميدة وجهادهم المستمر لنشر كلمة الله فى الأرض حين قامت دولة المصطفى فى المدينة المنورة . إن الذى يجعلنا نتحدث عن قضية الألوهية ومفهومها الصحيح الذى جاء به الإسلام هو الحاجة الماسة لشرحها اليوم وبيانها للناس . بعد أن انحرف الناس ـ إلا من رحمه الله ـ عن العقيدة الصافية التى جاء بها الرسول ـ ﷺ ـ

لقد أصبحت هذه القضية عند سواد الناس اليوم مجرد لفظة ترددها الألسنة دون وعى وتدبر لمعناها ولوازمها ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب بل تعداه إلى إيراد بعض النصوص للاستشهاد بها على ما يرون من معتقد ، دون نظر لكامل النصوص فى هذه القضية ، ودون رجوع إلى بيان ذلك فى كتب أهل العلم من كتب الحديث وشروحها وكتب التفسير وشروح جهابذة رجال الدعوة والإصلاح على مدار تاريخ هذه الأمة .

ومسخ أيضاً مفهوم العبادة الشامل الكامل للحياة الدنيا والآخرة إلى جزء يسير منها وهو الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وزكاة وحج .

أما النظام الذى تقوم عليه الحياة . أما الولاء لمن يكون ؟ والبراء ممن يكون ؟ أما الحب لمن ؟ والبغض لمن ؟ فهذه معانٍ بعيدة عن تصورهم ومجال تفكيرهم ! !

إن هذا الدين لم يكن توحيد ربوبيه فحسب . وإنما هو أيضاً توحيد ألوهية وتوحيد أسماء وصفات تليق بجلال الله وعظمته . وتأمل ـ كما يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ « وحال رسول الله ـ ﷺ ـ لما قام ينذر المشركين من الشرك ويأمرهم بضده وهو التوحيد لم يكرهوا واستحسنوا وحدثوا

(١) سنن أبى داود ـ كتاب البيوع والإجارات ـ باب فى الرهن ٣ / ٧٩٩ رقم ٣٥٢٧
(٢) سورة يونس الآيتان : ٦٢ ، ٦٣

أنفسهم بالدخول به إلى أن صرح بسب دينهم وتجهيل علمائهم فحينئذ شمروا له ولأصحابه عن ساق العداوة ، وقالوا : سفه أحلامنا وعاب ديننا وشتم آلهتنا ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لم يشتم عيسى وأمه ولا الملائكة ولا الصالحين ولكن لما ذكر أنهم لا يدعون ولا ينفعون ولا يضرون جعلوا ذلك شتماً .

فإذا عرفت هذا عرفت أن الإنسان لا يستقيم له إسلام — ولو وحد الله وترك الشرك — إلا بعداوة المشركين ، والتصريح لهم بالعداوة والبغض ، كما قال تعالى في سورة المجادلة : —

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوآدون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ .

وإذا فهمت هذا جيداً عرفت أن كثيراً من الذين يدعون الدين لا يعرفونها — أي لا إله إلا الله — وإلا فما الذي حمل المسلمين على الصبر على ذلك : العذاب والأسر والضرب والهجرة للحبشة مع أنه ﷺ — أرحم الناس لو يجد لهم رخصة لأرخص لهم » .

وما دام أن هناك من يجهل حقيقة « لا إله إلا الله » فلابد من الشرح لها والبيان لمدلولها وحقيقتها وشروطها ونواقضها ولوازمها وإليك ذلك مفصلاً .

ومن الله نستمد العون والسداد .

كلمة التوحيد « لا إله إلا الله محمد رسول الله »

ومعناها : لا معبود بحق إلا الله وبذلك تنفى الإلهية عما سوى الله وتثبتها لله وحده .

يقول شيخ الاسلام ابن تيميه — رحمه الله — : « ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه ولا تمكن محبة إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه وهذا حقيقة « لا إله إلا الله » وهي ملة إبراهيم الخليل — عليه السلام — وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم : أجمعين أما شقها الثاني « محمد رسول الله » فمعناه تجريد متابعته فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر .

ومن هنا كانت « لا إله إلا الله » ولاء وبراء نفياً وإثباتاً . ولاء لله ولدينه وكتابه وسنة نبيه وعباده الصالحين . وبراء من كل طاغوت عبد من دون الله .

﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد إستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾(١)

وفى هذا يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب : واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمناً بالله إلا بالكفر بالطاغوت والدليل هذه الآية . يعنى الآية السابقة .

وكلمة التوحيد ولاء لشرع الله .

﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون ﴾(٢) .

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها ﴾(٣)

وبراء من حكم الجاهلية : ــ

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾(٤) .

وبراء من كل دين غير دين الاسلام : ــ

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾(٥) .

ثم هى نفى وإثبات تنفى أربعة أمور . وتثبت أربعة أمور : ــ

ا تنفى : الآلهة ، والطواغيت والأنداد والأرباب .

فالآلهة : ما قصدته بشىء من جلب خير أو دفع ضر أنت متخذه إلهاً .

والطواغيت : من عبد وهو راض أو رشح للعبادة .

والأنداد : ما جذبك عن دين الإسلام من أهل أو مسكن أو عشيرة أو مال . فهو ند لقوله تعالى : ــ

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾(٦)

والأرباب : من أفتاك بمخالفة الحق وأطعته مصدقاً لقوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾(٧) .

وتثبت أربعة أمور : ــ

التعبد : وهو كونك ما تقصد إلا الله .

والتعظيم والمحبة : لقوله تعالى ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾(٨) والخوف والرجاء : لقوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٦

(٢) سورة الأعراف الآية : ٣

(٣) سورة الروم الآية : ٣٠

(٤) سورة المائدة الآية : ٥٠

(٥) سورة آل عمران الآية : ٨٥

(٦) سورة البقرة الآية : ١٦٥

(٧) سورة التوبة الآية : ٣١

(٨) سورة البقرة الآية : ١٦٥

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾(١) .

فمن عرف هذا قطع العلاقة مع غير الله ولا تكبر عليه جهامة الباطل كما أخبر تعالى عن إبراهيم — عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام — بتكسير الأصنام وتبريه من قومه : —

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾(٢)

ولقد جاء القرآن من أوله إلى آخره يبين معنى لا إله إلا الله بنفي الشرك وتوابعه ، ويقرر الإخلاص وشرائعه ، فكل قول وعمل صالح يحبه الله ويرضاه هو من مدلول كلمة الإخلاص لأن دلالتها على الدين كله إما مطابقة وإما تضمناً وإما التزاماً يقرر ذلك أن الله سماها كلمة التقوى والتقوى : — أن يتقى سخط الله وعقابه بترك الشرك والمعاصي وإخلاص العبادة لله واتباع أمره على ما شرعه . كما قال ابن مسعود — رضي الله عنه — « أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله » .

أما كيف تم لأصحاب رسول الله — ﷺ — معرفة هذه الكلمة والتزام أحكامها والعمل بمقتضياتها ولوازمها فيشرح ذلك الإمام الجليل سفيان بن عيينه : حدث محمد بن عبد الله المصيصي قال : كنا عند سفيان بن عيينه في سبعين ومائة فسأله رجل عن الإيمان ؟ فقال : قول وعمل قال : يزيد وينقص ؟ قال : يزيد ما شاء الله وينقص حتى لا يبقى منه مثل هذه وأشار سفيان بيده . قال الرجل : كيف نصنع بقوم عندنا يزعمون : أن الإيمان قول بلا عمل ؟ قال سفيان : كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الإيمان وحدوده .

إن الله — عز وجل — بعث نبينا محمداً — ﷺ — إلى الناس كلهم كافة أن يقولوا : لا إله إلا الله وأنه رسول . فلما قالوها عصموا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله — عز وجل — فلما علم الله — عز وجل — صدق ذلك من قلوبهم ، أمره أن يأمرهم بالصلاة فأمرهم ففعلوا فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم .

(١) سورة يونس الآية : ١٠٧

(٢) سورة الممتحنة الآية : ٤

فلما علم الله — جل وعلا — صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالهجرة إلى المدينة فأمرهم فهاجروا فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم فلما علم الله تبارك وتعالى صدق ذلك من قلوبهم أمرهم بالرجوع إلى مكة ليقاتلوا آباءهم وأبناءهم حتى يقولوا كقولهم ويصلوا صلاتهم ويهاجروا هجرتهم فأمرهم ففعلوا ، حتى أتى أحدهم رأس أبيه فقال : يا رسول الله : هذا رأس شيخ الكافرين ، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتالهم فلما علم الله — عز وجل — صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالطواف بالبيت تعبدا وأن يحلقوا رؤوسهم تذللاً ففعلوا فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتلهم آباءهم فلما علم الله — عز وجل — صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم بها فأمرهم ففعلوا حتى أتوه بها قليلها وكثيرها والله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتلهم آباءهم ولا طوافهم ، فلما علم الله — تبارك وتعالى — الصدق من قلوبهم فيما تابع عليهم من شرائع الإيمان وحدوده قال عز وجل : قل لهم : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾[1] قال سفيان : فمن ترك خلة من خلال الإيمان كان بها عندنا كافراً ومن تركها كسلاً أو تهاوناً بها ، أدبناه وكان بها عندنا ناقصاً . هكذا السنة أبلغها عني من سألك من الناس وقد ذكر العلماء — رحمهم الله — شروطاً سبعة لـ « لا إله إلا الله » لا تنفع صاحبها إلا باجتماع هذه الشروط فيه وإليك شرحها : —

شروط « لا إله إلا الله »

ينبغي أن تعلم أنه « ليس المراد من هذا عد ألفاظها وحفظها فكم من عامي اجتمعت فيه والتزمها ولو قيل له أعددها لم يحسن ذلك وكم حافظ لألفاظها يجرى فيها كالسهم ، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها والتوفيق بيد الله » .

وقد قال وهب بن منبه لمن سأله : أليس « لا إله إلا الله » مفتاح الجنة ؟

قال : بلى ، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك .

وأسنان هذا المفتاح هي شروط « لا إله إلا الله » الآتية : —

الشرط الأول : —

العلم بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً المنافي للجهل بذلك قال تعالى :

---

(١) سورة المائدة الآية ٣ .

﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾[1]

وقال ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾[2]

أى : بلا إله إلا الله ﴿ وهم يعلمون ﴾ بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم .

وقال تعالى : —

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[3] .

وفى الصحيح عن عثمان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة »[4] .

الشرط الثانى : —

اليقين المنافى للشك . ومعنى ذلك : أن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة ، يقيناً جازماً ، فإن الإيمان لا يغنى فيه إلا علم اليقين لا علم الظن قال تعالى :

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾[5] .

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — « أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة »[6]

وفى رواية « لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة »[7] وعن أبى هريرة أيضاً من حديث طويل « من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة »[8] وقال القرطبى : — فى « المفهم على صحيح مسلم » باب لا يكفى مجرد التلفظ بالشهادتين بل لابد من استيقان القلب وهذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف فى الإيمان وأحاديث هذا الباب تدل على فساده بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح وهو باطل قطعاً .

(١) سورة محمد الآية : ١٩
(٢) سورة الزخرف الآية : ٨٦
(٣) سورة آل عمران الآية : ١٨
(٤) صحيح مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١ / ٥٥ رقم ٤٣
(٥) سورة الحجرات الآية : ١٥
(٦) صحيح مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١ / ٥٦ رقم ٤٤
(٧) صحيح مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١ / ٥٧ رقم ٤٥
(٨) صحيح مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١ / ٥٩ رقم ٥٢

الشرط الثالث : —

القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه وقد قص الله — عز وجل — علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قبلها وانتقامه ممن ردها وأباها كما قال تعالى : —

﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[1]

وقال تعالى : —

﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننجى المؤمنين ﴾[2]

ويقول تعالى : —

﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾[3] .

الشرط الرابع : —

الانقياد لما دلت عليه ، المنافى لترك ذلك .

قال تعالى : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾[4]

وقال : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾[5]

وقال : ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾[6] .

وفى الحديث « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[7] هذا هو تمام الانقياد وغايته .

وقال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾[8]

---

(١) سورة الزخرف الآيات : ٢٣ — ٢٥

(٢) سورة يونس الآية : ١٠٣

(٣) سورة الصافات : الآيات : ٣٦ — ٣٧

(٤) سورة الزمر الآية : ٥٤

(٥) سورة النساء الآية : ١٢٥

(٦) سورة لقمان الآية : ٢٢

(٧) شرح السنة للإمام البغوى ١ / ٢١٣ رقم ١٠٤

(٨) سورة النساء الآية : ٦٥

قال ابن كثير — رحمه الله — فى تفسيرها : يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول فى جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذى يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ولهذا قال : ﴿ ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ أى : إذا حكموك يطيعونك فى بواطنهم فلا يجدون فى أنفسهم حرجاً مما حكمت به وينقادون له فى الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة كما ورد فى الحديث « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

الشرط الخامس : —

الصدق المنافى للكذب وهو أن يقولها صدقاً من قلب يواطىء قلبه لسانه قال تعالى : —

﴿ آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم . فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾[1]

وقال تعالى : —

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً . ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾[2] .

وفى الصحيحين عن معاذ بن جبل — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — [ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار][3] .

قال العلامة ابن القيم : « والتصديق بلا إله إلا الله يقتضى الإذعان والإقرار بحقوقها وهى شرائع الإسلام التى هى تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره وامتثال أوامره واجتناب نواهيه فالمصدق بها على الحقيقة هو الذى يأتى بذلك كله ومعلوم أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبالقيام بحقها وكذلك النجاة من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحقها »

---

(١) سورة العنكبوت الآيات : ١ — ٣

(٢) سورة البقرة الآيات : ٨ — ١٠

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان — باب من لقى الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار رقم ٢٠

وفى الحديث : قال — ﷺ — : [شفاعتى لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه][(١)] .

وقال ابن رجب : « أما من قال : لا إله إلا الله بلسانه ثم أطاع الشيطان وهواه فى معصية الله ومخالفته فقد كذب فعله قوله ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله فى طاعة الشيطان والهوى . ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾[(٢)]

وقال تعالى : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾[(٣)] .

الشرط السادس : —

الإخلاص وهو تصفية العمل بصالح النية من جميع شوائب الشرك قال تعالى : —
﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾[(٤)]

وقال تعالى : — ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾[(٥)] .

وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى — ﷺ — « . أسعد الناس بشفاعتى من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه »[(٦)]

وفى الصحيح عن عتبان بن مالك — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال : « إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله — عز وجل — »[(٧)] .

وللنسائى فى اليوم والليلة من حديث رجلين من الصحابة عن النبى — ﷺ — قال « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير مخلصاً بها قلبه ، يصدق بها لسانه إلا فتق الله لها السماء فتقاً حتى ينظر إلى قائلها من أهل الأرض وحق لعبد نظر الله إليه أن يعطيه سؤاله »[(٨)]

(١) مسند أحمد ٢ / ٣٠٧
(٢) سورة القصص الآية : ٥٠
(٣) سورة ص الآية : ٢٦
(٤) سورة الزمر الآية : ٣
(٥) سورة البينة الآية : ٥
(٦) صحيح البخارى — كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار ٨ / ١٤٦
(٧) صحيح البخارى — [illegible] الصلاة فى المساجد بيوت الله ١ / ١١٦
(٨) عمل اليوم والليلة للنسائى صفحة ٢٥ رقم ٢٨

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : « إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة . ولقد ضرب الله سبحانه في القرآن العظيم مثلاً واضحاً للمخلص في توحيده وللمشرك قال تعالى :

﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً ﴾[1]

ويقول الأستاذ سيد قطب ــ رحمه الله ــ في تفسيرها : « هذا مثل يضربه الله للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه وهو بينهم موزع ولكل منهم فيه توجيه ولكل منهم عليه تكليف وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق ولا يملك أن يرضى أهواءهم المتنازعة المتشاكسة . وعبد يملكه سيد واحد وهو يعلم ما يطلبه منه ويكلفه به فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح « هل يستويان » ؟ لا . لأن الذى يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه ووضوح الطريق والذى يخضع لسادة مشتركين معذب مقلقل لا يستقر على حال ، ولا يرضى واحداً منهم فضلاً عن أن يرضى الجميع . وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذى يسير على هدى من الله يستمد منه وحده ويتجه إليه وحده » .

ويقول الشيخ القاسمى ــ رحمه الله ــ : « إن القصد هو توحيد المعبود في توحيد الوجهة ودرء الفرقة كما قال تعالى :

﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾[2]

إن الاسلام لابد فيه من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة « لا إله إلا الله » فمن أسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى :

﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾

الشرط السابع : ــ

المحبة لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها وبغض ما ناقض ذلك ، قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم

(١) سورة الزمر الآية : ٢٩
(٢) سورة يوسف الآية : ٣٩

ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾(١) .

وفي الحديث : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار »(٢)

قال الشيخ حافظ الحكمي ــ رحمه الله ــ : « وعلامة حب العبد ربه : تقديم محابه إن خالفت هواه وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه وموالاة من والى الله ورسوله . ومعاداة من عاداه واتباع رسوله ــ ﷺ ــ واقتفاء أثره وقبول هداه » .

ويقول ابن القيم في النونية : ــ

شرط المحبة أن توافق من تحب   على محبته بلا عصيان
فإذا ادعيت له المحبة مع خلا   فك ما يحب فأنت ذو بهتان
أتحب أعداء الحبيب وتدعي   حباً له ما ذاك في إمكان
وكذا تعادي جاهداً أحبابه   أين المحبة يا أخا الشيطان
ليس العبادة غير توحيد المحبة   مع خضوع القلب والأركان

إلى أن يقول :

ولقد رأينا من فريق يدعي الإ   سلام شركا ظاهر التبيان
جعلوا له شركاء والوهم وسو   وهم به في الحب لا السلطان

« الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله »

« لما كان أصل الموالاة : الحب . وأصل المعاداة : البغض . وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة كالنصرة والأنس والمعاونة وكالجهاد والهجرة ونحو ذلك » فإن الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله . وأدلة ذلك كثيرة من الكتاب والسنة .

أما الكتاب فمن ذلك قوله تعالى :

(١) سورة المائدة الآية : ٥٤
(٢) صحيح البخاري ــ كتاب الإيمان ــ باب حلاوة الإيمان ١ / ١٢

﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾[١].

ويقول تعالى : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾[٢].

ويقول تباركت أسماؤه ، عن أصناف أعداء الله : ﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله﴾[٣].

ويقول تعالى : ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾[٤].

ويقول تعالى :

﴿ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾[٥].

أما الأحاديث والآثار : فكثيرة وأذكر منها : —

(١) ما رواه الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلى أن رسول الله — ﷺ — بايعه على أن « تنصح لكل مسلم وتبرأ من الكافر »[٦].

(٢) روى ابن شيبة بسنده قال : قال رسول الله — ﷺ — « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله »[٧].

(٣) روى الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رسول الله — ﷺ — قال : « أوثق عرى الإيمان الموالاة فى الله والمعاداة فى الله والحب فى الله والبغض فى الله »[٨].

(٤) أخرج ابن جرير ومحمد بن نصر المروزى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : « من أحب فى الله وأبغض فى الله ووالى فى الله وعادى فى الله فإنما تنال ولاية الله بذلك ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك وقد صارت مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدى على أهله شيئاً »

(١) سورة آل عمران الآية : ٢٨

(٢) سورة آل عمران الآيتان : ٣١ ، ٣٢

(٣) سورة النساء الآية : ٨٩

(٤) سورة المائدة الآية : ٥١

(٥) سورة المائدة الآية : ٥٤

(٦) مسند أحمد ٤ / ٣٥٧

(٧) مصنف ابن أبى شيبة — كتاب الإيمان ١١ / ٤١ رقم ١٠٤٧٠

(٨) الطبرانى الكبير ١١ / ٢١٥ رقم ١١٥٣٧

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب فى شرح قول ابن عباس هذا : قوله « ووالى فى الله » هذا بيان للازم المحبة فى الله وهو الموالاة فيه ، إشارة إلى أنه لا يكفى فى ذلك مجرد الحب بل لابدفع ذلك من الموالاة التى هى لازم الحب. وهى النصرة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين باطناً وظاهراً . وقوله « وعادى فى الله » هذا بيان للازم البغض فى الله ، وهو المعاداة فيه . أى : إظهار العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله والبراءمنهم والبعد عنهم باطناً وظاهراً إشارة إلى أنه لا يكفى مجرد بغض القلب بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه كما قال تعالى :

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾[1]

قلت : ومما سبق يتضح أن الولاء لى الله هو : محبة الله ونصرة دينه ومحبة أوليائه ونصرتهم . والبراء هو : بغض أعداء الله ومجاهدتهم وعلى ذلك جاءت تسمية الشارع الحكيم للفريق الأول بـ : (أولياء الله) والفريق الثانى بـ : (أولياء الشيطان) قال تعالى : ــ

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾[3] . واعلم أن الله سبحانه لم يبعث نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾[4] .

﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾[5] .

والواجب على المسلم أن يتكلم من دين الله ما يصير له سلاحاً يقاتل به هؤلاء الشياطين ومن ثم لا خوف ولا حزن لأن : ﴿ كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ والعامى من الموحدين يغلب الألف من علماء المشركين كما قال تعالى : ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[6] .

(١) سورة الممتحنة الآية : ٤
(٢) سورة البقرة الآية : ٢٥٧
(٣) سورة النساء الآية : ٧٦
(٤) سورة الأنعام الآية : ١١٢
(٥) سورة غافر الآية : ٨٣
(٦) سورة الصافات الآية : ١٧٣

فحزب الله هم الغالبون بالحجة واللسان كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان وإذا كانت أهداف أعداء الإسلام من ملحدين ويهود ونصارى ومستغربين وصهيونية عالمية وشيوعية عالمية هي تمييع عقيدة المسلمين وتذويب شخصيتهم المتفردة لجعلهم جنداً للشعب المختار كما تنص على ذلك بروتوكولات حكماء صهيون، فإنه يتضح لدى المسلم أهمية هذا الموضوع حتى يحذر هو ومن معه بل يحذر المسلمون عامة من الانزلاق في مهاوى الردى خاصة وإن الدعوات المشبوهة الملحدة تدعو إلى ما يسمى بالأخوة والمساواة وإن الدين لله والوطن للجميع

فدل بهذه الأدلة الواضحة من الكتاب والسنة أن الولاء والبراء من لوازم « لا إله إلا الله » وهو أيضاً تحقيق معناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ رحمه الله ـــ « أن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضى أن لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يوالى إلا لله ولا يعادى إلا لله وأن يحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله » ويوالى المؤمنين في أى مكان حلوا ويعادى الكافرين ولو كانوا أقرب قريب .

رد على من زعم أن كلمة التوحيد لفظ فقط مع بيان المذهب الصحيح في الأحاديث الواردة بخصوصها .

يقول العلامة ابن القيم ـــ رحمه الله ـــ : « ليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه : لا خالق إلا الله وأن الله رب كل شيء ومليكه كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون . بل التوحيد يتضمن من محبة الله والخضوع له والذل له وكمال الانقياد لطاعته وإخلاص العبادة له وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال والمنع والعطاء والحب والبغض ما يحول بين صاحبه وبين الأقوال والأعمال والمنع والعطاء والحب والبغض ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها ومن عرف هذا عرف قول النبي ـــ ﷺ ـــ « إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله »[1] .

وقوله : « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله »[2] .

وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث ، التي أشكلت على كثير من الناس حتى ظنها بعضهم

(1) صحيح البخاري ـــ كتاب الجمعة ـــ باب صلاة النوافل جماعة ٢ / ٧٥

(2) صحيح البخاري ـــ كتاب الإيمان ـــ باب زيادة الإيمان ونقصه ١ /١٨ وصحيح مسلم ـــ كتاب الإيمان ـــ باب أدنى أهل الجنة منزلة ١ / ١٨٢ رقم ٣٢٥

منسوخة وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرار الشرع وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار وأول بعضهم الدخول بالخلود وقال : المعنى لا يدخلها خالداً ، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهه . فإن الشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط فإن هذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الإسلام ، لأن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار .

بل لابد من قول القلب ، وقول اللسان .

وقول القلب : يتضمن من معرفتها والتصديق بها ومعرفة حقيقة ما تضمنته من النفي والإثبات ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله المختصة به التي يستحيل ثبوتها لغيره وقيام هذا المعنى بالقلب علماً ومعرفة ويقيناً وحالاً : ما يوجب تحريم قائلها على النار .

وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفه ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مد البصر فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب صاحبها ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة ولكن السر الذي ثقل بطاقة ذلك الرجل هو أنه حصل له ما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات .

وتأمل أيضاً ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية فجعل ينوء بصدره ويعالج سكرات الموت . لأن ذلك كان أمراً آخراً ، وإيماناً آخر ولذلك الحق بأهل القرية الصالحة ، وقريب من هذا ما قام بقلب البغي التي رأت ذلك الكلب وقد اشتد به العطش يأكل الثرى فقام بقلبها ذلك الوقت — مع عدم الآلة وعدم المعين وعدم من ترائيه بعملها . وملء الماء في خفها ولم تعبأ بتعرضها للتلف وحملها خفها بفيها وهو ملآن حتى أمكنها الرقي من البئر ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه ، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكوراً ، فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها »

وقد ورد في صحيح مسلم قوله — ﷺ — « من قال : لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله ، حرم ماله ودمه وحسابه على الله »[1] .

يقول محمد بن عبد الوهاب — رحمه الله — : وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من

(١) صحيح مسلم — كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ١ /٥٣ رقم ٣٧

دون الله فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه . ومن هنا نعلم فساد عقيدة المرجئة : الذين يقولون : إن الإيمان هو المعرفة فقط والكفر هو الجهل فقط وأخروا العمل عن الإيمان .

ومن المعلوم أن كفار مكة قد علموا مراد النبي ـ ﷺ ـ من كلمة لا إله إلا الله فأبوا واستكبروا ولم يكن ينفعهم إيمانهم بأن الله واحد رازق محي مميت . ولما قال لهم النبي ﷺ ـ قولوا : لا إله إلا الله قالوا :

﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ ٥ سورة ص

« فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك ، فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفار ، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب بشيء من المعاني . والحاذق من يظن أن معناها : لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا يدبر الأمر كله إلا الله ، فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله » . ويتابع الإمام محمد بن عبد الوهاب رده عليهم فيقول : وهنا شبهة ، وهي قول من يقول : أن النبي ـ ﷺ ـ أنكر على أسامة قتل من قال : « لا إله إلا الله وكذلك قوله ـ ﷺ ـ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله »[1] . وأحاديث أخرى في الكف عمن قالها .

ومراد هؤلاء الجهلة : أن من قالها لا يكفر ، ولا يقتل ولو فعل ما فعل . فيقال لهؤلاء المشركين الجهال : معلوم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون : لا إله إلا الله ، وأن أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويصلون ويدعون الإسلام ، وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب بالنار (هم الغلاة الذين ادعوا ألوهية علي ـ رضي الله عنه ـ) وهؤلاء الجهلة مقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إله إلا الله ، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها .

فكيف لا تنفعه إذا جحد فرعاً من الفروع وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أصل دين الرسل ورأسه ؟ !

ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث . فمعلوم أن الرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الإيمان ـ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله رقم ١٣

عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ﴾ ٩٤ النساء أى فتثبتوا . فدلت الآية على وجوب الكف حتى يثبت منه ، فإذا تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله تعالى : ﴿ فتبينوا ﴾ ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى ،

وأيضاً أمره — ﷺ — بقتل الخوارج ﴿ أينما لقيتموهم فاقتلوهم لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد ﴾[١] . مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً وتسبيحاً ، حتى أن الصحابة يحقرون صلاتهم عندهم . وقد تعلموا العلم من الصحابة ، فلم تنفعهم « لا إله إلا الله » ولا كثرة العبادة ولا إدعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة .

ويعلم كل ذى لب أنها لو كانت كلمة — مجرد كلمة — لكان أمرها على قريش سهلاً فنطقها وتخلص من هذا العناء وتسفيه الآلهة . ولكنها تعلم أن هذه الكلمة لها مدلولها الذى يغير أوضاع قريش الجاهلية ، ولها مقتضياتها التى تحطم طغيان قريش واستعبادها للناس . ولها أهميتها فى تحرير الناس من عبودية بعضهم لبعض إلى عبودية الواحد القهار وجعل التقوى هى الميزان والفخار الذى ينشده الناس ، وليس العادات والتقاليد الجاهلية التى توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد .

فحرى بكل مسلم جاد فى إسلامه أن يقدر لهذه الكلمة قدرها حتى يكون ممن عبد الله على بصيرة وعلم ويقين .

آثار الإقرار بلا إله إلا الله فى حياة الإنسان

ذكر الأستاذ المودودى — رحمه الله — فى كتابه القيم « مبادىء الإسلام » تسعة آثار لكلمة التوحيد أذكر ملخصها فيما يلى :

(١) إن المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيق النظر ، بخلاف من يقول بآلهة متعددة . أو من يجحده .

(٢) إن الإيمان بهذه الكلمة ينشىء فى النفس من الأنفة وعزة النفس ما لا يقوم دونه شىء ؛ لأنه لا نافع إلا الله ولا ضار إلا الله ، وهو المحيى المميت . وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة . ومن ثم ينزع من القلب كل خوف إلا منه سبحانه ، فلا يطأطىء الرأس أمام أحد من الخلق ، ولا يتضرع إليه ولا يتكفف له ، ولا يرتعب من كبريائه وعظمته . لأن الله هو العظيم القادر . وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد .

(٣) ينشأ من الإيمان بهذه الكلمة مع أنفة النفس وعزتها : تواضع من غير ذل وترفع من غير كبر ، فلا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه بقوته وكفاءته لأنه يعلم ويستيقن أن الله الذى وهبه كل ما عنده قادر على سلبه إياه إذا شاء . أما الملحد فإنه يتكبر ويبطر إذا حصلت له نعمة عاجلة .

(٤) المؤمن بهذه الكلمة : يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح . أما المشركون والكفار فإنهم يقضون حياتهم على أمانى كاذبة . فمنهم من يقول : إن ابن الله قد أصبح كفارة عن ذنوبنا ، عند أبيه ، ومنهم من يقول : نحن أبناء الله وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا . ومنهم من يقول : إننا سنستشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا . ومنهم من يقدم النذور والقرابين إلى آلهته زاعماً أنه قد نال بذلك رخصة فى العمل بما يشاء . أما الملحد الذى لا يؤمن بالله فيعتقد أنه حر فى هذه الدنيا غير مقيد بشرع الله وإنما إلهه هواه وشهوته وهو عبدهما .

(٥) قائل هذه فى الدنيا لا يتسرب إليه اليأس . ولا يقعد به القنوط ، لأنه يؤمن أن الله له خزائن السموات والأرض . ومن ثم فهو على طمأنينة وسكينة وأمن ، حتى ولو طرد وأهين وضاقت عليه سبل العيش .

إن عين الله لا تغفل عنه ولا تسلمه إلى نفسه . وهو يبذل جهده متوكلاً على الله ، بخلاف الكفار الذين يعتمدون على قواهم المحدودة ، وسرعان ما يدب له اليأس . ويساورهم القنوط عند الشدائد مما يفضى بهم أحياناً إلى الانتحار .

(٦) الإيمان بهذه الكلمة يربى الإنسان على قوة عظيمة من العزم والإقدام والصبر والثبات والتوكل حينما يضطلع بمعالى الأمور ابتغاء مرضاة الله . إنه يشعر أن وراءه قوة مالك السماء والأرض . فيكون ثباته ورسوخه وصلابته التى يستمدها من هذا التصور ، كالجبال الراسية وأنى للكفر والشرك بمثل هذه القوة والثبات ؟

(٧) هذه الكلمة تشجع الإنسان وتملأ قلبه جرأة ، لأن الذى يُجبن الإنسان ويوهن عزمه شيئان : حبه للنفس والمال والأهل ، أو اعتقاده أن هناك أحداً غير الله يميت الإنسان ، فإيمان المرء بلا إله إلا الله ينزع عن قلبه كلاً من هذين السببين . فيجعله موقناً أن الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله فعند ذلك يضحى فى سبيل مرضاة ربه بكل غال ورخيص عنده . وينزع الثانى بأن يلقى فى روعه أنه لا يقدر على سلب الحياة منه إنسان ولا حيوان ولا قنبلة ولا مدفع ، ولا سيف ولا حجر وإنما يقدر على ذلك الله وحده .

من أجل ذلك لا يكون فى الدنيا أشجع ولا أجرأ ممن يؤمن بالله تعالى . فلا يكاد يخيفه أو يثبت فى وجهه زحف الجيوش ، ولا السيوف المسلولة ، ولا مطر قهد كفر عمل . وكذلك قوله : (من

أتى كاهناً فصدقه بما يقول أو أتى امرأته في دبرها فقد برئ مما أنزل على محمد »[١] وقوله : « إذا قال الرجل لأخيه : ياكافر فقد باء بها أحدهما »[٢] .

• وقد سمى الله — سبحانه وتعالى — من عمل ببعض كتابه ، وترك العمل ببعضه مؤمناً بما عمل به وكافراً بما ترك العمل به فقال تعالى :

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾ ٨٤ — ٨٥ سورة البقرة

فأخبر سبحانه أنهم أقروا بميثاقه الذي أمرهم به والتزموه ، وهذا يدل على تصديقهم به أنهم لا يقتل بعضهم بعضاً ، ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم ، ثم أخبر أنهم عصوا أمره ، وقتل فريق منهم فريقاً وأخرجوهم من ديارهم ، فهذا كفرهم بما أخذ عليهم في الكتاب . ثم أخبر أنهم يفدون من أسر من ذلك الفريق ، وهذا إيمان منهم بما أخذ عليهم في الكتاب ، فكانوا مؤمنين بما عملوا به من الميثاق ، كافرين بما تركوه منه . « فالإيمان العملي يضاده الكفر العملي والإيمان الاعتقادي يضاده الكفر الاعتقادي .

وقد أعلن النبي — ﷺ — بما قلناه في قوله في الحديث الصحيح : سباب المسلم فسوق وقتاله كفر[٣] ففرق بين قتاله وسبابه وجعل أحدهما فسوقاً لا يكفر به والآخر كفراً ومعلوم إنما أراد الكفر العملي لا الاعتقادي وهذا الكفر لا يخرجه من الدائرة الإسلامية والملة بالكلية كما لا يخرج الزاني والسارق والشارب من الملة وإن زال عنه اسم الإيمان .

« وهذا التفصيل هو قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب الله وبالإسلام والكفر ولوازمهما فلا تتلقى هذه المسائل إلا منهم فإن المتأخرين لم يفهموا مرادهم فانقسموا فريقين : فريقاً أخرجوا من الملة بالكبائر وقضوا على أصحابها بالخلود في النار وفريقاً جعلوهم مؤمنين كامل الإيمان فهؤلاء غلوا وهؤلاء جفوا . وهدى الله أهل السنة للطريقة المثلى والقول الوسط الذي هو في المذاهب كالإسلام في الملل : فها هنا كفر دون كفر ونفاق دون نفاق وشرك دون شرك . وفسوق دون فسوق ، وظلم دون

(١) سنن أبي داود — كتاب الطب — باب في الكاهن ٤ : ٢٢٥ رقم ٣٩٠٤ والترمذي في الطهارة رقم ١٣٥ وابن ماجه في الطهارة رقم ٦٣٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان — باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر رقم ٣٩

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان — باب بيان قول النبي — ﷺ — باب المسلم فسوق وقتاله كفر رقم ٤٣

ظلم . قال سفيان بن عيينة : عن هشام بن حجير عن طاووس عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ .

الرصاصات والقنابل فإنه عندما يتقدم في سبيل الله للجهاد ، يهزم قوة تزيد على قوته بعشر مرات وأنى تمثل هذا للمشركين والكفار والملحدين ؟

(٨) الإيمان بلا إله إلا الله يرفع قدر الإنسان وينشىء فيه الترفع والقناعة والاستغناء ويطهر قلبه من أوساخ الطمع والشره والحسد والدناءة واللؤم وغيرها من الصفحات القبيحة .

(٩) وأهم شيء وأجدره في هذا الصدد : أن الإيمان بـ « لا إله إلا الله » يجعل الإنسان متقيدا بشرع الله ومحافظا عليه فإن المؤمن يعتقد بتعين أن الله خبير بكل شيء وهو أقرب إليه من حبل الوريد وأنه اذا كان يستطيع أن يفلت من بطش أى كان فإنه لا يستطيع أن يفلت من الله - عز وجل - .

وعلى قدر ما يكون هذا الإيمان راسخاً في ذهن الإنسان يكون متبعاً لأحكام الله قائماً عند حدوده لا يجرؤ على اقتراف ما حرم الله ويسارع إلى الخيرات والعمل بما أمر الله . ومن أجل ذلك جعل بلا إله إلا الله أول ركن وأهمه ليكون الإنسان مسلماً والمسلم هو : العبد المطيع المنقاد لله تعالى ولا يكون كذلك إلا إذا كان مؤمناً من قلبه بأن لا إله إلا الله . وهذا هو أصل الإسلام ومصدر قوته وكل ما عداه من معتقدات الإسلام وأحكامه إنما هي مبنية عليه ولا تستمد قوتها إلا منه والإسلام لا يبقى منه شيء لو زال هذا الأساس .

ومن فضائلها ما ذكره ابن رجب حيث أورد قول سفيان بن عيينة : ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أعظم من أن عرفهم لا إله إلا الله وأن لا إله إلا الله لأهل الجنة كالماء البارد لأهل الدنيا ولأجلها أعدت دار الثواب ودار العقاب ولأجلها أمرت الرسل بالجهاد فمن قالها عصم ماله ودمه ، ومن أباها فماله ودمه اهدر ، وهي مفتاح الجنة ومفتاح دعوة الرسل . ولو أردت أن أذكر ما أورده العلماء - رحمهم الله تعالى - حول فضلها وما في ذلك من الأحاديث النبوية وآثار السلف لطال المقام .

نواقض « لا إله إلا الله »

« حرص الإسلام على بيان حقيقته وحقيقة ما يناقضه »

سبق الكلام على مفهوم « لا إله إلا الله » وشروطها ، وحقيقتها وآثارها . وهنا أذكر نواقضها ، من أجل أن تتضح معالم الصورة الكاملة لحقيقة « لا إله إلا الله » ذلك أن معرفة الضد يميز الشيء المراد إيضاحه . كما قيل : « وبضدها تتميز الأشياء » . ومعلوم أن الكفر والشرك والنفاق والردة هي

نواقض الإسلام ، بشتى صورها ، وقبل إيراد ذلك ، لابد من أن نورد ـــ قاعدة جليلة لأهل السنة والجماعة ، بها تنضبط المسائل أصولاً وفروعاً . وسيتضح من خلال هذه القاعدة الرد على فرقة المرجئة ، الذين ميعوا وضيعوا مفهوم هذه العقيدة . والرد أيضاً على الخوارج الذين غلوا وحادوا عن الصراط ودين الإسلام وسط بين الإفراط والتفريط .

وقد كثر كلام الناس حول هذا في القديم والحديث ولكل وجهة هو موليها . بيد أني وجدت للعلامة ابن القيم كلاماً قيماً في هذا الموضوع ـــ وهي القاعدة التي أشرت إليها آنفاً . قال رحمه الله في كتاب الصلاة :

« الكفر والإيمان متقابلان ، إذا زال أحدهما خلفه الآخر . ولما كان الإيمان أصلاً له شعب متعددة ، وكل شعبة منه تسمى إيماناً : فالصلاة من الإيمان ، وكذلك الحج والزكاة والصيام ، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل ، والخشية من الله والإنابة إليه . حتى تنتهي هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق فإنه شعبة من شعب الإيمان .

وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة . ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إماطة الأذى عن الطريق . وبينهما شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً . منها ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب . ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى ويكون إليها أقرب . وكذلك الكفر ذو أصل وشعب ، فكما أن شعب الإيمان إيمان ، فشعب الكفر كفر . والحياء شعبة من الإيمان ، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر . والصدق شعبة من شعب الإيمان ، والكذب شعبة من شعب الكفر ، والصلاة والزكاة والحج والصيام من شعب الإيمان وتركها من شعب الكفر . والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان ، والحكم بغير ما أنزل الله من شعب الكفر ، والمعاصي كلها من شعب الكفر كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان . « وشعب الإيمان قسمان : قولية وفعلية ، وكذلك شعب الكفر نوعان : قولية وفعلية . ومن شعب الإيمان القولية شعب يوجب زوالها زوال الإيمان ، فكذلك من شعبه الفعلية ما يوجب زوالها زوال الإيمان . وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية . فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختياراً ـــ وهي شعبة من شعب الكفر ـــ فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه كالسجود للصنم ، والاستهانة بالمصحف ، فهذا أصل » .

« وهاهنا أصل آخر : وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل . والقول قسمان : قول القلب : وهو الاعتقاد . وقول اللسان : وهو التكلم بكلمة الإسلام .

والعمل قسمان : عمل القلب ، وهو نيته وإخلاصه ، وعمل الجوارح . فإذا زالت هذه الأربعة

زال الإيمان بكماله . وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء ، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة ، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق : فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة . فأهل السنة : مجمعون على زوال الإيمان ، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده ، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول ، بل ويقرون به سراً وجهراً ويقولون : ليس بكاذب ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به .

« وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب ، فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح ولا سيما إذا كان ملزوماً لعدم محبة القلب وانقياده ، الذى هو ملزوم لعدم التصديق الجازم كما تقدم تقريره ، فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح ، إذ لو أطاع القلب وانقاد ، أطاعت الجوارح وانقادت ، ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة ، وهو حقيقة الإيمان . فإن الإيمان ليس مجرد التصديق ، وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد . وهكذا الهدى ليس هو مجرد معرفة الحق وتبينه ، بل هو معرفته المستلزمة لاتباعه والعمل بموجبه ، وإن سمى الأول هدى فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتداء ، كما أن اعتقاد التصديق وإن سمى تصديقاً ــ فليس هو التصديق المستلزم للإيمان . فعليك بمراجعة هذا الأصل ومراعاته .

« وهاهنا أصل آخر : وهو أن الكفر نوعان : كفر عمل ، وكفر جحود وعناد . فكفر الجحود : أن يكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند الله جحوداً وعناداً ، من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه . وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه . وأما كفر العمل : فينقسم إلى ما يضاد الإيمان ، وإلى ما لا يضاده . فالسجود للصنم ، والاستهانة بالمصحف ، وقتل النبي وسبه يضاد الإيمان .

وأما الحكم بغير ما أنزل الله ، وترك الصلاة فهو من الكفر العملي قطعاً ولا يمكن أن ينفى عنه اسم الكفر بعد أن أطلقه الله ورسوله عليه . فالحاكم بغير ما أنزل الله كافر وتارك الصلاة كافر بنص رسول الله ــ ﷺ ــ ولكن هو كفر عمل لا كفر اعتقاد . ومن الممتنع أن يسمى الله ــ سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ، ويسمى رسول الله ــ ﷺ ــ تارك الصلاة كافراً ، ولا يطلق عليهما اسم الكفر . وقد نفى رسول الله ــ ﷺ ــ عن الزانى والسارق وشارب الخمر ، وعمن لا يأمن من جاره بوائقه . وإذا نفى عنه اسم الإيمان فهو كافر من جهة العمل ، وانتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد . »

« وكذلك قوله : ﴿ لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ﴾[1] فهذا : هو بهم

(١) صحيح مسلم ــ كتاب الإيمان ــ باب بيان معنى قول النبى ــ ﷺ ــ : لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ١ / ٨٢ ، رقم ١٢٠

الكفر ، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وقال في رواية أخرى عنه : كفر لا ينقل عن الملة . وقال طاووس : ليس بكفر ينقل عن الملة . وقال وكيع بن سفيان عن ابن جريج عن عطاء : كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق وهذا الذى قاله عطاء بين في القرآن لمن فهمه . فإن الله سبحانه سمى الحاكم بغير ما أنزل كافراً ، وسمى جاحد ما أنزله على رسوله كافراً . وليس الكافران على حد سواء .

﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ ٢٥٤ البقرة

وسمى متعدى حدوده في النكاح والطلاق والرجعة والخلع ظالماً فقال :

﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ ١ الطلاق

وقال نبيه يونس :

﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ ٨٧ الأنبياء

وقال صفيه آدم :

﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ ٢٣ الأعراف

وقال كليمه موسى :

﴿ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ﴾ ١٦ القصص

وليس هذا الظلم مثل ذلك الظلم .

ويسمى الكافر فاسقاً ، كما في قوله :

﴿ وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ ٢٦ ــ ٢٧ البقرة

وقال :

﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ ٩٩ البقرة

وهذا كثير في القرآن . ويسمى المؤمن فاسقاً كما في قوله تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ ٦ الحجرات

نزلت في الحكم بن أبي العاص . وليس الفاسق كالفاسق . وقال تعالى : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ﴾ ٤ النور

وقال عن إبليس :

﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ ٥٠ الكهف

وقال :

﴿ فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ﴾ ١٩٧ البقرة

وليس الفسوق كالفسوق .

والكفر كفران ، والظلم ظلمان ، والفسق فسقان ، وكذا الجهل جهلان : جهل كفر كما فى قوله تعالى :

﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ ١٩٩ الأعراف

وجهل غير كفر كقوله تعالى :

﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ ١٧ النساء

وكذلك الشرك شركان : شرك ينقل عن الملة وهو الشرك الأكبر ، وشرك لا ينقل عن الملة وهو الشرك الأصغر ، وهو شرك العمل كالرياء . قال تعالى فى الشرك الأكبر :

﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ ٧٢ المائدة

وقال :

﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ ٣١ الحج

وفى شرك الرياء :

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ ١١٠ الكهف

ومن هذا الشرك الأصغر قوله ـ ﷺ ـ : « من حلف بغير الله فقد أشرك »[١] رواه أبو داود وغيره . ومعلوم أن حلفه بغير الله لا يخرجه عن الملة ، ولا يوجب له حكم الكفار . ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » .

فانظر كيف انقسم الشرك والكفر والفسوق والظلم والجهل إلى ما هو كفر ينقل عن الملة ، وإلى ما لا ينقل عنها . وكذا النفاق نفاقان : نفاق اعتقاد ، ونفاق عمل ، فنفاق الاعتقاد : هو الذى أنكره الله على المنافقين فى القرآن وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار .

« ونفاق عمل كقوله ـ ﷺ ـ فى الحديث الصحيح : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان »[٢] . وفى الصحيح أيضاً : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن ، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا أؤتمن خان »[٣] . فهذا نفاق عمل ، قد يجتمع مع أصل الإيمان ، ولكن إذا استحكم وكمل فقد ينسلخ صاحبه عن الإسلام بالكلية ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فإن الإيمان ينهى المؤمن عن هذه الخلال . فإذا كملت فى العبد ولم يكن له ما ينهاه عن شىء منها فهذا لا يكون إلا منافقاً خالصاً .

---

(١) سنن أبى داود ـ كتاب الإيمان والنذور ـ باب فى كراهية الحلف بالآباء ٣ / ٥٧٠ رقم ٣٢٥١
وسنن الترمذى ـ كتاب النذور ـ باب كراهية الحلف بغير الله تعالى ٤ / ١١٠ رقم ١٥٣٥
(٢) مسند أحمد ٤ / ٤٠٣
(٣) صحيح مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب بيان خصال المنافق ١ / ٧٨ رقم ١٠٧

« وكلام الإمام أحمد يدل على هذا ، فإن اسماعيل بن سعيد الشالنجي قال : سألت أحمد بن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبها بجهده ، إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم ، هل يكون مصراً من كانت هذه حاله ؟ قال : هو مصر مثل قوله : ﴿ لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ﴾ ، يخرج من الإيمان ويقع في الإسلام ، ونحو قوله : « لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن »[1] ، ونحو قول ابن عباس في قوله :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ٤٤ المائدة

قال اسماعيل : فقلت له ما هذا الكفر ؟ قال : لا ينقل عن الملة ، مثل الإيمان بعضه دون بعض ، فكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه .

« وهاهنا أصل آخر : وهو أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان ، وشرك وتوحيد وتقوى وفجور ، ونفاق وإيمان . وهذا من أعظم أصول أهل السنة ، وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والقدرية .

« ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل . وقد دل عليه القرآن والسنة والفطرة وإجماع الصحابة . قال تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ ١٠٦ يوسف .

فأثبت لهم إيماناً به سبحانه مع الشرك . وقال تعالى :

﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم ﴾ ١٤ الحجرات

فأثبت لهم إسلاماً وطاعة لله ورسوله مع نفي الإيمان عنهم وهو الإيمان المطلق الذي يستحق اسمه بمطلقه ﴿ الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴾ ١٥ الحجرات .

وهؤلاء ليسوا منافقين في أصح القولين ، بل هم مسلمون بما معهم من طاعة الله ورسوله ، وليسوا مؤمنين . وإن كان معهم جزء من الإيمان أخرجهم من الكفار .

« قال الإمام أحمد : من أتى هذه الأربع أو مثلهن أو فوقهن ـــ يريد الزنا والسرقة وشرب الخمر والانتهاب ـــ فهو مسلم ولا اسميه مؤمناً ، ومن أتى دون ذلك ـــ يريد دون الكبائر ـــ سميته مؤمناً

(١) صحيح مسلم ـــ كتاب الإيمان ـــ باب نقصان الإيمان بالمعاصي ١ /٧٨ رقم ١٠٦
اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الإيمان ـــ باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي رقم ٣٦

ناقص الإيمان ، فقد دل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « فمن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة منْ النفاق » . فدل على أنه يجتمع في الرجل نفاق وإسلام . كذلك الرياء شرك ، فإذا راءى الرجل في شيء من عمله إجتمع فيه الشرك والإسلام .

« وإذا حكم بغير ما أنزل الله ، أو فعل ما سماه رسول الله ـــ ﷺ ـــ كفراً ، وهو ملتزم للإسلام وشرائعه فقد قام به كفر وإسلام .

وقد بينا أن المعاصي كلها شعب من شعب الكفر ، كما أن الطاعات كلها شعب من شعب الإيمان فالعبد تقوم به شعبة أو أكثر من شعب الإيمان ، وقد يسمى بتلك الشعبة مؤمناً ، وقد لا يسمى . كما أنه قد يسمى بشعبة من شعب الكفر كافراً ، وقد لا يطلق عليه هذا الإسلام . فهي هنا أمران : أمر إسمي لفظي ، وأمر معنوي حكمي .

فالمعنوي : هل هذه الخصلة كفر أم لا ؟ واللفظي : هل يسمى من قام به كافراً أم لا ؟

فالأمر الأول : شرعي محض ، والثاني لغوي وشرعي .

« وهاهنا أصل آخر : وهو أنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد أن يسمى مؤمناً وإن كان ما قام به إيماناً ، ولا من قيام شعبة من شعب الكفر به أن يسمى كافراً ، وإن كان ما قام به كفراً . كما أنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به أن يسمى عالماً : ولا من معرفة بعض مسائل الفقه والطب أن يسمى فقيهاً ولا طبيباً ، ولا يمنع ذلك أن تسمى شعبة الإيمان إيماناً ، وشعبة النفاق نفاقاً ، وشعبة الكفر كفراً . وقد يطلق عليه الفعل كقوله : (فمن تركها فقد كفر) و (من حلف بغير الله فقد كفر) وقوله : (من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر ، ومن حلف بغير الله فقد كفر)[1] . رواه الحاكم في صحيحه بهذا اللفظ . فمن صدر منه خلة من خلال الكفر فلا يستحق اسم كافر على الإطلاق ، ولا يلزمه اسم فاسق إلا بغلبة ذلك عليه » .

يقول الشيخ محمد بن سعيد بن سالم : ولي على هذا النص تعليق :

في النص المتقدم بعض العبارات التي قد توهم بعض الناس في قضية « الحاكمية » حيث ذكر ابن القيم أن الحكم بغير ما أنزل الله كفر دون كفر . وهنا لابد من إيضاح هذه القضية حتى يزول ما قد يحصل من إشكال .

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم ـــ كتاب الإيمان ١ / ٨ وقال الحاكم : حديث صحيح على شرطهما جميعا

إن المجتمع الإسلامي منذ قيامه على يد رسول الله ــ ﷺ ــ قد قام على الحكم بشريعة الله ، ومضى على ذلك خلفاؤه الراشدون ، ثم الخلفاء الأمويون مضوا على ذلك وإن كان بدر منهم بعض الانحرافات ، إلا أن الحكم الذى يتحاكم إليه الناس هو شرع الله ، يظلهم برايته ويرعاهم بحكمته وعدالته . ثم جاءت الدولة العباسية وكان الشرع أيضاً هو نظام الحكم مع وجود ثغرات قوية بعض الشيء . ثم جاء التتار ، وأتى « هولاكو » بالياسق .

ولما كان الأمر كذلك فإن كلام السلف ومنهم ابن القيم كلام لا غبار عليه ، فإذا حكم الحاكم برشوة أو لقرابة ، أو شفاعة أو ما أشبه ذلك فلا شك أن ذلك كفر دون كفر .

وأما ما وجد فى حياة المسلمين ــ ولأول مرة فى تاريخهم ــ وهو تنحية شريعة الله ورميها بالرجعية والتخلف وأنها لم تعد تواكب التقدم الحضارى ، والعصر المتطور فهذه بدعة جديدة على حياة المسلمين . إذ الأمر لم يقتصر على تلك الدعوى الخبيثة ، بل تعداه إلى إقصائها فعلاً عن واقع الحياة واستبدال الذى هو أدنى بها ، فحل محلها القانون الفرنسى أو الإنجليزى أو الأمريكى أو الاشتراكية الإلحادية وما أشبه ذلك من تلك النظم الجاهلة الكافرة ، على هذا الكلام أدلة كثيرة منها :

(١) ما أورده ابن القيم نفسه ــ رحمه الله ــ من قول الإمام أحمد ويحيى بن يحيى ، من ذلك أمر لا يختلف فيه .

نعم ، إنه أمر لا يختلف فيه أبداً وهو تنحية الشريعة ورميها بالقصور والنقصان وأن القانون أكمل منها ، وأليق منها فى مسايرة تطورات العصر كفر صريح .

(٢) ما أورده ابن القيم أيضاً من أن الكفر الذى هو كفر دون كفر ينطبق على الحاكم الملتزم للإسلام وشرائعه ، فهذا إذا خالف النص أو حاد عنه ، هو الذى ينطبق عليه هذا الحكم . وليس الأمر سارياً على من يحل القانون محل شرع الله .

(٣) قضية التحليل والتحريم ، والتشريع للناس ، اتفقت أقوال العلماء قديماً وحديثاً على أن ذلك من خصائص رب العالمين جل جلاله فمن ادعاه لنفسه فقد أله نفسه ونصبها نداً يعبد من دون الله .

(٤) إن إقصاء الشريعة الربانية وإحلال أهواء البشر محلها ، هذا من الأشياء التى كفّر العلماء قديماً وحديثاً فاعلها لأنها من المعلوم من الدين بالضرورة . وهل يجادل أحد فى ذلك والله يقول : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ [٥٤ الأعراف]

فكما أنه سبحانه ــ وباعتراف الناس ــ مؤمنهم وكافرهم ــ هو خالق السماء والأرض ، فهو أيضاً صاحب الأمر والسلطان ، والحكم والسيادة .

(٥) يوضح كلمة الإمام أحمد — رحمه الله — وهى قوله ﴿ حتى يجىء من ذلك أمر لا يختلف فيه ، علم من أعلام المسلمين هو الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ — رحمه الله — حيث يقول :

« إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد — « — ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين » .

(٦) ما ذكره أيضاً ابن القيم — رحمه الله — فى كتاب : « مدارج السالكين » حيث قال بعد أن أورد الأقوال فى قضية الحكم قال : « والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين : الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله فى هذه الواقعة ، وعدل عنه عصياناً مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة ، فهذا كفر أصغر . وإن اعتقد أنه غير واجب ، وأنه مخير فيه ، مع تيقنه أنه حكم الله . فهذا كفر أكبر ، وإن جهله وأخطأ : فهذا مخطىء له حكم المخطئين » .

(٧) ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — فى كتاب « منهاج السنة » حيث قال : « ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر . فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر . فإنه ما من أمة إلا وهى تأمر بالحكم بالعدل ، وقد يكون العدل فى دينها ما رآه أكابرهم ، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التى لم ينزلها الله ، كسواليف البادية وكانوا الأمراء المطاعين ، ويرون أن هذا هو الذى ينبغى الحكم به دون الكتاب والسنة ، وهذا هو الكفر . فإن كثيراً من الناس أسلموا ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التى يأمر بها المطاعون ، فهؤلاء عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله ، فلم يلتزموا ذلك ، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار » .

(٨) يقول العلامة ابن القيم فى تفسير قوله تعالى :

﴿ تالله إنا كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ٩٧ — ٩٨ الشعراء

« هذه التسوية إنما كانت فى الحب والتأليه واتباع ما شرعوا ، لا فى الخلق والقدرة والربوبية ، وهى العدل الذى أخبر به عن الكفار كقوله : **﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾** الأنعام .

وأصح القولين : أن المعنى : ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، فيجعلون له عدلاً يحبونه ويقدسونه ويعبدونه ، كما يعبدون الله ويعبدونه ، ويعظمون أمره وهذه التسوية لم تكن منهم فى الأفعال والصفات ، بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه فى أفعاله وصفاته ، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها فى محبته والعبودية والتعظيم مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها ، فتصحيح هذه : هو تصحيح شهادة « أن لا إله إلا الله » .

وأن مما يزيد يصاح الحقيقة فى أمر إحلال القانون والهوى محل الشرع ، ما ذكره العلماء من أن كفر الاعتقاد ينقسم إلى خمسة أنوع هى .

(١) كفر تكذيب : وهو اعتقاد كذب الرسل . وهذا القسم قليل فى الكفار . فإن الله تعالى أيد رسله ، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة وأزال به المعذرة . قال تعالى عن فرعون وقومه :

﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً ﴾ ١٤ النمل

وقال لرسوله — ﷺ — :

﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ ٣٣ الأنعام

(٢) كفر إباء واستكبار : مثل كفر إبليس : ومن هذا كفر من عرف الرسول ولم ينقد له إباء واستكباراً وهو الغالب على كفر أعداء الرسل كما قال تعالى عن فرعون وقومه :

﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾ ٤٧ المؤمنون

ومنه كفر أبى طالب فإنه صدقه ولم يشك فى صدقه ولكن أخذته الحمية ، وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم .

(٣) كفر إعراض : مثل من يعرض عن الرسول — ﷺ — لا يسمعه ، ولا يصدقه ، ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغى إلى ما جاء به البتة . كما قال أحد بنى عبد ياليل للنبى — ﷺ — :

« والله ما أقول لك كلمة : إن كنت صادقاً فأنت أجل فى عينى من أن أرد عليك وإن كنت كاذباً فأنت أحقر من أن أكلمك » .

(٤) كفر الشك : حيث لا يجزم بصدقه ، ولا يكذبه ، بل يشك فى أمره . وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر فى آيات صدق الرسول — ﷺ — جملة . وأما مع التفاته إليها ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك لأنها مستلزمة للصدق .

(٥) كفر نفاق : وهو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوى بقلبه التكذيب وهذا هو النفاق الأكبر .

وبعد أن وضحنا الكفر بنوعيه — نعوذ بالله منه — ننتقل إلى تبيان الشرك — نعوذ بالله منه ، وهو كما قال ابن القيم ينقسم إلى أكبر مخرج من الملة ، وإلى أصغر وهو الرياء . أما الشرك الأكبر فدليله قوله تعالى :

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ١١٦ النساء

وهو أربعة أنواع كما ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهى :

(١) شرك الدعوة : قال تعالى :

﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾
٦٥ العنكبوت

(٢) شرك النية والإرادة والقصد : قال تعالى :

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ ١٥ — ١٦ هود

(٣) شرك الطاعة : قال تعالى :

﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ ٣١ التوبة

وفي الحديث : عن عدي بن حاتم حين سمع النبي — ﷺ — يقرأ هذه الآية : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ؟ فقال : « بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم »[1] . قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسيرها : إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .

(٤) شرك المحبة : قال تعالى :

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ ١٦٥ البقرة

وأما النفاق : فمنه ما هو مخرج من الملة ، وهذا هو النفاق الأكبر وفيه يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « والنفاق منه ما هو أكبر ، يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار . كنفاق عبد الله بن أبي وغيره ، بأن يظهر تكذيب الرسول ، أو جحود بعض ما جاء به . أو بغضه ، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه ، أو المسرة بانخفاض دينه ، ونحو ذلك مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ورسوله » .

وأما الردة : فهي الكفر بعد الإيمان ، فمن (قال الكفر أو فعله أو رضي به مختاراً للكفر ، وإن كان مع ذلك يبغض بقلبه ، وبهذا قال علماء السنة والحديث ، وذكروا ذلك في كتبهم فقالوا : إن المرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه إما نطقاً وإما فعلاً ، وإما اعتقاداً . وقرروا أن من قال الكفر كفر وإن لم يعتقده ولم يعمل به إذا لم يكن مكرهاً .

وكذلك إذا فعل الكفر كفر وإن لم يعتقده ولا نطق به ، وكذلك إذا شرح بالكفر صدره أي فتحه ووسعه وإن لم ينطق بذلك ولم يعمل به

ومن باب التفصيل والتوضيح وذكر التفصيل بعد الإجمال : إليك نواقض الإسلام العشرة كما قررها أهل العلم .

(١) انظر تفسير ابن كثير — طبعة الشعب — آية ٣١ من سورة براءة ٤ / ٧٦

نواقض الإسلام

ذكر أهل العلم أن هناك عشرة نواقض هامة هي :

(١) الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له ، قال تعالى :

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ١١٦ النساء

(٢) من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة . كفر إجماعاً .

(٣) من لم يكفر المشركين ، أوشكّ في كفرهم ، أو صحح مذهبهم . كفر إجماعاً .

(٤) من اعتقد أن غير هدى النبي ـ ﷺ ـ أكمل من هديه ، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه ، كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر .

(٥) من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ ولو عمل به كفر إجماعاً . والدليل قوله تعالى :

﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾ ٩ محمد

(٦) من استهزأ بشيء من دين الله ، أو ثوابه أو عقابه . كفر والدليل قوله تعالى :

﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ ٦٥ ـ ٦٦ التوبة

(٧) السحر ، ومنه الصرف ، والعطف فمن فعله أو رضى به كفر والدليل قوله تعالى :

﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ ١٠٢ البقرة

(٨) مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين والدليل قوله تعالى :

﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ٥١ المائدة

(٩) من اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباع النبي ـ ﷺ ـ وأنه يسعه الخروج من شريعته كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى ـ عليهما السلام ـ

(١٠) الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ، ولا يعمل به ، والدليل قوله تعالى :

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ﴾ السجدة ٢٢

ولا فرق في جميع النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره ، وكلها من أعظم ما يكون خطراً ، ومن أكثر ما يكون وقوعاً ، فينبغي للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه .

ويجدر بنا ونحن نستعرض هذه النواقض أن نقف عند اثنين منها ، نظراً لأهميتها وخطورتهما على حياة المسلمين وليتضح سبب الإسهاب في قضية الحاكمية وعلاقة الولاء والبراء بذلك .

الأول : (من اعتقد أن غير هدى النبي ـ ﷺ ـ أكمل من هديه ، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر) .

إن تنحية شريعة الله عن مجرى الحياة ، واستيراد قوانين البشر القاصرة : ردة جديدة برزت في القرون الأخيرة من حياة المسلمين . ذلك أن المجتمع الإسلامي عاش قروناً طوالاً يستظل بشرع الله وتهيمن الشريعة على حياة أفراده حكاماً ومحكومين — مع وجود بعض المعاصي سواء كانت كبائر أم صغائر — ولكن نظام حياة الناس ، والتشريع المنفذ في أمورهم هو شرع الله وحكمه . وكذلك جهاد الكفار ونشر كلمة الإسلام في الأرض كانت كل هذه الأمور في ازدياد وتوسع . أما رمي الشريعة الإسلامية بالقصور والرجعية وعدم مسايرة تطورات العصر ، فهذا شيء لم يحدث إلا بعد أن مكن المسلمون الاستعمار العالمي من ذلك وبعد أن نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

ولقد جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بنصوص كثيرة صريحة واضحة حول قضية الحكم وأنها من عقيدة المسلم ، ومن أهم أمور الدين قال تعالى :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ٤٤ المائدة .

﴿ ولم لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ ٤٥ المائدة

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ ٤٧ المائدة .

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ ٥٠ المائدة

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ ٦٥ النساء

﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ ٢١ الشورى

وقال تعالى :

﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله . بل أولئك هم الظالمون . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ ٤٧ — ٥١ النور

ويقول سبحانه :

﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ ١١٥ النساء

ثم بين سبحانه زيف زعم من يدعي الإيمان ويريد التحاكم إلى الطاغوت فيقول :

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا

﴿إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً﴾ ٦٠ — ٦١ النساء

ولقد أحسن أحد العلماء فى وصف من طمست بصيرته فاستبدل بالشريعة القانون حيث قال: إن مثل هذا مثل «الجعل يتأذى من رائحة المسك والورد الفواح، ويحيا بالعذرة والغائط فى المستراح». ولقد قال تعالى:

﴿إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين﴾ ٢٠ المجادلة.

ومن أعظم المحادة لله ورسوله التولى عن حكم الله وشرعه وسنة نبيه — ﷺ — وما هذه الذلة التى يعيشها المسلمون اليوم فى الأرض إلا نتيجة طبيعية لترك شرع الله. فهاهم أولاء اليوم كثير ولكنهم غثاء كغثاء السيل. طمعت فيهم أحقر الأمم وسيطرت عليهم أراذل الناس، ولقد صدقت فيهم نبوءة محمد — ﷺ — حين قال:

«يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» فقال قائل: أو من قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن» فقال قائل: يارسول الله: وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»(١).

وإن جزءاً كبيراً من هذا الانحراف الذى سيطر اليوم على حياة المسلمين يتحمله الذين يتزيون بزى العلماء ويحسنون للناس أن يستبدلوا بشرع الله أهواء البشر، إن هؤلاء ليحملون أوزارهم كاملة ومن أوزار الذين يضلونهم إلى يوم القيامة والإسلام برىء من هؤلاء. ويرحم الله علماء السلف الذين كانوا حماة على ثغور الإسلام حتى لا يؤتى الإسلام من قبل أحدهم.

فهذ الإمام الجليل الحافظ ابن كثير — رحمه الله — يذكر فى كتابه «تفسير القرآن العظيم» ما حل بالأمة الإسلامية أيام التتار، وذلك عند قوله تعالى:

﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ ٥٠ المائدة

قال: ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهى عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان، الذى وضع لهم (الياسق) وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية،

(١) سنن أبى داود — كتاب الملاحم — باب فى تداعى الأمم على الإسلام ٤ / ٤٨٣ رقم ٤٢٩٧

وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً ، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله — ﷺ — ، ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله ، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، بلا يحكم سواه في قليل ولا كثير) .

(١) إذا جحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله . وهو معنى ما روى عن ابن عباس ، واختاره ابن جرير ، وجحود ما أنزل الله من الحكم الشرعي لا نزاع فيه بين أهل العلم ، فإن الأصول المقررة المتفق عليها بينهم ، أن من جحد أصلاً من أصول الدين أو فرعاً مجمعاً عليه ، أو أنكر حرفاً مما جاء به الرسول — ﷺ — قطعياً فإنه كافر كفراً ينقل عن الملة .

(٢) إن لم يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أن حكم الله ورسوله حق ، ولكنه اعتقد أن حكم غير الرسول — ﷺ — أحسن من حكمه ، وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس وما استجد لهم من حوادث نشأت عن تطور الزمان ، وتغير الأحوال فهذ أيضاً لا ريب في كفره لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي زبالة الأذهان وحثالة الأفكار على حكم الحكيم الخبير . فإنه ما من قضية كائنة ما كانت إلا وحكمها في كتاب الله تعالى وسنة رسوله — ﷺ — نصاً أو ظاهراً أو استنباطاً أو غير ذلك ، علم ذلك من علمه وجهله من جهله .

(٣) أن لا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله ، لكن اعتقد أنه مثله ، فهذا كالنوعين السابقين كافر كفراً ينقل عن الملة لما في ذلك من تسوية المخلوق بالخالق .

(٤) من اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله فهو كالذى قبله .

(٥) من أعظم ذلك وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه ، ومشاقة لله ولرسوله : إيجاد المحاكم الوضعية التي مراجعها القانون الوضعي ، كالقانون الفرنسي أو الأمريكي أو البريطاني أو غيرها من مذاهب الكفار . وأي كفر فوق هذا الكفر ؟ وأي مناقضة لشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة ؟

(٦) ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادي ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم والتي يسمونها « سلومهم » يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به رغبة وإعراضاً عن حكم الله .

(أما الكفر الذي لا ينقل عن الملة . والذي ورد عن ابن عباس — رضى الله عنهما — بأنه كفر دون كفر وقوله أيضاً : « ليس بالكفر الذي تذهبون إليه » فمثل ، أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق ، واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى . وهذا وإن لم يخرجه كفره عن الملة فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر كالزنا وشرب الخمر والسرقة وغيرها فإن معصية سماها الله في كتابه كفراً أعظم من معصية لم يسمها الله كفراً) .

وإن الذى جعلنا نهب فى ذكر شئون الحاكمية وتفصيل أحكامها هو خطورتها وعظمها . فإن موالاة الحاكم بغير ما أنزل الله وإقرار تشريعه للناس من عند نفسه وتحليله وتحريمه ما لم يأذن به الله، مناقضة للشهادة بأن الله هو الإله الذى تألهه القلوب بالحب والتعظيم والطاعة والإنقياد ، ومناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله فهو المطاع فيما أمر ونهى عنه وزجر ولو فهم الناس هذا لما بقى لطاغية فى الأرض حق الوجود والتشريع . وإقرار الكفر وتنحية شرع الله المحكم .

الثانى : من الأمور التى يجب أن نتدبرها بروية ـــ من نواقض الإسلام ـــ مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين ، والدليل قوله تعالى :

﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ ٥١ المائدة

وهذا من أعظم النواقض التى وقع فيها سواد الناس اليوم فى الأرض ، وهم بعد ذلك يحسبون على الإسلام ويتسمون بأسماء إسلامية . فلقد صرنا فى عصر يستحى فيه أن يقال للكافر : يا كافر !! بل زاد الأمر حتواً بنظرة الإكبار والتعظيم والمهابة لأعداء الله ، وأصبحوا موضع القدوة والأسوة لضعاف الإيمان . ينظرون إلى أعداء الله نظرة انبهار ملؤها التمنى أن يكونوا مثلهم حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه .

مظاهرة أخذت صوراً شتى فمن الميل القلبى إلى انتحال مذاهبهم الإلحادية إلى مجاراتهم فى تشريعاتهم ، إلى كشف عورات المسلمين لهم ، إلى كل صغير وكبير فى حياتهم .

من هنا فإن إدراك حقيقة هذه العقيدة ونواقضها ، أمر كفيل بأن يجعل المسلم على بصيرة من أمره فى عقيدة الولاء والبراء ، حسب المقياس الشرعى الصحيح ، وليس حسب مقياس أهواء البشر ، إنه لا ولاء إلا لله ولرسوله ودينه والمؤمنين ، والبراء من كل متبوع أو مرغوب أو مرهوب بعاد الله ورسوله .

مفهوم الولاء والبراء
تعريفه وأهميته فى الكتاب والسنة

ـــ الولاء فى اللغة : جاء فى لسان العرب : الموالاة ـــ كما قال ابن الأعرابى : ـــ أن يتشاجرا اثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح ، ويكون له فى أحدهما هوى فيواليه أو يحابيه . ووالى فلان فلاناً إذا أحبه .

والمولى : اسم يقع على جماعة كثيرة ، فهو : الرب ، والمالك ، والسيد ، والمنعم ، والمعتق ، والناصر ، والمحب والتابع والجار ، وابن العم ، والحليف والعقيد والصهر ، والعبد والمعتق والمنعم عليه . ويلاحظ فى هذه المعانى أنها تقوم على النصرة والمحبة .

والوَلاية ــ بالفتح ــ فى النسب والنصرة والعتق . والموالاة ــ بالضم ــ من ولى القوم . قال الشافعى فى قوله ــ ﷺ ــ : « من كنت مولاه فعلى مولاه »[1] يعنى بذلك ولاء الإسلام كقوله تعالى :

﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ ١١ محمد

والموالاة ضد المعاداة ، والولى ضد العدو . قال تعالى :

﴿ يأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾ ٤٥ مريم

قال ثعلب : كل من عبد شيئاً من دون الله فقد اتخذه ولياً . وقوله تعالى :

﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾ ٢٥٧ البقرة .

وليهم فى نصرهم على عدوهم ، وإظهار دينهم على دين مخالفيهم . وقيل : وليهم أى : يتولى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم .

والوَلْى : القرب والدنو . والموالاة : المتابعة .

والتولى : يكون بمعنى الإعراض ، ويكون بمعنى الإتباع . قال تعالى :

﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ ٣٨ محمد

أى : إن تعرضوا عن الإسلام .

وقوله تعالى :

﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ٥١ المائدة

معناه : من يتبعهم وينصرهم .

وقال صاحب « المصباح المنير » : الولى : فعيل بمعنى فاعل ، من وليه إذ قام به ، ومنه قوله تعالى :

﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾ ٢٥٧ البقرة

ويكون الولى بمعنى مفعول ، فى حق المطيع ، فيقال : المؤمن ولى الله .

ووالاه موالاة وولاء : من باب « قاتل » أى تابعه .

---

(١) مسند أحمد ٤ / ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢

تعريف البراء في اللغة : قال ابن الأعرابي : برىء إذا تخلص ، وبرىء : إذا تنزه وتباعد ، وبرىء إذا أعذر وأنذر ، ومنه قوله تعالى :

﴿ براءة من الله ورسوله ﴾ ١ التوبة

أى إعذار وإنذار .

وفي حديث أبي هريرة — رضى الله عنه — لما دعاه عمر إلى العمل فأبى فقال عمر : إن يوسف قد سأل العمل ، فقال أبو هريرة : إن يوسف مني بريء وأنا منه براء . أى بريء عن مساواته في الحكم وأن أقاس به ، ولم يرد براءة الولاية والمحبة لأنه مأمور بالإيمان به ، انتهى من النهاية . والبراء والبرىء سواء .

وليلة البراء : ليلة يتبرأ القمر من الشمس ، وهي أول ليلة من الشهر .

— تعريف الولاء بالمعنى الاصطلاحي : الولاية هي النصرة والمحبة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهراً أو باطناً . قال تعالى :

﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ ٢٥٧ البقرة

فموالاة الكفار تعني التقرب إليهم وإظهار الود لهم ، بالأقوال والأفعال والنوايا .

— تعريف البراء بالمعنى الاصطلاحي : هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار .

— شرح تعريف الولاء والبراء : قال شيخ الإسلام ابن تيمية : الولاية : ضد العداوة . وأصل الولاية : المحبة والقرب ، وأصل العداوة : البغض والبعد .. والولي : القريب يقال : هذا يلي هذا : أى يقرب منه ، ومنه قوله — ﷺ — : « ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فهو لأولى رجل ذكر »[1] أى لأقرب رجل إلى الميت .

فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ، ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه ، كان المعادي لوليه معادياً له ، كما قال تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ ١ الممتحنة .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الفرائض — باب ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى

فمن عادى أولياء الله فقد عاداه ، ومن عاداه فقد حاربه ، ولهذا جاء فى الحديث : « ومن عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة »[1]

ومسمى الموالاة (لأعداء الله) : يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردة وذهاب الإسلام بالكلية ، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات . ولما عقد الله الأخوة والمحبة والموالاة والنصرة بين المؤمنين ، ونهى عن موالاة الكافرين كلهم من يهود ونصارى وملحدين ومشركين وغيرهم كان من الأصول المتفق عليها بين المسلمين : أن كل مؤمن موحد تارك لجميع المكفرات الشرعية تجب محبته وموالاته ونصرته ، وكل من كان بخلاف ذلك وجب التقرب إلى الله ببغضه ومعاداته ، وجهاده باللسان واليد بحسب القدرة والإمكان .

وحيث أن الولاء والبراء تابعان للحب والبغض ، فإن أصل الإيمان أن تحب فى الله أنبياءه وأتباعهم ، وتبغض فى الله أعداءه وأعداء رسله . وقد ورد عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قوله : « من أحب فى الله ، وأبغض فى الله ، ووالى فى الله ، وعادى فى الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك ، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدى على أهله شيئاً » . وإذا كان حبر هذه الأمة يذكر أن مؤاخاة الناس فى زمانه قد أصبحت على أمر الدنيا وأن ذلك لا يجدى على أهله شيئاً ، وهذا فى القرن الذى هو خير القرون : فجدير بالمؤمن أن يعى ويعرف من يحب ومن يبغض ، ومن يوالى ومن يعادى ثم يزن نفسه بميزان الكتاب والسنة ليرى أواقف هو فى صف الشيطان وحزبه أم فى صف عباد الرحمن وحزب الله الذين هم المفلحون ، وما عداهم فأولئك هم الذين خسروا الدنيا والآخرة ! وإذا أصبحت المؤاخاة والمحبة على أمر الدنيا — كما قال الصحابى الجليل عبد الله بن عباس — فإن تلك المحبة والمؤاخاة لا تلبث أن تزول بزوال العرض الزائل ، وحينئذ لا يكون للأمة شوكة ومنعة أمام أعدائها .

وفى عصرنا الحاضر عصر المادة والدنيا قد أصبحت محبة الناس فى الأغلب على أمر الدنيا وذلك لا يجدى على أهله شيئاً .

ولن تقوم للأمة الإسلامية قائمة إلا بالرجوع إلى الله والاجتماع على الحب فيه والبغض فيه والولاء له والبراء ممن أمرنا الله بالبراء منه وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

---

(١) صحيح البخارى — كتاب الرقاق — باب التواضع ٨ / ١٣١

أهمية هذا الموضوع فى الكتاب والسنة ونصيبه من الدراسة والتأليف

إنه من الجدير بالذكر أن هذا الموضوع — الولاء والبراء — رغم أهميته ووضوحه فى الكتاب والسنة إلا أن نصيبه من الدراسة والتأليف فى الكتب العقدية القديمة قليل جداً . وذلك راجع إلى ثلاثة أمور :

(١) إن هذا المفهوم العقدى كان من الوضوح والنصاعة عند المسلمين الأولين بمكان ؛ حيث إنهم — من خلال سيرتهم وتاريخهم الوضىء — كانوا على درجة عالية جداً من الصفاء العقيدى ، والتميز الواضح ، وقيامهم أيضاً بالجهاد فى سبيل الله . كل هذا جعل الأمر واضحاً وجلياً فى حسهم ، وأيضاً رجوعهم للكتاب والسنة فى كل شىء وهذا الأمر فيهما واضح جداً .

(٢) إن صبغة المجتمع الإسلامى الأولى ، خاصة بعد الخلافة الراشدة لم تظهر فيه مشاكل عقدية حول هذا الموضوع ، وإنما نشأت حول صفات الله — جل جلاله — وقامت الفرق المختلفة بالخوض فيها . فكان لابد أن يتصدى أهل السنة والجماعة لمعالجة ذلك الانحراف بأن يبينوا للناس أن لله صفات تليق بجلاله وعظمته . نثبتها كما جاءت فى الكتاب والسنة من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل .

من هنا ظهرت مؤلفاتهم — رحمهم الله — بالحديث فى هذا الشأن ، ولا نجد لهم ذكراً لقضية الولاء والبراء إلا فى كلمات موجزة صغيرة كقولهم : « ونحن أصحاب رسول الله — ﷺ — ولا نفرط فى حب أحد منهم ، ولا نتبرأ من أحد منهم ، ونبغض من يبغضهم ، وبغير الخير يذكرهم » .

(٣) وبعد دخول علم الكلام فى مؤلفات المسلمين العقائدية ، وتعكير صفوها بما ليس منها : لم يعد هذا الموضوع ذكر البتة : وليس هو المنفرد بهذا الإقصاء ، بل إنه تابع لإقصاء موضوع « لا إله إلا الله وما تقتضيه من توحيد الألوهية وما يضاد ذلك من نواقض الإسلام ، التى لو شغل المسلمون أنفسهم ببيانها وعرضها للناس عرضاً سليماً صحيحاً بدلاً من تحويلها إلى قضايا ذهنية تجريدية لا علاقة لها بالسلوك الواقعى ولا بمعانى الإسلام الحقيقية لكان ذلك أجدى وأنفع للناس ، وأقوم للقيام بما أراده الله منهم . ولو أن الأمة الإسلامية تقيدت بقول رسولها — ﷺ — « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك »(١) ولمضت على ذلك بالنواجذ ما طمع فيها شرق ولا غرب ، ولا تخبطت فى متاهات التبعية العمياء للإلحاد والفكر الجاهلى سواء كان شرقياً أم غربياً على حد سواء .

---

(١) سنن ابن ماجه — المقدمة ١ : ١٦ رقم ٤٣

وحين اقتصر المسلمون الأوائل على الوحيين العزيزين خرج منهم جيل فريد ليس له مثال لا سابق ولا لاحق ، جيل اعتز بانتمائه لدينه الخالص ، فقتح الدنيا ومزق ظلام الكفر والشرك وصدع باسم الله في الأرض من مشارف فرنسا غرباً إلى حدود الصين شرقاً .

ولعله من المناسب هنا أن نتحدث عن طريقة القرآن والسنة في عرض العقيدة بصفة عامة وجناية الكلام على المسلمين لنقف من خلال هذه النبذة على مدى الهوة بين صفاء النبع العقدي الرباني وبين جهالات علم الكلام .

لقد أدرك سلف هذه الأمة — رحمهم الله — أن كتاب الله العزيز هو : كتاب هداية وليس كتاب فلسفة ونظريات فارغة لا تمس الواقع . وأيقن ذلك الجيل أن الله هو خالق النفس البشرية وأنه هو العليم وحده بما يصلحها . فلما أنزل كتابه على رسوله — ﷺ — كان هو النور الهادي للنفوس وهو مصدر كل خير لها ، وهو أيضاً النذير لها من كل ما يوردها موارد الهلاك والخسران . وميزة الخطاب القرآني : أنه يخاطب « الإنسان » كوحدة متصلة فيها الروح والجسد وفيها العقل والعاطفة ، وفيها حب الخير وكره الشر :

﴿ ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾ ٧ — ١٠ الشمس .

هكذا هي الطريقة القرآنية في عرضها للعقيدة أنها : « طريقة لا تخاطب الذهن المجرد ولكنها تخاطب « الإنسان » كله ، وتخاطبه — أول ما تخاطبه — عن طريق الوجدان . ولا تمنع هذا أن تدعو عقله للمشاركة في الأمر ، ولكنها لا تخاطبه منفرداً إنما تخاطبه دائماً والوجدان مستجاش ، فيأخذ دورة في التلقي منفعلاً بالقضية ، متحركاً للإيمان بها ، لا مجرد متناجي فيها بمنطق البرهان : والقرآن حين يصنع ذلك فهو مستجيب للفطرة البشرية كما خلقها الله ، فالله الذي خلق هذه الفطرة هو الذي أنزل هذا القرآن متصلاً على ندها ، مستجيباً لها ، ومحيياً لها ، وباعثاً ومقوماً في آن . والعقل جزء من هذه الفطرة ولا شك ، وله دور في قضية الإيمان .. ولكن الله يعلم الشروط اللازمة لهذا العقل حين يتناول قضية من قضايا الحياة ، إنه يمكن أن يعمل وحده حين يكون دوره هو التعرف على سنة من سنن الكون لا مجال فيها للوجدان ، أما في قضية الإيمان فإنه لا يستقل بهذا الأمر وحده ، بل تشاركه العاطفة والوجدان » .

وإذا تصفحنا التاريخ الإسلامي لنبحث عن تاريخ الإنحراف في الدرسات العقدية لوجدنا أن ذلك

قد وقع فى العهد الأموى بشكل بسيط ، ولكنه بلغ قمته فى العهد العباسى إبان ترجمة العلوم الهندية والبونانية والفارسية إلى اللغة العربية .

فبعد أن اتسعت الفتوحات وامتدت رقعة الدولة الإسلامية ودخل فى الإسلام ناس أظهروا الإسلام وأبطنوا النفاق والزندقة حصل خلط فى المترجمات ، فلم يفرق بين الغث والسمين من تلك العلوم الأجنبية . ولما أصبح شغل أكثر الناس هو الترف العقلى ، رأوا أن يستوردوا غثاء الجاهلية الإغريقية وسمى ذلك عند المخدوعين به « فلسفة » ! ! وانبهروا بهذا المستورد الدخيل وما فيه من عجمة وتعقيد ولعب بالألفاظ ودلالتها . وقادهم هذا الانبهار إلى إلباس التصور الإسلامى قناعاً غريباً عليه . غريباً عليه فى ذاته ، وغريباً عليه فى عرضه . وغريباً أيضاً على أهله . ومرد ذلك أن : (هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة ، وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة ، وبين الحقائق الإيمانية الإسلامية وتلك المحاولات الصغيرة المضطربة المفتعلة التى تتضمنها الفلسفات والمباحث اللاهوتية البشرية) .

وحرى بنا أن نسأل : ما هو سر محاولة التوفيق بين الفلسفة البشرية الجاهلة التى نمت وترعرعت فى جو وثنى كافر ، وبين المورد العذب دين الله « الإسلام » ؟

هل كان ذلك نتيجة للتقليد الأعمى والسعى وراء كل ناعق ؟

أم أنه نتيجة للقعود عن الجهاد ونشر العقيدة فى ربوع الأرض ؟

أم أن وراء ذلك كيداً من أعداء الإسلام فى محاولة تشويه صفاء هذه العقيدة وخلطها بالشوائب الغريبة عنها ؟ !

والذى يظهر والله أعلم أن هذه الأسباب مجتمعة لها دورها كل بحسب أهميته إلا أنه من خلال تتبع قصة الترجمة فى عهدها الأول يظهر : أن كيد أعداء الدين وافق هوى عند بعض المسلمين خاصة بعض الحكام فى العهد العباسى – كالمأمون مثلاً – فحدث ما حدث من ترجمة لكتب المباحث السوفسطائية اليونانية وغيرها .

ويصدق ذلك أن المأمون بعث إلى حاكم صقلية المسيحى يطلب منه أن يبادر بإرسال مكتبة صقلية الشهيرة الغنية بكتب الفلسفة . وتردد الحاكم فى إرسالها ، وجمع رجالات دولته واستشارهم حول هذا

الطلب فأشار عليه المطران الأكبر بقوله : (ارسلها إليه ، فوالله ما دخلت هذه العلوم فى أمة إلا أفسدتها) فأذعن الحاكم لمشورته وعمل بها . ثم أحضر المأمون حنين بن اسحاق — وكان فتى ناشئاً — وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب حكماء اليونان إلى العربية ، فامتثل لأمره . وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل . مما جعل حنيناً يكتب على ورق غليظ ويباعد بين الأسطر ويكتب بالحروف الكبيرة . وصدق — والله — المطران القبرصي : إن هذه الكتب ما دخلت أمة إلا أفسدتها ترى من أين جاءت محنة الإمام أحمد بن حنبل — رحمه الله — فى مسألة خلق القرآن ؟ ومن أين جاء اضطهاد علماء السنة — ومحاربتهم وظهور المبتدعة أيام المأمون وغيره ؟ ومن أين جاءت المصطلحات المبتدعة كالجوهر والعرض والواجب والممكن وغيرها ؟ إنه لم يأت كل ذلك إلا من ترجمة علم الكلام الجدلى وخلطه بالعقيدة الإسلامية ليصنع من ذلك كله ما سمى بـ « الفلسفة الإسلامية » .

وإذا علمنا : أن المترجمين كان جلهم نصارى . وقد كتبوا فى الترجمة العربية ما يعتقدونه ويدينون به . فكيف يوثق بنصرانى يعتقد التثليث وهو يترجم للمسلمين كتباً يتعلمونها ويعلمونها أبناءهم ويستفيدون منها فى مؤلفاتهم لقد صدق الشاعر حين قال :

ومن جعل الغراب له دليلاً   يمر به على جيف الكلاب

ولمزيد من إيضاح وبيان البون الشاسع بين طريقة القرآن والسنة فى عرض العقيدة وبين علم الكلام ، نذكر الأمور التالية فى المباينة بينهما ، لا من باب المقارنة ، فلا وجه للمقارنة فى الحقيقة ، إذ الأمر كما يقول الشاعر : ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل أن السيف أمضى من العصا وإنما من باب التنبيه والتذكير .

(١) فى المصدر : فمصدر العقيدة القرآنية : الله رب العالمين . أما مصدر « علم الكلام » فعقول البشر القاصرة الهزيلة .

(٢) فى المنهج والسبيل : فغاية علم الكلام : إثبات وحدانية الخالق ، وأنه لا شريك له ويظن المتكلمون أن هذا هو المراد بـ « لا إله إلا الله » .

ثم إن علم الكلام — يسعى لتحقيق « المعرفة » فى الوقت الذى نجد فيه الطريقة القرآنية تهدف إلى « الحركة » من وراء المعرفة ، فتحول تلك المعرفة إلى قوة دافعة لتحقق مدلولها فى عالم الواقع وتستجيش الضمير الإنسانى لبحقق وجوده فى الأرض حسب الخطة التى رسمها له التصور الربانى ، وحينئذ ترجع البشرية إلى ربها ، وتحيا حياة كريمة رفيعة تتفق مع الكرامة التى كتبها الله للإنسان .

ثم إن منهج القرآن يدعو إلى (عبادة الله وحده) قال تعالى :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ الأنبياء : ٢٥.

وأوصى المصطفى – ﷺ – معاذاً حين بعثه إلى اليمن : أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فإذا عرفوا ذلك دعاهم للفرائض ولم يأمره أن يدعوهم أولاً إلى « الشك » أو « النظر » كما هي طريقة المتكلمين.

والله سبحانه عندما يبعث الناس لا يسألهم عن العلوم الحسية والبدهية ، والمنطق ، والطبيعي ، والجوهر والعرض – بل يسألهم عن استجابتهم للرسل أو عدمها .

﴿ تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير . وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾

٨ – ١١ الملك

ووحدانية الخالق التي هي غاية علم الكلام : لم تنفع المشركين الذين حاربهم الرسول – ﷺ – فهم كانوا يقرون بها كما أخبر الله عنهم :

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله . قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ٢٥ لقمان

٣) قوة التأثير : الذي هو طابع العقيدة الربانية : مما يجعل لها سلطاناً قوياً على نفوس معتنقيها . بعكس الفلسفة والكلام اللذين يدلان على جهل أصحابهما كما قال أحدهم – وهو سقراط – (الشيء الذي لا أزال أعلمه جيداً هو أنني لست أعلم شيئاً) .

٤) أسلوب : فالعقيدة الربانية تخاطب الكينونة الإنسانية بأسلوبها الخاص وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع . واللمسة المباشرة والإيحاء بالحقائق الكبيرة . مع الدقة في العرض والوضوح في البيان والإعجاز في اللفظ والمعنى . مما يجعل إدراك هذه العقيدة سهلاً لكافة المستويات البشرية . وهذا كله بخلاف الفلسفة والكلام ، وبخلاف تلك المصطلحات المعقدة التي لا تزيد الشك إلا شكاً وحيرة وضلالاً .

وأسلوب المتكلمين يسير على خط واحد في كل قضية يتحدث عنها فهو لا يخرج عن قوله : (فإن قيل لنا كذا ، قلنا لهم كذا) .

أما الأسلوب القرآنى فإنه يعرض العقيدة على نمطين :

الأول : توحيد فى الإثبات والمعرفة ، أى إثبات حقيقة الرب وصفاته وأفعاله وأسمائه كما أخبر بها عن نفسه وكما أخبر رسوله الكريم ، وهذا موجود فى أول سورة الحديد ، وطه ، وآخر الحشر ، وأول السجدة ، وأول آل عمران ، وسورة الإخلاص بكاملها

الثانى : توحيد فى الطلب والقصد : وهذا ما تضمنته سورة : ﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾

﴿ **قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾

٦٤ آل عمران

وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها ، وأول سورة يونس وأوسطها وآخرها وأول سورة الأعراف وآخرها وجملة سورة الأنعام .

ويعرف الأول بأنه : توحيد علمى خبرى ، والثانى بأنه : توحيد إرادى طلبى . ونظرة واحدة فى سيرة المصطفى ـ ﷺ ـ فى عرضه هذه العقيدة وتربيته الفذة لصحابته كافية فى الدلالة على أن من سلك طريقاً غير طريق القرآن والسنة فى عرض العقيدة فقد سلك (سبلاً) لا تلتقى مع صراط الله المستقيم .

روى الأعمش عن أبى وائل عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

وقال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا : أنهم كانوا يستقرئون من النبى ـ ﷺ ـ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً .

يقول الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ : لقد كان تلقى صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ هذه العقيدة أشبه ما يكون بتلقى الجندى فى الميدان « الأمر اليومى » ليعمل به فور تلقيه ، ولذلك لم يكن أحدهم ليستكثر من واجبات وتكاليف يحملها على عاتقه ، فكان يكتفى بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء فى حديث ابن مسعود .

هكذا كان صدر هذه الأمة مقتصراً على كتاب الله وسنة رسوله فى عقيدته ولكن الانحراف الذى طرأ على المسائل العقدية فى العصور المتأخرة بسبب حركة الترجمة والانبهار بفلسفة اليونان وعلومهم. ولو كان هناك وعى وتفكير فى الأشياء المترجمة لا قتصر على ترجمة العلوم البحتة كالهندسة والكيمياء والطب وغيرها من العلوم النافعة وبشرط أن تكون صياغة ترجمتها متفقة مع عقيدة المسلمين. ولكن الخطأ الذى حصل كان ترجمة جميع العلوم ومنه « الإلهيات » عند أرسطو وأفلاطون وغيرهم.

إنه خطأ فاحش وقع فيه من وقع وإلا فما هو الدافع لاستيراد ما عند الوثنيين واستخدام أهل الكتاب فى ذلك؟

وصدق حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — حين قال محذراً: (أولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذى أنزل إليكم).

والذى حصل كما يقول الشيخ محمد الغزالى: إن صفو هذه العقيدة قد تعكر بالفكر الأجنبى الذى أقحم على الحياة الإسلامية وبضروب الجدل التى زجى بها المتبطلون أوقات فراغهم.

ولكن رحمة الله بعباده وتكفله — جل جلاله — بحفظ هذا الدين تجلت فى إيجاد علماء أعلام، فى كل عصر ومصر، قاموا بواجب الدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله، وتبصير الأمة بما شرعت عنه، وزهدت فيه

لذا حين رأى كثير من الأئمة — رحمهم الله — هذا الداء الدخيل يحل على المسلمين فى تصورهم وعقيدتهم قاموا بواجبهم الجهادى نحوه.

فهذا الإمام الجليل الشافعى — رحمه الله — يقول: « فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم فى العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام ».

ويقول أبو يوسف صاحب أبى حنيفة — رحمهما الله — « العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم ».

ثم عقب شارح الطحاوية على ذلك بقوله: « كيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير اتباع ما جاء به الرسول ».

وذكر ابن الجوزى — رحمه الله — : أن أصل الدخل فى العلم والاعتقاد : من الفلسفة وذلك أن خلقاً من العلماء فى ديننا لم يقنعوا بما قنع به رسول الله — ﷺ — من الانعكاف على الكتاب والسنة ، بل أوغلوا فى النظر فى مذاهب أهل الفلسفة وخاضوا فى الكلام الذى حملهم على مذاهب ردية أفسدوا بها العقائد .

أما شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — فيقول :

(هؤلاء أهل الكلام المخالفون للكتاب والسنة الذين ذمهم السلف والأئمة . إنهم لم يقوموا بكمال الإيمان ولا بكمال الجهاد ، بل أخذوا يناظرون أقواماً من الكفار وأهل البدع الذين هم أبعد عن السنة منهم ، بطريق لا يتم إلا برد بعض ما جاء به الرسول ، وهذا لا يقطع أولئك الكفار بالعقول . فلا آمنوا بما جاء به الرسول حق الإيمان ، ولا جاهدوا الكفار حق الجهاد . وأخذوا يقولون :

إنه لا يمكن الإيمان بالرسول ولا جهاد الكفار ، والرد على أهل الإلحاد والبدع إلا بما سلكناه من المعقولات ، وإن ما عارض هذه المعقولات من السمعيات يجب رده تكذيباً . أو تأويلاً أو تفويضاً . لأنها أصل السمعيات ، وإذا حقق الأمر عليهم وجد الأمر بالعكس) .

وكلمة أخيرة نذكرها للعبرة والعظة ، وهى كلمة لأحد أولئك الذين خاضوا فى بحر الكلام اللجى ثم خرجوا منه يطلبون النجاة . إنها كلمة أبى عبد الله محمد بن عمر الرازى حيث قال : « لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلاً ، ولا تروى غليلاً . ورأيت أقرب الطرق . طريقة القرآن .. ومن جرب مثل تجربتى ، عرف مثل معرفتى . هذا وإنه لحرى بالأمة ، بعد أن عاشت قروناً من الضياع والتخبط أن تعود إلى المشكاة الربانية كتاب الله وسنة رسوله ، فتتدبر معانيها ، وتعمل بما فيها ففى ذلك النجاح والفلاح وطمأنينة القلب .

﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ ٢٨ الرعد

ثم يستطرد الشيخ محمد بن سعيد بن سالم فيقول :

إن من أولى البدهيات فى هذا الشأن أن الإسلام قد حرص على أن يكون انتماء المسلم لدينه فقط منذ أول لحظة يعلن فيها (لا إله إلا الله محمد رسول الله) . والبراءة من كل معبود أو متبوع أو مطاع سوى الله تعالى .

والأدلة على ذلك كثيرة جداً فى كتاب الله وسنة رسوله — ﷺ —

قال تعالى :

﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ ٢٥٦ البقرة

وقال :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ ١٠٣ آل عمران

﴿ قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾ ٧١ الأنعام

﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ ٢٢ لقمان

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ ٨٥ آل عمران

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ ٣٣ فصلت

فهذه النصوص الكريمة تثبت مدى منة الله — سبحانه وتعالى — بإنعامه على المسلمين بهذا الدين، فالولاء له مصدر القوة والعزة.

فمن استمسك بهذا الولاء، وحققه فقد استمسك بالعروة الوثقى.

أما الحديث — فعن أبي هريرة — رضي الله عنه — قال: قال رسول الله — ﷺ —:

« إن الله قد أذهب عنكم عبيّة (كبر ونخوة) الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، أو فاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن[1] » وحرص المصطفى ﷺ - على تربية أمته والبعد بها عن مفاخر الأنساب والأحساب التي لا تستمد قوتها وحيوتها من هذا الدين القيم، فنجده ﷺ - يحثهم على أن يكون انتماؤهم لنصف الإسلام وحسب. ففي الحديث عن أبي عقبة - وكان مولى من أهل فارس - قال: شهدت مع رسول الله - ﷺ - أحداً، فضربت رجلاً من المشركين، فقلت: خذها مني وأنا الغلام الفارسي، فالتفت إليّ رسول الله - ﷺ - وقال: « فهلا قلت خذها مني وأنا الغلام الأنصاري »[2].

---

(١) سنن أبي داود — كتاب الأدب — باب في التفاخر بالأحساب ٥ / ٣٣٩ رقم ٥١١٦ وسنن الترمذي — كتاب المناقب — باب فضل الشام واليمن ٥ / ٧٣٤ رقم ٣٩٥٥

(٢) سنن أبي داود — كتاب الأدب — باب العصبية ٥ / ٣٤١ رقم ٥١٢٣ وسنن ابن ماجه — كتاب الجهاد باب النية في القتال ٢ / ٩٣١ رقم ٢٧٨٤

ولقد كان ديدن لعقيدة الإسلامية هو : إفراد الله — تعالى — بالتعلق والحب والتعظيم والطاعة والإنابة والخشوع والخوف والرجاء ، وتجريد النفس من كل محبوب أو مرهوب أو مرغوب سوى الله تعالى ، قال جل شأنه :

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله ﴾(١)

وقال رسول الله — ﷺ — لعبد الله بن عباس — رضي الله عنهما — « .... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك »(٢) .

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله ، بل يفرد الله بالمخافة .. ويتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً ، واشتغالاً به عن غيره ، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه ، واشتغاله به من نقص توحيده ، وإلا فلو جرد توحيده لكان له به شغل شاغل . والله يتولى حفظه والدفع عنه ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا . ومعلوم أن التوحيد حصن الله الأعظم من دخله كان من الآمنين . قال بعض السلف : من خاف الله خافه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء

هذا طريق من طرق منهج العقيدة في غرسها للولاء والبراء في النفوس .

وطريق آخر : وهو استخدام مشاهد يوم القيامة ، لتصوير الخصومة والعداء بين الأتباع والمتبوعين ، الذين سلكوا غير منهج الله في الدنيا ووالوا وعادوا حسب العادات ودين الآباء — وتبرؤ كل فريق من صاحبه .

قال تعالى :

﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾(٣)

ولا شك أن هذه حال من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء ، يوالي لهم ويعادي لهم ، ويرضى لهم ويغضب لهم ، فإن أعماله كلها باطلة ، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها ، وشدة تعبه فيها ونصبه ، إذ لم يخلص موالاته ومعاداته ، ورضاه وبغضه ، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله . ويوم القيامة ينقطع كل سبب ووسيلة وموالاة كانت لغير الله ، لا يبقى إلا من كان له سبب يصل بينه وبين

(١) سورة يونس الآية: ١٠٧
(٢) سنن الترمذي — كتاب صفة القيامة — باب ٥٩ ، ٤ / ٦٦٧ رقم ٢٥١٦
(٣) البقرة ١٦٦-١٦٧.

ربه وهو حظه من الهجرة إلى الله ورسوله وعبادة الله وحده وما يلزم ذلك من الحب والبغض والعطاء والمنع والولاء والعداء والقرب والبعد، وتجريد متابعة رسول الله — ﷺ — والإعراض والترك لما خالف سنته وهديه.

ومن منهج القرآن أيضاً في موضوع الولاء والبراء: ضرب المثل، وهذا كثير في القرآن الكريم وأبرز مثال في هذه القضية هو إبراهيم — عليه السلام — خليل الرحمن وأبو الأنبياء. فإنه هو القدوة الأولى في الولاء والبراء.

وإذا وجدت محبة الله في القلب، تحمل المؤمن من حينئذ وبنفس تكاليف هذه المحبة ولوازم عبادته لله — تعالى — ومن ذلك جهاد أعداء الله وبغضهم وهجرهم والصبر على الأذى في سبيل الله.

ثم يمضي القرآن الكريم في أسلوب عرض هذه العقيدة مستخدماً التهديد والوعيد بعد البيان والإيضاح وإقامة الحجة على الناس فيقول عز وجل:

﴿ يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ ٥٤ المائدة

أما المستحقون لأمر الله فإن الله يحبهم وهو ناصرهم ومولاهم:

﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ ٤ الصف

﴿ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ ١٥٠ آل عمران

﴿ واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ ٧٨ الحج

ومن لوازم محبة الله اتباع رسوله — ﷺ —

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني — يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ ٣١ آل عمران

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: فاتباع سنة رسوله — ﷺ — واتباع شريعته باطناً وظاهراً هو موجب محبة الله، كما أن الجهاد في سبيل الله، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها.

ويقول الحسن البصري — رحمه الله —: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم بهذه الآية:

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾. لقد رأى الكتاب والسنة الأمة على الحب في الله والبغض في الله، والولاء في الله والبراء في الله، حتى وصلت إلى حد أن لو قذفت في النار لكان أحب إليها من أن تعود في الكفر بعد إذ أنقذها الله منه. ولئن كان الولاء والبراء قد غاب اليوم في واقع حياة المسلمين — إلا من رحم ربك — فإن هذا الغياب لا يغير من الحقيقة الناصعة الجلية شيئاً لأن هذا الأمر العظيم كما يقول الشيخ حمد بن عتيق: « ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده ». وما سر استمداد مذاهب البشرية الإلحادية

وأفكارهم القاصرة إلا نتيجة حتمية لغياب ولائهم لله ورسوله وعدم براءتهم من الطواغيت المقنعة ببهرج الباطل وزيف الحقيقة .

أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وطبيعة العداوة بينهما

إن وجود أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أمر قديم نشأ منذ خلق آدم — عليه السلام — وأمر الله للملائكة بالسجود له فسجدت إلا إبليس أبى واستكبر .

وقد تحدث القرآن الكريم عن قصة هذه العداوة بين آدم وإبليس في سور شتى من أبرزها سورة البقرة وسورة الأعراف وسورة طه وغيرها .

قال تعالى :

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(١)

وفي سورة الأعراف بيان عدم سجود إبليس :

﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾(٢)

لقد كان أمر الله لإبليس أن يسجد فكان رده — لعنه الله — الامتناع والاستكبار مستخدماً في ذلك قياسه الفاسد : إن النار أشرف من الطين ، وهو بهذا ينصب نفسه نداً لله — سبحانه وتعالى — : الله يقول كذا ، فيقول إبليس أنا أرى كذا ولذلك استحق اللعنة والطرد من رحمة الله .

وانقسام الناس إلى فريق الهدى وفريق الضلال بدأ بهذه البداية كما ذكر ذلك المولى سبحانه :

﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير ﴾(٣)

فأما الفريق الذي أجاب دعوة الرسل وآمن بكتب الله المنزلة ورسله المبعوثين رحمة للناس فهؤلاء أولياء الرحمن .

وأما الفريق الذي أعرض واستكبر فهم أولياء الشيطان .

وقبل الحديث عن الفريقين ، لابد أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أقام الحجة على عباده فبين لهم عداوة الشيطان — حتى بعد قصته مع آدم — فهو سبحانه لم يذكر قصة آدم وعداوة إبليس له عدة مرات في القرآن فحسب ، بل زاد الأمر بياناً فحذر بني آدم في مواضع كثيرة من القرآن أن يستمعوا

---

(١) الآية من ٣٤ - ٣٨ البقرة .
(٢) الآية ١٢ من الأعراف .
(٣) الآية ٢ من سورة التغابن .

لغواية الشيطان وبعرضوا عن طريق الله المستقيم . قال تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾(١)

ثم يأتى التذكير مع التحذير فى قوله تعالى :

﴿ يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾(٢)

ولم يقتصر لسان القرآن الكريم على هذا بل قد كشف للناس المخطط الشيطانى ، حتى يبصر كل ذى عينين ويتفكر أولو الألباب فقال تعالى عن إبليس : ﴿ لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً . ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً . يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾(٣)

ثم يصور الله للناس مشهداً من مشاهد يوم القيامة حين يندم أولياء الشيطان ولات ساعة مندم فيقول سبحانه :

﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون . ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾(٤)

ومشهد آخر لإبليس حتى يتبرأ من أتباعه :

﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾(٥)

إنه ليس بعد بيان الله بيان ، والأشياء لأصلها تعود كما يقولون فما دام أن إبليس عدو لآدم فلا شك أن أتباع إبليس وحزبه أعداء لأولياء الرحمن وأتباع المرسلين . ومن ثم فلا التقاء بين الفريقين ولا هوادة بينهما بل حرب والعداوة والحسد والاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة وكل ما يوحى به إبليس لأتباعه ذلك سلاح حزب الشيطان .

وحزب الشيطان أناس يتربصون بالمؤمنين يحاولون ما استطاعوا أن يصدوهم عن ذكر الله ، ولقد أخبرنا الله — جل جلاله — بذلك فى مواضع عدة من كتابه الكريم فقال سبحانه عن سخرية أعداء الله بحزب الله :

﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾(٦)

(١) ٢٠٨ سورة البقرة . (٢) ٢٧ سورة الأعراف . (٣) ١١٨ - ١٢٠ سورة النساء . (٤) ٥٩ - ٦١ سورة يس . (٥) ٢٢ سورة ابراهيم . (٦) ٢١٢ سورة البقرة .

﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾[١]

﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾[٢]

وانظر إلى التصوير القرآنى لعداوة حزب الشيطان ، وما تنطوى عليه نفوسهم ضد المؤمنين فى قوله تعالى :

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾[٣]

وهاهنا حقيقة هامة وهى : إن العداوة التى وقعت بين آدم ـــ عليه السلام ـــ وبين إبليس هى عداوة قائمة بين إبليس وبنى آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وتاريخ البشرية كله ما هو إلا مصداق لحقيقة انقسام الناس إلى فريق الهدى والرشاد وفريق الهوى والشهوة والشيطان .

﴿ خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾[٤] .

وعلى ذلك فإنه لا التقاء بين الفريقين فى الدنيا ولا فى الآخرة ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ رحمه الله ـــ : (ومن سنّة الله : أنه إذا أراد إظهار دينه ، أقام من يعارضه ، فيحق الحق بكلماته ، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) .

وانظر إلى عداوة قوم نوح ـــ عليه السلام ـــ له ، وقوم عاد وقوم صالح وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى ثم محمد ـــ ﷺ ـــ ، ثم العداوة التى تقابل بها الجاهلية أهل الإيمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإذا كان أولياء الرحمن مصرين على اتباع هدى ربهم فإن أولياء الشيطان يصرون أيضاً على التردى فى حمأة الجهل والضلال ، عابدين للطاغوت سواء كان هذا الطاغوت نداً يعبد ، أو شهوة يراد إشباعها أو جنساً أو لغة أو سلطة أو أرضاً أو دين الآباء الأولين . وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٥]

أما حزب الرحمن فهم : الذين ينتسبون إليه سبحانه ، ويستظلون برايته ، ويتولونه ولا يتولون أحداً غيره ، وهم أسرة واحدة وأمة واحدة من وراء الأجيال والقرون ، ومن وراء المكان والأوطان ، ومن وراء القوميات والأجناس ، ومن وراء الأرومات والبيوت » .

وقد جاء الدين الإسلامى بفيصل التفرقة بين الحق والباطل ، وبين الاسلام والجاهلية ، فلم يجعل التقاء الناس على أساس العرق أو اللون أو الجنس أو التراب ، كما تفعل ذلك الجاهليات القديمة والحديثة

(١) ٧٦ سورة الأعراف .
(٢) الآيات من ٢٩ - ٣٢ من سورة المطففين .
(٣) ٧٢ سورة الحج .
(٤) ٢ سورة التغابن .
(٥) ٢٥٧ سورة البقرة .

على السواء — بل جعل التقاء الناس على العقيدة فى الله ، وجعل المفاضلة بينهم بالعمل الصالح.

قال تعالى :

﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ ١٣ الحجرات .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى . كلكم لآدم وآدم من تراب »(١) .

وقال أيضاً : « إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء ، مؤمن تقى وفاجر شقى »(٢) . ولقد تبرأ المصطفى — ﷺ — من أقرباء له ليسوا على دينه ، ليضع من نفسه قدوة للمؤمنين فقال فيما رواه عمرو بن العاص — رضى الله عنه — سمعت رسول الله — ﷺ — يقول جهاراً من غير سر : « إن آل فلان — أنس من أقاربه — ليسوا لى بأولياء ، إنما وليى الله وصالح المؤمنين »(٣) متفق عليه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أولى الناس بى المتقون من كانوا وحيث كانوا » وهذا موافق لقوله تعالى(٤) :

﴿ فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ﴾ ٤ التحريم .

من هنا كان المؤمنون هم أولياء الله لأنهم استجابوا لما أراد الله فتلقوا منه وحده ، وعبدوه وحده ، وخافوه وحده . بعكس الفريق الثانى فإنهم كلما دعاهم رسول من رسل الله قالوا :

﴿ بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ ١٧٠ البقرة .

﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾ ١٠٤ المائدة

ومن صفات أولياء الرحمن : الاستجابة والانقياد لحكم الله وشرعه واتباع أمره . قال تعالى :

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ ٥١ النور

أما أولياء الشيطان : فمن معالمهم الإعراض عن حكم الله وشرعه ، واتباع الهوى والشيطان .

---

(١) مسند أحمد ٥ / ٤١١

(٢) سنن الترمذى — كتاب المناقب — باب فضل الشام واليمن ٥ / ٧٣٤ رقم ٣٩٥٥ وقال : حديث حسن غريب ، وسنن أبى داود — كتاب الأدب — باب فى التفاخر بالأحساب ٥ / ٣٣٩ رقم ٥١١٦

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان — باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم رقم ١٢٨

(٤) مسند أحمد ٥ / ٢٣٥

قال تعالى :

﴿ ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعناً في الدين ﴾ ٤٦ النساء .

وقال :

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ﴾ ٢٢ السجدة .

يقول العلامة ابن القيم : « كل من كذب رسول الله — ﷺ — وأعرض عن متابعته ، وحاد عن شريعته ، ورغب عن ملته ، واتبع غير سنته ، ولم يتمسك بعهده ، ومكن الجهل من نفسه ، والهوى والفساد من قلبه ، والجحود والكفر من صدره ، والعصيان والمخالفة من جوارحه ، فهو ولي الشيطان » .

ومن سمات أولياء الشيطان أنهم : إذا جاء الحق معارضاً في طريق رئاستهم طحنوه ، وداسوه بأرجلهم ، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل . فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق ، وحادوا عنه إلى طريق أخرى . وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان ، فإن لم يجدوا منه بداً أعطوه السكة والخطبة ، وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ . وإن جاء الحق ناصراً لهم ، وكان لهم ، صالوا به وجالوا ، وأتوا إليه مذعنين لا لأنه حق . بل لموافقته غرضهم وأهواءهم .

﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴾ ٤٨ — ٥٠ النور

طبيعة العداوة بين الفريقين

بعد أن بينا سمات الفريقين ، نتحدث الآن عن العداوة بينهما ، ومعرفة هذه العداوة أمر لابد منه لتمييز الخبيث من الطيب .

﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ ١٧٩ آل عمران

ومعرفة العداوة بين الفريقين أمر هام يكشف العوبة بعض المتسمين بأسماء إسلامية وهم يسعون لتذويب المسلم في خضم الجو الجاهل المعاصر وتمييع ولائه لربه ودينه وإخوانه المسلمين ، وأمانة براءته وعداوته لكل عدو لهذا الدين . هذه الحقيقة الهامة الناصعة يحاول أعداؤنا تزييفها : بأن الكفار أصدقاء أوفياء شرفاء يجب أن يكون لهم الحب والتقدير ، والإجلال والإكبار والتعظيم . يقولون إننا متأخرون وهؤلاء القوم متقدمون يجب أن نسلك مسلكهم ، ونتبع نهجهم نقتفي آثارهم في كل وضع وحال ، نأخذ حضارتهم بكاملها حلوها ومرها ، حقها وباطلها ، بل إنه لا بطلان فيها .

ولكن هيهات حسدوا وخابوا ، إن حزب الله هم الأعلون عند الله قدراً ، وهم الأعلون ولو كانوا أقل عدداً ، وحزب الشيطان هم الخاسرون ولو كانوا عدد الحصى .

ولابد أن يسبق حديث العداوة بين الفريقين ، نبذة بسيطة عن عداوة إبليس للإنسان حتى نعلم مداخل الشيطان لهذه النفس البشرية ، ومدى تلبيسة الحق بالباطل على أوليائه فيبين الحق للمؤمن فيأخذ الحذر على نفسه ومن معه ، ويعبد الله على بصيرة منه ونور من شرعه .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن عداوة الشيطان للإنسان تتمثل في ست مراتب نذكرها هنا باختصار :

(١) الكفر والشرك ، ومعاداة الله ورسوله ، فإذا ظفر الشيطان بذلك من ابن آدم برد أنينه ، واستراح من تعبه معه ، وهو أول ما يريد من العبد ، فإن ظفر به صيره من عسكره وتوابه ، فصار من دعاة إبليس ، فإن يئس من ذلك نقله للمرتبة الثانية من الشر وهى :

(٢) البدعة : لأنه أحب إليه من : الفسوق والعصيان ، وذلك أن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعد ، وهي مخالفة لدعوة الرسل ، فإن كان الشخص ممن يعادي أهل البدع والضلال نقله إلى المرتبة الثالثة وهى :

(٣) الكبائر : على اختلاف أنواعها : فيحرص أن يوقعه فيها ، خاصة إذا كان عالماً متبوعاً لينفر الناس عنه . ومن المعلوم أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم ، هذا إذا أحبوا إشاعتها ، فكيف إذا تولوا هم إذاعتها ؟ فإن عجز عن هذه نقله للتي بعدها وهى :

(٤) الصغائر : التي إذا اجتمعت ربما أهلكت صاحبها ، كما قال النبي ــ ﷺ ــ : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإن مثل ذلك قوم نزلوا بفلاة من الأرض »[1] . وذكر حديثاً معناه : أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا واشتووا . ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها ، فيكون صاحب الكبيرة الخائف أحسن حالاً منه ، فإن أعجزه العبد عن هذه نقله للخامسة .

(٥) اشتغاله بالمباحات التى لا ثواب فيها ولا عقاب ، بل عاقبتها فوات الثواب الذى ضاع عليه باشتغاله بها ، فإن أعجزه العبد عن هذه بأن كان حافظاً لوقته شحيحاً به ، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من نعيم والعذاب نقله للتى بعدها .

(٦) اشتغاله بالعمل المفضول عن الفاضل ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل ، ويفتح له أبواب خير كثيرة ، كما ورد أنه يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير إما ليتوصل إلى باب واحد من الشر وإما ليفوت به خيراً أعظم من تلك السبعين وأجل وأفضل . وهذا أمر لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور الله يقذفه في قلب العبد ، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ــ ﷺ ــ وشدة عنايته بمراتب الأعمال

(١) مسند أحمد ١ / ٤٠٢ ، ٥ / ٣٣١

عند الله ، وأحبها إليه ، وأرضاها له ، وهذا لا يعرفه إلا من كان من ورثة الرسول - ﷺ - ونوابه في الأمة ، وخلفائه في الأرض والله يمن بفضله على من يشاء من عباده .

وما دام أن هذا هو كيد الشيطان للإنسان ، فما هو سبب العداوة ومثيرها بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ؟

والجواب عن ذلك أحد أمور أربعة أو الأربعة مجتمعة :

(١) الكبر : فأولياء الشيطان استكبروا على الحق وعلى الرسول وعلى الرسالة .

قال الله تعالى فيهم :

﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ ٥٦ غافر

﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ ٨٧ البقرة .

وقال تعالى :

﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم ﴾ ٧ لقمان .

(٢) استحباب الحياة الدنيا على الآخرة ، والفصول بالشهوات والملذات . قال تعالى :

﴿ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ ١٠٧ النحل .

﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد ﴾ ٣ إبراهيم .

وإذا وجد الكبر وحب الدنيا على الآخرة أو أحدهما : فإن أرباب ذلك يتزعجون من وجود عباد الله المخلصين ، حتى ولو لم يظهر لهم منهم أي احتكاك فإن وجودهم بهذا النقاء وبهذه الطهارة وبذلك الاستعلاء أمر يغيظ أعداء الله .

قال تعالى :

﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ ٨٩ النساء .

ذلك أن وجود الفريق الطاهر يشعر الفريق الدنس بخبث طويته وقبيح فعله ، فمن هنا يبدأ كيد أعداء الله لأولياء الله بكل ما تعني كلمة « كيد » سواء كان ذلك بالسخرية أو الاستهزاء ، أو العذاب والاضطهاد ، أو التربص للمؤمنين بكل ما يسوء .

(٣) الحسد : فثائرة أولياء الشيطان لا تهدأ ، ولذلك يكنون للمؤمنين الحسد والحقد ، وقد بين الله ذلك في كتابه العزيز بقوله تعالى :

﴿ ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير ﴾ ١٠٩ البقرة

أجل هذه هي أمنيتهم أن يكفر عباد الله ليتساووا معهم في الكفر والضلال ، وقد بين الله عظيم حقدهم وحسدهم لو ظهروا على المؤمنين فقال تعالى :

﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة ﴾ ٨ التوبة

(ا) سبب الهيمنة والولاء : وهذا أمر يختص به « الملأ » أي السادة والطواغيت الذين يستعبدون الناس ، حيث يتقدم الناس لهم بالإجلال والتعظيم والرغبة والرهبة والخوف والرجاء . فإذا جاء دين الله وشرعه الذي يحرر الناس من عبودية العبيد إلى عبادة الواحد القهار فإن « الملأ » يثورون ويعادون دعاة الخير لأنهم يشعرون حينئذ أن سلطانهم قد سلب وإن شرفهم قد زال وإن الناس لم يعودوا يخشونهم أو يرهبونهم لأن دين الله قد حررهم وأعزهم بعقيدتهم ثم تخوفهم من الله وحبهم لله وولائهم لله وبغضهم في الله .

ودليل هذا فعل كسرى حين جاءه كتاب رسول الله — ﷺ — يدعوه إلى الدخول في الإسلام فاستكبر في نفسه وكأنه يقول : أمر عجيب الأعراب الذين كانوا رعاة لنا يأتون إلي لأدخل في دينهم الجديد وظن أن ملكه سيزول إذا دخل في الدين الجديد فما كان منه إلا أن مزق الكتاب قد استجاب الله دعوة نبيه — ﷺ — فمزق الله ملك كسرى شر ممزق فهكذا الطواغيت التي لا تدين لله بالولاء والسلطة والحاكمية تعادي أولياء الرحمن وتصب عليهم أشد أنواع العذاب كما قال تعالى :

﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ البروج الآية : ٨

والجاهلية لا تكره الإسلام لأنها - في دخيلة نفسها - لا تعرف ما فيه من الحق والخير أو لأنها - بينها وبين نفسها - تعتقد حقاً أن باطلها الذي تعيش فيه أصوب وأقوم من الإسلام ! كلا ! فهي تكرهه وهي عالمة بما فيه من الحق والخير وبأنه هو الذي يقوم ما اعوج من شؤون الحياة وإنما تكرهه لأنها حريصة على هذا العوج لا تريد تقويمه وتود أن تبقى الأمور على اعوجاجها ولا تستقيم ، تكرهه لأنها هي الجاهلية ..... وهو الإسلام ! .

﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ فصلت الآية : ١٧

أما شيمة عداوة أولياء الرحمن لأعدائهم : فهي جزء من عقيدتهم وأحسب أني فصلت القول في هذا في التمهيد حين تكلمت عن لوازم لا إله إلا الله من أنهم يبغضون في الله من حاد الله ورسوله .

قال تعالى :

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[1] .

وإنهم لا يلتقون مع أعدائهم في منتصف الطريق بل يقولون كما قال إمامهم إبراهيم — عليه السلام —

---

(١) سورة المجادلة الآية : ٢٢

« إنا برآؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده » .

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : « إنه لا يستقيم للإنسان إسلام — ولو وحد الله وترك الشرك — إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغض كما قال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً ﴾ وما دمنا قد عرفنا منطلق العداوة وحقيقتها فيجب أن نعلم أن هذا هو (القاسم المشترك) بين أعداء الإسلام بشتى أصنافهم كفار ومشركين ومنافقين وكل من كره الإسلام وعاداه . .

إن طبيعة المنهج الإسلامي التي يعرفها جيداً أصحاب المناهج الأخرى طبيعة الإصرار على إقامة مملكة الله في الأرض وإخراج الناس كافة من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . وتحطيم الحواجز المادية التي تحول بين الناس كافة . وبين حرية الاختيار الحقيقية ... لم يدع طبيعة التعارض بين منهجين للحياة ، لا التقاء بينهما في صغيرة ولا كبيرة وحرص أصحاب المناهج الأرضية على سحق المنهج الرباني الذي يهدد وجودهم ومناهجهم وأوضاعهم قبل أن يسحقهم فهي حتمية لا اختيار فيها في الحقيقة لهؤلاء ولا لهؤلاء .... وهذه الظاهرة يقررها القرآن بقوله : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾(١)

ونذكر بعض عداوات هذه الأصناف حسبما نص عليه القرآن الكريم فأما الكفار فقد قال الله تعالى عنهم : -

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾(٢)

وقال في شأن « المشركين » : —

﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾(٣) .

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾(٤)

وأما عداوة أهل الكتاب فالله يقول عنهم : —

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾(٥) .

﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ﴾(٦)

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ﴾(٧) .

﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾(٨) .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٧
(٢) سورة الصف الآية : ٨
(٣) سورة البقرة الآية : ١٠٥
(٤) سورة التوبة الآية : ٣٣
(٥) سورة البقرة الآية : ١٢٠
(٦) سورة المائدة الآية : ٨٢
(٧) سورة النساء الآية : ٤٤
(٨) سورة آل عمران الآية : ١١٩

أما عداوة المنافقين : فقد نبه القرآن الكريم على ذلك في مواضع كثيرة ومن ذلك ما ورد في أول سورة البقرة حيث ذكرهم في ثلاثة عشرة آية من آية ٨ ـ ٢٠ وذلك لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً ، لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد .

• فيالله كم معقل للاسلام هدموه ! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه وكم من لواء مرفوع قد وضعوه ... اتفقوا على مفارقة الوحي فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون :

﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾[1] رأس مالهم الخديعة والمكر وبضاعتهم الكذب وعندهم العقل المعيشي : إن الفريقين عنهم راضون وهم بينهم آمنون .

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾[2]!

• من علقت مخالب شكوكهم بأديم إيمانه مزقته كل تمزيق ، ومن تعلق شرر فتنتهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق ، خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات فركبوا مراكب الشبه والشكوك ، تجري بهم في موج الخيالات فلعبت بسفنهم الريح العاصف ، فألقتها بين سفن الهالكين .

﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾[3]

وقد نزلت بخصوصهم سورة كاملة في القرآن هي سورة ﴿ المنافقون ﴾ وقد ورد فيها صريح عداوتهم للمؤمنين في قوله تعالى عنهم : ـــ

﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾[4]

وما دمنا قد عرفنا عداوات هذه الأصناف للإسلام فإنه جدير بنا أن نؤكد خطورة عداوة اليهود والنصارى لأنهم هم يسيطرون اليوم على معظم بقاع الأرض وهم الذين يبثون غزوهم بشتى الأساليب وهم رمز ، ابرح ، الأبهار ، أمام المخدوعين من أبناء المسلمين .

يقول الأستاذ سيد قطب ـــ رحمه الله ـــ : إن حقيقة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة هي من أجل العقيدة . وهم قد يختصمون فيما بينهم ولكنهم يتقون دائماً في المعركة ضد الإسلام والمسلمين .وقد يرفعون لهذه المعركة أعلاماً شتى ـــ في خبث ومكر ـــ لأنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة ، فخوفاً من حماسة العقيدة الإسلامية وجيشانها : أعلنوا الحرب باسم الأرض والاقتصاد والسياسة والمراكز العسكرية . وألقوا في روع المخدوعين منا : إن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها !

(١) سورة المؤمنون الآية : ٥٣
(٢) سورة البقرة الآية : ٩
(٣) سورة البقرة الآية : ١٦
(٤) سورة المنافقون الآيات : ٧ ـ ٨

ولا يجوز رفع رايتها وخوض المركة باسمها فهذه سمة المتخلفين المتعصبين ! وذلك ليأمنوا جيشان العقيدة من حديد ، بينما هم في قرارة نفوسهم جميعاً : يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي نطحوها طويلاً فأدمتهم جميعاً !

فإذا نحن خدعنا بخديعتهم فلا نلومن إلا أنفسنا ونحن نبتعد عن توجيه الله لنبيه ـ ﷺ ـ ولأمته وهو سبحانه أصدق القائلين .

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾[1]

هذا هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه وما سواه فمرفوض ومردود ولكن الأمر الحازم والتوجيه الصادق **﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾**[2] على سبيل القصر والحصر هدى الله هو الهدى وما عداه فليس بهدى وخلاصة القول :

إن حقيقة العداوة وطبيعتها هو إختلاف الدينين وافتراق المنهجين . فإما دين الله واتباع شرعه وموالاة عباده المؤمنين .

وإما دين الباطل واتباع الهوى والشهوات والشيطان والانضمام إلى حزب الشيطان . فعلى أولياء الله أن يعتزوا بدينهم ، وأن يستعلوا فوق وطأة الباطل فإنهم هم المنصورون ، وإذا كان أعداء الله يتباهون بقوتهم وكثرة عددهم وعدتهم فإن المؤمنين يفخرون بنصر الله وكريم معيته وعونه لهم .

فقد ورد في جملة البخارى عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال : « يقول الله تعالى : « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ولئن إستعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبضه نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه ﴾[3] ويقول الله تبارك وتعالى :

﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[4]

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾[5]

﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾[6]

وإذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا مصداق ذلك . ففى غزوة بدر نصر الله القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة وأعز دينه ونصر حزبه وفتوحات المسلمين شرقاً وغرباً وتحطيم عروش كسرى وقيصر ليست

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٢٠ (٢) سورة البقرة الآية : ١٢٠

(٣) صحيح البخارى ـ كتاب الرقاق ـ باب التواضع ٨ / ١٣١

(٤) سورة النحل الآية : ١٢٨ (٦) سورة محمد الآية : ٣٥

(٥) سورة الأنفال الآية : ١٢

بعائبة عن الأذهان . ونصر الله وتأييده للمؤمنين فى معركتهم مع التتار ومع الصليبيين الحاقدين . وغيرها من مئات الحوادث سواء كانت على مستوى الفرد أم الجماعة خير شاهد على ما نقول .

وسيبقى النصر والعون والمدد لأولياء الله إن شاء الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وما على المؤمنين إلا الصدق مع الله والإخلاص فى العمل ابتغاء مرضاته هو وحده والعمل وفق كتابه وسنة نبيه ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً .

« عقيدة أهل السنة والجماعة فى الولاء والبراء »

لابد أن نذكر معتقد أهل السنة والجماعة فى الولاء والبراء حتى نخرج بذلك أرباب البدع والأهواء التى لا تستند إلى دليل قوى من كتاب الله أو سنة رسوله ـ ﷺ ـ

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ : على المؤمن أن يعادى فى الله ويوالى فى الله فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه وإن ظلمه ـ فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية » .

قال تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾[1]

فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغى وأمر بالإصلاح بينهم فليتدبر المؤمن : إن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه والإكرام والثواب لأوليائه والإهانة والعقاب لأعدائه .

وإذا اجتمع فى الرجل الواحد : خير وشر وفجور وطاعة ومعصية وسنة وبدعة استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر فيجتمع فى الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة كاللص يقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته هذا هو الأصل الذى اتفق عليه أهل السنة والجماعة وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم .

ولما كان الولاء والبراء مبنيين على قاعدة الحب والبغض كما أسلفنا فيما سبق فإن الناس فى نظر أهل السنة والجماعة ـ بحسب الحب والبغض والولاء والبراء ـ ثلاثة أصناف :

الأول : ـ من يحب جملة وهو من آمن بالله ورسوله وقام بوظائف الإسلام ومبانيه العظام علماً وعملاً واعتقاداً ، وأخلص أعماله وأفعاله وأقواله لله ، وانقاد لأوامره وانتهى عما نهى الله عنه ورسوله وأحب فى الله ووالى فى الله وأبغض فى الله ، وعادى فى الله وقدم قول رسول الله ـ ﷺ ـ على قول كل أحد كائناً من كان .

الثانى : ـ من يحب وجه ويبغض من وجه ، فهو المسلم الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فيحب ويوالى على قدر ما معه من الخير ، ويبغض أكثر مما يصلح .. وإذا أردت الدليل على ذلك فهذا عبد

---

(١) سورة الحجرات الآية ٩ .

الله بن حمار وهو رجل من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ كان يشرب الخمر فأتى به إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فلعنه رجل وقال : ما أكثر ما يؤتى به ، فقال النبي ـ ﷺ ـ « لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله »[1] مع أنه ـ ﷺ ـ لعن الخمر وشاربها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه .

الثالث : ـ من يبغض جملة وهو من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ولم يؤمن بالقدر خيره وشره وأنه كله لقضاء الله وقدره وأنكر البعث بعد الموت أو ترك أحد أركان الإسلام الخمسة أو أشرك بالله في عبادته أحداً من الأنبياء والأولياء والصالحين وصرف لهم نوعاً من أنواع العبادة كالحب والدعاء والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر والإنابة والذل والخضوع والخشية والرغبة والرهبة والتعلق ، أو ألحد في أسمائه وصفاته واتبع غير سبيل المؤمنين وانتحل ما كان عليه أهل البدع والأهواء المضلة وكذلك كل من قامت به نواقض الإسلام العشرة أو أحدها .

فأهل السنة والجماعة ـ إذن ـ يوالون المؤمن المستقيم على دينه ولاء كاملاً ويحبونه وينصرونه نصرة كاملة ـ ويتبرأون من الكفرة والملحدين والمشركين والمرتدين ويعادونهم عداوة وبغضاً كاملين أما من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فيوالونه بحسب ما عنده من الإيمان ويعادونه بحسب ما هو عليه من الشر ، وأهل السنة والجماعة يتبرأون ممن حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب .

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾[2]

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾[3]

ويلخص الامام ابن تيمية مذهب أهل السنة والجماعة فيقول :

الحمد والذم والحب والبغض والموالاة والمعاداة إنما تكون بالأشياء التي أنزل الله بها سلطانه وسلطانه كتابه فمن كان مؤمناً وجبت موالاته من أي صنف كان ومن كان كافراً وجبت معاداته من أي صنف كان .

قال تعالى : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾[4]

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الحدود ـ باب ما يكره من لعن شارب الخمر ٨/ ١٩٧

(٢) سورة المجادلة الآية : ٢٢ (٣) سورة التوبة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ (٤) سورة المائدة الآيتان : ٥٥ ، ٥٦

وقال ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ﴾[1]

وقال : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾[2] .

ولايجعل الأنبياء والصديقون والشهداء الصالحون بمنزلة الفساق في الإيمان والدين والحب والبغض والموالاة والمعاداة . قال تعالى :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما إلى قوله ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾[3]

فجعلهم إخوة مع وجود الاقتتال والبغى .

ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضاً موالاة الدين لا يعادون كمعاداة الكفار ، فيقبل بعضهم بشهادة بعض ويأخذ بعضهم العلم من بعض ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك .

الولاء والبراء القلبى

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة في هذا الموضوع أن الولاء القلبي وكذلك العداوة يجب أن تكون كاملة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : فأما حب القلب وبغضه وإرادته وكراهته فينبغي أن تكون كاملة جازمة لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فلن يعطى ثواب الفاعل الكامل .

ذلك أن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها لا بحسب محبة الله ورسوله وبغض الله ورسوله وهذا نوع من الهوى فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾[4]

« موقف أهل السنة والجماعة من أصحاب البدع والأهواء »

يدخل في معتقد أهل السنة والجماعة البراءة من أرباب البدع والأهواء والبدعة : مأخوذة من الابتداع وهو الاختراع وهو الشيء يحدث من غير أصل سبق ولا مثال احتذى ولا إلف مثل ومنه قولهم : ابتدع الله الخلق أي خلقهم ابتداء ومنه قوله تعالى :

﴿ بديع السموات والأرض ﴾[5]

وقوله ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾[6]

(١) سورة المائدة الآية : ٥١
(٢) سورة التوبة الآية : ٧١
(٣) سورة الحجرات الآيات : ٩ ، ١٠
(٤) سورة القصص الآية : ٥٠
(٥) سورة البقرة الآية : ١١٧
(٦) سورة الأحقاف الآية : ٩

أى لم أكن أول رسول إلى أهل الأرض .

وهذا الاسم يدخل فيما تخترعه القلوب وفيما تنطق به الألسنة وفيما تفعله الجوارح .

قال ابن الجوزى : « البدعة عبارة عن فعل لم يكن فابتدع . والأغلب فى المبتدعات أنها تصادم الشريعة بالمخالفة وتوجب التعاطى عليها بزيادة أو نقصان » .

ولقائل أن يقول : ما شأننا الآن وأصحاب البدع لاسيما وأنت تتكلم عن ولاء الكفار والبراء منهم وموالاة المؤمنين ونصرتهم ؟ ؟

والجواب على ذلك : أولاً : أن البدعة خطرها عظيم وكبير والدليل على ذلك أنها تنقسم إلى رتب متفاوتة ما بين الكفر الصريح إلى الكبيرة والصغيرة وفى هذا يقول الإمام الشاطبى : « البدعة تنقسم إلى رتب متفاوتة منها ما هو كفر صراح كبدعة الجاهلية التى نبه عليها القرآن بقوله :

﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾[١]

وقوله تعالى :

﴿ وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ﴾[٢]

وقوله : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾[٣]

وكذلك بدعة المنافقين حين اتخذوا الدين ذريعة لحفظ النفس والمال وما أشبه ذلك مما لا يشك أنه كفر صراح .

وقضية التحليل والتحريم خصوصية لله — عز وجل — فمن ادعى التحليل والتحريم فقد شرّع ومن شرع فقد أله نفسه . وكما أن الله — سبحانه وتعالى — هو الخالق فهو أيضاً صاحب الأمر والسلطان : قال تعالى :

﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾[٤]

وقال سبحانه :

﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ﴾[٥]

فهذه البدعة الكفرية وأمثالها لأصحابها منا العداء والبغض والكره والجهاد بعد الإعذار والإنذار والبراءة منهم لا تختلف عن البراءة من الكافر الأصلى .

فقد قال — ﷺ — « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد »[٦]

(١) سورة الأنعام الآية : ١٣٦
(٢) سورة الأنعام الآية : ١٣٩
(٣) سورة المائدة : ١٠٣
(٤) سورة الأعراف الآية : ٥٤
(٥) سورة النحل الآية : ١١٦
(٦) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الأقضية — باب نقض الأحكام الباطلة رقم ١١٢٠

قال البغوى : « وقد اتفق علماء السنة على معاداة أهل البدعة ومهاجرتهم ونعود لرتب البدع التي ذكرها الشاطبي فقال : « ومن البدع ما هو من المعاصي التي ليست بكفر أو يختلف فيها هل هي كفر أم لا ؟ كبدعة الخوارج والقدرية والمرجئة ومن أشبههم من الفرق الضالة . ومنها ما هو معصية ويتفق على أنها ليست بكفر ، كبدعة التبتل والصيام قائماً في الشمس والخصاء بقصد قطع شهوة الجماع .

ومنها : ما هو مكروه كالاجتماع للدعاء عشية عرفة ، وذكر السلاطين في خطبة الجمعة على ما قاله ابن عبد السلام الشافعي . وما أشبه ذلك »

فأرباب هذه البدع يتبرأ منهم أهل السنة والجماعة .

ثانياً : — خطورة البدع على الدين أورد هنا نماذج من أقوال سلف الأمة في التحذير من البدع وأصحابها .

ومن ذلك ما قاله الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود — رضي الله عنه — حيث يقول : — « من كان مستناً فليستن بمن قد مات : أولئك أصحاب محمد — ﷺ — كانوا خير هذه الأمة أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه — ﷺ — ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فهم كانوا على الهدى المستقيم »

وقال سفيان الثوري — رحمه الله — : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية . المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها . وقال الامام مالك — رحمه الله — : من أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله — ﷺ — خان الدين لأن الله تعالى يقول :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾[١] ، فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً »

وذكر الشاطبي — رحمه الله — أن مفاسد البدع تنحصر في أمرين : —

(١) أنها مضادة للشارع ومراغمة له حيث نصب المبتدع نفسه منصب المستدرك على الشريعة لا منصب المكتفي بما حده .

(٢) أن كل بدعة — وإن قلت — تشريع زائد أو ناقص أو تغيير للأصل الصحيح وكل ذلك قد يكون على الانفراد وقد يكون ملحقاً بما هو مشروع فيكون قادحاً في المشروع ولو فعل أحد مثل هذا في نفس الشريعة عامداً لكفر إذ الزيادة والنقصان فيها أو التغيير — قل أو كثر — كفر . ويعضد هذا النظر عموم الأدلة في ذم البدع ومنها : قوله — ﷺ — « كل بدعة ضلالة »[٢]

وقوله — ﷺ — : « من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً »[٣] .

---

(١) سورة [illegible] الآية ٣ .

(٢) سنن أبي داود — كتاب السنة — باب في لزوم السنة ٥ / ١٥ رقم ٤٦٠٧ وابن ماجه — المقدمة ١ / ١٦ رقم ٤٢

(٣) صحيح مسلم — كتاب العلم — باب من سن سنة حسنة أو سيئة ٤ / ٢٠٦٠ رقم ١٦ والترمذي كتاب العلم رقم ٢٦٧٦ باب فيمن دعا إلى هدى . وابن ماجه في المقدمة — باب من سن سنة حسنة رقم ٢٠٦ وقال : الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

وقال أحد علماء السلف لا تجالسوا أصحاب الأهواء، أو قال أصحاب الخصومات فإنى لا آمن أن يغمسوكم فى ضلالتهم ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون».
فالخلاصة : أنه من معتقد أهل السنة والجماعة البراء من المبدعين خاصة أصحاب البدع الكفرية .

سورة الحشر

قال صاحب البصائر :

«السورة مدنية بالاتفاق . آياتها أربع وعشرون، كلماتها أربعمائة وخمس وأربعون . حروفها ألف وتسعمائة وثلاث عشرة . فواصل آياتها (من بر) على الباء آيتان : العقاب فى موضعين . سميت سورة الحشر، لقوله : لأول الحشر» .

معظم مقصود السورة : الخبر عن جلاء بنى النضير وقسم الغنائم وتفصيل حال المهاجرين والأنصار والشكاية من المنافقين فى واقعة قريظة وذكر برصيصاء العابد والنظر إلى العواقب وتأثير نزول القرآن وذكر أسماء الحق تعالى وصفاته وبيان أن جملة الخلائق فى تسبيحه وتقديسه فى قوله (الأسماء الحسنى) إلى آخر السورة .

ليس فيها منسوخ .

المتشابهات :

قوله تعالى : (وما أفاء الله) وبعده : (ما أفاء الله) بغير واو، لأن الأول معطوف على قوله : (ما قطعتم) والثانى استئناف ليس له به تعلق . وقول من قال : انه بدل من الأولى زيف عند أكثر المفسرين . قوله : ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ وبعده : ﴿ قوم لا يعقلون ﴾ "لأن الأول متصل بقوله : ﴿ لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ﴾ لأنهم يرون الظاهر ولا يفقهون على ما استتر عليهم والفقه معرفة ظاهر الشرع وغامضه بسرعة فطنة فنفى عنهم ذلك والثانى متصل بقوله : ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) أى لو عقلوا لاجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا .

وجه إرتباطها بما قبلها :

وذلك من وجوه

(١) إن من آخر السالفة قال : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) وفى أول هذه قال « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب » .

(٢) إن فى السابقة ذكر من حاد الله ورسوله وفى أول هذه ذكر من شاق الله ورسوله .

(٣) إن فى السالفة ذكر حال المنافقين واليهود وتولى بعضهم بعضا وفى هذه ذكر ما حل باليهود وبيان عدم فائدة تولى المنافقين إياهم « روى أن بنى النضير كانوا قد صالحوا رسول الله ـ ﷺ ـ على ألا يكونوا عليه ولا له فلما ظهر يوم بدر قالوا هو النبى الذى نعت فى التوراة لا ترد له راية

فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا فخرج كعب بن الأشرف فى أربعين راكباً إلى مكة فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة ، فأخبر جبريل النبى — ﷺ — بذلك فأمر بقتل كعب فقتله محمد بن سلمة غيلة وهو عروس وكان عليه الصلاة والسلام قد أطلع منهم على خيانة حين أتاهم ليستعينهم فى دية المسلمين من بنى عامر عند منصرفه من بئر معونة إذ هموا بطرح حجر عليه فعصمه الله) .

وبعد أن قتل كعب بأشهر تهيأ المسلمون لقتالهم وساروا مع رسول الله — ﷺ — واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم حتى إذا نزل فى بنى النضير وجدهم ينوحون على كعب وقالوا ذرنا نبكى شجونا ثم ائتمر أمرك) فقال : اخرجوا من المدينة . فقالوا الموت أقرب إلينا من ذلك ، فتنادوا بالحرب ودس المنافقون عبد الله بن أبى وأحزابه إليهم ألا يخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم . وإن أخرجتم لنخرجن معكم ، فحصنوا الأزقة وحاصروهم إحدى وعشرين ليلة وقذف الله الرعب فى قلوبهم وأيسوا من نصر المنافقين فطلبوا الصلح فأبى إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من متاعهم ، فحملوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات إلا أهل بيتين منهم هما آل أبى الحقيق وآل حيى بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة وقبض النبى - ﷺ - أموالهم وسلاحهم فوجد خمسين درعاً وخمسين سيفاً » .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ① هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ
حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ
وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ② وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى
ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ③ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ④ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ⑤

معانى المفردات

الذين كفروا : هم بنو النضير (بزنة أمير) قبيلة عظيمة من اليهود كبنى قريظة ، والحشر : إخراج جمع من مكان إلى آخر ، ولأول الحشر : أى فى أول حشرهم ، أى : جمعهم وإخراجهم من جزيرة العرب ونفيهم إلى بلاد الشام ، وآخر حشر : إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام ، والحصون : واحده حصن وهو القصر الشاهق والقلعة المشيدة ، مانعتهم حصونهم من الله : أى : مانعتهم من بأسه وعقابه ، فأتاهم الله : أى : جاءهم عذابه ، من حيث لم يحتسبوا : أى : من حيث لم يخطر لهم ببال ، وقذف الشيء : رميه بقوة ، والمراد هنا إثباته وركزه فى قلوبهم ، والرعب : الخوف الذى يملأ الصدر ، يخربون : أى : يهدمون ، فاعتبروا : أى : فاتعظوا ، والاعتبار : النظر فى حقائق الأشياء وجهات دلالتها ، ليعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها ، وأجليت القوم عن دارهم : أى : أخرجتهم منها ، وجلوا : خرجوا ، وقد فرقوا بين الاجلاء والاخراج من وجهين : أن الأول لا يكون إلا للجماعة ، والثانى يكون لواحد وللجماعة وأن الأول ما كان مع الأهل والولد والثانى يكون مع بقائهما ؛ واللينة : النخلة .

المناسبة وإجمال المعنى

لقد نقض اليهود عهد رسول الله — ﷺ — وظاهروا المشركين اتكالاً على مساعدة المنافقين لهم ومناعة حصونهم ، فتهيأ رسول الله — ﷺ — وسار لقتالهم ، فلما علموا بقدومه حصنوا الأزقة فحاصرهم عليه الصلاة والسلام عدة أيام وألقى الله الرعب فى قلوبهم ، فطلبوا الصلح فأبى إلا الجلاء ، وأخرجهم من حصونهم بعد تخريبها بأيديهم وأيدى المؤمنين . ولولا جلاؤهم لعذبهم فى الدنيا بالقتل والأسر ، ولهم فى الآخرة عذاب شديد ، وما كان ذلك إلا بإذن الله وتقديره للأمور وفق الحكمة والمصلحة

أضواء كاشفة

اجلاء بنى النضير يحتاج فهمه إلى مقدمة تاريخية بسيطة ، تتلخص فى أن النبى — ﷺ — حينما هاجر إلى المدينة وادع اليهود ، وعقد معهم العهود على أن لا يقاتلهم ، ولا يقاتلوه ، وظل الحال كذلك حتى وقع ما جعل المسلمين يحاصرون بنى قينقاع ويجلوهم عن المدينة ، عقب غزوة بدر ، ثم كانت غزوة أحد التى هزم فيها جيش المسلمين ، وكان لهذا أثر عميق فى نفوس المنافقين واليهود ، وقبائل العرب مما كان سبباً فى حوادث تتابعت كيوم الرجيع — وفيه قتلت هذيل ثلاثة من خيار الصحابة وأسرت ثلاثة قتلت منهم واحداً فى الطريق ، وباعت إثنين لقريش فقتوهما ، وهما زيد بن الدثنة وخبيب — ويوم بئر معونة ، وفيه قتل من المسلمين أربعون غيلة . ووجد المنافقون واليهود فيما أصاب المسلمين فى بئر

معونة والرجيع وغزوة أحد ما شجعهم على الانتقاص من محمد وصحبه ، ووجدوا مالضعف فى نفوسهم هيئة ، وفكر النبى — ﷺ — كثيراً فى هذا الأمر ، وعمل على تقوية الجبهة الداخلية حتى لا يكون هناك خلاف فى وجهة النظر فى المدينة وما حوالها ، ورأى النبى أن من الحكمة السياسية أن يستطلع نوايا اليهود ؛ فذهب يوماً إلى بنى النضير يسألهم المعونة فى دية قتيلين قتلهما أحد المسلمين خطأ ، وهما من بنى عامر حلفائهم ، ذهب إليهم فى عشرة من أصحابه . فلما ذكر لهم ما جاء من أجله أظهروا الغبطة والسرور ، إلا أنه بدت فيهم حركة مريبة وأنهم يدبرون قتله على يد عمر بن جحاش بن كعب اليهودى بواسطة حجر يلقيه على النبى من فوق السطح وهو جالس بجوار الجدار ، فلما أطلعه الله على ذلك خرج الرسول وحده وقصد المدينة ، وظن من معه من الصحابة أنه قام لبعض شأنه فلما استبطأوا النبى ضبوه فعموا أنه قصد المدينة ودخل المسجد ، فلما ذكر ما رابه من أمر اليهود ، ومن اعتزامهم الغدر به ، قرر المسلمون إجلاءهم من المدينة حتى يهدأ الجو ، ويصفو ، فأرسل النبى لهم محمد بن مسلمة وقال هم على لسان الرسول : أخرجوا من بلادى لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى . ولقد أجلتكم عشراً ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه ، ضاقت الدنيا فى وجه بنى النضير وتشاوروا فى أمرهم ، وبينما هم كذلك إذ جاءهم رسول عبد الله بن أبى المنافق يشير عليهم بالبقاء والتحصن ، ويعرض عليهم ألفين من قومه وغيرهم ، فانتهى الأمر فيما بينهم إلى التحصن بالحصون ، وظنوا أنها تمنعهم من النبى — ﷺ — أما المسلمون فساروا إليهم وحاصروهم عشرين ليلة ، وأمر النبى المسلمين أن يقطعوا نخلهم أو يحرقوه حتى لا تبقى اليهود متعلقة بأموالها متحمسة لديارها ، وجزع اليهود ، ونادوا يا محمد : قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من يصنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ وفى ذلك نزل قول تعالى : ﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها** ﴾[1] الآية .

وفى الآيات التى بين أيدينا يخبر الحق — تبارك وتعالى — بأن جميع ما فى السموات وما فى الأرض يسبحه ويقدسه ويصلى له ويوحده ، وينقاد له ويسجد : ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾[2] وكيف لا يكون ذلك كذلك ؟ وهو العزيز الجبار الحكيم الفعال ، ومن مظاهر هذا إجلاء بنى النضير الذى ذكر فى قوله تعالى بما معناه : هو الحق سبحانه الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب — وهم بنو النضير من ديارهم وأموالهم بعد ما نقضوا العهود ، وعادوا الرسول والمؤمنين أخرجهم فى وقت الحشر الأول من ديارهم .

سبحانه أخرج بنى النضير من ديارهم رغم كثرة عددهم ، ووفرة عُددهم ، وقرب بنى قريظة وأهل خيبر منهم ، وعرض المنافقين مساعدتهم عليهم ، لهذا كله ما ظن المسلمون أنهم يخرجون ، وقد ظنوا هم أن حصونهم تمنعهم من بأس الله إذ جاءهم ، فما أغنى عنهم من ذلك شىء أبداً ، وجاءهم

(١) سيرة ابن هشام — من إجلاء بنى النضير ٣ / ١١٩ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ٤٤

من الله ما لم يكن بالهم ، وقد قذف الله في قلوبهم الرعب ، وكيف لا ... ؟ والنبي نصر بالرعب من مسيرة شهر ، فكان ما أراد المسلمون ، وصالحوهم على أن يخرجوا من ديارهم ، ولكل ثلاثة منهم بعير ، يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ليس لهم غيره ، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم ليأخذوا ما غلا ثمنه وخف حمله ﴿ **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار** ﴾ وتفكروا في عاقبة من خاف الله ورسوله ، ومن لم يخف الله ورسوله .

ولولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء لكان لهم عذاب في الدنيا أشد ، وهو القتل والأسر ، ولهم في الآخرة على كفرهم عذاب النار . ذلك كله بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله وعادوه ، وأرادوا قتله ، وأطلقوا عليه ألسنتهم وأيديهم بالسوء ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ، وانظر إلى القرآن حيث جعل عداوة الرسول عداوة لله ، كما أن طاعته كذلك .

وقد كان المسلمون أثناء الحصار يقطعون نخيلهم ويحرقونه ، فقيل إن هذا سعي في الأرض بالفساد والله حرمه ، فأجاب العزيز الحكيم بقوله : ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها كما هي بلا قطع فذلك كله بإذن الله وأمره ، وفي هذا خير بلا شك ، والله أمر بهذا ليعز المؤمنين ، وليذل ويخزي الفاسقين .

غزوة بني النضير

أ) نواة الطرفين :

أولاً : المسلمون :

مسلمو المدينة بقيادة الرسول — ﷺ —

ثانياً : اليهود :

بنو النضير : الذين كانت منازلهم بناحية « الغُرْس » وما والاها .

ب) الهدف :

التخلص من بني النضير لتآمرهم على اغتيال الرسول — ﷺ —

ج) الحوادث :

ذهب النبي — ﷺ — إلى منازل بني النضير في ضواحي المدينة ليستعين بهم في دية قتيلين معاهدين للمسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْري خطأ دون أن يعلم بعهدهما فلما فاوضهم الرسول ، أظهروا الرضا بمعونته ، فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم مع عشرة من أصحابه بينهم أبو بكر وعمر وعلي . وفي أثناء تبسّط بعضهم معه في الحديث رأى أن بعضهم يأتمرون به ، فيذهب أحدهم إلى ناحية ، ويبدو عليهم كأنهم يذكرون مقتل كعب بن الأشرف ، ثم يدخل أحدهم « عمرو بن جحاش » البيت الذي كان الرسول — ﷺ — مستنداً إلى جداره .

حينذاك رابه أمرهم وزاده ريبة ما كان يلغه سابقاً من حديثهم عنه وائتمارهم به ، فترك موقعه بالقرب من الجدار ، وقفل راجعاً إلى المدينة وحده . ولما استبطأه أصحابه ، قاموا للتفتيش عنه ، فرأوا رجلاً مقبلاً من المدينة أخبرهم أن النبي ـ ﷺ ـ هناك ، فأسرعوا يلحقون به . فلما ذكر ما رابه من أمر اليهود ومن اعتزامهم الغدر به ، تنبهوا إلى حركات اليهود التي تدل على مؤامرتهم للقضاء على حياة الرسول ـ ﷺ ـ

وقد عرف ـ بعد ـ أن عمرو بن جحاش هو الذي أراد قتل النبي ـ ﷺ ـ بإلقاء حجر الرحى عليه من فوق سطح الجدار الذي كان الرسول تحته .

استدعى الرسول ـ ﷺ ـ محمد بن مَسْلَمة وقال له : «اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي ، لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي . لقد أجلتكم عشراً ، فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه» .

لم يجد اليهود بعد ذلك مناصاً من الخروج ، فأخذوا يتجهزون للرحيل ، إلا أن منافقي المدينة وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ أرسلوا إليهم : «أن اثبتوا ونحن ننصركم على محمد وصحبه» .

عند ذلك عادت لليهود ثقتهم بأنفسهم ، واستقر رأيهم على القتال ، وأرسلوا للنبي ـ ﷺ ـ من يقول له : «لن نخرج فافعل ما بدالك» .. ثم اجتمعوا بحصونهم ونقلوا الحجارة إلى شوارعهم وأقاموا منها متاريس وخنادق للاحتماء وراءها في القتال ، وكدسوا أرزاقاً تكفيهم لمدة سنة في حصارهم ، وكان الماء متيسراً لديهم باستمرار . تحرك المسلمون بقيادة الرسول القائد إلى ديار بني النضير ، فحاصروهم عشرين ليلة ، كانوا أثناءها يحتلون شارعاً بعد شارع وداراً بعد دار ولما رأى الرسول ـ ﷺ ـ إصرار اليهود على القتال مستفيدين من حصونهم القوية ، أمر أصحابه أن يقطعوا نخل اليهود وأن يحرقوه ، حتى لا تبقى اليهود على حماسها في القتال طمعاً في المحافظة على أموالها .

وجزع اليهود وانتظروا عبثاً إسراع عبد الله بن أبيّ أو القبائل الأخرى لنجدتهم ، فسألوا محمداً ـ ﷺ ـ أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم ، حتى يخرجوا من المدينة .

وافق الرسول ـ ﷺ ـ على مصالحتهم بشرط أن يخرجوا من المدينة ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ليس لهم غيره ، فخرج بعضهم إلى «خيبر» وبعضهم إلى ضواحي الشام ، وتركوا للمسلمين وراءهم مغانم كثيرة من سلاح بلغ خمسين درعاً وثلاثمائة وأربعين سيفاً ، وغلالاً عظيمة ، كما أصبحت أرضهم للمسلمين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ هذا إخبار منه تبارك وتعالى أن جميع ما فى السموات والأرض من شىء يسبح له ويمجده ويقدسه ويصلى له ويوحده كقوله تعالى : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وهو العزيز ﴾ أى : منيع الجناب (الحكيم) فى قدره وشرعه . وقوله تعالى : ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ : يعنى يهود بنى النضير . قاله ابن عباس ومجاهد والزهرى وغير واحد كان رسول الله — ﷺ — لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه فنقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه فأحل الله بهم بأسه الذى لا مرد له وأنزل عليهم قضاءه الذى لا يصد فأجلاهم النبى — ﷺ — وأخرجهم من حصونهم الحصينة التى ما طمع فيها المسلمون وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله فما أغنى عنهم من الله شيئاً وجاءهم إلى أذرعات من أعالى الشام وهى أرض المحشر والمنشر ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر ، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم فكانوا يخربون ما فى بيوتهم من المنقولات التى يمكن أن تحمل معهم ولهذا قال تعالى : ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يأولى الأبصار ﴾ أى : تفكروا فى عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزى له فى الدنيا مع ما يدخره له فى الآخرة من العذاب الأليم .

قال أبو داود بسنده عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبى — ﷺ — أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبى ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج ورسول الله — ﷺ — يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر إنكم آويتم صاحبنا وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم ، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبى ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال النبى — ﷺ — فلما بلغ ذلك النبى — ﷺ — لقيهم فقال : « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم » . فلما سمعوا ذلك من النبى — ﷺ — تفرقوا فبلغ ذلك كفار قريش فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شىء وهو الخلاخيل . فلما بلغ كتابهم النبى — ﷺ — أجمعت بنو النضير بالغدر فأرسلوا إلى النبى — ﷺ — : أخرج إلينا فى ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً حتى نلتقى بمكان المنصف ، فيسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك فقص خبرهم فلما كان الغد ، غدا عليهم رسول الله — ﷺ — بالكتائب فحصرهم ...
...دى إلا بعهد تعاهدو...

بالكتائب وترك بنى النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء فجلت بنو النضير واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها فكان نخل بنى النضير لرسول الله — ﷺ — خاصة أعطاه الله إياها وخصه بها فقال تعالى : ﴿ **وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب** ﴾ يقول بغير قتال ، فأعطى النبى — ﷺ — أكثرها للمهاجرين وقسمها بينهم وقسم منها رجلين من الأنصار وكانا ذوى حاجة ولم يقسم لأحد من الأنصار غيرهما وبقى منها صدقة رسول الله — ﷺ — التى فى أيدى بنى فاطمة — رضى الله عنها —[1]

وهذا ملخص الغزوة بنى النضير كما ذكره أصحاب المغازى والسير : وإنه لما قتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول الله — ﷺ — رضى الله عنهم وكانوا سبعين . وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمرى فلما كان فى أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بنى عامر وكان معهما عهد من رسول الله — ﷺ — وأمان لم يعلم به عمرو فلما رجع أخبر رسول الله — ﷺ — فقال له رسول الله — ﷺ — : « لقد قتلت رجلين لأدينهما » وكان بين بنى النضير وبنى عامر حلف وعهد فخرج رسول الله — ﷺ — إلى بنى النضير ليستعينهم فى دية ذينك الرجلين وكانت منازل بنى النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها . قال محمد بن إسحاق بن يسار فى كتابه السيرة : ثم خرج رسول الله — ﷺ — إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى للجوار الذى كان رسول الله — ﷺ — عقد لهما فيما حدثنى يزيد بن رومان وكان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف فلما أتاهم رسول الله — ﷺ — يستعينهم فى دية ذينك القتيلين قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — ورسول الله — ﷺ — إلى جنب جدار من بيوتهم — فمن رجل يعلو على هذا البيت يلقى عليه صخرة فيريحنا منه ، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال : ورسول الله — ﷺ — فى نفر من أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلى — رضى الله عنهم — فأتى رسول الله — ﷺ — الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة فلما استلبث النبى — ﷺ — أصحابه قاموا فى طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه فقال : رأيته داخلاً المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله — ﷺ — حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به وأمر رسول الله — ﷺ — بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه فى الحصون فأمر رسول الله — ﷺ — بقطع النخل والتحريق فيها . فنادوه : أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد فى الأرض وتعيب على من يصنعه فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ .

(١) سنن أبى داود — كتاب الخراج والإمارة والفىء — باب فى خبر النضير ٣ : ٤٠٤ رقم ٣٠٠٤

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبىّ بن سلول ووديعة ومالك بن أبى قوقل وسويد وداعس قد بعثوا إلى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا وقذف فى قلوبهم الرعب ، فسأل رسول الله — ﷺ — أن يجليهم عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعلوا فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام وخلوا الأموال لرسول الله — ﷺ — فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة — سماك بن خرشة — ذكرا فقراً فأعطاهما رسول الله — ﷺ — قال : ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عمرو بن كعب عم عمرو بن جحاش وأبو سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما فأحرزاها . قال ابن اسحاق : وقد حدثنى بعض آل يامين أن رسول الله — ﷺ — قال ليامين : « ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأنى ، فجعل يامين بن عمرو لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله فيما يزعمون . قال ابن اسحاق : ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها .[1] فقوله تعالى : ﴿ **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ يعنى بنى النضير . ﴿ **من ديارهم لأول الحشر** ﴾ . قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : من شك فى أن أرض المحشر ههنا — يعنى الشام — فليقرأ هذه الآية : ﴿ **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر** ﴾ قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر »[2] . وحدثنا أبو سعيد الأشج بسنده عن الحسن قال : لما أجلى رسول الله — ﷺ بنى النضير قال : « هذا أول الحشر وأنا على الأثر » ورواه ابن جرير عن ابن بشار عن ابن أبى عدى عن عوف عن الحسن به[3]

وقوله تعالى : ﴿ **ما ظننتم أن يخرجوا** ﴾ أى : فى مدة حصاركم لهم وقصرها وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها ولهذا قال تعالى : ﴿ **وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا** ﴾ أى جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال . كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ **قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ **وقذف فى قلوبهم الرعب** ﴾ أى : الخوف والهلع والجزع وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذى نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات الله وسلامه عليه .

(١) سيرة بن هشام ٣ / ١٠٠ — ٢٠١ — ٢٠٩

(٢) انظر تفسير ابن كثير — طبعة الشعب ٨ / ٨٤

(٣) تفسير الطبرى — طبعة الحلبى ٢٨ / ٢٩

(٤) سورة النحل الآية : ٢٦

وقوله : ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ﴾ هو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم وتحملها على الإبل . قال مقاتل بن حيان : كان رسول الله — ﷺ — يقاتلهم فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال . وكان اليهود إذا علوا مكاناً أو غلبوا على درب أو دار نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها . يقول الله تعالى : ﴿ فاعتبروا يأولى الأبصار ﴾ . وقوله : ﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ﴾ أى : لو أن كتب الله عليهم هذا الجلاء وهو النفى من ديارهم وأموالهم لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبى ونحو ذلك قاله الزهرى عن عروة والسدى وابن زيد لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم فى الدار الدنيا مع ما أعد لهم فى الدار الآخرة من العذاب فى نار جهنم . قال ابن أبى حاتم بسنده عن عروة بن الزبير قال : ثم كانت وقعة بنى النضير وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر وكان منزلهم بناحية من المدينة ، فحاصرهم رسول — ﷺ — حتى نزلوا على الجلاء وأن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة وهى السلاح فأجلاهم رسول الله — ﷺ — قبل الشام . قال : والجلاء أنه كتب عليهم فى آى من التوراة وكانوا من سبط لم يصبهم الجلاء قبل ما سلط عليهم رسول الله — ﷺ — وأنزل الله فيهم : ﴿ سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض — إلى قوله — وليخزى الفاسقين ﴾ وقال عكرمة : الجلاء : القتل ، وفى رواية عنه : الفناء ، وقال قتادة : الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد : وقال الضحاك أجلاهم إلى الشام وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء . فهذا الجلاء .

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى بسنده عن ابن عباس قال : كان النبى — ﷺ — قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ فأعطوه ما أراد منهم فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء . والجلاء : إخراجهم من أرضهم إلى أرض أخرى(١) .

وروى أيضاً من حديث يعقوب بن محمد الزهرى بسنده عن محمد بن مسلمة أن رسول الله — ﷺ — بعثه إلى بنى النضير وأمره أن يؤجلهم فى الجلاء ثلاثة أيام(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ ولهم فى الآخرة عذاب النار ﴾ أى : حتم لازم لابد لهم منه .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ أى : إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسله المتقدمين فى البشارة بمحمد — ﷺ — وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال : ﴿ ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ .

---

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل — انظر الدر المنثور ٦ / ١٩١

(٢) الدر المنثور للسيوطى — طبعة دار الفكر ٨ / ٩١

وقوله تعالى : ﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين** ﴾ : اللين : نوع من التمر وهو جيد . قال أبو عبيدة : وهو ما خالف العجوة والبرنى من التمر . وقال كثيرون من المفسرين : اللينة ألوان التمر سوى العجوة . قال ابن جرير : هو جميع النخلة ونقله عن مجاهد : وهو البويرة أيضاً . وذلك أن رسول الله ــ ﷺ ــ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم . فروى محمد بن اسحاق عن يزيد بن رومان وقتادة ومقاتل بن حيان أنهم قالوا فبعث بنو قريظة يقولون لرسول الله ــ ﷺ ــ : إنك تنهى عن الفساد فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة[1] أى ما قطعتم من لينة وما تركتم من الأشجار فالجميع بإذنه ومشيئته وقدره ورضاه وفيه نكاية للعدو وخزى لهم ، وإرغام لأنوفهم . وقال مجاهد : نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل وقالوا : إنما هى مغانم المسلمين . فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الإثم وإنما قطعه وتركه بإذنه ، وقد روى نحو هذا مدفوعاً فقال الترمذى بسنده عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين** ﴾ قال : استنزلوهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحك فى صدورهم ، فقال المسلمون : قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً فلنسألن رسول الله ــ ﷺ ــ هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله : ﴿ **ما قطعتم من لينة** ﴾ . وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده بسنده عن جابر قال : رخص لهم فى قطع النخيل ثم شدد عليهم فأتوا النبى ــ ﷺ ــ فقالوا : يا رسول الله : علينا إثم فيما قطعنا أو علينا وزر فيما تركنا فأنزل الله ــ عز وجل ــ : ﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله** ﴾[1] . وقال الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر أن رسول الله ــ ﷺ ــ قطع نخل بنى النضير وحرق[2] ، وأخرجه صاحبا الصحيح من رواية موسى بن عقبة[3] بنحوه ، ولفظ البخارى من طريق عبد الرزاق عن ابن جريج عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر قال : أحاربت النضير وقريظة فأجلى بنى النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبى ــ ﷺ ــ فآمنهم وأسلموا وأجلى يهود المدينة فآمنهم وأسلموا وأجلى يهود المدينة كلهم بنى قينقاع وهم رهط عبد الله ابن سلام ويهود بنى حارثة وكل يهود بالمدينة ، ولهما أيضا عن قتيبة عن الليث بن سعد عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ــ ﷺ ــ حرق نخل بنى النضير وقطع وهى البويرة فأنزل الله ــ ﷺ ــ فيه : ﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين** ﴾ .

---

(١) تفسير الطبرى ــ طبعة الحلبى ٢٨ / ٣٤

(٢) سنن الترمذى ــ كتاب التفسير ــ تفسير سورة الحشر ٥ / ٨١ رقم ٣٣٥٧

ما هو الفيء وما حكمه

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ
عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ
وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ
الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ
مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ
رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

معانى المفردات

(وما أفاء) : المراد ما رده الله على رسوله ، والفيء فى اصطلاح علماء الإسلام ما أخذ من الكفار بلا حرب ولا إيجاف خيل بخلاف الغنيمة فإنها ما أخذت بحرب ، ولكل تقسيم يخالف الآخر . (فما أوجفتم) وجف الفرس والبعير وجيفاً : عدا ، وأوجفه : جعله يعدو أى يسرع فى الجرى (من خيل ولا ركاب) الخيل معروفة ، والركاب هى الإبل خاصة (دولة) : يقال : تداول القوم الكرة كانت فى يد هذا ثم فى يد هذا ، والإسم : الدولة بضم الدال وفتحها ، وقال بعضهم : الدَّولة فى المُلك ، والدُّولة فى المِلْك . (تبوءوا الدار والإيمان) إتخذوها مباءاً ومنزلاً مع الإيمان (ويؤثرون) الإيثار هو تقديم الغير على النفس فى أغراض الدنيا (خصاصة) حاجة (شح نفسه) الشح لؤم الطبع ويلزمه البخل مع الحرص (غلاً) حقداً وحسداً .

وهذا شروع فى بيان حكم الأموال التى أخذت منهم بعد بيان ما حل بهم فى الدنيا ، وما أعد لهم فى الآخرة ، ثم استطرد فذكر أصناف المؤمنين الذين يستحقون الفىء .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين سبحانه ما حل ببنى النضير من العذاب العاجل كتخريب بيوتهم بأيديهم وتحريق نخيلهم وتقطيعها ، ثم إجلائهم من بعد ذلك عن الديار إلى الشام دون أن يحملوا إلا القليل من المتاع — ذكر هنا حكم ما أخذ من أموالهم فجعله فيئاً لله ورسوله ينفق منه على أهله نفقة سنة ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عُدّة فى سبيل الله ، ولا يقسم بين المقاتلة كالغنيمة ، لأنهم لم يقاتلوا لأجله .

روى أن الصحابة — رضى الله عنهم — طلبوا من الرسول — ﷺ — أن يقسم الفىء بينهم كما تسم الغنيمة فى بدر وغيرها بينهم ، فبين سبحانه الفرق بين الأمرين ، بأن الغنيمة تكون فيما أتعبتم أنفسكم فى تحصيله وأوجفتم عليه الخيل والركاب ، والفىء فيما لم تتحملوا فى تحصيله تعباً ، وحينئذ يكون أمره مفوضاً إلى الرسول يضعه حيث يشاء .

وبعد أن بين مصارف الفىء ، وذكر أنه لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين — ذكر أنه أراد بهم فقراء المهاجرين الذين لهم هذه الصفات السامية ، والمناقب الرفيعة ، ثم مدح الأنصار ساكنى المدينة وبالغ فى مدحهم ، فذكر لهم هذه الفضائل :

(١) إنهم يحبون المهاجرين .

(٢) إنهم ليس فى قلوبهم حقد ولا حسد لهم .

(٣) إنهم يفضلونهم على أنفسهم ويعطونهم ما هم فى أشد الحاجة إليه ، وما ذاك إلا لأن الله عصمهم من الشح المردى والبخل المهلك ، الذى يدسّى النفوس ويمنعها من اكتساب الخير وعمل البر .

ثم ذكر أن التابعين لهم بإحسان ، وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة ، يدعون لأنفسهم ومن سبقهم من المؤمنين بالمغفرة ، ويطلبون من الله ألا يجعل فى قلوبهم حقداً وحسداً لهم .

أضواء كاشفة

وما أعاده الله على رسوله من أموال بنى النضير فما ركبتم لأجلها خيلاً ولا إبلاً ولا تجشمتم فى تحصيلها مشقة ، ولا لقيتم بها حرباً ، ولذا كانت هذه الأموال لرسول الله بعد تقسيم خمسها على مستحقيه كما فى الآية .

ولكن الله يسلط رسله على من يشاء من أعدائه ، وفى هذا بيان أن الأموال للرسول وليست

لأصحابه لأنهم لم يوجفوا لها خيلاً ، ولم يركبوا لها إبلاً ، ولم يقاسوا فيها من شدائد الحروب ، والله على كل شيء قدير يسلط من يشاء على من يشاء .

وكأن الله خلق المال والمتاع ليتقرب به العبد إلى ربه ، فإذا صرف فى غير محله ، واستولى عليه الكفار ليصرفوه فى غير وجوهه فقد خرج عن وضعه الأصلى ثم إذا عاد إلى المسلم الذى ينفقه فى وجوه الخير فقد عاد إلى الوجه الأول ، ولذا عبّر الله بقوله : ما أفاء الله على رسوله .

وكأن سائلاً سأل وقال : قد علمنا حكم ما أفاء الله على رسوله من أموال بنى النضير فما حكم الفيء إذا كان من غيرهم ؟ والجواب هو : ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل .

والفيء يقسم خمسة أقسام ، خمس منها يقسم خمسة أخماس : سهم لله وللرسول ، وكان له فى حياته ثم يصرف على مصالح المسلمين بعد وفاته ، وسهم لذوى القربى من أقارب الرسول وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب ، والأربعة أخماس الباقية فهى للنبى - ﷺ - خاصة ، وقد وزعها فى حياته على المهاجرين ولم يعط من الأنصار إلا رجلين أظهرا الفقر ، وبعد وفاته تصرف للمرتزقة من الجند أى للجيش ما لم يوجد لهم تبرع أو مرتب خاص ، أما الغنيمة فتقسم خمسة : - خمس لهؤلاء الخمسة كما فى سورة الأنفال والأربعة أخماس الباقية للمقاتلين الذين حضروا المعركة كما فى سورة الأنفال ، وإنما كان تقسيم الفيء على هذا النظام كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم يتداولونه بينهم ، ويحرم الفقير منه ، فإذاً : يفهم من هذا التعليل أن هذا المال يصرف للفقراء المحتاجين كما أنفقه النبى على المهاجرين دون الأنصار .
من هذا التعليل أن هذا المال يصرف للفقراء المحتاجين كما أنفقه النبى على المهاجرين دون الأنصار .

أيها المسلمون ، ما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله وهذا هو دستور الإسلام الحق الجامع لكل أمر ونهى ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب « للفقراء المهاجرين فى سبيل الله .. » فكأن الله قال : أعنى بأولئك الأربعة — لذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . هؤلاء الفقراء المهاجرين أو الأنصار أو التابعين . وقال بعضهم : المعنى اعجبوا لهؤلاء الفقراء حيث تركوا الأوطان والأموال وتحملوا الضيق والتغرب فى حب النبى — ﷺ — وهل الفقر شرط فى إعطائهم أولاً ؟ قولان : للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله : حالة كونهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ناوين نصرة الرسول ودينه ، أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات الجليلة هم الصادقون فى دعوى الإيمان حيث نالهم ما نالهم من أجله ، ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ﴾ هم الأنصار — رضى الله عنهم — نزلوا المدينة واتخذوها مباءة ومنزلاً للإسلام ، وموئلاً له ، وألفوا الإيمان وأخلصوا له من قبل هجرة المهاجرين إليهم يحبون من هاجر إليهم من المهاجرين ، ولا يجدون فى صدورهم حسداً ولا غيظاً مما أوتوا أى مما أعطى المهاجرون من الفيء وغيره ، مع حرمانهم منه ، فنفوسهم لم تتبع ما أعطى المهاجرون ولم تطمع إلى شيء منه تحتاج إليه ،

على أنهم يؤثرون على أنفسهم غيرهم ، ويقدمون المهاجرين على أنفسهم في كل شيء من الطيبات مع الحاجة إليه ، حتى إن من كان عنده امرأتان نزل لأخيه المهاجر عن واحدة وخيره فيهما ، وهذا هو مظهر من مظاهر الإخاء الذى فعله النبى — ﷺ — عندما استقر بالمدينة ، وهذا بلا شك يدل على صفاء النفس من أكدار المادة والدنيا ، ويدل على قوة الروح ومبلغ العزوف عنها ، ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون لا غير ، فالشح داء عضال لا يصدر عنه خير ، وهو سبب الكثير من الجرائم :

والذين جاءوا من بعدهم إلى الدين الجديد حيث تأخر زمنهم أو جاءوا بعد المهاجرين وآمنوا بعد الفتح واستتباب الدولة الإسلامية حالة كونهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان فهى أخوة فى الدين ، ولا شك أنها أعز من أخوة النسب ، اللهم لا تجعل فى قلوبنا غلاً ولا حقداً للذين آمنوا مطلقاً ، ربنا إنك رءوف بنا رحيم بخلقك ، ومن هنا يظهر موقف الصحابة ومكانتهم ، وأن الواجب أن ندعوا لهم بخير وأن نلهم فيهم الصدق والإخلاص الكامل . وفى الحديث : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم »[1] .

التفسير

يقول تعالى مبيناً ما الفىء وما صفته وما حكمه ، فالفىء كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كأموال بنى النضير هذه فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أى لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة بل نزل أولئك من الرعب الذى ألقى الله فى قلوبهم من هيبة رسول الله — ﷺ — فأفاءه الله على رسوله ولهذا تصرف فيه كما يشاء فرده على المسلمين فى وجوه البر والصالح التى ذكرها الله — عز وجل — فى هذه الآيات فقال تعالى : ﴿ **وما أفاء الله على رسوله منهم** ﴾ أى من بنى النضير ﴿ **فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب** ﴾ يعنى الإبل ﴿ **ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير** ﴾ أى : هو قدير لا يغالب ولا يمانع بل هو القاهر لكل شىء . ثم قال تعالى : ﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى** ﴾ أى جميع البلدان التى تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بنى النضير . ولهذا قال تعالى : ﴿ **فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل** ﴾ إلى آخرها . والتى بعدها . فهذه مصارف لموال الفىء ووجوهه .

قال الإمام أحمد بسنده عن عمر — رضى الله عنه — قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب فكانت لرسول الله — ﷺ — خالصة فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته ، وقال مرة : قوت سنته وما بقى جعله فى الكراع والسلاح فى سبيل الله — عز وجل —[2]

(١) قال العجلونى فى كشف الخفا : رواه البيهقى ، وأسنده الديلمى عن ابن عباس بلفظ : « أصحابى بمنزلة النجوم فى السماء بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

(٢) مسند أحمد ١ / ٢٥ ، ١٨

وفى الصحيحين عن مالك بن أوس قال : أرسل إلىّ عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — حين تعالى النهار فجئته فوجدته جالساً على سرير مفضياً إلى رماله فقال حين دخلت عليه : يا مالك إنه قد دَفّ أهل أبيات من قومك وقد أمرت فيهم بشيء فاقسم فيهم ، قلت : لو أمرت غيرى بذلك . فقال : خذه فجاءه يرفا فقال : يا أمير المؤمنين : هل لك فى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص ؟ قال : نعم ، فأذن لهم فدخلوا ثم جاءه يرفا فقال : ياأمير المؤمنين : هل لك فى العباس وعلى ؟ قال نعم ، فأذن لهما فدخلا . فقال العباس : ياأمير المؤمنين : اقض بينى وبين هذا — يعنى علياً ، فقال بعضهم : أجل ياأمير المؤمنين ، اقض بينهما وارحهما ، قال مالك بن أوس : خيل إلىّ أنهما قدما أولئك النفر لذلك . فقال عمر — رضى الله عنه — : اتئد ، ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون أن رسول الله — ﷺ — قال : « لا نورث ما تركنا صدقة » قالوا نعم ، ثم أقبل على علىّ والعباس فقال : أنشدكما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان أن رسول الله — ﷺ — قال : « لا نورث ما تركنا صدقة » فقالا : نعم . فقال : إن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس فقال تعالى : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير ﴾ فكان الله تعالى أفاء على رسوله أموال بنى النضير فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم ، فكان رسول الله — ﷺ — يأخذ منها نفقة سنة أو نفقته ونفقة أهله سنة ويجعل ما بقى أسوة المال ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم . ثم أقبل على علىّ والعباس فقال : أنشدكما بالله بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان ذلك ؟ قالا نعم ، فلما توفى رسول الله — ﷺ — قال أبو بكر : أنا ولى رسول الله — ﷺ — فجئت أنت وهذا إلى أبى بكر تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها . فقال أبو بكر — رضى الله عنه — : قال رسول الله — ﷺ — : « لا نورث ما تركنا صدقة » والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق فوليها أبو بكر ، فلما توفى قلت : أنا ولى رسول الله — ﷺ — وولى أبى بكر فوليتها ما شاء الله أن أليها فجئت أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد فسألتمانيها فقلت إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تلياها بالذى كان رسول الله — ﷺ — يليها فأخذتماها منى على ذلك ثم جئتمانى لأقضى بينكما بغير ذلك ، والله لا أقضى بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة فإن عجزتما عنها ، فرداها إلىّ[1] ، أخرجاه من حديث الزهرى به قال الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله — ﷺ — قال : إن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات أو كما شاء الله حتى فتحت عليه قريظة والنضير قال : فجعل يرد بعد ذلك ، قال وإن أهلى أمرونى أن آتى النبى — ﷺ — فأعطانيهن فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب فى عنقى وجعلت

---

(1) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الجهاد — باب حكم الفيء رقم ١١٤٢

تقول : كلا والله الذى لا إله إلا هو لا يعطيكهن وقد أعطانيهن أو كما قالت ، فقال نبى الله : « لك كذا وكذا » قال : وتقول كلا والله . قال ويقول : « لك كذا وكذا » قال وتقول : كلا والله ، قال : ويقول : « لك كذا وكذا » قال حتى أعطاها حسبت أنه قال عشرة أمثاله أو قال قريباً من عشرة أمثاله ، أو كما قال(١) . ورواه البخارى ومسلم(٢) من طرق عن معمر به .

وهذه المصارف المذكورة فى هذه الآية هى المصارف المذكورة فى خمس الغنيمة وقوله تعالى : ﴿ كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ أى جعلنا هذه المصارف لمال الفىء كى لا يبقى مأكله يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء .

وقوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ أى مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : بلغنى أنك تنهى عن الواشمة والواصلة ، أشىء وجدته فى كتاب الله تعالى وعن رسول الله — ﷺ — قالت : والله لقد تصفحت ما بين دفتى المصحف فما وجدت فيه الذى تقول . تقول : فما وجدت فيه : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ قالت بلى . قال : فإنى سمعت رسول الله — ﷺ — ينهى عن الواصلة والواشمة والناقصة ، قالت : فلعله فى بعض أهلك ، قال : فادخلى فانظرى ، فدخلت فنظرت ثم خرجت قالت : ما رأيت بأساً ، فقال لها : أما حفظت وصية العبد الصالح : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾(٣)

وقال الإمام أحمد بسنده عن عبدالله بن مسعود قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن : المغيرات خلق الله — عز وجل — قال فبلغ امرأة من بنى أسد فى البيت يقال لها أم يعقوب فجاءت إليه فقالت : بلغنى أنك قلت كيت وكيت ، قال : مالى لا ألعن من لعن رسول الله — ﷺ — وفى كتاب الله تعالى ، فقالت : إنى لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته ، فقال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه أما قرأت (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قالت بلى ؟ قال : اذهبى فانظرى فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً ، فجاءت فقالت : ما رأيت شيئاً قال : لو كان كذا لم تجامعنا . أخرجاه فى الصحيحين(٤) من حديث عبدالله بن مسعود وقد ثبت فى الصحيحين أيضاً عن أبى هريرة أن رسول الله — ﷺ — قال : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا به ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه(٥) »

(١) مسند أحمد ٣ / ١٢٦
(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الجهاد — باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم رقم ١١٦٠
(٣) انظر تفسير ابن كثير — طبعة الشعب ٨ /٩٢
(٤) مسند أحمد ١ /٤٣٣ ، ٤٣٤
(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب اللباس والزينة — باب فعل الواصلة والمستوصلة رقم ١٣٧٧
صحيح البخارى — كتاب الاعتصام — باب الاقتداء بسنن رسول الله — ﷺ ٩ / ١١٦
مسلم — كتاب الفضائل — باب توقيره — ﷺ — وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه ٤ /١٨٣٠ رقم ١٣٠

وقال النسائي بسنده عن سعيد بن جبير عن عمرو ابن عباس أنهما شهدا على رسول الله ـ ﷺ ـ أنه نهى عن الدباء والحنتم والمزفت والنقير ثم تلا رسول الله ـ ﷺ ـ : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ أى : خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضات الله ورضوانه ﴿ وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ أى : هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم وهؤلاء هم سادات المهاجرين .

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة فقال تعالى : ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ﴾ أى : سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم . قال عمر : وأوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم . رواه البخارى[2] .

وقوله تعالى : ﴿ يحبون من هاجر إليهم ﴾ أى من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم . قال الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : قال المهاجرون يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ولا أحسن بذلاً فى كثير لقد كفونا المؤنة وأشركونا فى المهنأ حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . قال : « لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم وقال البخارى بسنده عن يحيى بن سعيد أنه سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال : دعا النبى ـ ﷺ ـ الأنصار أن يقطع لهم البحرين قالوا : لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها قال : « إما لا فاصبروا حتى تلقونى فإنه سيصيبكم أثرة » . تفرد به البخارى من هذا الوجه[3] .

وقال البخارى بسنده عن أبى هريرة قال : قالت الأنصار اقسم بيننا وبين إخواننا النخل . قال : لا . فقالوا يكفونا المؤنة وتشركونا فى الثمر قالوا سمعنا وأطعنا . تفرد به دون مسلم[4] ﴿ ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ أى : لا يجدون فى أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم فى الذكر والرتبة . قال الحسن البصرى : ﴿ ولا يجدون فى صدورهم حاجة ﴾ يعنى الحسد ﴿ مما أوتوا ﴾ قال قتادة : يعنى فيما أعطى إخوانهم . وكذا قال ابن زيد ، ومما يستدل

---

(١) سنن النسائى ـ كتاب الأشربة ـ باب ذكر الدلالة على النهى للموصوف من الأوعية ٨ /٣٠٨ .
(٢) صحيح البخارى ـ كتاب التفسير ـ سورة الحشر ٦ /١٨٥ .
(٣) مسند أحمد ٣ /٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ .
(٤) صحيح البخارى ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب قول النبى ـ ﷺ ـ للأنصار : « اصبروا حتى تلقونى على الحوض » ٥ /٤٢ .
(٥) صحيح البخارى ـ كتاب الفضائل ـ باب إخاء النبى بين المهاجرين والأنصار ٥ /٣٩ .

على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : كنا جلوساً مع رسول الله – ﷺ – قال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال فلما كان الغد قال رسول الله – ﷺ – مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله – ﷺ – مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل مثل حالته الأولى فلما قام رسول الله – ﷺ – تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال إني لاحيت أبي فأقسمت أني لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت . قال : « نعم » قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار تقلب على فراشه ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر ، قال عبد الله : غير أني لم أسمعه يقول : إلا خيراً ، فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت : ياعبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة ولكن سمعت رسول الله – ﷺ – يقول لك ثلاث مرات : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلعت أنت الثلاث المرات فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به فلم أرك تعمل كبير عمل فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله – ﷺ – ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : فهذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق(١) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى : ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ يعني مما أوتوا المهاجرون . قال : وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم في الأنصار فعاتبهم الله في ذلك فقال تعالى : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ قال : وقال رسول الله – ﷺ – : « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » فقالوا أموالنا بيننا قطائع فقال رسول الله – ﷺ – « أو غير ذلك » قالوا وما ذاك يارسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم التمر » فقالوا : نعم يارسول الله(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ يعني حاجة أي : يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك .

وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله – ﷺ – أنه قال : « أفضل الصدقة جهد المقل »(٣)

---

(١) مسند أحمد ٣/١٦٦

(٢) تفسير الطبري ٢٨/٤٢ طبعة الحلبي

(٣) سنن أبي داود – كتاب الزكاة ، باب الرخصة للرجل يخرج من ماله ٢/٣١٢ رقم ١٦٧٧

وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه** ﴾ وقوله : ﴿ **وآتى المال على حبه** ﴾ فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه ، ومن هذا المقام تصدق الصديق – رضى الله عنه – بجميع ماله فقال له رسول الله – ﷺ – « ما أبقيت لأهلك » ؟ فقال – رضى الله عنه – أبقيت لهم الله ورسوله[1] ، وهكذا الماء الذى عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء ، فرده الآخر إلى الثالث فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم – رضى الله عنهم – وأرضاهم –.

وقال البخارى بسنده عن أبى هريرة قال : أتى رجل رسول الله – ﷺ – فقال يارسول الله أصابنى الجهد . فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال النبى – ﷺ – ، ألا رجل يضيف هذه الليلة رحمه الله » فقال رجل من الأنصار فقال : أنا يارسول الله ، فذهب إلى أهله فقال لامرأته هذا ضيف رسول الله – ﷺ – لا تدخريه شيئاً . فقالت : والله ما عندى إلا قوت الصبية قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فأطفىء السراج ونطوى بطوننا الليلة ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله – ﷺ – فقال : « لقد عجب الله – عز وجل – أو ضحك – من فلان وفلانة » وأنزل الله تعالى : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾[2]

وقوله تعالى : ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ أى من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح .

قال أحمد بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله – ﷺ – قال : « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »[3] . إنفرد بإخراجه مسلم فرواه عن القعنبى عن داود بن قيس به[4] .

وقال الأعمش بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله – ﷺ – « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش ، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة

---

(١) سنن الترمذى – كتاب المناقب – باب فى مناقب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ٥/٣٦٧٥ وقال الترمذى حديث حسن صحيح . وسنن أبى داود – كتاب الزكاة – باب الرخصة للرجل يخرج من ماله ٢/٣١٢ رقم ١٦٧٨

(٢) صحيح البخارى – كتاب التفسير – سورة الحشر ٦/١٨٥

(٣) مسند أحمد ٢/٣٢٣

(٤) صحيح مسلم – كتاب البر والصلة – باب تحريم الظلم ٤/١٩٩٦ رقم ٥٦

يقطعوا »(١) ورواه أحمد بسنده عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً »(٢) وقال ابن أبي حاتم بسنده عن الأسود بن هلال قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال يا أبا عبد الرحمن إني أخاف أن تكون أصابتني هذه الآية .

وقال سفيان الثورى بسنده عن أبي الهياج الأسدى قال : كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلاً يقول : اللهم قني شح نفسي . لا يزيد على ذلك ، فقلت له ، فقال : إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن ولم أفعل وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف ــ رضى الله عنه ــ رواه ابن جرير . وقال ابن جرير بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « برىء من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى في النائبة »(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان كما قال في آية براءة : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم في السر والعلانية . ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ﴾ أي : قائلين ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً ﴾ أي : بغضاً وحسداً ﴿ للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ وما أحسن ما استنبط الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم إتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ وقال ابن أبي حاتم بسنده عن عائشة أنها قالت : أمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم ثم قرأت هذه الآية ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ الآية(٤)

وقال اسماعيل بن عليه بسنده عن عائشة قالت : أمرتم بالإستغفار لأصحاب ــ محمد صلى الله عليه وسلم ــ فسببتموهم . سمعت نبيكم ــ ﷺ ــ يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها

---

(١) سنن أبي دواد ــ كتاب الزكاة ــ باب في الشح ٢ / ٣٢٤ رقم ١٦٩٨
(٢) مسند أحمد ٢ / ٢٥٦ ، ٣١٠ ، ٣٤٢ ، ٥٠٥ .
(٣) تفسير الطبرى ٢٨ / ٤٢ طبعة الحلبي
(٤) تفسير الطبرى ٢٨ / ٤٤ طبعة الحلبي

أرلها ، رواه البغوى(١) . وقال أبو داود بسنده عن الزهرى قال : قال عمر ـــ رضى الله عنه ـــ : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ قال الزهرى : قال عمر ـــ رضى الله عنه ـــ : هذه لرسول الله ـــ ﷺ ـــ خاصة وقرى عرينة وكذا وكذا مما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ـــ وللفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ـــ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ـــ والذين جاءوا من بعدهم ، فاستوعبت الآية الناس فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق . قال أيوب : إلا بعض من تملكون من أرقائكم(٢)

وقال ابن جرير بسنده عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : قرأ عمر بن الخطاب : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين ـــ حتى بلغ ـــ عليم حكيم) ثم قال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى) الآية ؛ ثم قال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى ـــ حتى بلغ للفقراء ـــ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ـــ والذين جاءوا من بعدهم) ثم قال : إستوعبت هذه المسلمين عامة وليس أحد إلا له فيها حق ، ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعى بسرو / حُمْرَةُ نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه .(٣)

هكذا المنافقون واليهود

* أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ
لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾
لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ
﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ
جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ

(١) تفسير البغوى ـــ سورة الحشر ٤ / ٣٢١
(٢) سنن أبى داود ـــ كتاب الخراج والإمارة والفىء ـــ باب فى صفايا رسول الله ـــ ﷺ ـــ من الأموال ٣ / ٣٧٢ رقم ٢٩٦٦
(٣) تفسير الطبرى ٢٨ / ٣٧ طبعة الحلبى

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ
اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

معانى المفردات

نافقوا : أى : أظهروا غير ما أضمروا ، وبالغوا فى إخفاء عقائدهم ، ولإخوانهم الأصدقاء . واحدهم : أخ ، والأخ من النسب جمعه إخوة ، لننصرنكم : أى : لنعاونكم ، ليولن الأدبار : أى : ليفرن هاربين ، أشد رهبة فى صدورهم من الله : أى : إنهم يخافونكم فى صدورهم أشد من خوفهم لله ، لا يفقهون : أى : لا يعلمون عظمته تعالى حتى يخشوه حق خشيته ، جميعاً : أى : مجتمعين ، محصنة : أى : بالدروب والخنادق ونحوها ، جُدُر : أى : حيطان ، واحدها جدار ، بأسهم : أى : حربهم ، وشتى : أى : متفرقة ، واحدها شتيت ، وبال أمرهم : سوء عاقبتهم ، من قولهم : كلأ وبيل : أى : وخيم سيئ العاقبة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ما حدث لبنى النضير من الاستسلام خوفاً ورهبة ، لما قذفه فى قلوبهم من الرعب ، ثم ذكر مصارف الفىء ، أردفه ذكر ما حصل من مناصحة المنافقين عبد الله بن أبىّ بن سلول ورفقته لأولئك اليهود ، وتشجيعهم لهم على الدفاع عن ديارهم ومحاربتهم رسول الله — ﷺ — بما قصه الله علينا وفصله أتم تفصيل ، ليكون فى ذلك عبرة لنا ، وإنا لنشاهد كل يوم أن الناس يضل بعضهم بعضاً ويغوونهم ثم يتركونهم فى حيرة من أمرهم لا يجدون لهم مخلصاً مما وقعوا فيه .

أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وأبو نعيم عن ابن عباس : أنها نزلت فى رهط من بنى عوف ، منهم عبد الله بن أبىّ بن سلول ، ووديعة بن مالك ، وسويد وداعس بعثوا إلى بنى النضير بما قصه الله علينا فى كتابه .

أضواء كاشفة

انظر — يا من يتأتى منه النظر — متعجباً إلى الذين نافقوا فى إيمانهم وبعثوا إلى بنى النضير بما تضمنته الجمل التى حكيت فى القرآن — يقول هؤلاء المنافقون لإخوانهم الذين كفروا من اليهود ، وهم بنو النضير ، وكانوا إخوانهم فى الدين والكفر والصداقة يقولون : والله لئن أخرجتم من دياركم كما يطلب

محمد وصحبه منكم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فى شأنكم أحداً يمنعنا من الخروج وإن طال الزمن ، ووالله لئن قوتلتم لننصرنكم ، ولنعاونكم على عدوكم ، ولو كانوا هم المسلمين . والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فى مواعيدهم وعهودهم المؤكدة بالإيمان ، والله لئن أخرج اليهود لا يخرجون معهم لأنهم منافقون ، ووالله لئن قوتل اليهود أى بنو النضير لا ينصرهم المنافقون أبداً ، وهذا وعد إخبار بالغيب وقد تحقق ذلك كله ، ولئن نصروهم فرضاً وتقديراً ليولن الأدبار ويمعنون فى الفرار ، ولا يلوون على شىء فإنهم المنافقون وكفى .

لأنتم أيها المسلمون أشد رهبة فى صدورهم من الله ـ عز وجل ـ ذلك بسبب أنهم قوم لايفقهون ولايعرفون عظمة الله فيخشونه حق خشيته .

لا يقاتلونكم أى اليهود والمنافقون جميعاً إلا فى قرى محصنة بالتحصينات التى عرفوها والتى ستعرف فى المستقبل ، أو من وراء جدار ، نعم رأيناهم فى حروب فلسطين لا يقاتلون الناس إلا كذلك ، فإن أفئدتهم هواء ، وقلوبهم مليئة بالجبن والخور والضعف وحب الدنيا وكراهية الموت والخوف الموروث من المسلمين ، وهم إن أبدوا شجاعة فشجاعة ظاهرية لا تلبث أن تماع ، ولقد صدق الله فى وصفهم هذا الوصف الدقيق « بأسهم بينهم شديد » فهم كما يقول الشاعر :

وإذا ما خلا الجبان بأرض طالب الطعن وحده والنزالا

وما أروع قول الله : « بينهم » أما إذا كان البأس والحرب بينهم وبين غيرهم كانوا أجبن من الجبن تحسبهم جميعاً مجتمعين ، والواقع أن قلوبهم واتجاهاتهم شتى .

الله يقول ذلك عن اليهود ، وهو أصدق القائلين ، بقى من يقاتلهم هل هو مثلهم أو أشد ؟ أم أصبح المسلمون تتوزعهم الفرق والخلافات وأصبحوا يجرون وراء أمريكا وانجلترا ، وتركوا دينهم وقرآنهم وراءهم ظهريا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أيها المسلمون تشجعوا واتحدوا ، ولا يهمنكم أمر تلك الشرزمة من العصابات اليهودية مهما ساعدتها أمريكا وانجلترا وروسيا فالله يقول : تحسبهم جميعاً ، وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . مثل اليهود من بنى النضير كمثل الذين من قبلهم حيث ذاقوا وبال أمرهم ، وعاقبة كفرهم قريباً ، فلم تتأخر عقوبتهم إلى يوم القيامة ، ولهم فى الآخرة عذاب النار ، وقد كان ذلك مع المشركين يوم بدر ، ومع بنى قريظة قبل بنى النضير . ومثل المنافقين الذين وعدوا بنى النضير بالمساعدة ثم خانوهم ، كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، وأغراه على الكفر . فلما كفر بالله وعصى رسله ، ووقع فى عاقبة كفره تبرأ الشيطان منه ولم يقف معه وقال : كذباً ورياء إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين ، فكان عاقبتهما ـ من وسوس بالكفر ومن كفر ـ أنهما فى النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين مطلقاً .

التفسير

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم فقال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم** ﴾ قال الله تعالى : ﴿ **والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ أي : كاذبون فيما وعدوهم به إما لأنهم قالوا لهم قولاً ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به ، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولئن قوتلوا لا ينصرونهم** ﴾ أي : لا يقاتلون معهم ﴿ **ولئن نصروهم** ﴾ أي : قاتلوا معهم ﴿ **ليولن الأدبار ثم لا ينصرون** ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها .

ثم قال تعالى : ﴿ **لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر** ﴾ يعني أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة . ثم قال تعالى : ﴿ **بأسهم بينهم شديد** ﴾ أي : عداوتهم فيما بينهم شديدة كما قال تعالى : ﴿ **ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ **تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى** ﴾ أي : تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين وهم مختلفون غاية الاختلاف قال إبراهيم النخعي : يعني أهل الكتاب والمنافقين ﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾

ثم قال تعالى : ﴿ **كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم** ﴾ قال مجاهد والسدي ومقاتل بن حيان : يعني كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر . وقال ابن عباس : كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع وكذا قال قتادة ومحمد بن إسحاق وهذا القول أشبه بالصواب فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ـ ﷺ ـ قد أجلاهم قبل هذا .

وقوله تعالى : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك** ﴾ يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ، وقول المنافقين لهم لئن قوتلتم لننصرنكم ، ثم لما حقت الحقائق وجد بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان والعياذ بالله ـ الكفر فإذا دخل فيما سوله له تبرأ منه وتنصل وقال : ﴿ **إني أخاف الله رب العالمين** ﴾ .

وقد ذكر بعضهم ههنا قصة لبعض عباد بني إسرائيل هي كالمثال لهذا المثل لا أنها المرادة وحدها بالمثل بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها ، فقال ابن جرير بسنده عن أبي إسحاق قال : سمعت عبد الله بن نهيك قال سمعت علياً ـ رضي الله عنه يقول : إن راهباً تعبد ستين سنة وإن الشيطان أراده فأعياه فعمد إلى امرأة فأجنها ولها إخوة فقال لإخوتها : عليكم بهذا القس فيداويها قال : فجاءوا بها إليه فداواها وكانت عنده فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته فأتاها فحملت فعمد إليها فقتلها فجاء

إخوتها ، فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك إنك أعييتني أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك فاسجد لي سجدة فسجد له ، قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين فذلك قوله : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾(١)

وقال ابن جرير بسنده عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾ قال : كانت امرأة ترعى الغنم وكان لها أربعة إخوة وكانت تأوي بالليل إلى صومعة راهب قال : فنزل الراهب ففجر بها فحملت فأتاه الشيطان فقال له اقتلها ثم ادفنها فإنك رجل مصدق يسمع قولك فقتلها ثم دفنها قال : فأتى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا فلما أصبحوا قال رجل منهم : والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك ؟ قالوا لا بل قصها علينا ، قال فقصها فقال الآخر ،أنا والله لقد رأيت ذلك ، فقال الآخر وأنا والله لقد رأيت ذلك ، قالوا فوالله ما هذا إلا لشيء قال فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه ثم انطلقوا به فلقيه الشيطان فقال : إني أنا الذي أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه . قال فسجد له . فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل(٢) . وكذا روى عن ابن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك .

واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيص فالله أعلم . وهذه القصة مخالفة لقصة جريج العابد ، فإن جريجاً اتهمته / امرأة بغي بنفسها وادعت أن حملها منه ورفعت أمرها إلى ولي الأمر فأمر به فأنزل من صومعته وخربت صومعته وهو يقول : مالكم مالكم . قالوا : ياعدو الله فعلت بهذه المرأة كذا وكذا ، فقال جريج اصبروا ثم أخذ ابنها وهو صغير جداً ثم قال : ياغلام من أبوك . قال : أبي الراعي وكانت قد أمكنته من نفسها فحملت منه . فلما رأى بنو اسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيماً بليغاً وقالوا نعيد صومعتك من ذهب ، قال : لا بل أعيدوها من طين كما كانت .

وقوله تعالى : ﴿ فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ﴾ أي : فكان عاقبة الآمر بالكفر والفاعل له ومصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ﴿ وذلك جزاء الظالمين ﴾ أي : جزاء كل ظالم .

(١) تفسير الطبري ٢٨ / ٤٩ طبعة الحلبي

(٢) تفسير الطبري ٢٨ / ٤٩ طبعة الحلبي

موجبات التقوى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾
لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ
عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ
﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

معانى المفردات

(لغد) : المراد به يوم القيامة أطلق عليه لقربه وتحقق وقوعه كالغد . (الملك) : المالك المتصرف فى خلقه وملكه تصرفا تاما . (القدوس) : البليغ فى البعد عن النقص أو الكامل فى ذاته وصفاته وأفعاله (السلام) : ذو السلامة من كل نقص وعيب . (المؤمن) : المصدق لنفسه ورسله فيما بلغوه عنه بالقول أو بخلق المعجزات على أيديهم أو هو واهبا لأمن لعباده . (المهيمن) : الرقيب الحافظ لكل شىء مأخوذ من قولهم : أمن الراعى الذئب على غنم إذا حفظهم حفظاً كاملاً من كل سوء . (العزيز) : الغالب من عز إذا غلب ، أو هو الذى لا مثل له من قولهم هذا شىء عزيز أو نادر المثال (الجبار) : الذى جبر خلقه على ما أراد (المتكبر) : البليغ الكبرياء والعظمة . (الخالق) : المقدر لخلقه على حسب ما تقضيه حكمته . (البارىء) : الموجد لخلقه بريئاً من التفاوت المخل به . (المصور) : الموجد لصور الأشياء وكيفياتها . (الأسماء) : الأسماء الدالة على محاسن المعانى . ما مضى كان فى الكلام على اليهود والمنافقين ، وبيان نهايتهم فى الدنيا والآخرة . ولما تم هذا شرع فى وعظ المسلمين وتنبيههم إلى يوم القيامة وما فيه وأنه لا يستوى العاصى والمطيع ولفت نظرهم إلى القرآن الكريم وما فيه ثم ذكر بعض صفات الحق ــ تبارك وتعالى ــ التى تغرس فى النفوس الإيمان الصحيح والعقيدة الراسخة وكان هذا ختاماً للسورة ما أجمله !

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر المضلين من المنافقين ، وبين أن ما يقولون غير ما يبطنون وأن مثلهم كمثل الشيطان في الإغواء والإضلال ، ثم أعقبه بذكر الضالين من بني النضير وكيف خدعوا بتلك الوعود الخلابة التي كانت عليهم وبالاً ونكالاً وكان فيها سوء حالهم في دنياهم ودينهم - شرع بنصح المؤمنين بلزوم التقوى ، وأن يعملوا في دنياهم ما ينفعهم في أخراهم حتى ينالوا الثواب العظيم والنعيم المقيم وألا ينسوا حقوق الله فيجعل الله الدين على قلوبهم ، فلا يقدموا لأنفسهم ما به رشادهم وفلاحهم .

وبعد أن ذكر فرق المضلين من المنافقين ، والضالين من اليهود وغيرهم وأمر عباده المؤمنين بالتقوى إستعدادا ليوم القيامة — ذكر هنا أن لهم رشدا عظيما وإماما هاديا هو القرآن الذي يجب أن تخشع لهيبته القلوب وتتصدع لدى سماع عظاته لأفئدة لما فيه من وعيد وبشارة وإنذار وحكم وأحكام فلو أنا ألهمنا أجبل عقلا وفهمه وتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله — عز وجل — فكيف بكم أيها البشر لا تلين قلوبكم ، ولا تخشع وتتصدع من خشيته ؟ وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه .

وبعد أن وصف القرآن بالعظم أتبعه بوصف عظمة المنزل للقرآن ذي الأسماء الحسنى الذي يخضع له ما في السموات والأرض وينقادون لحكمه وأمره ونهيه .

أضواء كاشفة

قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أي حيثما كنتم وفي أي عمل عملتم ولتنظر نفس واحدة أي شيء قدمته من الأعمال ليوم القيامة ولتحاسب كل نفس نفسها عما عملت ، قبل أن تحاسب هي عليه وفي هذا حث عظيم على النظر فيما ينفع لغد وبيان أن النظر فيه قليل واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون وسيجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وإياكم أن تكونوا كالذين نسوا حقوق الله ، وما قدروا الله حق قدره ولم يراعوا الواجب عليهم نحو الذات الأقدس — جل شأنه — لا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم الله بسبب ذلك أنفسهم حتى لم يعملوا خيرها ولم يحصلوا ما يخلصها يوم القيامة أولئك الذين نسوا الله هم الفاسقون الكاملون في الفسق والفجور فإياكم أن تكونوا مثلهم واعلموا أنه لا يستوي أصحاب النار الذين عملوا ما حيث خالفوا أمر الله في كل شيء . وأصحاب الجنة الذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود في الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون وحدهم . وفي هذا تنبيه وأي تنبيه للناس وإيذاناً لهم بأنهم لفرط غفلتهم وقلة تفكيرهم . وفي الآخرة وأحوالها كأنهم لا يعرفون أن هناك فرقاً بين أصحاب الجنة وأصحاب النار وهذا كما تقول لمن يسيء إلى أخيه : هذا أخوك .

يأيها الذين آمنوا : ألم تعلموا أن معكم حبل الله المتين وكلامه الكريم ، وقرآنه المجيد فكيف لا تتعظون به ؟ وكيف لا تملأ قلوبكم خشية عند سماع كلامه ؟ مع العلم أنه لو أنزل هذا القرآن على

جبل وكان له عقل يميز مع أن الجبل علم فى القساوة لرأيته خاشعاً متشققاً من خشية الله وهذا تمثيل وتخييل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون .

واعلم أن الذى أنزل القرآن وأمر بالتقوى هو الله جل جلاله واجب الوجود أزلا وأبداً الحاضر الذى لا يزول المعبود فلا أحد يستحق العبادة غيره ولا معبود بحق سواه هو الرحمن الرحيم بخلقه فى الدنيا والآخرة « ورحمتى وسعت كل شىء »[1] هو الله الذى لا إله إلا هو صاحب الملك والملكوت بيده الأمر « ألا له الخلق والأمر »[2] يعز من يشاء ويذل من يشاء وهو كل شىء قدير هو الملك القدوس المنزه عن كل نقص وعيب ، الكامل فى كل شىء ذو السلامة من كل ما يشينه ذاتا وصفاتا وأفعالاً وهو المؤمن المصدق لنفسه ولرسله بما أنزل من كتاب وما خلق من معجزات ، سبحانه وتعالى وهب الأمن لعباده فى الدنيا والآخرة وهو المهيمن والرقيب على خلقه وملكه أو هو الذى أمن على خلقه وملكه من كل شىء لإحاطة علمه وكمال قدرته وهو العزيز الجبار الذى جبر خلقه على ما أراد ، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه وهو المتكبر الذى تكبر بربوبيته فلا شىء مثله والكبرياء فى صفات الله مدح وفى صفات المخلوقات ذم وفى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « **الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فى واحدة منها قصمته ثم قذفته فى النار** »[3] .

سبحانه وتعالى عما يشركون ! ! هو الله الخالق المقدر لكل شىء البارىء لهذا الكون والموجد له خالياً من تفاوت يخل به وهو الذى أوجد صوره وكيفياته على حسب حكمته وإرادته .

لله سبحانه الأسماء الحسنى الدالة على محاسن المعانى وفضائلها وأشرافها . يسبح له لأجل هذا كله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم الجامع للكمال كله .

روى عن ابن عباس : اسم الله الأعظم فى ست آيات من آخر سورة الحشر وفى رواية عن البراء عن على ــ رضى الله عنهما ــ أنه قال : يابراء إذا أردت أن تدعو الله باسمه الأعظم فاقرأ من أول سورة الحديد عشر آيات ، وآخر الحشر ثم قل : يا من هو كذلك وليس شىء هكذا غيره أسألك أن تفعل لى كذا وكذا . والعبرة فى هذا كله بالإخلاص وصفاء الروح والقرآن كله وخاصة أمثال هذه الآيات مما يصفى الروح وينقيها ويجعل دعاءها مقبولاً ... نفعنا الله بالقرآن آمين .

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٥٦

(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٤

(٣) سنن أبى داود ــ كتاب اللباس ــ باب ما جاء فى الكبر ٤ / ٣٥٠ رقم ٤٠٩٠ وسنن ابن ماجه ــ كتاب الزهد ــ باب البراءة من الكبر والتواضع ٤ /١٣٩٧ رقم ٤١٧٤ ومسند أحمد ٢/٢٤٨ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢ .

التفسير

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون . لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ .

قال الإمام أحمد بسنده عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند رسول الله — ﷺ — فى صدر النهار قال : فجاءه قوم حفاة عراة مجتابى النمار أو العباء متقلدى السيوف عامتهم من مضر بل كلهم من مضر فتغير وجه رسول الله — ﷺ — لما رأى بهم من الفاقة قال فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذن وأقام الصلاة فصلى ثم خطب فقال : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة — إلى آخر الآية وقرأ الآية التى فى الحشر — ولتنظر نفس ما قدمت لغد — تصدق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع بره من صاع تمره — حتى قال — ولو بشق تمرة » قال فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت رسول الله - ﷺ - : يتهلل وجهه كأنه مذهبة فقال رسول الله - ﷺ - : « من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شىء »(١) فقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أمر بتقواه وهو يشمل فعل ما به أمر وترك ما عنه زجر .

وقوله تعالى : ﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ أى : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم (واتقوا الله) تأكيد ثان (إن الله خبير بما تعملون) أى : اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير .

المراقبة والمحاسبة

فى كتابه (إحياء علوم الدين) كتب حجة الإسلام أبو حامد الغزلى — رحمه الله تعالى — تحت هذا العنوان فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على كل جارحة بما اجترحت المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى

(١) مسند أحمد ٤ / ٣٥٨
صحيح مسلم — كتاب الزكاة — باب الحث على الصدقة ٢ / ٧٠٥ رقم ٦٩

السموات والأرض تحركت أو سكنت المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت . المتفضل لقبول طاعات العباد وإن صغرت المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيما قدمت وأخرت فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلكت وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراجعة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت واستغرقت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة وعمرت بنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت وبلطف عنايته ترجح كفة الحسنات إذا ثقلت وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فمنه العطاء والجزاء والإبعاد والإرثاء والإسعاد والإشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء .

أما بعد . فقد قال الله تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾[1] ــ وقال تعالى : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد** ﴾[3] وقال تعالى : ــ ﴿ **يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾[5]

وقال تعالى : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه** ﴾[6] وقال تعالى : ــ ﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه** ﴾[7] فعرف أرباب البصائر ومن جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد وأنهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الذرات والخطرات واللحظات وتحققوا أنه لاينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات

(١) سورة الأنبياء الآية : ٤٧
(٢) سورة الكهف الآية : ٤٩
(٣) سورة المجادلة الآية : ٦
(٤) سورة الزلزلة الآيات ٦ ، ٧ ، ٨
(٥) سورة البقرة الآية : ٢٨١
(٦) سورة آل عمران الآية : ٣٠
(٧) سورة البقرة الآية : ٢٣٥

فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف فى القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه ومن لم يحاسب نفسه راحت حسراته وطالت فى عرصات يوم القيامة وقفاته وقادته إلى الخزى والمقت سيئاته فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل : ﴿ يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾[1] فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ولابد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ولكن لكل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق .

المقام الأول من المرابطة المشارطة

أعلم أن مطلب المتعاملين فى التجارات المشتركين فى البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر فى طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس فى هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذى يتجر فى ماله وكما أن الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه فى الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولاً ويراقبه ثانياً ويحاسبه ثالثاً ويعاقبه أو يعاتبه رابعاً فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولاً فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغى أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها .

فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى ، وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب فى هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه فى أرباح الدنيا ، مع أنها محتقرة بالاضافة إلى نعيم العقبى ، ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التقدم والانقضاء ، ولا خير فى خير لا يدوم . بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم ، لأن الشر الذى لا يدوم إذا انقطع بقى الفرح بانقطاعه دائماً وقد انقضى الشر ، والخير الذى لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائماً وقد انقضى الخير ولذلك قيل : —

أشد الغم عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقالاً

فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها فى حركاتها ، وسكناتها ، وخطراتها ، وخطواتها . فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها ،

(١) سورة آل عمران الآية : ٢٠٠

يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآبـ ... عز وجل ـ ،
إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل ...
ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشاركته فيقول للنفس : ما لى بضاعة إلا ...
ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى ...
به ، ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يومًا واحداً حتى أعمل فـ ...
ثم قد رددت ، فإياك ثم إياك أن تضيعى هذا اليوم ، فإن كل نفس من الأنفا ... لا لها ، واعلمى
يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد فى الخبر ، أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون
خزانة مصفوفة ، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التى عملها فى تلك الساعة ، فيناله الفرح
والسرور والاستبشار لمشاهدة تلك الأنوار التى هى وسيلته عند الملك الجبار ، ما لو وزع على أهل النار
لأدهشتهم ذلك الفرح عن الإحساس بألم النار . ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة ، يفوح نتنها ، ويغشاه
ظلامها ، وهى الساعة التى عصى الله فيها ، فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم
نعيمها ، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوءه ، وهى الساعة التى نام فيها أو
غفل أو اشتغل بشىء من مباحات الدنيا ، فيتحسر على خلوها ، ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على
الربح الكثير والملك الكبير ، إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته ، وناهيك به حسرة وغبناً . وهكذا تعرض
عليه خزائن أوقاته طول عمره ، فيقول لنفسه : اجتهدى اليوم فى أن تعمرى خزائنك ، ولا تدعيها فارغة
عن كنوزك التى هى أسباب ملكك ، ولا تميلى إلى الكسل والدعة والاستراحة ، فيفوتك من درجات عليين
ما يدركه غيرك ، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك ، وإن دخلت الجنة ، فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن
كان دون ألم النار[1] .

وقد قال بعضهم هب أن المسىء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين ، أشار به إلى الغبن والحسرة :
وقال الله ـ تعالى ـ : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾[2] فهذه وصيته لنفسه فى أوقاته
ثم ليستأنف لها وصيته فى أعضائه السبعة : وهى العين ، والأذن ، واللسان ، والبطن ، والفرج ، واليد ،
والرجل ، وتسليمها إليها فإنها رعايا خادمة لنفسه فى هذه التجارة ، وبها تتم أعمال هذه التجارة . وإن لجهنم
سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم . وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله ـ تعالى ـ بهذه الأعضاء
فيوصيها بحفظها عن معاصيها ، أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم ، أو إلى عورة مسلم ،
أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار ، بل عن كل فضول مستغنى عنه ، فإن الله ـ تعالى ـ يسأل عبده عن
فضول النظر ، كما يسأله عن فضول الكلام . ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها

(١) انظر الحديث : ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة ... فى كتاب إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٧٤١ . كتاب المحاسبة والمراقبة ط . الشعب . وقال محققه : الحديث بطوله لم أجد له أصلا .
(٢) سورة التغابن الآية ٩

وربحها ، وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للإقتداء والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ، ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة . وهكذا ينبغى أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو ، لا سيما اللسان ، والبطن ، أما اللسان فلأنه منطلق بالطبع ، ولا مؤنة عليه في الحركة ، وجنايته عظيمة بالغيبة ، والكذب ، والنميمة ، وتزكية النفس وقذف الخلق والأطعمة ، واللعن ، والدعاء على الأعداء ، والممارة في الكلام وغير ذلك ، فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم ، وإرشاد عباد الله إلى طريق الله ، وإصلاح ذات البين ، وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر ، فنطق المؤمن ذكر ، ونظره عبرة ، وصمته فكرة ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾[1] .

وأما البطن فيكلفه ترك الشره ، وتقليل الأكل من الحلال ، واجتناب الشبهات ويمنعه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة . ويشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها ، وهكذا يشرط عليها في جميع الأعضاء ، واستقصاء ذلك يطول ، ولا تخفى معاصى الأعضاء وطاعاتها ، ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ، ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ، ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها ، وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء جميعها استغنى عن المشارطة فيها ، وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقى . ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ، ولله عليه في ذلك حق . ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا ، من ولاية أو تجارة أو تدريس ، إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها ، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها ويحذرها مغبة الإهمال ، ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾[2] .

فهذا وما يجرى مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس وهى محاسبة قبل العمل . والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾[3] وهذا للمستقبل وكل نظر في كثرة ومقدار بمعرفة زيادة ونقصان ، فإنه يسمى محاسبة . فالنظر فيما بين يدى العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله — تعالى — : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا

---

(١) سورة ق الآية ١٨

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٥

(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٥

ضربتم في سبيل الله فتبينوا ﴾[1] ، وقال — تعالى — : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾[3] ذكر ذلك تحذيراً وتنبيهاً للاحتراز منه في المستقبل . وروى عبادة بن الصامت أنه — عليه السلام — قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه : « إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فامضه وإن كان غياً فانته عنه »[4] .

وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة .

وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة .

وروى شداد بن أوس عنه — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله »[5] . (دان نفسه : أي حاسبها ويوم الدين : يوم الحساب ، وقوله : — أئنا لمدينون — أي لمحاسبون) .

وقال عمر — رضي الله عنه — : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيأوا للعرض الأكبر ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري : حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة . وقال لكعب : كيف تجدها في كتاب الله قال : ويل لديان الأرض من ديان السماء فعلاه بالدرة . وقال إلا من حاسب نفسه فقال كعب : يا أمير المؤمنين : إنها إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف إلا من حاسب نفسه . وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولاً وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها .

(المرابطة الثانية : المراقبة) إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة ، فإنها إن تركت طغت وفسدت . ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها : أما الفضيلة : فقد سأل جبريل — عليه السلام — عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه » . وقال — عليه السلام — : « أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[6] . وقد قال —

---

(١) سورة النساء الآية ٩٤
(٢) سورة الحجرات الآية ٦
(٣) سورة ق الآية ١٦
(٤) انظر الحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٣
(٥) الحديث في سنن الترمذي ج ٤ ص ٥٥٠ كتاب صفة القيامة رقم ٢٤٥٩ وقال : هذا حديث حسن ، — انظر سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٤٢٢ . كتاب الزهد . باب ذكر الموت والاستعداد له . رقم ٤٢٦٠
(٦) الحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ٣٦ . كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان رقم ١ / ٨ .
— انظر سنن الترمذي ج ٥ ص ٨ ، ٩ كتاب الإيمان رقم ٢٦١٠ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

تعالى ــ : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾[(١)] وقال ــ تعالى ــ : ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾[(٢)]. وقال الله ــ تعالى ــ : ﴿ إن الله كان عليكم رقيبًا ﴾[(٣)]. وقال ــ تعالى ــ : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾[(٤)].

وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله ــ تعالى ــ ، فسأله عن تفسيره فقال : كن أبداً كأنك ترى الله ــ عز وجل ــ .

وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدى رقيبًا علىّ فلا أبالى بغيره وقال أبو عثمان المغربى : أفضل ما يلزم الإنسان نفسه فى هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم .

وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات : وقال الجريرى : أمرنا هذا مبنى على أصلين : أن تلزم نفسك المراقبة لله ــ عز وجل ــ ويكون العلم على ظاهرك قائماً .

وقال أبو عثمان : قال لى أبو حفص : إذا جلست للناس فكن واعظًا لنفسك وقلبك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك ، فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك .

وحكى أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه ، فقال له بعض أصحابه : كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ ؟ فدعا بعدة طيور ، وناول كل واحد منهم طائراً وسكيناً وقال : ليذبح كل واحد منكم طائره فى موضع لا يراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم ، فرجع كل واحد بطائره مذبوحاً ورجع الشاب والطائر حى فى يده فقال : مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال : لم أجد موضعاً لا يرانى فيه أحد إذ الله مطلع علىّ فى كل مكان فاستحسنوا من هذه المراقبة وقالوا حق لك أن تكرم .

وحكى أن زليخا لما خلت بيوسف ــ عليه السلام ــ قامت فغطت وجه صنم كان لها . فقال يوسف : مالك أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحيى من مراقبة الملك الجبار .

وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها ، فقالت له : ألا تستحى ؟ فقال : ممن أستحيى ؟ وما يرانا إلا الكواكب . قالت : فأين مكوكبها ؟ .

وقال رجل للجنيد : بم أستعين على غض البصر ؟ فقال : بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه .

(١) سورة الرعد الآية ٣٣
(٢) سورة العلق الآية ١٤
(٣) سورة النساء الآية ١
(٤) سورة المعارج الآيتان ٣٢ ، ٣٤

وقال الجنيد : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل ، وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له : ومن يسكنها ؟ قال : يقول الله - عز وجل - : إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي وذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انثنت أصلابهم من خشيتي ، وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب . وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الرب ـ تعالى ـ . وقال المرتعش : المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة .

ويروى أن الله ـ تعالى ـ قال لملائكته : أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن .

وقال محمد بن علي الترمذي : اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

وقال سهل : لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان .

وسئل بعضهم عن قوله ـ تعالى ـ : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه ﴾[1]

فقال : معناه : ذلك لمن راقب ربه ـ عز وجل ـ وحاسب نفسه وتزود لمعاده .

وسئل ذو النون : بم ينال العبد الجنة ؟ فقال بخمس : إستقامة ليس فيها روغان ، واجتهاد وليس معه سهو ، ومراقبة الله ـ تعالى ـ في السر والعلانية ، وانتظار الموت بالتأهب له ، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب . وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب ... وأن غداً للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي : عظني فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت .

وقال سفيان الثوري : عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية ، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء ، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة .

وقال فرقد السنجي : إن المنافق ينظر ، فإذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله ـ تعالى ـ .

---

(١) سورة البينة الآية ٨

وقال عبد الله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — إلى مكة ، فعرسنا فى بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال له : يا راعى بعنى شاة من هذه الغنم ، فقال : إنى مملوك. فقال : قل لسيدك أكلها الذئب . قال : فأين الله ؟ قال فبكى عمر — رضى الله عنه — ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال : أعتقتك فى الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك فى الآخرة .

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

إعلم أن حقيقة المراقبة هى ملاحظة الرقيب ، وانصراف الهم إليه ، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلاناً ويراعى جانبه ، ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالاً فى الجوارح وفى القلب ، أما الحالة فهى مراعاة القلب للرقيب ، واشتغاله به والتفاته إليه ، وملاحظته إياه وانصرافه إليه ، وأما المعرفة التى تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب فى حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك ، فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً ، أعنى أنها خلت عن الشك ، ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالقلب فإذا استولت على القلب إستجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه ، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون . وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين ، فمراقبتهم على درجتين .

الدرجة الأولى : مراقبة المقربين من الصديقين ، وهى مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للإلتفات إلى الغير أصلاً ، وهذه المراقبة لا نطول النظر فى تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب .

أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات ، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت فى حفظها على سنن السداد ، بل يسدد الرعية من ملك كليها الراعى والقلب هو الراعى فإذا صار مستغرقاً بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والإستقامة من غير تكلف ، وهذا هو الذى صار همه هماً واحداً فكفاه الله سائر الهموم ، ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمر على ابنه مثلاً فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك ، فقال لمن عاتبه : إذا مررت بى فحركنى ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظير هذا فى القلوب المعظمة لملوك الأرض ، حتى إن خدم الملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك لشدة إستغراقهم بهم ، بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل فى الفكر فيه ويمشى فربما يجاوز الموضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له .

وقد قيل لعبد الواحد بن زيد : هل تعرف فى زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق ؟ قال :

ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريعاً حتى دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحد ابن زيد : من أين جئت يا عتبة ؟ فقال : من موضع كذا وكان طريقه على السوق ، فقال : من لقيت في الطريق ؟ فقال : ما رأيت أحداً .

ويروى عن يحيى بن زكريا — عليهما السلام — أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له : لم فعلت هذا ؟ فقال : ما ظننتها إلا جداراً .

وحكي عن بعضهم أنه قال : مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيداً منهم فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال : ذكر الله — تعالى — أشهى . فقلت : أنت وحدك ؟ فقال : معي ربي وملكاى . فقلت : من سبق من هؤلاء ؟ فقال : من غفر الله له . فقلت : أين الطريق ؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى . وقال : أكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله — تعالى — لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه ، فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه ، فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه .

ودخل الشبلي على أبي الحسن النوري وهو معتكف فوجده ساكناً حسن الإجتماع لا يتحرك من ظاهره شيء فقال له : من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ، فقال : من سنور كانت لنا . فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرك لها شعرة .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبي علىّ الروذبارى ، فقال له عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد : إن في صور شاباً وكهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة ، فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما ، فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفي وسطي خرقة وليس على كتفي شيء ، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبل القبلة ، فسلمت عليهما فما أجاباني ، فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب . فقلت : نشدتكما بالله إلا رددتما علىّ السلام ، فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلىّ وقال : يا ابن خفيف : الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير . يا ابن خفيف : ما أقل شغلك حتى تتفرغ إلى لقائنا . قال : فأخذ بكليتي ثم طأطأ رأسه في المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعي وعطشي وعنائي . فلما كان وقت العصر قلت عظنى فرفع رأسه إلىّ وقال : يا ابن خفيف : نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئاً ولا شربا فلما كان اليوم الثالث قلت في سرى : أحلفهما أن يعظاني لعلي أن أنتفع بعظتهما فرفع الشاب رأسه وقال لي : يا ابن خفيف : عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته ، وتقع هيبته على قلبك يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا . فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك .

الدرجة الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليمين وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم . ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حدّ الإعتدال متسعة للتلفت

وقال عبد الله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — إلى مكة ، فعرسنا في بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال له : يا راعي بعني شاة من هذه الغنم ، فقال : إني مملوك ، فقال : قل لسيدك أكلها الذئب . قال : فأين الله ؟ قال فبكى عمر — رضي الله عنه — ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال : أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة .

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

إعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب ، وانصراف الهم إليه ، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلاناً ويراعي جانبه ، ويعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب . أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب ، واشتغاله به والتفاته إليه ، وملاحظته إياه وانصرافه إليه ، وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك ، فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً ، أعني أنها خلت عن الشك ، ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالقلب فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه ، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين ، فمراقبتهم على درجتين .

الدرجة الأولى : مراقبة المقربين من الصديقين ، وهي مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للإلتفات إلى الغير أصلاً ، وهذه المراقبة لا نطول النظر في تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب .

أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات ، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد ، بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعي والقلب هو الراعي فإذا صار مستغرقاً بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والإستقامة من غير تكلف ، وهذا هو الذي صار همه هماً واحداً فكفاه الله سائر الهموم ، ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمر على ابنه مثلاً فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجري عليه ذلك ، فقال لمن عاتبه : إذا مررت بي فحركني ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الأرض ، حتى إن خدم الملك قد لا يحسون بما يجري عليهم في مجالس الملوك لشدة إستغراقهم بهم ، بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي فربما تجاوز الموضع الذي قصده وينسى الشغل الذي نهض له .

وقد قيل لعبد الواحد بن زيد : هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق ؟ قال :

ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريعاً حتى دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحد ابن زيد : من أين جئت يا عتبة ؟ فقال : من موضع كذا وكان طريقه على السوق ، فقال : من لقيت فى الطريق ؟ فقال : ما رأيت أحداً .

ويروى عن يحيى بن زكريا — عليهما السلام — أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له : لم فعلت هذا ؟ فقال : ما ظننتها إلا جداراً .

وحكى عن بعضهم أنه قال : مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيداً منهم فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال : ذكر الله — تعالى — أشهى . فقلت : أنت وحدك ؟ فقال : معى ربى وملكاى . فقلت : من سبق من هؤلاء ؟ فقال : من غفر الله له . فقلت : أين الطريق ؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى . وقال : أكثر خلقك شاغل عنك بهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله — تعالى — لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه ، فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه ، فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه .

ودخل الشبلى على أبى الحسين النورى وهو معتكف فوجده ساكناً حسن الإجتماع لا يتحرك من ظاهره شيء فقال له : من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ، فقال : من سنور كانت لنا . فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرك لها شعرة .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبى على الروذبارى ، فقال له عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد : إن فى صور شاباً وكهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة ، فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما ، فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقة وليس على كتفى شيء ، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلى القبلة ، فسلمت عليهما فما أجابانى ، فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب . فقلت : نشدتكما بالله إلا رددتما علىّ السلام ، فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلىّ وقال : يا ابن خفيف : الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير . يا ابن خفيف : ما أقل شغلك حتى تتفرغ إلى لقائنا . قال : فأخذ بكليتى ثم طأطأ رأسه فى المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعى وعطشى وعنائى . فلما كان وقت العصر قلت عظنى . فرفع رأسه إلىّ وقال : يا ابن خفيف . نحن صحاب المصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئاً ولا شربا فما كان اليوم الثالث قلت فى سرى : أحلفهما لعلى أن يعظانى لعلى أن أنتفع بعظتهما فرفع الشاب رأسه وقال لى : يا ابن خفيف : عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته ، وتقع هيبته على قلبك يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا . بهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك .

الدرجة الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليمين وهم قوم غلب يقين إطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم . ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حدّ الإعتدال متسعة للتلفت

إلى الأحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة . نعم ، ويمتنعون عن كلّ ما يفتضحون به في القيامة فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعي أحوالك لا عن إجلال وتعظيم بل عن حياء فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء منك . وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلاً به لا حياء منه . فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله — تعالى — ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته ، وله فيها نظران : نظر قبل العمل ونظر في العمل . أما قبل العمل . فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان ، فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ، فإن كان لله — تعالى — أمضاه . وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعرّفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته ، وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حد بيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه فإن في الخبر : « إنه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الديوان الأول : لِمَ ، والثاني : كيف ، والثالث : لمن » . ومعنى لم : أي لم فعلت هذا ؟ أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني فقيل له : كيف فعلت هذا ؟ فإن لله في كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم ، فيقال له : كيف فعلت ؟ أبعلم محقق أم بجهل وظن فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث : وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له : لمن عملت ؟ ألوجه الله خالصاً وفاء بقولك لا إله إلا الله ، فيكون أجرك على الله أو لمرادات خلق مثلك فخذ أجرك منه . أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك ، وحبط عملك ، وخاب سعيك . وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقتي وعقابي إذ كنت عبداً لي تأكل رزقي وتترفه بنعمتي ثم تعمل لغيري ، أما سمعتني أقول : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾[1] ، ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾[2] . ويحك أما سمعتني أقول : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾[3] .

فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات ، طالب نفسه قبل أن تطالب ، وأعد للسؤال جواباً وليكن الجواب صواباً فلا يبدىء ولا يعيد إلا بعد التثبت ولا يحرك جفناً ولا أنملة إلا بعد التأمل .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٩١

(٢) سورة العنكبوت الآية ١٧

(٣) سورة الزمر الآية ٣

وقد قال النبي ــ ﷺ ــ لمعاذ : « إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه وعن فت الطين بإصبعه ، وعن لمسه ثوب أخيه »[1] .

وقال الحسن : كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فإن كان لله أمضاه .

وقال الحسن : رحم الله ــ تعالى ــ عبداً وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر .

وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان : « اتق الله عند همك إذا هممت » . وقال محمد بن علي : إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كحاطب ليل فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان ، فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ، ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيته وهمه وفكره وسكونه وحركته فلا يسلم في هذه المراقبة بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله ــ تعالى ــ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، ولا تظنن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر ، هيهات ، بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولهذا كان ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ، ومواضع الغرور فيتقي ذلك . والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة ، فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران فحكم الله ــ تعالى ــ على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله ــ تعالى ــ فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به ، فإن الخطرة الأولى في الباطن إذا لم تدفع أورثت الرغبة ، والرغبة تورث الهم ، والهم يورث جزم القصد ، والقصد يورث الفعل ، والفعل يورث البوار والمقت ، فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فإن جميع ما وراءه يتبعه ، ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر في ذلك بنور العلم ، ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضيء بنور علماء الدين ، وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد ، فقد أوصى الله تعالى إلى داود ــ عليه السلام ــ : لا تسأل عني عالماً أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي ، فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشرة والتكالب عليها محجوبة عن نور الله ــ تعالى ــ فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقيتها ، وهي شهوات الدنيا فلتكن همة المريد أولاً في أحكام العلم أو في طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها ، إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله ــ

---

(1) انظر إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٣٨٨ ، وقال العراقي لم أجد له أصلا ، ولكن انظر حلية الأولياء ج ١ ص ٦١ ، ترجمة عمر ابن أبي الحواري . حديث بلفظ : يا معاذ إن المؤمن لدى الحق أسير ... وفيه « (إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه) .

ﷺ ــ : « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات »[١] . فجمع بين الأمرين وهما متلازمان حقاً فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات ولذلك قال ــ عليه السلام ــ : « من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً »[٢] . فما قدر العقل الضعيف الذى سعد الآدمى به حتى يعتمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الأعصار فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط في الخصومات الثائرة في اتباع الشهوات ، وقالوا : هذا هو الفقه ، وأخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم ، وتجردوا لفقه الدنيا الذى ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين ، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه . وفي الخبر : « أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المتثبت » .

ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة ، ومحمد بن مسلمة ، وغيرهم . فمن لم يتوقف عند الإشتباه كان متبعاً لهواه معجباً برأيه وكان ممن وصفه رسول الله ــ ﷺ ــ إذ قال : « فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك »[٣] . وكل من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم** ﴾[٤] . وقوله ــ عليه السلام ــ : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث »[٥] . وأراد به ظناً بغير دليل كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه . ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق ــ رضى الله تعالى عنه ــ : اللهم أرنى الحق حقاً وارزقنى اتباعه ، وأرنى الباطل باطلاً وارزقنى اجتنابه ، ولا تجعله متشابهاً علىّ فأتبع الهوى . وقال عيسى ــ عليه السلام ــ : « الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده فاتبعه ، وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه »[٦] . وقد كان من دعاء النبى ــ ﷺ ــ : « اللهم إنى أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم »[٧] . فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك

---

(١) انظر إتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٥

(٢) انظر المرجع السابق

(٣) انظر إتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٦ .

(٤) سورة الإسراء .

(٥) انظر إحياء علوم الدين ج ٩ ص ١٧٥ ــ ١٧٧ .

(٦) انظر إتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٦ . وقال رواه الطبراني من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

(٧) انظر إتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٦ .

قال ــ تعالى ــ إمتناناً على عبده : ﴿ وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾(١) وأراد به العلم وقال ــ تعالى ــ : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾(٢) ، وقال تعالى : ﴿ إن علينا للهدى ﴾(٣) . وقال : ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾(٤) . وقال : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾(٥) . وقال على كرم الله وجهه : الهوى شريك العمى ، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طارد الهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفي الصدق السلامة رب بعيد أقرب من قريب ، وغريب من لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه ، ولا يعدمك من حبيب سوء ظن ، نعم الخلق التكرم ، والحياء سبب إلى كل جميل ، وأوثق العرى التقوى ، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله ــ تعالى ــ ، إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك والرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك ، واستدل على ما لم يكن بما كان ، فإنما الأمور أشباه والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، فما نالك من دنياك فلا تكون به فرحاً ، وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفاً ، ولكن سرورك بما قدمت ، وأسفك على ما خلفت ، وشغلك لآخرتك ، وهمك فيما بعد الموت . وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله : ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، فإذن النظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة أهي لله أم للهوى وقد قال ــ ﷺ ــ : « ثلاث من كن فيه إستكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرائي بشيء من عمله وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا »(٦) . وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحاً ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله ــ ﷺ ــ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »(٧) .

النظر الثاني للمراقبة عند الشروع في العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضي حق الله فيه ويحسن النية في إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه وهذا ملازم له في جميع أحواله فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله ــ تعالى ــ في جميع ذلك قدر على عبادة الله ــ تعالى ــ فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب بأن كان قاعداً مثلاً ينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ــ ﷺ ــ : « خير المجالس ما استقبل به القبلة »(٨) . ولا يجلس متربعاً إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه .

(١) سورة النساء الآية ١١٣

(٢) سورة النحل الآية ٤٣

(٣) سورة الليل لآية ١٢

(٤) سورة القيامة الآية ١٩

(٥) سورة النحل الآية ٩

(٦) انظر اتحاف السادة المتقين ، ج ٩ ص ٩٧٨ ، وقال الوافي فيه سالم المرادي ، ضعفه ابن معين والنسائي ، ووثقه ابن حبان . انظر الديلمي في مسند الفردوس ، ورقة ١٢٠ / مخطوط .

(٧) الحديث في سنن الترمذي ج ٤ ص ٤٨٣ كتاب الزهد باب ١١ رقم ٢٣١٧ ، وقال : هذا حديث غريب . ــ انظر سنن ابن ماجة ص ٢ ص ١٣١٥ ، كتاب الفتن ، باب كف اللسان في الفتنة رقم ٣٩٧٦ .

[illegible]

قال إبراهيم بن أدهم — رحمه الله — : جلست مرة متربعاً فسمعت هاتفاً يقول : هكذا تجالس الملوك ! فلم أجلس بعد ذلك متربعاً وإن كان ينام ، فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التى ذكرناها فى مواضعها ، فكل ذلك داخل فى المراقبة بل لو كان فى قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة فإذن لا يخلو العبد إما أن يكون فى طاعة أو فى معصية أو فى مباح الآفات وإن كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والإشتغال بالتفكر ، وإن كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد فى جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها ، ونعمة لابد له من الشكر عليها ، وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد فى كل حال من فرض لله — تعالى — عليه ، إما فعل يلزمه مباشرته أو محظور يلزمه تركه أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله — تعالى — ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ، ولكل واحد من ذلك حدود لابد من مراعاتها بدوام المراقبة ﴿ **ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه** ﴾[1] . فينبغى أن يتفقد العبد نفسه فى جميع أوقاته فى هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغى أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون ، والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى : ﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾[2] وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث : ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت فى مشقة أو رفاهية ، وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدرى العبد أيعيش إليها أم لا ، ولا يدرى ما يقضى الله فيها ، وساعة راهنة ينبغى أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه ، فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة ، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها ، بل يكون ابن وقته كأنه فى آخر أنفاسه فينبغى أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر — رضى الله تعالى عنه — من قوله — عليه السلام — : « لا يكون المؤمن ظاعناً إلا فى ثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم »[3] وما روى عنه أيضاً فى معناه : (وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة ينظر فيها فى صنع الله — تعالى — ، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب) . فإن فى هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات ثم هذه الساعات التى هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغى أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر

(١) سورة الطلاق الآية ١
(٢) سورة القصص الآية ٧٧
(٣) انظر اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٨
انظر حلية الأولياء ج ١ ص ١٦٦ حديث . يا أبا ذر من المسجد شبه .

والفكر بأن الطعام الذى يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام :

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والإعتبار ، فينظرون فى عجائب صنعته ، وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به ، وكيفية تقدير الله لأسبابه ، وخلق الشهوات الباعثة عليه ، وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه ، وهذا مقام ذوى الألباب .

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ، ويلاحظون وجه الإضطرار إليه ويودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته ، وهذا مقام الزاهدين .

وقوم يرون فى الصنعة الصانع **ويترقون** منها إلى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه وهو أعلى المقامات ، وهو من مقامات العارفين ، وعلامات المحبين ، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسى الصنعة واشتغل قلبه بالصانع ، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله ــ تعالى ــ فله فى النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جداً .

وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتأسفون على مافاتهم منه ، ويفرحون بما حضرهم من جملته ، ويذمون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ، ويذمون فاعله ، فيذمون الضيخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل لطبيخ والطباخ ــ **ولقدرته ولعلمه** ــ هو الله ــ تعالى وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير اذن الله فقد ذم الله ، ولذلك قال النبى ــ ﷺ ــ : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر »[1] .

المرابطة الثالثة : محاسبة النفس بعد العمل
ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها

أما الفضيلة ، فقد قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾[2] وهذه اشارة على المحاسبة لما مضى من الأعمال ، ولذلك قال عمر ــ رضى الله تعالى عنه ــ : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا .

وفى الخبر : « أنه ــ عليه السلام ــ جاءه رجل فقال : يا رسول الله : أوصنى ، فقال : أمستوص

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ١٧٦٣ كتاب ألفاظ الأدب رقم « ٢٢٤٦ / ٢ » .
(٢) سورة الحشر الآية ١٨

أنت؟ فقال نعم، قال: إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن كان رشداً فامضه، وإن كان غياً فانته عنه»[١].

وفي الخبر: وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات: ساعة يحاسب فيها نفسه.

وقال ــ تعالى ــ: ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾[٢]. والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه، وقد قال النبي ــ ﷺ ــ: «إني لأستغفر الله ــ تعالى ــ وأتوب إليه في اليوم مائة مرة»[٣].

وقال الله ــ تعالى ــ: ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾[٤]. وعن عمر ــ رضي الله تعالى عنه ــ أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم؟!! وعن ميمون بن مهران أنه قال: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه، والشريكان يتحاسبان بعد العمل. ويروى عن عائشة ــ رضي الله تعالى عنها ــ أن أبا بكر ــ رضوان الله عليه ــ قال لها عند الموت: ما أحد من الناس أحب إليّ من عمر ثم قال لها: كيف قلت فأعادت عليه ما قال. فقال: لا أحد أعز عليّ من عمر. فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدل لها بكلمة غيرها.

«وبحديث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندماً ورجاء للعوض مما فاته».

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له: يا أبا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا، فقال: أردت أن أجرب نفسي هل تنكره.

وقال الحسن: المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. ثم فسر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي، ولكن هيهات، حيل بيني وبينك، وهذا حساب قبل العمل. ثم قال: ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ماذا أردت بهذا؟ والله لا أعذر بهذا، والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله.

وقال أنس بن مالك: سمعت عمر بن الخطاب ــ رضي الله تعالى ــ عنه يوماً، وقد خرج وخرجت

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٧٥١. كتاب المراقبة والمحاسبة. المرابطة الثالثة. محاسبة النفس بعد العمل. ط / الشعب.
(٢) سورة النور من الآية ٣١
(٣) انظر سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٢٥٤. كتاب الأدب. باب الاستغفار رقم «٣٨١٥».
(٤) سورة الأعراف الآية ٢٠١

معه حتى دخل[1] حائطاً ، فسمعته يقول ، وبيني وبينه جدار ، وهو في الحائط : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين : بخ بخ ، والله لتتقين الله أو ليعذبنك .

وقال الحسن في قوله — تعالى — : ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾[2] قال لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ، ماذا أردت بكلمتي ؟ ماذا أردت بأكلتي ؟ ماذا أردت بشربتي ؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه . وقال مالك بن دينار — رحمه الله تعالى — : رحم الله عبداً قال لنفسه : ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم ذمها ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله — تعالى — فكان له قائداً . وهذا من معاتبة النفس .

وقال ميمون بن مهران : التقى أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح ، وقال إبراهيم التيمي : مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها ، وأعانق أبكارها . ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها ، فقلت لنفسي : يا نفس أي شيء تريدين ؟ فقالت : أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً . قلت : فأنت في الأمنية فاعمل .

وقال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به ، رحم الله امرأ نظر في مكياله ، رحم الله امرأ نظر في ميزانه ، فما زال يقول حتى أبكاني .

وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال : كنت أصحبه ، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجيء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ، ثم يقول لنفسه : يا حنيف : ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟ -

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة ، أو شهر ، أو يوم ، حرصاً منه على الدنيا ، وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته ، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ! ، ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة ، والخذلان ، وقلة التوفيق ، نعوذ بالله من ذلك .

ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان . فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره ، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل .

(١) حائطاً : بستاناً

(٢) سورة القيامة الآية ٢

فكذلك رأس مال العبد فى دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصى . وموسم هذه التجارة جملة النهار ، ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولاً ، فإن أداها على وجهها شكر الله — تعالى — عليه ، ورغبها فى مثلها ، وإن فوتها من أصليها طالبها بالقضاء ، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ، ليستوفى منها ما يتدارك به ما فرط ، كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش فى حساب الدنيا عن الحبة والقيراط ، فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن فى شيء منها ، فينبغى أن يتقى غبينة النفس ومكرها ، فإنها خداعة ملبسة مكارة فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره فى صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره ، وأفكاره ، وقيامه ، وقعوده ، وأكله ، وشربه ، ونومه ، حتى عن سكوته أنه لم سكت ؟ وعن سكونه لم سكن ؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس ، وصح عنده قدر أدى الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوباً له ، فيظهر له الباقى على نفسه فليثبته عليها ، وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقى الذى على شريكه على قلبه وفى جريدة حسابه .

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون . أما بعضها فبالغرامة والضمان ، وبعضها برد عينه ، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ، ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقى من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء . ثم ينبغى أن يحاسب النفس على جميع العمر يوماً يوماً ، وساعة ساعة ، فى جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة ، كما نقل عن توبة بن الصمة ، وكان بالرقة ، وكان محاسباً لنفسه ، فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها ، فإذا هى أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال : يا ويلتى ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف ؟ وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب ، ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت . فسمعوا قائلاً يقول : يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى .

فهكذا ينبغى أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح فى كل ساعة ، ولو رمى العبد بكل معصية حجراً فى داره لامتلأت داره فى مدة يسيرة قريبة من عمره ، ولكنه يتساهل فى حفظ المعاصى والملكان يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه .

المرابطة الرابعة : فى معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية ، وارتكاب تقصير فى حق الله — تعالى — فلا ينبغى أن يهملها ، فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصى ، وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها . بل ينبغى أن يعاقبها ، فإن أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغى أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغى أن يعاقب العين بمنع النظر ، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه

عن شهواته ، هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة . فقد روى عن منصور بن ابراهيم أن رجلاً من العباد كلم امرأة ، فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ، ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست .

وروى أنه كان في بني اسرائيل رجل يتعبد في صومعته ، فمكث كذلك زمناً طويلاً ، فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة ، فافتتن بها وهم بها ، فأخرج رجله لينزل إليها ، فأدركه الله بسابقة فقال : ما هذا الذى أريد أن أصنع ؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله — تعالى — . فندم ، فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال : هيهات هيهات ، رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود معى في صومعتى ! لا يكون والله ذلك أبداً فتركها معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار ، والرياح ، والثلج ، والشمس ، حتى تقطعت فسقطت ، فشكر الله له ذلك ، وأنزل في بعض كتبه ذكره .

ويحكى عن الجنيد قال : سمعت ابن الكريبى يقول : أصابتنى ليلة جنابة ، فاحتجت أن أغتسل ، وكانت ليلة باردة ، فوجدت في نفسى تأخراً وتقصيراً ، فحدثتنى نفسى بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء ، أو أدخل الحمام ولا أعنى على نفسى . فقلت : واعجباه ! . أنا أعامل الله في طول عمرى ، فيجب له على حق ، فلا أجد في المسارعة ، وأجد الوقوف والتأخر ! . آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعتى هذه ، وآليت أن لا أنزعها ، ولا أعصرها ، ولا أجففها في الشمس . ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازيهما ، فتكشفت جارية فنظر إليها غزوان فرفع يده فلطم عينه حتى بترت . وقال : إنك للحاظة إلى ما يضرك ، ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش .

ويحكى أن حسان بن أبى سنان مر بغرفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعنيك لأعاقبنك بصوم سنة ، نصامها .

وقال مالك بن ضيغم : جاء رباح القيسى يسأل عن أبى بعد العصر ، فقلنا : إنه نائم . فقال : أنوم هذه الساعة ! هذ وقت نوم ؟ ثم ولى منصرفاً فأتبعناه رسولاً وقلنا له : ألا نوقظه لك ، فجاء الرسول وقال : هو أشغل من أن يفهم عنى شيئاً ، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول : أقلت وقت نوم هذه الساعة ؟ أفكان هذا عليك ؟ ينام الرجل متى شاء . وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم ؟ تتكلمين بما لا تعلمين ؟ أما إن لله على عهداً لا أنقضه أبداً لا أوسدك الأرض لنوم حولا إلا لمرض حائل ، أو لعقل زائل ، سوأة لك ، أما تستحيين ؟ كم توبخين ؟ وعن غيك لا تنتهين ؟ قال وجعل يبكى وهو لا يشعر بمكانى . فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته .

ويحكى عن تميم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد فقام سنة لم ينم فيها للذى صنع .

وعن طلحة — رضى الله تعالى عنه — قال : « انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ في الرمضاء . فكان يقول لنفسه : ذوق ، ونار جهنم أشد حراً ، أجيفة بالليل بطالة بالنهار ، فبينما هو كذلك إذ أبصر

النبى - ﷺ - فى ظل شجرة فأتاه فقال : غلبتنى نفسى ، فقال له النبى - ﷺ - : « ألم يكن لك بد من الذى صنعت ؟ أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة » ثم قال لأصحابه : « تزودوا من أخيكم » فجعل الرجل يقول له : يا فلان : ادع لى ، يا فلان : ادع لى ، فقال النبى - ﷺ - : « عُمَّهُم » ، فقال : اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبى - ﷺ - يقول : « اللهم سدده » . فقال الرجل : اللهم اجعل الجنة مآبهم » .

وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل : كيف تصنع بنفسك فى شهواتها ؟ فقال : ما على وجه الأرض نفس أبغض إلىّ منها ، فكيف أعطيها شهواتها !

ودخل ابن السماك على داود الطائى حين مات وهو فى بيته على التراب ، فقال : يا داود : سجنت نفسك قبل أن تسجن ، وعذبت نفسك قبل أن تعذب ، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له .

وعن وهب بن منبه أن رجلاً تعبد زماناً ثم بدت له إلى الله — تعالى — حاجة ، فقام سبعين سبتاً يأكل فى كل سبت احدى عشرة تمرة ، ثم سأل حاجته فلم يعطها . فرجع إلى نفسه وقال : منك أتيت ، لو كان فيك خيراً لأعطيت حاجتك . فنزل إليه ملك وقال : يا ابن آدم : ساعتك هذه خير من عبادتك التى مضت ، وقد قضى الله حاجتك .

وقال عبد الله بن قيس . كنا فى غزاة لنا ، فحضر العدو فصيح فى الناس ، فقاموا إلى المصاف فى يوم شديد الريح ، وإذا رجل أمامى وهو يخاطب نفسه ويقول : أى نفسى : ألم أشهد مشهد كذا وكذا ، فقلت لى : أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ؟ والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك . فقلت لأرمقنه اليوم ، فرمقته ، فحمل الناس على عدوهم فكان فى أوائلهم ، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا ، فكان فى موضعه حتى انكشفوا مرات ، وهو ثابت يقاتل فو الله مازال دأبه حتى رأيته صريعاً . فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة . وقد ذكرنا حديث أبى طلحة لما اشتغل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك .

وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول : ماذا عملت اليوم . وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه ألا يرفع رأسه إلى السماء مادام فى الدنيا .

وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل ، فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه : ما حملك على أن صنعت يوم كذا وكذا ؟

وأنكر وهيب بن الورد شيئاً على نفسه ، فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ، ثم جعل يقول لنفسه : ويحك إنما أريد بك الخير .

ورأى محمد بن بشر داوود الطائي وهو يأكل عند إفطاره خبزاً بغير ملح ، فقال له : لو أكلته بملح ، فقال : إن نفسي تدعوني إلى الملح منذ سنة ، ولا ذاق داوود ملحاً مادام في الدنيا ، فهكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم .

والعجب أنك تعاقب عبدك ، وأمتك ، وأهلك ، وولدك ، على ما يصدر منهم من سوء خلق ، وتقصير في أمر ، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار ، وبغوا عليك ، ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدولك ، وأشد طغياناً عليك ، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك ، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم ، الذي لا آخر له ، ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة ، فهي بالمعاقبة أولى من غيرها .

المرابطة الخامسة : المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية ، فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت . وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد ، فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ، ويلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات منه ، وتداركاً لما فرط ، فهكذا كان يعمل عمال الله ــ تعالى ــ . فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة ، بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم . وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة . وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين . وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة . وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة ، أو الحج ماشياً ، أو التصدق بجميع ماله . كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها .

فإن قلت : إن كانت نفسي لا تطاوعني على المجاهدة والمواظبة على الأوراد ، فما سبيل معالجتها ؟ . فأقول سبيلك في ذلك أن تسمعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين . ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة ، فتلاحظ أقواله وتقتدي به . وكان بعضهم يقول : كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده ، فعملت على ذلك أسبوعاً ، إلا أن هذا العلاج قد تعذر ، إذ قد فقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين ، فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع ، فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ، ومطالعة أخبارهم ، وما كانوا فيه من الجهد الجهيد ، وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدي بهم فيمتع نفسه أياماً قلائل بشهوات مكدرة ، ثم يأتيه الموت ، ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد ، نعوذ

بالله - تعالى - من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين ، وفضائلهم ، ما يحرك رغبة المريد فى الاجتهاد إقتداء بهم فقد قال رسول الله - ﷺ - : « رحم الله أقواماً يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى »[1] .

قال الحسن أجهدتهم العبادة . قال الله - تعالى - : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾[2] . قال الحسن : يعملون ما عملوا من أعمال البر ، ويخافون ألا ينجيهم ذلك من عذاب الله . وقال رسول الله - ﷺ - : « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله »[3] . ويروى أن الله - تعالى - يقول لملائكته : ما بال عبادى مجتهدين ؟ فيقولون : إلهنا : خوفتهم شيئاً فخافوه وشوقتهم إلى شئ فاشتاقوا إليه . فيقول الله - تبارك وتعالى - : فكيف لو رآنى عبادى لكانوا أشد اجتهاداً .

وقال الحسن : أدركت أقواماً ، وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ، ولهى كانت أهون فى أعينهم من هذا التراب الذى تطؤونه بأرجلكم ، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوب ، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط ، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ، إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم ، إذ عملوا الحسنة فرحوا بها ، ودأبوا فى شكرها . وسألوا الله أن يتقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم ، وسألوا الله أن يغفرها لهم . والله مازالوا كذلك ، وعلى ذلك ، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة .

ويحكى أن قوماً دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه فى مرضه وإذا فيهم شاب ناحل الجسم ، فقال عمر له : يا فتى : ما الذى بلغ بك ما أرى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : أسقام وأمراض . فقال : سألتك بالله إلا صدقتنى فقال : يا أمير المؤمنين : ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة ، وصغر عندى زهرتها وحلاوتها ، واستوى عندى ذهبها ، وحجرها ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى ، والناس يساقون إلى الجنة والنار ، فأظمأت لذلك نهارى ، وأسهرت ليلى ، وقليل حقير كل ما أنا فيه فى جنب ثواب الله وعقابه .

وقال أبو نعيم : كان داود الطائى يشرب الفتيت ، ولا يأكل الخبز ، فقيل له فى ذلك فقال : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية . ودخل رجل عليه يوماً فقال : إن فى سقف بيتك جذعاً مكسوراً فقال : يا ابن أخى ، إن لى فى البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف ، وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام .

وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة ،

---

(١) انظر إحياء علوم الدين . جـ ٤ كتاب المراقبة والمحاسبة . وقال محققه لم أجد له أصلا . إلا أن أحمد قد رواه فى الزهد .
(٢) سورة المؤمنون الآية ٦٠
(٣) انظر إتحاف السادة المتقين جـ ١٠ كتاب المراقبة والمحاسبة .
- انظر كشف الخفاء جـ ١ ص ٤٦١ . بلفظ خيركم من طال عمره وحسن عمله .

فقيل له فى ذلك . فقال : إن الله — تعالى — خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله — عز وجل — ، فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة .

وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة ، وقالت : والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكى رحمة به .

وقال أبو الدرداء : ولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً : الظمأ لله بالهواجر ، والسجود لله فى جوف الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر . وكان الأسود بن يزيد يجتهد فى العبادة ويصوم فى الحر حتى يخضر جسده ويصفر ، فكان علقمة بن قيس يقول له : لم تعذب نفسك ؟ فيقول : كرامتها أريد . وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلى حتى يسقط ، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له : إن الله — عز وجل — لم يأمرك بكل هذا فقال : إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الإستكانة شيئاً إلا جئت به .

وكان بعض المجتهدين يصلى كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجليه فكان يصلى جالساً ألف ركعة فإذا صلى العصر احتبى ثم قال : عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً منك ، عجبت للخليقة كيف أنست بسواك ، بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك .

وكان ثابت البنانى قد حببت إليه الصلاة فكان يقول : اللهم إن كنت إذنت لأحد أن يصلى لك فى قبره فائذن لى أن أصلى فى قبرى .

وقال الجنيد : ما رأيت أعبد من السرى ، أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى مضطجعاً إلا فى علة الموت .

وقال الحرث بن سعد : مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه فى ذلك فقال : وما هذا عند ما يراد بالخلق من شدة الأهوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ، ونسوا حظهم الأكبر من ربهم ، فبكى القوم عن آخرهم .

وعن أبى محمد المغازلى قال : جاور أبو محمد الجريرى بمكة سنة فلم ينم ، ولم يتكلم ، ولم يستند إلى عمود ، ولا إلى حائط ، ولم يمد رجليه . فعبر عليه أبو بكر الكتانى ، فسلم عليه ، وقال له : يا أبا محمد : بم قدرت على اعتكافك هذا ؟ فقال : علم صدق باطنى فأعانني على ظاهرى ، فأطرق الكتانى ومشى مفكراً .

وعن بعضهم قال : دخلت على فتح الموصلى فرأيته قد مد كفيه يبكى حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه ، فدنوت منه ، فإذا دموعه قد خالطها صفرة فقلت : ولم بالله يا فتح : بكيت الدم ؟ فقال : لولا أنك أحلفتنى بالله ما أخبرتك ، نعم بكيت دماً ، فقلت له : على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال : على تخلفى عن واجب حق الله — تعالى — وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صحت لى الدموع ، قال :

فرأيته بعد موته فى المنام فقلت : ما صنع الله بك ؟ قال : غفر لى ربى فقلت له : فماذا صنع فى دموعك ؟ فقال : قربنى ربى — عز وجل — وقال : يا فتح : الدمع على ماذا ؟ قلت على دموعى أن لا تصح لى . فقال لى : يا فتح : ماذا أردت بهذا كله ، وعزتى وجلالى لقد صعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة .

وقيل إن قوماً أرادوا سفراً فحادوا عن الطريق ، فانتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه ، فأشرف عليهم من صومعته فقالوا : يا راهب : إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق ؟ : فأومأ برأسه إلى السماء ، فعلم القوم ما أراد فقالوا : يا راهب : إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال : سلوا ولا تكثروا ، فإن النهار لن يرجع ، والعمر لا يعود . والطالب حثيث ، فعجب القوم من كلامه فقالوا : يا راهب : علام الخلق غداً عند مليكهم ؟ فقال : على نياتهم . فقالوا : أوصنا ، فقال : تزودوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما بلغ البغية ، ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه فى صومعته . وقال عبد الواحد بن زيد . مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته : يا راهب : فلم يجبنى ، فناديته ثانية : فلم يجبنى ، فناديته الثالثة : فأشرف علىّ وقال : يا هذا ما أنا براهب . إنما الراهب من رهب الله فى سمائه ، وعظمه فى كبريائه ، وصبر على بلائه ، ورضى بقضائه ، وحمده على آلائه ، وشكره على نعمائه ، وتواضع لعظمته ، وذل لعزته ، واستسلم لقدرته ، وخضع لمهابته ، وفكر فى حسابه وعقابه ، فنهاره صائم ، وليله قائم ، قد أسهره ذكر النار ، ومسألة الجبار ، فذلك هو الراهب . وأما أنا فكلب عقور . حبست نفسى فى هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم . فقلت : يا راهب : فما الذى قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه ؟ : فقال : يا أخى : لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا ، وزينتها ، لأنها محل المعاصى والذنوب ، والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله — تعالى — من ذنبه ، وأقبل على ما يقربه من ربه . وقيل لداوود الطائى : لو سرحت لحيتك فقال : إنى إذن لفارغ . وكان أويس القرنى يقول : هذه ليلة الركوع ، فيحيى الليل كله فى ركعة . وإذا كانت الليلة الآتية قال : هذه ليلة السجود . فيحيى الليل كله فى سجدة . وقيل لما تاب عتبة الغلام ، كان لا يتهنأ بالطعام والشراب ، فقالت له أمه : لو رفقت بنفسك قال : الرفق أطلب ، دعينى أتعب قليلاً وأتنعم طويلاً ، وحج مسروق فما نام قط إلا ساجداً .

وقال سفيان الثورى : عند الصباح يحمد القوم السرى ، وعند الممات يحمد القوم التقى .

وقال عبد الله بن داود : كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لا ينام طول الليل .

وكان كهمس بن الحسن يصلى كل يوم ألف ركعة ، ثم يقول لنفسه : قومى يامأوى كل شر . فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ، ثم كان يبكى ويقول : ذهب نصف عملى .

وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول : يا أبت مالى أرى الناس ينامون وأنت لا تنام ؟ فيقول : يا ابنتاه إن أباك يخاف البيات . ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسهر ، نادته يا بنى : لعلك قتلت قتيلا

قال : نعم يا أماه ، قالت : فمن هو حتى تطلب لعله فيعفو عنك ، فوالله لو يعلمون ما أنت به لرحموك ، وعفوا عنك . فيقول : يا أماه : هي نفسي ، وعن عمر بن أخت بشر بن الحرث قال : سمعت خالي بشر بن الحرث يقول لأمي : يا أختي : جولي وخواصري تضرب علي . فقالت له أمي : يا أخي : أتأذن لي حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تتحساه يرم جوفك ، فقال لها : ويحك أخاف أن يقول : من أين لك هذا الدقيق ؟ فلا أدري أيش أقول له . فبكت أمي ، وبكى معها ، وبكيت معهم ، قال عمر : ورأت أمي ما ببشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسا ضعيفا فقالت له أمي : يا أخي : ليت أمي لم تلدني ، فقد والله تقطعت كبدي مما أرى بك ، فسمعته يقول لها ، وأنا فليت أمي لم تلدني وإذ ولدتني لم يدر ثديها علي . قال عمر : وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار .

وقال الربيع : أتيت أويساً فوجدته جالسا قد صلى الفجر ثم جلس فجلست فقلت : ألا أشغله عن التسبيح . فمكث مكانه حتى صلى الظهر ، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلبته عيناه فقال : اللهم إني أعوذ بك من عين نوامة ، ومن بطن لا تشبع فقلت : حسبي هذا منه ثم رجعت . ونظر رجل إلى أويس فقال : يا أبا عبد الله : مالي أراك كأنك مريض ، فقال وما لأويس أن لا يكون مريضا ، يطعم المريض وأويس غير طاعم ، وينام المريض وأويس غير نائم .

وقال أحمد بن حرب : ياعجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما .

وقال رجل من النساك : أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء ، فقعدت أرقبه ، فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر ، وأذن المؤذن ، فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءا فحاك ذلك في صدري ، فقلت له : رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعا ثم لم تجدد الوضوء ؟ فقال : كنت الليل كله جائلا في رياض الجنة أحيانا ، وفي أودية النار أحيانا ، فهل في ذلك نوم ؟

وقال ثابت البناني : أدركت رجالا كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوا .

وقيل : مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ، ونزل الماء في إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل كان ورده ستون في كل يوم خمسمائة ركعة .

وعن أبي بكر المطوعي قال : كان وردي في شبيبتي كل يوم وليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد ، إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة (شك من الراوي) . وكان منصور المعتمر إذا رأيته قلت : رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين ، إن حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه : ما هذا الذي تصنع بنفسك ؟ تبكي الليل عامته لا تسكت : لعلك يا بني : أصبت نفساً ، لعلك قتلت قتيلاً ؟ فيقول : يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسي .

وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل ، وظمأ الهواجر ، فقال : هل هو إلا أني صرفت طعام النهار إلى الليل ، ونوم الليل إلى النهار . وليس في ذلك خطير أمر وكان يقول : ما رأيت مثل الجنة ، نام طالبها ، ولا مثل النار نام هاربها . وكان إذا جاء الليل قال : أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح ، فإذا جاء النهار قال : أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسي فإذا جاء الليل قال : من خاف أدلج ، وعند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعضهم : صحبت عامر بن القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار .

ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ أنه قال : صليت خلف علي ـــ رضي الله تعالى عنه ـــ الفجر . فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ، ثم قلب يده وقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وما أرى اليوم شيئاً يشبههم ، كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً . قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم . وكانوا إذا ذكر الله مادوا كما يميد الشجر في الريح ، وهمت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، وكأن القوم باتوا غافلين ، يعني من كان حوله . وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطاً في مسجد بيته يخوف به نفسه . وكان يقول لنفسه : قومي فوالله لأزحفن بك زحفاً حتى يكون الكلل منك لا مني

فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول : أنت أولى بالضرب من دابتي وكان يقول : أيظن أصحاب محمد ـــ ﷺ ـــ أن يستأثروا به دوننا ؟ . كلا والله لنزاحمهم زحاماً حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً .

وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الإجتهاد ما لو قيل له القيامة غداً ما وجد متزايداً ، وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد . وإذا كان في الصيف إضطجع في داخل البيوت ليجد الحر . فلا ينام ، وأنه مات وهو ساجد ، وأنه كان يقول : اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي .

وقال القاسم بن محمد : غدوت يوماً وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة ـــ رضي الله عنها ـــ أسلم عليها ، فغدوت يوماً إليها فإذا هي تصلي صلاة الضحى ، وهي تقرأ : ﴿ فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴾[1] وتبكي وتدعو وتردد الآية . فقمت حتى مللت ، وهي كما هي ، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق ، فقلت أفرغ من حاجتي ثم أرجع ففرغت من حاجتي ثم رجعت ، وهي كما هي ، تردد الآية وتبكي وتدعو .

وقال محمد بن إسحاق : لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجاً اعتلت إحدى قدميه ، فقام يصلي على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء .

---

(١) سورة الطور الآية ٢٧

وقال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا حيث يحول بيني وبين قيام الليل . وقال علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه — : سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر ، وعمش العيون من البكاء ، وذبول الشفاه من الصوم ، عليهم غبرة الخاشعين .

وقيل للحسن : ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً ؟ فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره .

وكان عامر بن عبد القيس يقول : إلهي : خلقتني ولم تؤامرني ، وتميتني ولا تعلمني ، وخلقت معي عدواً ، وجعلته يجري مني مجرى الدم ، وجعلته يراني ولا أراه ، ثم قلت لي : استمسك . إلهي : كيف أستمسك إن لم تمسكني ، إلهي : في الدنيا الهموم والأحزان ، وفي الآخرة العقاب والحساب ، فأين الراحة والفرح ؟! .

وقال جعفر بن محمد : كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات ، كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا كان السحر صاح صيحة قال جعفر بن محمد : فحدثت به بعض البصريين فقال : لا تنظر إلى صيحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح .

وعن القاسم بن راشد الشيباني قال : كان زمعة نازلاً عندنا بالمحصب ، وكان له أهل وبنات ، وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته : أيها الركب المعرسون ، أكل هذا الليل ترقدون ؟ أفلا تقومون فترحلون ؟ فيتواثبون ، فيسمع من ههنا باك ، ومن ههنا داع ، ومن ههنا قارىء ، ومن ههنا متوضىء ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته : عند الصباح يحمد القوم السرى .

وقال بعض الحكماء : إن لله عباداً أنعم عليهم فعرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه ، وتوكلوا عليه ، فسلموا الخلق والأمر إليه ، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين ، وبيوتاً للحكمة ، وتوابيت للعظمة ، وخزائن للقدرة ، فهم بين الخلق مقبلون ، ومدبرون ، وقلوبهم تجول في الملكوت ، وتلوذ بمحجوب الغيوب ، ثم ترجع ومعها طرائف من لطائف الفوائد ، وما لا يمكن واصفاً أن يصفه فهم في باطن أمورهم ، كالديباج حسناً ، وهم في الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعاً ، وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء .

وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك ، فإذا أنا بصوت قد علا ، وإذا تلك الجبال تجيبه ، لها دوي عال ، فاتبعت الصوت ، فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف ، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً** ﴾ إلى قوله :

﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾[1] قال : فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية ، إذ صاح صيحة خر مغشياً عليه ، فقلت : واأسفاه ! هذا الشقاء ، ثم انتظرت إفاقته ، فأفاق بعد ساعة ، فسمعته وهو يقول : أعوذ بك من مقام الكذابين ، أعوذ بك من أعمال البطالين ، أعوذ بك من إعراض الغافلين . ثم قال لك خشعت قلوب الخائفين ، وإليك فزعت آمال المقصرين ، ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ، ثم نفض يده فقال : ما لى وللدنيا ، وما للدنيا ولى ، عليك يا دنيا بأبناء جنسك ، وألاف نعيمك ، إلى محبيك فاذهبى ، وإياهم فاخدعى ، ثم قال : أين القرون الماضية ، وأهل الدهور السالفة فى التراب يبلون ، وعلى الزمان يفنون ، فناديته . يا عبد الله : أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال : وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره ، يخاف سبقها بالموت إلى نفسه ، أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه ، وبقيت آثامه ، ثم قال : أنت لها ولكل شدة أتوقع ورودها ، ثم لها عنى ساعة . وقرأ : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾[2] . ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى ، وخرّ مغشياً عليه . فقلت قد خرجت روحه . فدنوت منه فإذا هو يضطرب ، ثم أفاق وهو يقول : من أنا ؟ ما خطرى ؟ هب لى إساءتى من فضلك ! وجللنى بسترك ، واعف عن ذنوبى بكرم وجهك ، إذا وقفت بين يديك . فقلت له بالذى ترجوه لنفسك وتثق به إلا كلمتنى . فقال عليك بكلام من ينفعك كلامه ، ودع كلام من أوبقته ذنوبه ، إنى لفى هذا الموضع مذ شاء الله . أجاهد إبليس ويجاهدنى ، فلم يجدعوناً علىّ ليخرجنى مما أنا فيه غيرك ، فإليك عنى يا مخدوع : فقد عطلت على لسانى ، وملت إلى حديثك شعبة من قلبى ، وأنا أعوذ بالله من شرك ، ثم أرجو أن يعيذنى من سخطه ، ويتفضل علىّ برحمته . قال : فقلت هذا ولى الله أخاف أن أشغله فأعاقب فى موضعى هذا ، فانصرفت وتركته .

وقال بعض الصالحين : بينا أنا أسير فى مسير لى ، إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف علىّ فقال لى : يا هذا : قم فإن الموت لم يمت ، ثم هام على وجهه ، فاتبعته فسمعته وهو يقول : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾[3] اللهم بارك لى فى الموت ، فقلت وفيما بعد الموت ، فقال : من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له فى الدنيا مستقر ، ثم قال : يا من لوجهه عنت الوجوه ، بيض وجهى بالنظر إليك ، واملأ قلبى من المحبة لك ، وأجرنى من ذل التوبيخ غداً عندك ، فقد آن لى الحياء منك ، وحان لى الرجوع عن الإعراض عنك ، ثم قال : لولا حلمك لم يسعنى أجلى ، ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملى ، ثم مضى وتركنى ، وقد أنشدوا فى هذا المعنى :

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد ... تراه بقمة أو بطن وادى
ينوح على معاص فاضحات ... يكدّر ثقلها صفو الرقاد

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠
(٢) سورة الزمر الآية ٤٧
(٣) سورة آل عمران الآية ١٨٥

فإن هاجت مخاوفه وزادت ... فدعوته أغثني يا عمادي
فأنت بما ألاقيه عليم ... كثير الصفح عن زلل العباد

وقيل أيضاً :

ألذ من التلذذ بالغواني ... إذا أقبلن في حلل حسان
منيب فر من أهل ومال ... يسيح إلى مكان من مكان
ليخمل ذكره ويعيش فرداً ... ويظفر في العبادة بالأماني
تلذذه التلاوة أين ولى ... وذكر بالفؤاد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير ... يبشر بالنجاة من الهوان
فيدرك ما أرادوا ما تمنى ... من الراحات في غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن في كل يوم ثلاث مرات ، ويجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة ، فقيل له : قد أجهدت نفسك . فقال : كم عمر الدنيا ؟ فقيل : سبعة آلاف سنة . فقال : كم مقدار يوم القيامة ؟ فقيل خمسون ألف سنة . فقال : كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم ! يعني أنك لو عشت عمر الدنيا ، واجتهدت سبعة آلاف سنة ، وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة ، لكان ربحك كثيراً ، وكنت بالرغبة فيه جديراً ، فكيف وعمرك قصير ، والآخرة لا غاية لها .

فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها فمهما تمردت نفسك عليك ، وامتنعت من المواظبة على العبادة ، فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عز الآن وجود مثلهم ، ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع في القلب ، وأبعث على الإقتداء ، فليس الخبر كالمعاينة . وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء ، فإن لم تكن إبل فمعزى وخير نفسك بين الإقتداء بهم ، والسكون في زمرتهم ، وغمارهم وهم العقلاء ، والحكماء ، وذوو البصائر في الدين ، وبين الإقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ، ولا ترض لها أن تنخرط في سلك الحمقى ، وتقنع بالتشبه بالأغبياء ، وتؤثر مخالفة العقلاء ، فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الإقتداء بهم ، فطالع أحوال النساء المجتهدات ، وقل لها يا نفس لا تستنكفي أن تكوني أقل من امرأة . فأخسس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها .

ولنذكر الآن نبذة عن أحوال المجتهدات : فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت : إلهي : قد غارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامي بين يديك ، ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت : إلهي : هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعري ، أقبلت مني ليلتي فأهنأ ؟ أم رددتها علي فأعزى ؟ وعزتك لهذا دأبي ودأبك ما أبقيتني . وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي عن جودك وكرمك .

ويروى عن عجردة أنها كانت تحيى الليل ، وكانت مكفوفة البصر ، فإذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون : إليك قطع العابدون دجى الليالي يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك ، فبك يا إلهي : أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين ، وأن ترفعني لديك في عليين ، في درجة المقربين ، وأن تلحقني بعبادك الصالحين ، فأنت أرحم الرحماء ، وأعظم العظماء ، وأكرم الكرماء يا كريم . ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة ، ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر .

وقال يحيى بن بسطام : كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من نياحة وبكاء . فقلت لصاحب لي : لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها ؟ فقال : أنت وذاك قال : فأتيناها فقلت لها : لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئاً فكان لك أقوى على ما تريدين . قال : فبكت ثم قالت : والله لوددت أن أبكي حتى تنفد دموعي ، ثم أبكي دماً حتى لا تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي ، وأنى لي بالبكاء ، وأنى لي بالبكاء ، فلم تزل تردد وأنى لي بالبكاء ، حتى غشي عليها .

وقال محمد بن معاذ : حدثتني امرأة من المتعبدات قالت : رأيت في منامي كأني أدخلت الجنة ، فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم . فقلت : ما شأن أهل الجنة قيام . فقال لي قائل : خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها فقلت : ومن هذه المرأة فقيل : أمة سوداء من أهل الأبلة ، يقال لها شعوانة . قالت : فقلت : أختي والله ، قالت فبينا أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها في الهواء ، فلما رأيتها ناديت : يا أختي : أما ترين مكاني من مكانك . فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك قالت : فتبسمت إلي وقالت : لم يأن لقدومك ولكن إحفظي عني اثنتين : إلزمي الحزن قلبك ، وقدمي محبة الله على هواك ، ولا يضرك متى مت وقال عبد الله بن الحسن : كانت لي جارية رومية وكنت بها معجباً فكانت في بعض الليالي نائمة إلى جنبي فانتبهت ، فالتمستها فلم أجدها ، فقمت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول : بحبك لي ألا ما غفرت لي ذنوبي . فقلت لها : لا تقولي بحبك لي . ولكن قولي بحبي لك . فقالت : يا مولاي بحبه لي أخرجني من الشرك إلى الإسلام ، وبحبه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام .

وقال أبو هاشم القرشي : قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية فنزلت في بعض ديارنا قال : فكنت أسمع لها من الليل أنيناً وشهيقاً ، فقلت يوماً لخادم لي أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع . قال : فأشرف عليها ، فما رآها تصنع شيئاً غير أنها لا ترد طرفها عن السماء ، وهي مستقبلة القبلة ، تقول : خلقت سرية ، ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال ، وكل أحوالك لها حسنة ، وكل بلائك عندها جميل ، وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فهذا بعد هذا ، أتراها تظن أنك لا ترى سوء فعالها وأنت عليم خبير ، وأنت على كل شيء قدير . وقال ذو النون المصري : خرجت ليلة من وادي كنعان ، فلما علوت الوادي إذا سواد مقبل علي وهو يقول : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ [1] ويبكي فلما قرب مني

(1) سورة الزمر الآية ٤٧

السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف وبيدها ركوة ، فقالت لي : من أنت ؟ غير فزعة مني فقلت : رجل غريب فقالت : يا هذا وهل يوجد مع الله غربة . قال : فبكيت لقولها فقالت لي : ما الذي أبكاك ؟ فقلت قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه قالت : فإن كنت صادقاً فلم بكيت . قلت : يرحمك الله والصادق لا يبكي قالت : لا . قلت : و لم ذاك قالت : لأن البكاء راحة القلب ، فسكت متعجباً من قولها .

وقال أحمد بن علي ، إستأذنا على عفيرة ، فحجبتنا ، فلازمنا الباب ، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعناها وهي تقول : اللهم إني أعوذ بك ممن جاء يشغلني عن ذكرك ، ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها : يا أمة الله : ادعي لنا فقالت : جعل الله قراكم في بيتي المغفرة ، ثم قالت لنا : مكث عطاء السلمي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء فحانت منه نظرة فخر مغشياً عليه ، فأصابه فتق في بطنه . فياليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص ، وياليتها إذا عصت لم تعد .

وقال بعض الصالحين : خرجت يوماً إلى السوق ومعي جارية حبشية ، فاحتبستها في موضع بناحية السوق ، وذهبت في بعض حوائجي . وقلت لا تبرحي حتى أنصرف إليك قال : فانصرفت فلم أجدها في الموضع ، فانصرفت إلى منزلي وأنا شديد الغضب عليها ، فلما رأتني عرفت الغضب في وجهي فقالت : يا مولاي : لا تعجل علي ، إنك أجلستني في موضع لم أر فيه ذاكر الله ــ تعالى ــ فخفت أن يخسف بذلك الموضع . فعجبت لقولها وقلت لها : أنت حرة . فقالت : ساء ما صنعت ، كنت أخدمك فيكون لي أجران وأما الآن فقد ذهب عني أحدهما .

وقال ابن العلاء السعدي : كانت لي ابنة عم يقال لها بريدة . تعبدت وكانت كثيرة القراءة في المصحف ، فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت ، فلم تزل تبكي حتى ذهبت عيناها من البكاء ، قال : فدخلنا عليها ، فقلنا : يا بريدة : كيف أصبحت ! قالت : أصبحنا أضيافاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب . فقلنا لها : كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه ، فقالت : إن يكن لعيني عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منهما ، في الدنيا ، وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا ، ثم أعرضت . قال : فقال القوم قوموا بنا فهي والله في شيء غير ما نحن فيه .

وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول : هذا يومي الذي أموت فيه فما تطعم حتى تمسي ، فإذا جاء الليل تقول : هذه الليلة التي أموت فيها فتصلي حتى تصبح .

وقال أبو سليمان الداراني : بت ليلة عند رابعة ، فقامت إلى محرابٍ لها ، وقمت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحر ، فلما كان السحر قلت : ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة ، قالت : جزاؤه أن تصوم له غداً

وكانت شعوانة تقول في دعائها إلهي : ما أشوقني إلى لقائك ، وأعظم رجائي لجزائك ، وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أمل الآملين ، ولا يبطل عندك شوق المشتاقين . إلهي : إن كان دنا أجلي ولم يقربني

منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل على ، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك ، وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك ، إلهي : قد جرت على نفسى فى النظر لها وبقى لها حسن نظرك ، فالويل لها أن لم تسعدها . إلهي : إنك لم تزل لى برا أيام حياتى ، فلا تقطع عنى برك بعد مماتى ، ولقد رجوت ممن تولانى فى حياتى بإحسانه أن يسعفنى عند مماتى بغفرانه . إلهي : كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتى ولم تولنى إلا الجميل فى حياتى . إلهي : إن كانت ذنوبى قد أخافتنى فإن محبتى لك قد أجارتنى ، فتول من أمرى ما أنت أهله ، وعد بفضلك على من غره جهله : إلهي : لو أردت إهانتى لما هديتنى ، ولو أردت فضيحتى لم تسترنى ، فمتعنى بماله هديتنى ، وأدم لى ما به سترتنى . إلهي ما أظنك تردنى فى حاجة أفنيت فيها عمرى . إلهي : لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك .

وقال الخواص : دخلنا على رحلة العابدة ، وكانت قد صامت حتى اسودت ، وبكت حتى عميت ، وصلت حتى أقعدت ، وكانت تصلى قاعدة ، فسلمنا عليها ، ثم ذكرناها شيئاً من العفو ليهون عليها الأمر . قال : فشهقت ثم قالت : علمى بنفسى قرح فؤادى وكلم كبدى . والله لوددت أن الله لم يخلقنى ولم أك شيئاً مذكوراً ، ثم أقبلت على صلاتها .

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ، ويزيد حرصك ، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك ، فإنك أن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله . وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر ، وإن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك ، وبعد أهل عصرك من أهل الدين ، فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك ، وقالت إنما يتيسر الخير فى ذلك الزمان لكثرة الأعوان . والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه ، وعليه فلا يجرى عليك إلا ما يجرى عليهم ، والمصيبة إذا عمت طابت ، فإياك أن تتدل بحيل غرورها وتنخدع بتزويره ، وقل لها : أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد ، وثبتوا على مواضعهم . ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال ، وقدرت أنت على أن تفارقهم وتركبى فى سفينة تتخلصين بها من الغرق فهل يختلج فى نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت ، أم تتركين موافقتهم وتستجهليهم فى صنيعهم ، وتأخذين حذرك مما دهاك ، فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفاً من الغرق وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة ، فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حال ؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ؟ ولأهل النار شغل شاغل عن الإلتفات إلى العموم والخصوص ، ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾[1] . فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك ، وحملها على الإجتهاد فاستعصت ، أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها ، وتقريعها ، وتعريفها سوء نظرها لنفسها ، فعساها تنزجر عن طغيانها .

(١) سورة الزخرف الآية ٢٣

الرابطة السادسة : فى توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك ، وقد خلقت أمارة بالسوء ، ميالة إلى الشر ، فرارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها ، وتقويمها ، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها ، وفطامها عن لذاتها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ، ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ ، والمعاتبة ، والعذل ، والملامة ، كانت نفسك هى النفس اللوّامة التى أقسم الله بها ، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك . أوحى الله ــ تعالى ــ إلى عيسى عليه السلام : يا ابن مريم : عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستحى منى . وقال ــ تعالى ــ : ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾[1] . وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها ، وأنها أبداً تتعزز بفطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها وإستنكافها إذا نسبت إلى الحمق ، فتقول لها : يا نفس : ما أعظم جهلك ، تدعين الحكمة ، والذكاء والفطنة ، وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً ، أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار ، وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب ، فما لك تفرحين ، وتضحكين ، وتشتغلين باللهو ، وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم ، وعساك اليوم تختطفين أو غداً ! فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله قريباً ، أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن البعيد ما ليس بآت ؟ أما تعلمين أن الموت يأتى بغتة من غير تقديم رسول ؟ ومن غير مواعدة ، ومواطأة ، وأنه لا يأتى فى شىء دون شىء ، ولا فى شتاء دون صيف ، ولا فى صيف دون شتاء ، ولا فى نهار دون ليل ، ولا فى ليل دون نهار ، ولا يأتى فى الصبا دون الشباب ، ولا فى الشباب دون الصبا ، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ، ثم يفضى إلى الموت فما لك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب ، أما تتدبرين قوله تعالى : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم** ﴾[2] . ويحك يا نفس إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك . ويحك يا نفس : لو واجهك عبد من عبيدك ، بل أخ من إخوانك بما تكرهيه ، كيف كان غضبك عليه ، ومقتك له ، فبأى جسارة تتعرضين لمقت الله ، وغضبه ، وشديد عقابه ، أفتظنين أنك تطيقين عقابه ؟ هيهات هيهات ، جربى نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه ، فاحتبسى ساعة فى الشمس أو فى بيت الحمام ، أو قربى أصبعك من النار ، ليتبين لك قدر طاقتك ، أم تغترين بكرم الله وفضله ؟ وإستغنائه عن طاعتك ، وعبادتك ، فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك ، فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل فى دفعه ولا تكلينه

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٥

(٢) سورة الأنبياء الآيات ١ ، ٢ ، ٣

إلى كرم الله ــ تعالى ــ . وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا يقضى إلا بالدينار والدرهم فلم تنزعين الروح فى طلبها ، وتحصيلها ، من وجوه الحيل . فلم لا تعولين على كرم الله حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعى منك ولا طلب ، أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا ؟ وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

ويحك يا نفس : ما أعجب نفاقك ، ودعاويك الباطلة ، فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ، ألم يقل لك سيدك ومولاك : ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾[1] وقال فى أمر الآخرة : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾[2] فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعى فيها ، فكذبته بأفعالك ، وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك ، فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ، ما هذا من علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون فى الدرك الأسفل من النار .

ويحك يا نفس : كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب ، وكأنك تظنين أنك إذا مت إنفلت وتخلصت وهيهات . أتحسبين أنك تتركين سدى ، ألم تكونى نطفة من منى يمنى ، ثم كنت علقة فخلق فسوى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ، فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك ، وأجهلك ، إما تتفكرين أنه مما ذا خلقك ؟ من نطفة خلقك فقدرك ، ثم السبيل يسرك ، ثم أماتك فأقبرك ، أفتكذبينه فى قوله ، ثم إذا شاء أنشرك ، فإن لم تكونى مكذبة فما لك لا تأخذين حذرك ؟ ولو أن يهودياً أخبرك فى ألذ أطعمتك بأنه يضرك فى مرضك لصبرت عنه وتركته ، وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات ، وقول الله ــ تعالى ــ فى كتبه المنزلة أقل عندك تأثيراً من قول يهودى يخبرك عن حدس وتخمين ، وظن مع نقصان عقل ، وقصور علم . والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن فى ثوبك عقرباً لرميت ثوبك فى الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان . أفكان قول الأنبياء ، والعلماء ، والحكماء ، وكافة الأولياء ، أقل عندك من قول صبى من جملة أغبياء ، أم صار حر جهنم ، وأغلالها ، وأنكالها ، وزقومها ، ومقامعها ، وصديدها ، وسمومها ، وأفاعيها ، وعقاربها ، أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يوماً أو أقل منه ؟ ما هذه أفعال العقلاء . بل لو انكشفت للبهائم حالك لضحكوا منك ، وسخروا من عقلك ، فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك ، وآمنت به ، فمالك تسوفين العمل ، والموت لك بالمرصاد ، ولعله يختطفك من غير مهلة ، فبماذا أمنت إستعجال الأجل . وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة ، أتظنين أن من يطعم ، الدابة فى حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك . أرأيت لو سافر رجل ليتفقه فى الغربة ، فأقام فيها سنين متعطلاً ، بطالاً ، يعد نفسه بالتفقه فى السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه ،

---

(١) سورة هود الآية ٦

(٢) سورة النجم الآية ٣٩

لعل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة ، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه إعتماداً على كرم الله — سبحانه وتعالى — . ثم هبى أن الجهد فى آخر العمر نافع ، وأنه موصل إلى الدرجات العلا ، فلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين فيه بذلك ، فإن أوحى إليك بالإمهال ، فما المانع من المبادرة ، وما الباعث لك على التسويف ؟ هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة ، أفتنتظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ، هذا يوم لم يخلقه الله قط ، ولا يخلقه ، فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس . وهذا محال وجوده ، أما تتأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين غداً غداً ، فقد جاء الغد وصار يوماً ، فكيف وجدته ، أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يوماً كان له حكم الأمس ، لا ، بل تعجزين عنه اليوم ، فإنت غداً عنه أعجز ، وأعجز ، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التى تعبد العبد بقلعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى ، فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ، ويزيد القالع ضعفاً ووهناً ! فما لا يقدر عليه فى الشباب ، لا يقدر عليه قط فى المشيب ، بل من العناء رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب المشيب . والقضيب الرطب يقبل الإنحناء ، فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك .

فإن كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية ، وتركنين إلى التسويف ، فما بالك تدعين الحكمة ، وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟ ولعلك تقولين ما يمنعنى عن الإستقامة إلا حرصى على لذة الشهوات ، وقلة صبرى على الآلام والمشقات ، فما أشد غباوتك ، وأقبح إعتذارك ! ان كنت صادقة فى ذلك فاطلبى التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ، ولا مطمع فى ذلك إلا فى الجنة ، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها فى مخالفتها فرب أكلة تمنع أكلات ، وما قولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طول عمره ، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً وامتنع عليه شربه طول العمر ، فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر ؟ أم يقضى شهوته فى الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام ، حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم ؟ وجميع عمرك بالاضافة إلى الذى هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته ، وليت شعرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة ، أو ألم النار فى دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله : ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى ، أو لحمق جلى ، أما الكفر الخفى فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب ، وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب .

وأما الحق الجلى فاعتمادك على كرم الله — تعالى — وعفوه ، من غير التفات إلى مكره ، واستدراجه ، واستغنائه عن عبادتك ، مع أنك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز ، أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة

تسمعينها من الخلق ، بل تتوصلين إلى غرضك فى ذلك بجميع الحيل ، وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله ـــ ﷺ ـــ حيث قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى »[1] . ويحك يا نفس لا ينبغى أن تغرك الحياة الدنيا ، ولا يغرنك بالله الغرور ، فانظرى لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ، ولا تضيعى أوقاتك فالأنفاس معدودة ، فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك فاغتنمى الصحة قبل السقم ، والفراغ قبل الشغل ، والغنى قبل الفقر ، والشباب قبل الهرم ، والحياة قبل الموت ، واستعدى للآخرة على قدر بقائك فيها ، يا نفس : أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت ، والكسوة ، والحطب ، وجميع الأسباب ، ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه ، حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ، ولبد ، وحطب ، وغير ذلك ، فإنه قادر على ذلك ، أفتظنين أيها النفس أن زمهرير جهنم أخف برداً وأقصر مدة من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا . كلا أن يكون هذا كذلك ، أو أن يكون بينهما مناسبة فى الشدة والبرودة ، أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعى ؟ هيهات ، كما لا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات . وإنما كرم الله ـــ تعالى ـــ فى أن عرفك طريق التحصن . ويسر لك أسبابه ، لا فى أن يندفع عنك العذاب دون حصنه . كما أن كرم الله ـــ تعالى ـــ فى دفع برد الشتاء أن خلق النار ، وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر ، حتى تدفعى بها برد الشتاء عن نفسك . وكما أن شراء الجبة والحطب مما يستغنى عنه خالقك ومولاك ، إنما تشترينه لنفسك إذ خلقه سبباً لاستراحتك ، فطاعاتك ومجاهداتك أيضاً هو مستغن عنها ، وإنما هى طريقك إلى نجاتك ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها والله غنى عن العالمين .

ويحك يا نفس : انزعى عن جهلك ، وقيسى آخرتك بدنياك ، فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، وكما بدأنا أول خلق نعيده . وكما بدأكم تعودون ، وسنة الله ـــ تعالى ـــ لا تجدين لها تبديلاً ولا تحويلاً .

ويحك يا نفس : ما أراك إلا ألفت الدنيا ، وأنست بها ، فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكدين فى نفسك مودتها ، فاحسبى أنك غافلة من عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك . أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر ، فمد بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر لا محالة إلى مفارقته ، أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى ، أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك ، ومالك فيها إلا مجاز ، وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت . ولهذا قال سيد البشر ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ « إن روح القدس نفث فى روعى أحبب

(1) حديث فى سنن الترمذى جـ ٤ ص ٥٥٠ كتاب صفة القيامة رقم ٢٤٥٩ وقال : هذا حديث حسن . ـــ وانظر سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٤٢٣ كتاب الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له رقم ٤٢٦٠ .

من أحببت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به وعش ما شئت فإنك ميت »[١] ويحك يا نفس : أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ، ويأنس بها مع أن الموت من ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدرى ، أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ، ثم ذهبوا وخلوا ، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم ؟ . أما تريتهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون ، ويؤملون ما لا يدركون ، يبنى كل واحد قصراً مرفوعاً إلى جهة السماء ، ومقره قبر محفور تحت الأرض . فهل فى الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقيناً ، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً ؟ . أما تستحيين يا نفس : من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ؟

واحسبى أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور ، وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والإقتداء ، فقيسى عقل الأنبياء ، والعلماء ، والحكماء ، بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا ، واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء .

يا نفس : ما أعجب أمرك ، وأشد جهلك ، وأظهر طغيانك ! عجباً لك ، كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ! ولعلك يا نفس : أسكرك حب الجاه ، وأدهشك عن فهمها ، أو ما تفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبى أن كل من على وجه الأرض سجد لك ، وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ، ممن عبدك ، وسجد لك ، وسيأتى زمان لا يبقى ذكرك ، ولا ذكر من ذكرك ، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك ، فهل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزاً ، فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى ؟ هذا إذ كنت ملكاً من ملوك الأرض ، سلم لك الشرق والغرب ، حتى أذعنت لك الرقاب ، وانتظمت لك الأسباب ، كيف وبأى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك ؟ بل أمر دارك فضلاً عن محلتك ، فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك ، فما لك لا تتركينها ترفعاً عن خسة شركائها ، وتنزهاً عن كثرة عنائها ، وتوقياً من سرعة فنائها ، أم مالك لا تزهدين فى قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ؟ ومالك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ، ويزيدون عليك فى نعيمها وزينتها ؟ فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء . فما أجهلك ، وأخس همتك ، وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكونى فى زمرة المقربين من النبيين والصديقين ، فى جوار رب العالمين أبد الآبدين ، لتكونى فى صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياماً قلائل . فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين . .

فبادرى ويحك يا نفس فقد أشرفت على الهلاك ، واقترب الموت ، وورد النذير ، فمن ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ؟

---

(١) انظر اتحاف السادة المتقين جـ ١٠ ص ١٥٢ . وقال العراقى : رواه الشيرازى والطبرانى فى الأوسط والأصغر وكلاهما ضعيف .

ويحك يا نفس، مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك، إن ربحت فيها وقد ضيعت أكثرها، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك، فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك ؟

أما تعلمين يا نفس : أن الموت موعدك، والقبر بيتك، والتراب فراشك، والدود أنيسك، والفزع الأكبر بين يديك. أما علمت يا نفس : أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك، وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم. أما تعلمين يا نفس : أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوماً ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم، وأنت في أمنيتهم، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه، وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة. ويحك يا نفس : أما تستحيين ؟ تزينين ظاهرك للخلق، وتبارزين الله في السر بالعظائم، أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ؟ ويحك أهو أهون الناظرين عليك. أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل، تدعين إلى الله وأنت عنه فارة، وتذكرين بالله وأنت له ناسية، أما تعلمين يا نفس : أن المذنب أنتن من العذرة، وأن العذرة لا تطهر غيرها، فلم تطمعين في تطهير غيرك، وأنت غير طيبة في نفسك.

ويحك يا نفس : لو عرفت نفسك حق معرفتك لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك. ويحك يا نفس : قد جعلت نفسك حماراً لإبليس يقودك إلى حيث يريد، ويسخر بك، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأساً برأس لكان الربح في يديك، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك، وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه.

ويحك يا نفس : ما أغدرك، ويحك يا نفس : ما أوقحك، ويحك يا نفس : ما أجهلك ! وما أجرأك على المعاصي، ويحك كم تعقدين فتنقضين، ويحك كم تعهدين فتغدرين، ويحك يا نفس : أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك، كأنك غير مرتحلة عنها، أما تنظرين إلى أهل القبور، كيف كانوا جمعوا كثيراً، وبنوا مشيداً، وأملوا بعيداً، فأصبح جمعهم بوراً، وبنيانهم قبوراً، وأملهم غروراً. ويحك يا نفس : أما لك بهم عبرة ؟ أما لك إليهم نظرة ؟ أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟ هيهات، هيهات، ساء ما تتوهمين، ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك، فابني على وجه الأرض قصرك، فإن بطنها عن قليل يكون قبرك. أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه، وبشرى بالعذاب ؟ فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء ؟

والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك، ولا تحزنين بنقصان عمرك، وما نفع مال يزيد وعمر ينقص. ويحك يا نفس : تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك، وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك، فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله، وكم من مؤمل لغد لا يبلغه، فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك، وأقاربك، وجيرانك، فترين تحسرهم عند

الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك . فاحذرى أيتها النفس المسكينة يوماً آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبداً أمره فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله ، دقيقه وجليله ، سرّه وعلانيته . فانظرى يا نفس : بأى بدن تقفين بين يدى الله ، وبأى لسان تجيبين ، وأعدى للسؤال جواباً ، وللجواب صواباً ، واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال ، وفى دار زوال لدار مقامة ، وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود ، إعملى قبل أن لا تعملى ، اخرجى من الدنيا اختياراً خروج الأحرار قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ، ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا ، فرب مسرور مغبون ، ورب مغبون لا يشعر . فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ، ويلهو ويمرح ، ويأكل ويشرب ، وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار ، فليكن نظرك يا نفس : إلى الدنيا اعتباراً ، أو سعيك لها إضطراراً ، ورفضك لها اختياراً ، وطلبك للآخرة ابتداراً ، ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ، ويبتغى الزيادة فيما بقى ، وينهى الناس ولا ينتهى ، واعلمى يا نفس : أنه ليس للدين عوض ، ولا للإيمان بدل ، ولا للجسد خلف ، ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر . فاتعظى يا نفس بهذه الموعظة ، واقبلى هذه النصيحة ، فإن من اعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار ، وما أراك بها راضية ، ولا بهذه الموعظة واعية ، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعينى عليها بدوام التهجد والقيام ، فإن لم تزل فالمواظبة على الصيام ، فإن لم تزل فبقلة المخالطة والكلام ، فإن لم تزل فبصلة الأرحام ، واللطف بالأيتام . فإن لم تزل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه . فوطنى نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلاً ، وخلق النار وخلق لها أهلاً ، فكل ميسر لما خلق له ، فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطى من نفسك ، والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك ، فلا سبيل لك إلى القنوط ، ولا سبيل لك إلى الرجاء ، مع استفاد طرق الخير عليك ، فإن ذلك اغترار وليس برجاء ، فانظرى الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التى ابتليت بها ، وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك ، فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة ، فقد بقى فيك موضع للرجاء ، فواظبى على النياحة والبكاء ، واستعينى بأرحم الراحمين ، واشتكى إلى أكرم الأكرمين ، وأدمنى الإستغاثة ، ولا تملى طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك ، فإن مصيبتك قد عظمت ، وبليتك قد تفاقمت ، وتماديك قد طال ، وقد انقطعت منك الحيل ، وراحت عنك العلل ، فلا مذهب ولا مطلب ، ولا مستغاث ولا مهرب ، ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك ، فافزعى إليه بالتضرع ، واخشعى فى تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك ، لأنه يرحم المتضرع الذليل ، ويغيث الطالب المتلهف ، ويجيب دعوة المضطر ، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة ، وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقت بك السبل ، وانسدت عليك الطرق ، وانقطعت منك الحيل ، ولم تنجع فيك العظات ! ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم ، والمسئول جواد ، والمتغاث به بر رءوف ، والرحمة واسعة ، والكرم فائض ، والعفو شامل ، وقولى يا أرحم الراحمين ، يا رحمن يا رحيم ، يا حليم يا عظيم ، يا كريم أنا المذنب المصرّ ، أنا الجرىء الذى لا أقلع ، أنا المتمادى الذى لا أستحى ، هذا مقام المتضرع المسكين ، والبائس الفقير ، والضعيف الحقير ،

والمالك الغريق ، فعجل أغاثتي وفرجي ، وأرني آثار رحمتك ، وأذقني برد عفوك ومغفرتك ، وارزقني قوة عصمتك يا أرحم الراحمين ، إقتداء بأبيك آدم — عليه السلام — فقد قال وهب بن منبه : لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له دمعة فاطلع الله — عز وجل — عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه ، فأوحى الله — تعالى — إليه : يا آدم : ما هذا الجهد الذي أرى بك ؟ قال : يارب ! عظمت مصيبتي ، وأحاطت بي خطيئتي ، وأخرجت من ملكوت ربي ، فصرت في دار الهوان بعد الكرامة ، وفي دار الشقاء بعد السعادة وفي دار النصب بعد الراحة ، وفي دار البلاء بعد العافية ، وفي دار الزوال بعد القرار ، وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء ، فكيف لا أبكي على خطيئتي ؟ ، فأوحى الله — تعالى — إليه يا آدم : ألم أصطفك لنفسي ، وأحللتك داري ، وخصصتك بكرامتي ، وحذرتك سخطي ، ألم أخلقك بيدي ، ونفخت فيك من روحي ، وأسجدت لك ملائكتي ، فعصيت أمري ، ونسيت عهدي ، وتعرضت لسخطي ؟ ، فو عزتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالاً كلهم مثلك ، يعبدوني ، ويسبحوني ، ثم عصوني ، لأنزلتهم منازل العاصين . فبكى آدم — عليه السلام — عند ذلك ثلاثمائة عام .

وكان عبد الله البجلي كثير البكاء ، يقول في بكائه طول ليله إلهي أنا الذي كلما طال عمري زادت ذنوبي ، أنا الذي كلما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة أخرى ، واعبيداه ، خطيئة لم تبل وصاحبها في طلب أخرى ، واعبيداه ، إن كانت النار لك مقيلاً ومأوى ، واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ ، واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى .

وقال منصور بن عمار : سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابداً يناجي ربه وهو يقول : يارب : وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ، ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ، ولا لنظرك مستخف ، ولكن سولت لي نفسي ، وأعانني على ذلك شقوتي ، وغرني سترك المرخى علىّ ، فعصيتك بجهلي ، وخالفتك بفعلي ، فمن عذابك الآن من يستنقذني ؟ . أو بحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني ؟ واسوأتاه من الوقوف بين يديك غداً . إذا قيل للمخفين جوزوا ، وقيل للمثقلين حطوا . أمع المخفين أجوز ، أم مع المثقلين أحط ؟ . ويلي ! كلما كبرت سني كثرت ذنوبي . ويلي ! كلما طال عمري كثرت معاصيّ ، فإلى متى أتوب وإلى متى أعود ؟ ، أما آن لي أن أستحيي من ربي . فهذه طرق القوم في مناجاة مولاهم ، وفي معاتبة نفوسهم . وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ، ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والإسترعاء ، فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعياً ، ويوشك أن لا يكون الله — تعالى — عنه راضياً .

تحذير

قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ أي : لا تنسوا ذكر الله تعالى ، فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم ، فإن الجزاء من جنس العمل ، ولهذا قال — تعالى —

﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ أى : الخارجون عن طاعة الله الهالكون يوم القيامة ، الخاسرون يوم معادهم ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾[1] . وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى بسنده عن نعيم بن نمحة قال : كان فى خطبة أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله ــ عز وجل ــ فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله ــ عز وجل ــ ، إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله ــ عز وجل ــ أن تكونوا أمثالهم ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا فى أيام سلفهم وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ . قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه . إن الله ــ تعالى ــ أثنى على زكريا وأهل بيته فقال ــ تعالى ــ : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾[2] لا خير فى قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله ، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف فى الله لومة لائم . هذا إسناد جيد ورجاله كلهم ثقات .

وقوله تعالى : ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ أى : لا يستوى هؤلاء وهؤلاء فى حكم الله ــ تعالى ــ يوم القيامة ، كما قال ــ تعالى ــ : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون ﴾[4] ، وقال تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾[5] .

ومثل ذلك قوله ــ تعالى ــ : ﴿ كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفنجعل المسلمين كالمجرمين . ما لكم كيف تحكمون ﴾[6] ، وقوله ــ جل شأنه ــ : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾[7] .

(١) سورة المنافقون الآية ٩
(٢) سورة الأنبياء الآية ٩٠
(٣) سورة الجاثية الآية ٢١
(٤) سورة غافر الآية ٥٨
(٥) سورة ص الآية ٢٨
(٦) سورة ن الآيات ٣٢ ــ ٣٦
(٧) سورة السجدة الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

أما قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ فهذا منطق العدالة الإلهية إذ المساواة بينهما ظلم . والله ــ تبارك وتعالى ــ هو الحكم العدل ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾[1] .

عظمة القرآن وأسماء الله الحسنى

قوله تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون . هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

يقول ــ تعالى ــ معظماً لأمر القرآن ومبيناً علو قدره وأنه ينبغى أن تخشع له القلوب ، وتتصدع عند سماعه ، لما فيه من الوعد الحق ، والوعيد الأكيد . ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾ . أى : فإذا كان الجبل فى غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله ــ عز وجل ــ فكيف يليق بكم أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله ؟ وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ولهذا قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ . قال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً ﴾ إلى آخرها ، يقول : لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله ، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع ، ثم قال ــ تعالى ــ : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ وكذا قال قتادة وابن جرير . وقد ثبت فى الحديث المتواتر أن رسول الله ــ ﷺ ــ لما عمل له المنبر وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبى ــ ﷺ ــ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر فعند ذلك حن الجذع وجعل يئن كما يئن الصبى الذى يسكت لما كان يسمع من الذكر والوحى عنده . ففى بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصرى بعد إيراده : فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ــ ﷺ ــ من جذع ، وهكذا هذه الآية الكريمة إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت ، وتصدعت من خشيته فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ وقد قال ــ تعالى ــ : ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ﴾[2] الآية . وقد قال تعالى : ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾[3] .

---

(١) سورة النساء الآية ٤٠
(٢) سورة الرعد الآية ٣١
(٣) سورة البقرة الآية ٧٤

ثم قال ــ تعالى ــ : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾ أخبر ــ تعالى ــ أنه الذى لا إله إلا هو فلا رب غيره ، ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، أى : يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا ، والغائبات عنا ، فلا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء من جليل وحقير وكبير ، وصغير ، حتى الذر فى الظلمات . وقوله ــ تعالى ــ ﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾ أى : أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وقد قال ــ تعالى ــ : ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء ﴾[1] ، وقال ــ تعالى ــ : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾[2] ، وقال ــ تعالى ــ : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾[3] .

ثم قال تعالى : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك ﴾ أى المالك لجميع الأشياء ، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة . وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ القدوس ﴾ . قال وهب بن منبه : أى : الطاهر . وقال مجاهد وقتادة : أى : المبارك . وقال ابن جريج : تقدسه الملائكة الكرام . ﴿ السلام ﴾ أى : من جميع العيوب والنقائص . لكماله فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله . وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ المؤمن ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس أى : أمن خلقه من أن يظلمهم . وقال قتادة : أمن بقوله أنه حق . وقال ابن زيد : صدق عباده المؤمنين فى إيمانهم به . وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ المهيمن ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : أى : الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنى هو رقيب عليهم ، كقوله : ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾[4] ، وقوله : ﴿ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾[5] ، وقوله : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾[6] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ العزيز ﴾ أى : الذى قد عز كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ، ولهذا قال ــ تعالى ــ : ﴿ الجبار المتكبر ﴾ أى : الذى لا تليق الجبرية إلا له ، ولا التكبر إلا لعظمته ، كما جاء فى الصحيح : « العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى واحداً منهما عذبته »[7] . وقال قتادة : الجبار الذى جبر خلقه على ما يشاء . وقال ابن جرير : الجبار : المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم . وقال قتادة : المتكبر يعنى عن كل سوء . ثم قال ــ تعالى ــ : ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٦
(٢) سورة الأنعام الآية ٥٤
(٣) سورة يونس الآية ٥٨
(٤) سورة المجادلة من الآية ٦
(٥) سورة يونس من الآية ٤٦
(٦) سورة الرعد الآية ٣٣
(٧) انظر سنن أبى داود . كتاب اللباس ، باب ما جاء فى الكبر جـ ٤ ص ٣٥٠ رقم ٤٠٩٠ .
وانظر سنن ابن ماجة . كتاب الزهد . باب البراءة من الكبر جـ ٢ ص ١٣٩٧ رقم ٤١٧١ .
انظر مسند احمد جـ ٢ ص ٣٧٦ ، ٤١٤ .

وقوله تعالى : ﴿ هو الله الخالق البارئ المصور ﴾ الخلق : التقدير ، والبرء هو الفرى وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل . قال الشاعر يمدح آخر :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفرى

أي أنت تنفذ ما خلقت أي قدرت ، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد فالخلق التقدير ، والفرى : التنفيذ ومنه يقال : قدر الجلاد ثم فرى أي قطع على ما قدره بحسب ما يريده .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ الخالق البارئ المصور ﴾ أي الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون على الصفة التي يريد والصورة التي يختار . كقوله تعالى : ﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ ولهذا قال : المصور أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها . وقوله تعالى : ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ فقد روى في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن لله ـ تعالى ـ تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر »[1] . وسياق الترمذي وابن ماجة له عن أبي هريرة أيضاً زاد بعد قوله : « وهو وتر يحب الوتر » . واللفظ للترمذي : « هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولي الحميد المحصى المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرءوف ، مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المعطي المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور »[2] . وقوله تعالى : ﴿ يسبح له ما في السموات والأرض ﴾ كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾[3] . وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وهو العزيز ﴾ : أي : فلا يرام جنابه (الحكيم) في شرعه وقدره . وقد قال الإمام أحمد بسنده عن معقل بن يسار عن النبي ـ ﷺ ـ قال : « من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة »[4] .

(١) الحديث في صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٦٣ . كتاب الذكر والدعاء . باب أسماء الله تعالى رقم ٥ ، ٦ / ٢٦٧٧ .

(٢) الحديث بكماله في سنن الترمذي جـ ٥ ص ٤٩١ . كتاب الدعوات باب ٨٣ . رقم ٣٥٠٧ .

انظر سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ . كتاب الدعاء باب أسماء الله عز وجل . رقم ٣٨٦١ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٤٤

(٤) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٥ ص ٢٦ مسند معقل بن يسار .

أسماء الله الحسنى
دستور الأخلاق فى الإسلام

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾ . ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ﴾ . ﴿ هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى . يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (الحشر / ٢٢ ـــ ٢٤) . إنها تسبيحة مديدة بهذه الصفات المجيدة ، ذات ثلاث مقاطع يبدأ كل مقطع منها بصفة التوحيد : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾ أو ﴿ هو الله ﴾ .

ولكل اسم من هذه الأسماء الحسنى أثر فى هذا الكون وأثر فى حياة البشر ملموس . فهى توحى إلى القلب بفاعلية هذه الأسماء والصفات فاعلية ذات أثر وعلاقة بالناس والأحياء . وليست هى صفات سلبية منعزلة من كيان هذا الوجود ، وأحواله وظواهره المصاحبة لوجوده . ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾ فتقرر فى الضمير وحدانية اعتقاد ، ووحدانية العبادة ، ووحدانية الاتجاه ، ووحدانية الفاعلية من مبدأ الخلق إلى منتهاه . ويقوم على هذه الوحدانية مبدأ كامل فى التفكير والشعور والسلوك ، وارتباطات الناس بالكون وبسائر الأحياء وارتباطات الناس بعضهم ببعض على أساس وحدانية الإله . ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ فيستقر فى الضمير الشعور بعلم الله للظاهر والمستور . ومن ثم تستيقظ مراقبة هذا الضمير لله فى السر والعلانية ، ويعمل الإنسان كل ما يعمل بشعور المراقب من الله المراقب لله ، الذى لا يعيش وحده ، ولو كان فى خلوة أو مناجاة ، ويتكيف سلوكه بهذا الشعور الذى لا يغفل بعده قلب ولا ينام .

﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾ فيستقر فى الضمير شعور الطمأنينة لرحمة الله والاسترواح ويتعادل الخوف والرجاء ، والفزع والطمأنينة ، فالله فى تصور المؤمن لا يطارد عباده ولكن يراقبهم ، ولا يريد الشر بهم بل يحب الهدى ، ولا يتركهم بلا عون ، وهم يصارعون الشرور والأهواء .

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾ يعيدها فى أول التسبيحة التالية لأنها القاعدة التى تقوم عليها سائر الصفات .

﴿ الملك ﴾ فيستقر فى الضمير أن لا ملك إلا الله الذى لا إله إلا هو . وإذا توحدت الملكية ، لم يبق للمملوكين إلا سيد واحد يتوجهون إليه ، ولا يخدمون غيره . فالرجل لا يخدم سيدين فى وقت واحد ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾[1] .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤

﴿ القدوس ﴾ وهو اسم يشع القداسة المطلقة ، والطهارة المطلقة ، ويلقى في ضمير المؤمن هذا الإشعاع الطهور ، فينظف قلبه هو ويطهره ، ليصبح صالحاً لتلقى فيوض الملك القدوس والتسبيح له والتقديس .

﴿ السلام ﴾ وهو اسم كذلك يشع السلام ، والأمن ، والطمأنينة ، فى جنبات الوجود ، وفى قلب المؤمن تجاه ربه ، فهو آمن فى جواره ، سالم فى كنفه ، وحيال هذا الوجود وأهله من الأحياء والأشياء . ويؤوب القلب من هذا الإسم بالسلام والراحة والإطمئنان . وقد هدأت شرته وسكن بلباله وجنح إلى الموادعة والسلام .

﴿ المؤمن ﴾ واهب الأمن وواهب الإيمان . ولفظ هذا الاسم يشعر القلب بقيمة الإيمان ، حيث يلتقى فيه بالله ، ويتصف منه بإحدى صفات الله . ويرتفع إذن إلى الملأ الأعلى بصفة الإيمان .

﴿ المهيمن ﴾ وهذا بدء صفحة أخرى فى تصور صفة الله ــ سبحانه ــ إذ كانت الصفات السابقة : ﴿ القدوس السلام المؤمن ﴾ صفات تتعلق بمجرد ذات الله . فأما هذه فتتعلق بذات الله فاعلة فى الكون والناس . توحى بالسلطان والرقابة .

وكذلك ﴿ العزيز الجبار المتكبر ﴾ فهى صفات توحى بالقهر والغلبة والجبروت والاستعلاء . فلا عزيز إلا هو ، ولا جبار إلا هو . ولا متكبر إلا هو . وما يشاركه أحد فى صفاته هذه . وما يتصف بها سواه فهو المتفرد بها بلا شريك ومن ثم يجيء ختام الآية : ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ .

ثم يبدأ المقطع الأخير فى التسبيحة المديدة .

﴿ هو الله ﴾ فهى الألوهية الواحدة . وليس غيره بإله .

﴿ الخالق ﴾ . ﴿ البارىء ﴾ والخلق : التصميم والتقدير ، والبرء : التنفيذ والإخراج ، فهما صفتان متصلتان والفارق بينهما لطيف دقيق .

﴿ المصور ﴾ وهى كذلك صفة مرتبطة بالصفتين قبلها . ومعناها إعطاء الملامح المتميزة والسمات التى تمنح لكل شيء شخصيته الخاصة . وتوالى هذه الصفات المترابطة اللطيفة الفروق ، يستجيش القلب لمتابعة عملية الخلق والإنشاء والإيجاد والإخراج مرحلة مرحلة ــ حسب التصور الإنسانى ــ فأما فى عالم الحقيقة فليست هناك مراحل ولا خطوات . وما نعرفه من مدلول هذه الصفات ليس هو حقيقتها المطلقة ، فهذه لا يعرفها إلا الله إنما نحن ندرك شيئاً من آثارها هو الذى نعرفه بها فى حدود طاقاتنا الصغيرة ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ الحسنى فى ذاتها بلا حاجة إلى استحسان من الخلق ولا توقف على استحسانهم.. والحسنى التى توحى بالحسن للقلوب وتفيضه عليها ، وهى الأسماء التى يتدبرها المؤمن ليصوغ نفسه وفق ايحائها واتجاهها دليل أن الله يحب له أن يتصف بها . وأن يتدرج فى مراقبة وهو يتطلع إليها .

وخاتمة هذه التسبيحة المديدة بهذه الأسماء الحسنى ، والسبحة البعيدة مدلولاتها الموحية وفى فيوضها العجيبة ، هى مشهد التسبيح لله يشيع فى جنبات الوجود ، وينبعث من كل موجود .

﴿ يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ وهو مشهد يتوقعه القلب بعد ذكر تلك الأسماء ، ويشارك به مع الأشياء والأحياء ، كما يتلاقى فيه المطلع والختام ، فى تناسق والتئام . (للأستاذ سيد قطب) .

الأسماء الحسنى

ألفاظ الحديث النبوى الشريف والروايات الواردة فى الأسماء الحسنى

جاء فى صحيح الترمذى :

حدثنا يوسف بن حماد البصرى بسنده عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة غير واحد ، من أحصاها دخل الجنة »[1] .

قال يوسف : حدثنا عبد الأعلى ، عن هشام بن حسان عن محمد عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — أنه قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » .

حدثنا ابراهيم بن يعقوب الجوزجانى ، حدثنى صفوان بن صالح ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا شعيب بن أبى حمزة ، عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة ، قال رسول الله — ﷺ — : « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » . وهى :

« الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدىء المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول والآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرءوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور »[2] .

حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، قال : حفظناه من أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رواية قال : « لله تسعة وتسعون إسماً مائة إلا واحداً ، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر »[3] .

---

(١) انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٤٩٦ كتاب الدعوات . باب ٨٣ رقم ٣٥٠٦ .
(٢) انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٤٩٦ — ٤٩٧ كتاب الدعوات باب ٨٣ رقم ٣٥٠٧ .
(٣) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى جـ ٤ ص ١١٥ كتاب الدعوات باب لله مائة اسم غير واحد . ط / الحلبى .

وقد أخرج الطبراني الحديث المذكور ، عن أبي زرعة الدمشقي ، عن صفوان بن صالح ، مخالف في عدة أسماء فقال : (القائم الدائم بدل القابض الباسط) (والشديد بدل الرشيد) ، (والأعلى المحيط مالك يوم الدين بدل الودود المجيد الحكيم) .

ووقع عند ابن حبان عن الحسن بن سفيان عن صفوان ، (الرافع بدل المانع) . ووقع في صحيح ابن خزيمة في رواية صفوان أيضاً ، مخالفة في بعض الأسماء قال : (الحاكم بدل الحكيم) ، (المولى بدل الوالي) .

وجاء في سنن ابن ماجة ، باب أسماء الله عز وجل : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا عبده بن سليمان عن أبي هريرة ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن لله تسعة وتسعين إسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة »[1] .

حدثنا هشام بن عمار بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، إنه وتر يحب الوتر ، من حفظها دخل الجنة وهي :

الله الواحد الصمد الأول الآخر الظاهر الباطن الخالق البارئ المصور الملك الحق السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الرحمن الرحيم اللطيف الخبير السميع البصير العليم العظيم البار المتعال الجليل الجميل الحي القيوم القادر القاهر العلي الحكيم القريب المجيب الغني الوهاب الودود الشكور الماجد الواجد الوالي الراشد العفو الغفور الحليم الكريم التواب الرب المجيد الولي الشهيد المبين البرهان الرءوف (مرة أخرى) الرحيم المبدئ المعيد الباعث الوارث القوي الشديد الضار النافع الباقي الواقي الخافض الرافع القابض الباسط المعز المذل المقسط الرزاق ذو القوة المتين القائم الدائم الحافظ الوكيل الناظر السامع المعطي المحيي المميت المانع الجامع الهادي الكافي الأبد العالم الصادق النور المنير التام القديم الوتر .

الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، قال زهير : فبلغنا من غير واحد من أهل العلم أن أولها يفتتح بقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله له الأسماء الحسنى »[2] .

وبذلك تكون رواية زهير كما وردت في سنن ابن ماجة مخالفة لرواية الوليد ، كما جاءت في صحيح الترمذي في خمسة وعشرين اسماً ، فليس في بداية زهير ، الأسماء والصفات التالية :

القدوس الغفار القهار الفتاح الحكم العدل الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الرقيب الواسع الحميد المحصي المقتدر المقدم المؤخر البر المنتقم مالك الملك ذو الجلال والإكرام المغني البديع الرشيد الصبور .

وذكر بدلها :

---

(١) انظر سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٢٦٩ كتاب الدعاء باب أسماء الله عز وجل ، رقم ٣٨٦٠ .
(٢) انظر سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ كتاب باب أسماء الله عز وجل ، رقم ٣٨٦١ .

البار الجميل القاهر القريب الراشد الرب المبين البرهان الشديد الواقى ذو القوة القائم الدائم الحافظ الناظر السامع المعطى الكافى الأبد العالم الصادق المنير التام القديم الوتر . . .

الأسماء الحسنى
كما جاءت فى الكتاب العربى المبين

ترِدُ فى القرآن العظيم ، الأسماء الحسنى ، التالية ، حسب ترتيبها فى المصحف .

(١) الله

(٢) الرحمن

(٣) الرحيم

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ (١ ــ الفاتحة) .

(٤) الرب . رب العالمين

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ (٢ ــ الفاتحة)

(٥) الملك

﴿ مالك يوم الدين ﴾ (٤ ــ الفاتحة)

﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ (١١٤ طه) .

(٦) المحيط

﴿ والله محيط بالكافرين ﴾ (١٩ البقرة)

﴿ ألا إنه بكل شىء محيط ﴾ (٥٤ فصلت)

(٧) القدير

﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ (٢٠ البقرة)

(٨) العليم

﴿ فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم ﴾ (٢٩ البقرة)

(٩) الحكيم

﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ (٣٢ البقرة) .

(١٠) التواب

﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ (٣٧ البقرة) .

(١١) البارىء

﴿ ... فتوبوا إلى بارئكم ﴾ (٥٤ البقرة) .

(١٢) البصير

﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ (٩٦ البقرة)

(١٣) الولى

﴿ وهو الولى الحميد ﴾

(١٤) النصير

﴿ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ (١٠٧ البقرة)

(١٥) الواسع

﴿ ان الله واسع عليم ﴾ (١١٥ البقرة)

(١٦) البديع

﴿ بديع السموات والأرض ﴾ (١١٧ البقرة)

(١٧) السميع

﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ (١٢٧ البقرة)

(١٨) العزيز

﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (١٢٩ البقرة) .

(١٩) الإله

(٢٠) الواحد

﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ (١٣٣ البقرة)

(٢١) الرءوف

﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ (١٤٣ البقرة)

(٢٢) الشاكر

﴿ ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم ﴾ (١٥٨ البقرة)

(٢٣) الغفور

﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ (١٧٣ البقرة)

(٢٤) القريب

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ﴾ (١٨٦ البقرة)

(٢٥) الحليم

﴿ والله غفور حليم ﴾ (٢٢٥ البقرة)

(٢٦) الخبير

﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ (٢٣٤ البقرة)

(٢٧) الحى

(٢٨) القيوم

﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾

(٢٩) العلى

(٣٠) العظيم

﴿ وهو العلى العظيم ﴾ (٢٥٥ البقرة)

(٣١) الغنى

﴿ والله غنى حليم ﴾ (٢٦٣ البقرة)

(٣٢) الحميد

﴿ واعلموا أن الله غنى حميد ﴾ (٢٦٧ البقرة)

(٣٣) الوهاب

﴿ وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ (٨ آل عمران)

(٣٤) الجامع

﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ﴾ (٩ آل عمران)

(٣٥) القائم

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ﴾ (١٨ آل عمران)

﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ (٣٣ الرعد)

(٣٦) مالك الملك

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ﴾ (٢٦ آل عمران)

(٣٧) الشهيد

﴿ والله شهيد على ما تعملون ﴾ (٩٨ آل عمران)

(٣٨) الناصر

﴿ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ (١٥٠ آل عمران)

(٣٩) الوكيل

﴿ فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ (١٧٣ آل عمران)

(٤٠) الرقيب

﴿ إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ (١ النساء)

(٤١) الحسيب

﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ (٦ النساء)

(٤٢) الكبير

﴿ إن الله كان علياً كبيراً ﴾ (٣٤ النساء)

(٤٣) العفو

﴿ إن الله كان عفواً غفوراً ﴾ (٤٣ النساء)

(٤٤) المقيت

﴿ وكان الله على كل شيء مقيتاً ﴾ (٨٥ النساء)

(٤٥) الرزاق

﴿ وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾ (١١٤ النساء)

(٤٦) الفاطر

﴿ قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والأرض ﴾ (١٤ الانعام)

(٤٧) القاهر

﴿ وهو القاهر فوق عباده . وهو الحكيم الخبير ﴾ (١٨ الانعام)

(٤٨) القادر

﴿ قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٣٧ الانعام)

(٤٩) الحق

﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ (٦٢ الانعام)

٥٠ عالم الغيب والشهادة

﴿ عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾ (٧٣ الأنعام)

(٥١) الخالق

﴿ ذالكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شئ فاعبدوه ﴾ (١٠٢ الأنعام)

(٥٢) اللطيف

﴿ لا تدركه الابصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ (١٠٣ الأنعام)

(٥٣) الحكم

﴿ أفغير الله أبتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ (١١٤ الأنعام)

(٥٤) الصادق

﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ (١٤٦ الأنعام)

(٥٥) المولى

﴿ فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ (٤٠ الأنفال)

(٥٦) القوى

﴿ إن الله قوى شديد العقاب ﴾ (٥٢ الأنفال)

(٥٧) الحفيظ

﴿ إن ربى على كل شيء حفيظ ﴾ (٥٧ هود)

(٥٨) المجيب

﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب ﴾ (٦١ هود)

(٥٩) المجيد

﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ (٧٣ هود)

(٦٠) الودود

﴿ إن ربى رحيم ودود ﴾ (٩٠ هود)

(٦١) المستعان

﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ (١٨ يوسف)

(٦٢) الغالب

﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٢١ يوسف) .

(٦٣) القهار

﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ (٣٩ يوسف)

(٦٤) الحافظ

﴿ فالله خير حافظاً ، وهو أرحم الراحمين ﴾ (٦٤ يوسف)

(٦٥) المتعال

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ (٩ الرعد)

(٦٦) الوالي

﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ (١١ الرعد)

(٦٧) الشديد

﴿ وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ﴾ (١٣ الرعد)

ذكر هذا الاسم الحسن فى رواية زهير . ومن أسرار القرآن العظيم أن ينزل هذا الاسم « الشديد » هذا الاسم الكريم فى الآية الثالثة عشرة ، من السورة الثالثة عشرة ، من جزء الثالث عشر من الكتاب العزيز . ذلك بأن سورة الرعد هى السورة الثالثة عشرة حسب ترتيبها فى المصحف الشريف .

(٦٨) الوارث

﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ﴾ (٢٣ الحجر)

(٦٩) الخلاق

﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ (٨٦ الحجر)

(٧٠) الكفيل

﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ (٩١ النحل)

(٧١) المقتدر

﴿ وكان الله على كل شيء مقتدرا ﴾ (٤٥ الكهف)

(٧٢) الحفي

﴿ قال سلام عليك ، سأستغفر لك ربى ، إنه كان بى حفيا ﴾ (٤٧ مريم)

(٧٣) الغفار

﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ (٨٢ طه)

(٧٤) الهادى

﴿ وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ (٥٤ الحج)

(٧٥) المبين

﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ (٢٥ النور)

٧٦ ــ النور

﴿ الله نور السموات والأرض ﴾[١]

٧٧ ــ الكريم

﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾[٢]

٧٨ ــ المنتقم

﴿ ومن أظلم ممن ذُكِّر بآيات ربه ثم أعرض عنها ، إنا من المجرمين منتقمون ﴾[٣]

٧٩ ــ الفتاح

﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾[٤]

٨٠ ــ الشكور

﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، إنه غفور شكور ﴾[٥]

٨١ ــ الكافى

﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾[٦]

٨٢ ــ الغافر

﴿ غافر الذنب ﴾[٧]

٨٣ ــ الرفيع الدرجات

٨٤ ــ ذو العرش

﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾[٨] غافر

---

(١) النور آية : ٣٥
(٢) النمل آية : ٤٠
(٣) السجدة آية : ٢٢
(٤) سبأ آية : ٢٦
(٥) فاطر آية : ٣٠
(٦) الزمر آية : ٣٦
(٧) غافر آية : ٣
(٨) غافر آية : ١٥

(٦٣) القهار

﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ (٣٩ يوسف)

(٦٤) الحافظ

﴿ فالله خير حافظاً ، وهو أرحم الراحمين ﴾ (٦٤ يوسف)

(٦٥) المتعال

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ (٩ الرعد)

(٦٦) الوالي

﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ (١١ الرعد)

(٦٧) الشديد

﴿ وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴾ (١٣ الرعد)

ذكر هذا الاسم الحسن في رواية زهير ، ومن أسرار القرآن العظيم أن ينزل هذا الاسم « الشديد » هذا الاسم الكريم في الآية الثالثة عشرة ، من السورة الثالثة عشرة ، من الجزء الثالث عشر من الكتاب العزيز ، ذلك بأن سورة الرعد هي السورة الثالثة عشرة حسب ترتيبها في المصحف الشريف .

(٦٨) الوارث

﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ﴾ (٢٣ الحجر)

(٦٩) الخلاق

﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ (٨٦ الحجر)

(٧٠) الكفيل

﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ (٩١ النحل)

(٧١) المقتدر

﴿ وكان الله على كل شيء مقتدرا ﴾ (٤٥ الكهف)

(٧٢) الحفي

﴿ قال سلام عليك ، سأستغفر لك ربي ، إنه كان بي حفيا ﴾ (٤٧ مريم)

(٧٣) الغفار

﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ (٨٢ طه)

(٧٤) الهادى

﴿ وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ (٥٤ الحج)

(٧٥) المبين

﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ (٢٥ النور)

٧٦ ــ النور

﴿ الله نور السموات والأرض ﴾[١]

٧٧ ــ الكريم

﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾[٢]

٧٨ ــ المنتقم

﴿ ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه ثم أعرض عنها . إنا من المجرمين منتقمون ﴾[٣]

٧٩ ــ الفتاح

﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾[٤]

٨٠ ــ الشكور

﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله . إنه غفور شكور ﴾[٥]

٨١ ــ الكافى

﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾[٦]

٨٢ ــ الغافر

﴿ غافر الذنب ﴾[٧]

٨٣ ــ الرفيع الدرجات

٨٤ ــ ذو العرش

﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾[٨] غافر

---

(١) النور آية : ٣٥
(٢) النمل آية : ٤٠
(٣) السجدة آية : ٢٢
(٤) سبأ آية : ٢٦
(٥) فاطر آية : ٣٠
(٦) الزمر آية : ٣٦
(٧) غافر آية : ٣
(٨) غافر آية : ١٥

٨٥ ـ المحيى

﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيى الموتى ، إنه على كل شىء قدير ﴾[١] .

٨٦ ـ الرزاق

٨٧ ـ ذو القوة

٨٨ ـ المتين

﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[٢] .

٨٩ ـ البر

﴿ إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم ﴾[٣] .

٩٠ ـ المليك

﴿ فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[٤] .

٩١ - ذو الجلال والإكرام

﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[٥] .

٩٢ ـ الأول

٩٣ ـ الآخر

٩٤ ـ الظاهر

٩٥ ـ الباطن

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾[٦] .

٩٦ ـ القدوس

٩٧ ـ السلام

٩٨ ـ المؤمن

٩٩ ـ المهيمن

١٠٠ ـ الجبار

١٠١ ـ المتكبر

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ﴾[٧] .

---

(١) فصلت آية : ٣٩
(٢) الذاريات آية : ٥٨
(٣) الطور آية : ٢٨
(٤) القمر آية : ٥٥
(٥) الرحمن آية : ٢٧
(٦) الحديد آية : ٣
(٧) الحشر آية : ٢٣

١٠٢ — المصور .

« هو الله الخالق البارىء المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »[١]

١٠٣ — الأعلى

﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾[٢]

١٠٤ — الأكرم

﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾[٣]

١٠٥ — أحد

﴿ قل هو الله أحد ﴾[٤]

١٠٦ — الصمد

﴿ الله الصمد ﴾[٥]

الذى « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »

تلك هى الأسماء الحسنى التى جاءت فى القرآن العظيم ، بصيغة الاسم ، وفى مواضع ظاهرة من آيات الكتاب العزيز ، وقد قرأت مائة وستة أسماء نزلت بلفظ الاسم فى آى الذكر الحكيم . والحكمة فى قوله ﷺ « تسعة وتسعين » :

نلاحظ أن العدد « تسعة وتسعين » ذكر فى كلام الرسول أكثر من مرة كقوله ﷺ :

« إن الله عز وجل خلق مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق .. وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة[٦]

كما ذكر هذا العدد فى القرآن الكريم مرة ، فى الآية الثالثة والعشرين من سورة « ص » وأغلب الظن أن هذا العدد ذكر فى كتب الله التى نؤمن بها فما الحكمة فى اختيار هذا العدد بالذات ، مع إجماع العلماء أن الأسماء الحسنى أكثر من هذا ؟ بل إن بعض الأسماء الحسنى قد استأثر بها الله سبحانه ، فى علم الغيب عنده ، بدليل هذا الدعاء للنبى — ﷺ — :

---

(١) سورة الحشر آية : ٢٤
(٢) سورة الأعلى آية : ١
(٣) سورة العلق آية : ٣
(٤) سورة الإخلاص آية : ١
(٥) سورة الإخلاص آية : ٢
(٦) أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير جـ ٦ رقم ٦١٢٦ صـ ٣٠٧ وأخرجه أيضا صحيح مسلم فى كتاب التوبة باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه جـ ٤ صـ ٢١٠٨ رقم ٢٠ ، ٢٧٥٣ وهما ما أسند عن سلمان الفارسى .

« . . . أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى »[1] .

ويرى الفخر الرازى ، أن الحكمة فى القصر على هذا العدد المخصوص ، أنه تعبد لا يعقل معناه ، كما قيل فى عدد الصلوات وغيرها . . ، إشارة إلى أن الأسماء لا تؤخذ قياساً ، وربما كان السبب فى اختيار هذا العدد أنه يطلق على الأشياء ، التى يصعب حصرها ، وربما كانت الحكمة أن معانى الأسماء ولو كانت كثيرة جداً ، إلا أنها موجودة — على قدر احتياجنا — فى هذه الأسماء الحسنى التسعة والتسعين ، أو أن الأسماء المذكورة هى أشهر الأسماء وأبينها معانى ، وذلك بقدر حاجتنا إلى الأسماء ، التى ندعو بها الله سبحانه ، وليس بعد أسماء الله الذى لا إله إلا هو . وأخيراً أحب أن أضيف أن كثيراً ممن عنى بكتابة الأسماء الحسنى ، قد ذكر مائة اسم ، كما فعل الإمام أبو بكر البيهقى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ فقد ذكر البيهقى الأسماء كما جاءت برواية الوليد عن شعيب ، ثم أضاف الاسم : « الكافى » فيكون المجموع مائة ، وقد جزم الحليمى فقال : الأسماء الحسنى مائة على عدد درجات الجنة ، والحديث الشريف يقول : « مائة غير واحد فى رواية الوليد عن شعيب » . ويقول الرسول محمد — ﷺ — : « مائة إلا واحداً »[2] . فى رواية زهير ويكون « الواحد » هو الله الذى لا إله إلا هو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد والله ورسوله أعلم .

الله

هو الاسم العظيم الدال على الموجود الحق الجامع لجميع صفات الكمال الإلهية ، وهو أكبر الأسماء وأجمعها للمعانى ،

وهو الاسم الذى تفرد به الله سبحانه وتعالى ، واختصه لنفسه ، وقدمه على جميع أسمائه ، وأضاف أسماءه كلها إليه ، وكل ما يأتى بعده من الأسماء نعت له ، وصفة ، ومتعلّقة به ، وتوصف سائر الأسماء بأنها أسماء الله تعالى ، وتعرف فى الأغلب بالإضافة إليه ، أو تجرى له مجرى الصفات ، وقد سبقت الأسماء الحسنى : الرب الرحمن العزيز ، الحميد ، الحكيم ، قليلاً نادراً فى بعض آيات القرآن الكريم :

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده جـ ٢ صـ ٢٠٧ .
(٢) أخرجه أحمد فى مسنده جـ ١ صـ ٢٩١ ، صـ ٤٥٢ .

فقد ذكر اسم الرب مسنداً إليه فى الآية ١٣٣ من سورة الأنعام :

﴿ وربك الغنى ذو الرحمة ﴾

﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ﴾ ٥٨ الكهف

كما ذكر اسم « الحكيم » مسنداً إليه فى الآية الأولى من سورة هود :

﴿ آلر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾

الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ، يقال : من الأسماء الحسنى من أسماء الله تعالى ، ولا يقال الأسماء الحسنى من أسماء الحليم ، أو من أسماء الغفور ، أو من أسماء الصبور .

وإذا قلت : «الله » لم ينطلق إلا عليه سبحانه وتعالى ، ولهذا جاز أن ينادى اسم الله وفيه لام التعريف ، ويقطع همزته فيقال : ياالله واللهم أصله ياالله ، حذف حرف النداء ، وعوض عنه ميم مشددة بالآخر للتعظيم والتفخيم .

والاسلام لا يتم إلا بذكر هذا الاسم الكريم : « الله » ولا يقبل اسم عوض منه ، فلا يقال إلاه .

لا إله إلا الله

قال محمد ـ ﷺ ـ : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله »

فتعالوا معى لنرى بعض النور الذى فى هذه الكلمة ، الكلمة الطيبة ، كلمة التقوى : لا إله إلا الله .

« لا » نافية

« إله » كلمة إلاه ، على وزن كتاب ، اسم بمعنى مألوه ، على وزن مفعول ، مثل كتاب هو اسم بمعنى مكتوب ، ومثل إمام وهو مأموم . وخير الطرق لمعرفة مدلول هذا اللفظ ، هو طريق الاشتقاق : يقال : أله ، أى عَبَدَ . ويقال : ألَّه إلا الله ، وأله ألوهة ، أى ألَّه ألوهية ، أى عبد عبادة ، ويقال يتأله ، يتعبد ، ويقال : هو عابد متأله فيكون الإله هو المعبود .

والعبادة هى الطاعة وتنفيذ الدين ، والمقصود من العبادة هو العمل للوصول إلى غاية ، أى أن العبادة هى الطريق إلى غاية .

فمن عبد الله ليتوصل بعبادته إلى كسب ثواب ، أو دفع عقاب ، كان المعبود فى الحقيقة ، هو ذلك الخير ، قال الله تعالى :

﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد ﴾(١) ، يشرى نفسه : أى يبيع نفسه .

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ﴾(٢) .

فالعبادة يجب أن تكون لغير غاية إلا الله ، وإلا كانت غير ثبات على دين الحق ، وانحراف عن سبيل الله ، وهذا هو الشرك الذى ربما لا يراه بعض الناس ، وأولى بمن يفعل ذلك أن يخلص دينه لله ، قال تعالى :

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ﴾(٣)

والإخلاص : هو قصد المؤمن بعمله ونيته مرضاة الله وحده ، والقصد : هو اتجاه الإنسان بنفسه إلى المقصود علناً ، ومثله الاتجاه إلى المقصود سراً ، ولا يجوز ان يكون المقصود سراً أو علناً إلا الله وحده . وفى اللغة : خلَصَ الشئ ، فهو خالص ، أى سلم ونجا . يقال : خلص الماء من الكدر ، أى صفا ، وهذا ثوب خالص إذا كان صافى البياض ، والدين الخالص أى خلوصه من الشرك ومن الرياء ، والذين هم يراءون لهم من المشركين .

ولما كان الدعاء هو مخ العبادة ، بل إن سؤال الله وحده ، هو العبادة ، ثم ينبغى أن نعلم علم اليقين ، أن ما عند الله هو أقرب إلينا مما فى أيدينا ، من أجل ذلك ، فلا يسأل إلا إياه ، ولا يقصد إلا إيه ، ومَنْ غير الله ، صاحب الأسماء الحسنى ، يقصد فى الرغائب كلها ؛ وهو الذى يجب أن يسأل ، وهو الذى يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، وكل مولود يولد على الفطرة ، والفطرة هى الميل الفطرى من لقلب إلى الذى فطره ، وهذه هى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وهذا هو دين الله ، ولا تبديل لدين الله ، قال الله تعالى :

(١) البقرة آية : ٢٠٧
(٢) الحج آية : ١١
(٣) الزمر الآيتان : ٢ ، ٣

« فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[١] . « وخلق الله هو دين الله » .

وقد أجمع العلماء على أن تفسير : « لا تبديل لخلق الله » ، فى الآية الكريمة الحكيمة السابقة ، هو : « لا تبديل لدين الله » . وقد ذكر من قال ذلك فى تفسير الطبرى :

حدثنى محمد بن عمرو بسنده عن مجاهد : « لا تبديل لخلق الله : قال : « لدينه » . أى لدين الله .

وجاء فى صحيح البخارى فى تفسير سورة الروم : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ : لدين الله ، خلق الأولين : دين الأولين ، والفطرة الإسلام ، وهذا هو الدين الحنيف »[٢] .

والدين هو الشريعة ، والدين هو الطاعة والانقياد ، والدين الحنيف هو الحب فى الله ، أى أن عبادة الرحمن ، هى اعتصام بالله بحبل من الحب .

﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾[٣]

والحب هو ميل القلب إلى من يحب ، يقال : مال إليه ــ أى أحبّه . وهذا الحب الحنيف ، هو ميل قلب العابد إلى المعبود ، الذى لا إله إلا هو ، وهو ميل القلب الفطرى إلى فاطر السموات والأرض ، وهو من لدن الله ، وهو من روح الله ، وهو من نور الله ، وهو من آيات الله ، وهو فطرة الله ، وهو ملك للذى فطره ، مقلب القلوب الذى لا إله إلا هو الرحمن ، وهو هدى الله ــ يهدى به من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، قال تعالى : ﴿ إن ربى على صراط مستقيم ﴾[٤] .

وهذا الميل من القلب إلى صاحب الفضل ، خلقه وطبيعة فى الإنسان ، فإن المولود يحب ويميل ويطرب إلى أمه ، التى ترضعه وتحنو عليه ، لينام آمناً ويقوم ، والمريض يحب الطبيب ، الذى كان سبباً فى ذهاب الآم مرضه ، والفضل كله لله ، فمن باب أولى أن يميل القلب الذى هداه الله إلى الحق ، ومن حق هذا القلب ، أن يميل إلى الذى خلقه ، وخلق كل شىء ، قال تعالى على لسان إبراهيم :

---

(١) الروم آية : ٣٠

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب التفسير . تفسير سورة الروم جـ ٦ صـ ١٤٣ ط/ الشعب

(٣) آل عمران آية : ١٠١

(٤) هود آية : ٥٦

﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ﴾
﴿ والذى هو يطعمنى ويسقين ﴾
﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾
﴿ والذى يميتنى ثم يحيين ﴾[1]

وإن الله تعالى أرحم بنا جميعاً من الأم بابنها ، ومن رحمته أن جعل لنا هذا الميل الفطرى ، الذى يهدى الله به من يشاء إلى سبيله وإلى الصراط المستقيم ، صراط الله ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، وهذا هو دين الحق ، وهو الدين القيم ، وهو الدين الحنيف .

معنى الحنف فى اللغة :

الحاء والنون والفاء ، ح ن ف ، حنف ، أصل مستقيم ، وهو « الميل » يقال : حنف يحنف حنفاً ، أى مال يميل ميلاً بسكون الياء ، ويقال : قد تحنف فلان إلى الشىء إذا مال إليه ، ومنه قيل لمن مال عن كل دين أعوج : هو حنيف ، وله دين حنيف ، وتحنف فلان إذا أسلم . والحنيف : هو المخلص الذى أسلم لأمر الله ، فلم يلتو فى شىء من دينه ، وجمعه حنفاء ، قال الله تعالى : ﴿ حنفاء لله غير مشركين به ﴾[2]

أى مستقيمين لله على إخلاص التوحيد له ، كما جاء فى كتب التفسير ويقال : مال إلى ، أى أقبل إلى ، أو عدل إلى — والعدل : هو ما قام فى النفوس أنه المستقيم ، وهو ضد الجور — يقال : اعدل أى استقام ، جاء فى لسان العرب لابن منظور :

وفى أسماء الله سبحانه ، العدل : هو تعالى الذى لا يميل به الهوى ، فيجور فى الحكم والتعديل هو التقويم .

والميل هو الرغبة ، يقال : مال إلى : أى رغب إلى ، ويقال : رغب يرغب رغبة ، إذا حرص على الشىء وطمع فيه ، ومنها الرغبة إلى الله تعالى ، ويقال رغب فيه رغباً ورغبة ، أى أراده بالحرص

(١) الشعراء الآيات : ٧٨ — ٨١
(٢) الحج آية : رقم ٣١

عليه وأحبه ، قال الله تعالى : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾[١] .

﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ﴾[٢] .

﴿ وإلى ربك فارغب ﴾[٣] .

غير أن الرغبة إلى الله الواحد القهار ، امتزج فيها الرهبة مع الرغبة ، والخوف مع الطمع ، قال الله تعالى :

﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾[٤] .

﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾[٥] .

وهكذا نرى أن الحنف معناه : « الميل » فإن كان الحنف خلقة فى الشىء ، فهو « قيل » بفتح الياء ، يقال مال يميل ميلاً ، بفتح الياء ، أى أعوج . يقال : رجل أحنف ، أى به اعوجاج فى الرجلين ، ويمشى على ظهر قدميه ، وبه حنف ، وقد حنفت رجله ، وهى حنفاء بفتح الحاء .

والملة هى طريقة للوصول ، وخير الملل هى ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، الذى أخلص دينه لله ، واستعمل ميل قلبه الفطرى للوصول إلى الله الرحمن الرحيم .

﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾[٦] .

ومن يميل عن صراط الله إلا من جهل فطرته .

من أجل ذلك ، اتفق ذكر الحنيفية السمحة فى القرآن الكريم مع تأكيد الإخلاص لله ، وعدم الشرك به سبحانه .

١ — ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين ﴾[٧]

---

(١) التوبة آية رقم : ٥٩

(٢) القلم آية رقم : ٣٢

(٣) الشرح آية : ٨

(٤) الأنبياء آية رقم : ٩٠

(٥) السجدة آية رقم : ١٦

(٦) البقرة آية : ١٣٠

(٧) البقرة آية : ١٣٥

٢ ــ ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾[١].

٣ ــ ﴿ قل صدق الله ، فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين ﴾[٢].

٤ ــ ﴿ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين ﴾[٣].

٥ ــ ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾[٤].

٦ ــ ﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين ﴾[٥].

٧ - ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾[٦].

٨ ــ ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾[٧].

٩ ــ ﴿ حنفاء لله غير مشركين به . . . . ﴾[٨].

﴿ . . . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[٩].

كما اتفق ذكر الحنف ، وهذا الميل من القلب إلى الله الواحد القهار ، مع ذكر « إبراهيم الذى وفى » ــ فى بضع آيات من القرآن العظيم .

ذلك بأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، استعمل ميل قلبه الفطرى ، للوصول إلى الله الحق المبين ، إذ لم ينشرح صدره أن تكون تماثيل أبيه آلهة وكفر بالكوكب ، ولم يشعر بأن يكون القمر أو الشمس رباً له ، ولم يشعر معهما إلا بقلب سقيم ، وراجع وذهب وأناب إلى الله ، وعلم أن لا سبيل له إلا طريق واحد ، يهدى إلى إله واحد ، وجاء ربه بقلب سليم « وسلام على إبراهيم » .

القلب السليم وطرق الوقاية والعلاج

هذا الاتجاه وهذا « الميل » وهذا الهدى إلى الإيمان هو من فضل الله ، يؤتيه من يشاء من عباده ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ويزدادوا هدى .

﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾[١٠].

(١) آل عمران آية : ٦٧
(٢) آل عمران آية : ٩٥
(٣) الأنعام آية : ٧٩
(٤) الأنعام آية : ١٦١
(٥) يونس آية : ١٠٥
(٦) النحل آية رقم : ١٢٠
(٧) النحل آية رقم : ١٢٣
(٨) الحج آية رقم : ٣١
(٩) النساء آية رقم : ٨٢
(١٠) النساء آية رقم : ٦٩

﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾[١] ذلك بأن اتباع الشهوات ، حجاب عظيم عن الحق من الذين فى قلوبهم مرض ، ليزدادوا مرضاً على مرضهم ، ورجساً على رجسهم ﴿ ولكن الله يهدى من يشاء ﴾[٢]

وهذا من علم الله ، عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، وإن مثل علم الله فينا ، كمثل السماء التى تظلنا والأرض التى تقلنا .

ولا نستطيع الخروج من علم الله ، وكما لا تحملنا السماء والأرض على الذنوب ، كذلك لا يحملنا علم الله .

أما هذا الإيمان الفطرى ، فينبغى للإنسان المحافظة عليه ومن إغواء شياطين الإنس والجن ، كما تحافظ على الجسد من ضرر الجراثيم والفيروسات .

درجات القلوب التى فى الصدور :

ويمكن تقسيم سلامة القلب من المرض على قدر استجابة القلب إلى داعى الله ، أو استسلامه إلى كيد الشيطان على النحو التالى : ــ

أولاً : ــ القلب السليم :

وهذه هى أعظم درجة من الصحة القلبية ، وهى درجة المتقين ، كما وصفهم الله تعالى بهذه الآية الكريمة :

﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾[٣] .

ثانياً : ــ ثم تأتى بعد ذلك درجة الذين استجابوا لله ولرسوله ، إذا دعاهم لما يحييهم من النور والقرآن العظيم ، وهذه هى درجة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وعلى ربهم سيتوكلون ، فليس للشيطان عليهم سلطان قال تعالى :

﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[٤] .

ثالثاً : ثم تأتى بعد ذلك ، ومبادىء المرض عند الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، قال الله تعالى :

﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً ﴾[٥] .

---

(١) القصص آية رقم : ٥٠

(٢) القصص آية : ٥٦

(٣) الأعراف آية رقم : ٢٠١

(٤) النحل آية رقم : ٩٩

(٥) النساء آية رقم : ١٧

رابعاً : ــ ثم تأتى بعد ذلك حالة القلب المريض ، التى لايزال فى حالة صحية ، تسمح له بالاستجابة إلى المؤثرات الخارجية القوية ، فوق العادية ثم تزول هذه الاستجابة بزوال المؤثر .

ويمكن الكشف على مثل هذا القلب ، كما يمكن للطبيب أن يختبر الفعل غير الإرادى المنعكس ، فإن الطبيب إذا مس قرنية العين ــ القرنية ، هى الجزء الشفاف أمام حدقة العين ــ فإنه إذا مس الرمدى قرنية العين بطرف خيط رفيع من القطن مثلاً ، تكون أو الحركة المرتدة المنتظرة أن ترمش وتنقبض جفون العينين معاً ، ويكون هذا دليل على أن جميع الأعصاب الموصلة من قرنية العين إلى جهاز العصبى المركزى ، ومنه إلى عضلات الجفون لتنقبض ، أى أن الأعصاب والعضلات مازالت سليمة ، وهذه علامة طيبة . كما أن الرجوع إلى الحق ، والإنابة والتضرع إلى الله تعالى علامة على أن القلب لا يزال يستجيب ، ويذكر الله تضرعة ، وإن كان لم يتضرع إلا فى الشدائد . قال عز وجل : ــ

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾(١) .

﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ وهكذا نرى أن مس الضر ربما كان علاجاً للفريق الآخر .

خامساً : ــ حالة القلب المريض المزمن فى المرض إلى درجة القسوة ، ومثل هذا القلب القاسى ، لا تنفعه هزات البأساء ، ولا صدمات الضراء ليخشع أو أن يرجع إلى الله ، قال تعالى :

﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾(٢)

الوقاية : ــ

وكما أنه يجب تحصين كل مولود ضد الأمراض المعدية ، حتى يكتسب الطفل مناعة ضد هذه الأمراض ، لكى لا تفتك ببدنه ويبقى جسمه سليماً ، كذلك يجب أن يلقن الأطفال مبادىء الإسلام ، منذ نعومة أظفارهم ، حتى إذا ما بلغوا أشدهم ، أقاموا الدين الذى اصطفاه لنا الله ، حتى لا يضيعوا الصلاة ، وحتى لا يتبعوا الشهوات ، وحتى لا يكون دينهم لعباً ولهواً ، وحتى لا تكون الشياطين لهم أولياء ، تدخل عليهم فى مجال الدم واللحم ، وتبث فى عروقهم سموم الرجس والفحشاء والمنكر ، كالخمر والميسر ، وهكذا يطغى الدنس على قلوبهم بما اكتسبوا من الإثم ، فيقسو القلب ويدخله المرض ، والقلب المريض

---

(١) النحل آية رقم : ٥٣

(٢) الأنعام آية رقم : ٤٣

لا يعقل ولا يسمع ولا يرى ، إذا يفقد بياضه وشفافيته ، ولا ينفذ إليه نور الهداية ، ويرجع الإنسان إلى طبيعته الطينية السوداء ، قبل أن يفيض الله تعالى عليه من نوره ، وقبل أن ينفخ الله سبحانه فيه من روحه ، ويصبح كالأنعام ، أو أضل سبيلاً ، إذ يرد الإنسان أجوف لا يتمالك ، ويكون مرتعاً للشياطين ، تستعينه وتستهويه ، ولا يصغى مثل هذا القلب المريض إلا إلى هواه ، قال تعالى :

﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾[1] وهذه هي أقصى درجات المضاعفات من المرض ، وليس بعدها إلا الهلاك .

العلاج : —

ويتلخص العلاج في الإنابة والرجوع إلى الله تعالى ، حتى لا يُصاب إلا باء ، والتمسك بكتابه الكريم حتى لا نضل الطريق . قال الله تعالى في كتابه الحكيم : —

﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾[2]

وقال سبحانه : —

﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴾[3] .

وقال جل ثناؤه : —

﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾[4] .

وقال تعالى :

﴿ . . . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ﴾[5]

والتوبة الخالصة براءة وطهور للقلب ، ورجوع إلى الفطرة ، وكأنها ميلاد جديد فينفذ نور الإيمان إلى القلب ، فيخرجه الله من الظلمات إلى النور ، فيمكن للإنسان أن يحارب أولياء الشيطان ، ويمكنه التمسك بكتاب الله ، الذى يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، ويكون الميل كله لله ، ويكون الحب كله لله ، وتكون العبادة كلها لله ، وتكون الألوهية كلها لله ، ويكون لا إله إلا الله .

(١) الفرقان آية رقم : ٤٣
(٢) الزمر آية رقم : ٥٣
(٣) مريم آية رقم : ٦٠
(٤) طه آية رقم : ٨٢
(٥) الروم آية رقم : ٣١

٢ ـــ والتفسير الثاني لكلمة « إله » يأتي من قولنا : أله الرجل إذا فزع من أمر نزل به ، فيقال : أَلَهَهُ بمعنى أجاره يجيره فأله : أي أجاره وأغاثه وأمنه . قال الله تعالى :

﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ... ؟ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾(١)

فالله وحده هو الذي يغيث من يستجير به ، ولا يجوز لمخلوق أن يحمي مخلوقاً من خالق . وما من خالق غير الله .

٣ ـــ والتفسير الثالث لكلمة « إله » يعرف من قولنا : أله بمعنى تحير ، يقال أله ـــ يأله ، إذا تحير . والأله : هو التحير .

ومن المجاز : حار الماء في المكان وتحير ، واستحار إذا اجتمع ووقف . والألهانية ، فعلانية من أله : إذا تحير . وفي قول وهب بن الورد : « إذا وقع العبد في ألهانية الرب ومهيمنية الصديقين ، ورهبانية الأبرار ، لم يجد أحداً يعجبه ولم يحب إلا الله سبحانه » .

أي : إذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله ، وغير ذلك من صفات الربوبية ، وصرف همه إليها ، أبغض كل شيء حتى ما « يميل » قلبه إلا إلى الله ، ذلك بأن الله هو الأول والآخر ، وهو الظاهر والباطن ، وهو الكبير المتعال الذي تتأله العقول في عظمته .

قال الفخر الرازي في مفاتيح الغيب ، الجزء الأول ، صفحة : ٨٥ : (فالعبد إذا تفكر فيه تحير ، لأن كل ما يتخيله الإنسان ويتصوره ، فهو بخلافه ، مع الاعتراف بالعجز عن الإدراك ، فيبقى العجز عن درك إدراكه ، ولا شك أن هذا موقف عجيب ، تتحير العقول فيه) وأي شيء أكثر حيرة أن يكون سبحانه : ـــ

﴿ ... ليس كمثله شيء ﴾(٢)

٤ ـ ويجوز أن تشتق كلمة ولاه من كلمة إله ، وذلك لأن الألف من الحروف المتحركة ، ويمكن أن تكون قد أبدلت الواو همزة ، فيكون أصله : ولاه ، فأبدلت الواو فقيل إله ، كما قالوا : أشاح في وشاح ، ويشتق من الوله وهو شدة الطرب والسرور أو شدة الحزن والخوف . يقال : وله ، يله ويوله ولهاً إلى أمه وغيرها ، أي حن واشتد وجده . كما يقال أله الفصيل إذا وله بأمه . ويكون التفسير

---

١ ـــ المؤمنون آية رقم : ٨٨

٢ ـــ الشورى آية رقم : ١١

الرابع لكلمة أله ، أو ولاه أن الخلق يولهون إلى الله تعالى فى حوائجهم ، ويضرعون إليه فيما ينوبهم من الأهوال والشدائد ، قال الله تعالى : —

﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾[1]

قال الراغب الأصفهانى : وكل مخلوق ، وآله نحو الله تعالى ، إما بالتسخير فقط ، كالجمادات والحيوانات وإما بالتسخير والإرادة معاً ، كبعض الناس ، ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء : الله محبوب الأشياء كلها ، وعليه دل قول الله تعالى :

﴿ . . . وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[2] وجاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم ، الذى وضعه مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، تحت كلمة سبح : سبح يسبح سبحاً وسباحة : عام ومّر فى الماء . وسبح سبحاً : جرى :

﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾[3]

ويقال : حف أى طف . وسبحان الله الذى لا إله إلا هو ، مالك يوم الدين ، الذى قال فى كتابه المبين : —

﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم . وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾[4] ولما كان الاشتقاق ، هو أخذ كلمة من كلمة ، مع تناسب بينهما فى اللفظ والمعنى ، ولما كان من الممكن إشتقاق كلمات من كلمة « إله » وهى المركبة من ثلاث حروف ، لأنه يمكن جعل كل واحد من تلك الحروف الثلاثة إبتداء ، وبذلك يمكن أن نشتق منها الكلمات والأصول التالية : — أولاً : ل أ هـ ، لا ه

١ — يقال : لاه يليه ليها ، بمعنى علا وارتفع ، يقال : لاهت الشمس ، إذا علت وتوسطت كبد السماء ، وسميت الشمس ألاهة ، لارتفاعها فى السماء .

وقال الجوهرى : (كأنهم سموها ألاهة . لتعظيمهم لها فى عباداتهم إياها) . هذا وقد سمى القمر مثل ذلك ، ويوجد من يعظم النار ، لأنها جوهر علوى كما يقولون ، ولكن : —

---

١ — الأنعام آية رقم : ٦٤
٢ — الاسراء الآية رقم : ٤٤
٣ — يس آية رقم : ٤٠
٤ — الزمر آية رقم ٧٥

﴿ . . . أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ﴾[١] .

وهو الذي سخر الشمس والقمر وهو :

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾[٢] .

والله سبحانه وتعالى هو المتعال على خلقه بالقهر وهو ﴿ القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾[٣] .

﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾[٤] .

ذلك بأنه سبحانه ، العلي فوق كل شيء لقدرته وهو

﴿ رفيع الدرجات ذو العرش ﴾[٥] .

وسبحان الله عظيم الصفات وسبحان ربي الأعلى .

ثانياً : لاه بمعنى تستر . يقال لاه يليه ليهاً . أي احتجب وسبحان من احتجب عن الخلق . فلا عين تراه . وهو الذي تخشع القلوب من كلمات كتابه .

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾[٦] .

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾[٧] .

وكيف تراه العيون وهو الذي :

﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾[٨] .

ومع ذلك ، فإننا نرى آيات الله في كل شيء قال تعالى :

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾[٩] .

ثالثاً : أ هـ ل ، أهل ، يقال : هو أهل لكذا ، أي مستوجب ، ويقال : قد استأهل وهو مستأهل له . . . ومن غير الله أهل للألوهية . كلها ؟

﴿ . . . هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾[١٠] .

---

(١) يوسف آية : ٣٩
(٢) الرعد آية : ٩
(٣) الأنعام آية : ١٨
(٤) لقمان آية : ٣٠
(٥) غافر آية : ١٥
(٦) الحشر آية : ٢١
(٧) الأعراف آية : ١٤٣
(٨) الأنعام آية : ١٠٣
(٩) فصلت آية : ٥٣
(١٠) المدثر آية : ٥٦

رابعاً : هـ أ ل ، هائل ، والهول : هو المخافة من الأمر والله وحده ، هو الذى نرجو رحمته ونخاف عذابه .

قال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ﴾[1]

﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[2]

خامساً : هـ ل ل ، هلل ، الهاء واللام أصل يدل على رفع الصوت (كما جاء فى كتاب مقاييس اللغة لابن فارس ، المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) واستهلال المولود . هو صياحه ساعة ولادته ، واستهلال المطر ، هو صوت وقوعه على الأرض ، والله وحده هو الذى مستغيثاً به تعالى :

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾[3]

(جأر ـــ صاح)

ويفسر العلماء ﴿ وما أهل به لغير الله ﴾[4] أى ما ذكر عليه اسم غير اسم الله وهو ما كان يذبح للأصنام ، لذلك حرم الله لحومها على المؤمنين كما حرم عليهم الميتة والدم المسفوح ، قال تعالى :

﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ﴾[4] .

وقيل أيضاً للملبى فى حجة أو عمرة : مهل ، ويقال : أهل بالحج أى رفع صوته بالتلبية ، وقيل : الإهلال والتهليل ، أن يقال : لا إله إلا الله . قال الراغب الأصفهانى ، المتوفى سنة ٥٠٢ هجرية : ومن هذه الجملة : « لا إله إلا الله » ركبت هذه اللفظة . تهلل وسبحان الله :

﴿ . . . عالم الغيب ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ﴾[5]

وهو الله الذى لا إله إلا هو ، وهو الذى قال فى كتابه الكريم :

﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه . . ﴾[6]

الله ٢٦٩٩

ذكر الاسم « الله » سبحانه وتعالى ألفين وستمائة وتسع وتسعين مرة فى القرآن الكريم ، كما ورد فى المعجم الفهرسى ، وزيادة ذكر « الله » مرة فى بسم الله الرحمن الرحيم ، باعتبار البسملة آية فى فاتحة الكتاب وفى الكتاب الحكيم آيات بينات محكمات ، ذكر فى أول كل منها الاسم الأعظم الله ومنها :

---

(١) الزمر آية : ٣٦
(٢) البقرة آية : ١١٢
(٣) النحل آية : ٥٣
(٤) البقرة آية : ١٧٣
(٥) سبأ آية : ٣
(٦) سورة الإسراء آية : ٦٧

١ ـ ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾[١] .

٢ ـ ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٢] .

٣ ـ ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾[٣]

٤ ـ ﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا ﴾[٤]

٥ - ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمدٍ ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنونَ ﴾[٥]

٦ ـ ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ﴾[٦] .

٧ - ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾[٧] .

٨ ـ ﴿ الله الذي له ما في السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾[٨]

٩ ـ ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ﴾[٩] .

---

(١) البقرة آية : ٢٥٥
(٢) البقرة آية : ٢٥٧
(٣) آل عمران آية : ٢
(٤) النساء آية : ٨٧
(٥) الرعد آية : ٢
(٦) الرعد آية : ٨
(٧) الرعد آية : ٢٦
(٨) ابراهيم آية : ٢
(٩) ابراهيم آية : ٣٠

١٠ - ﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾[١] .

١١ - ﴿ الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾[٢] .

١٢ - ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير ﴾[٣] .

١٣ ـ ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾[٤] .

١٤ - ﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾[٥] .

١٥ - ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم ﴾[٦] .

١٦ ـ ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ﴾[٧] .

١٧ - ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[٨] .

١٨ ـ ﴿ الله الذى يُرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾[٩] .

١٩ ـ ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾[١٠] .

١ ـ طه آية : ٨
٢ ـ الحج آية : ٦٩
٣ ـ الحج آية : ٧٥
٤ ـ النور آية : ٣٥
٥ ـ النمل آية : ٢٦
٦ ـ العنكبوت آية : ٦٢
٧ ـ الروم آية : ١١
٨ ـ الروم آية : ٤٠
٩ ـ الروم آية : ٤٨
١٠ ـ الروم آية : ٥٤

٢٠ ـ ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾[١] .

٢١ - ﴿ الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾[٢] .

٢٢ ـ ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد ﴾[٣] .

٢٣ ـ ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[٤] .

٢٤ - ﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ﴾[٥] .

٢٥ ـ ﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً . إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾[٦] .

٢٦ ـ ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾[٧] .

٢٧ ـ ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴾[٨] .

٢٨ ـ ﴿ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾[٩] .

٢٩ ـ ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ﴾[١٠] .

٣٠ ـ ﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[١١] .

---

(١) السجدة آية : ٤
(٢) الصافات آية : ١٢٦
(٣) الزمر آية : ٢٣
(٤) الزمر آية : ٤٢
(٥) سورة الزمر آية : ٦٢
(٦) غافر آية : ٦١
(٧) غافر آية : ٦٤
(٨) غافر آية : ٧٩
(٩) الشورى آية : ١٧
(١٠) الشورى آية : ١٩
(١١) الجاثية آية : ١٢

٣١ ــ ﴿ الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[١] .

٣٢ ــ ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾[٢] .

٣٣ ــ ﴿ الله الصمد ﴾[٣] .

الذى

﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾[٤] .

ومن أسرار القرآن العظيم أن نزلت فيه تسع وعشرون سورة لم يذكر فيها لفظ الجلالة (الله) وهى سور القمر ــ الرحمن ــ الواقعة ــ القلم ــ القيامة ــ المرسلات ــ النبأ ــ عبس ــ المطففين ـ الطارق ـ الفجر ـ البلد ـ الليل ـ الشرح ـ القدر ـ الزلزلة ـ القارعة ـ التكاثر ـ العصر ـ الفيل ـ قريش ـ الماعون ـ الكوثر ـ الكافرون ـ المسد ـ الفلق ـ الناس .

وإذا تدبرنا القرآن وجدنا أن السور التى ذكر فيها اسم (الله) كثيراً وبعدد أكثر من عدد آيات هذه السور ، هى سور آل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة . كما نلاحظ أن لفظ الجلالة (الله) ذكر مرة واحدة فى أول الآية الرابعة من الثلاثين آية فى سورة السجدة ، وذكرت كلمة (الله) ثلاث مرات فى سورة يس مرتين فى الآية السابعة والأربعين .

﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين ﴾[٥] .

والثالثة فى الآية الرابعة والسبعين .

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ﴾[٦] .

وذكر اسم الجلالة (الله) مرة واحدة فى سورة (ق) فى الآية السادسة والعشرين :

﴿ الذى جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه فى العذاب الشديد ﴾[٧] .

---

١ ــ التغابن آية : ١٣
٢ ــ الطلاق آية : ١٢
٣ ــ الإخلاص آية : ٢
(٤) سورة الاخلاص آية : ٣ ، ٤
(٥) سورة يس آية : ٤٧
(٦) سورة يس آية : ٧٤
(٧) سورة ق آية : ٢٦

وذكر الاسم الله مرة واحدة في كل من سور الحاقة والمعارج والنازعات والتكوير والانفطار والانشقاق والأعلى والغاشية والشمس والليل والعلق والنصر.

وذكر لفظ (الله) مرتين في كل من سور

الفجر ـ والعصر ـ والإخلاص ـ وفاتحة الكتاب.

وقد ذكر (الله الله) أي مرتين متلاحقتين في آية واحدة في سورة الأنعام في قوله تعالى:

﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله . الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾(١).

٢ ـ الرحمن

﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾(٢).

« الرحمن » من الأسماء الحسنى مختص بالله سبحانه لا يجوز أن يسمى به غيره ، وهو يجري غالباً مجرى الصفة له تعالى ، نحو « بسم الله الرحمن الرحيم »

وقد يذكر موصوفاً ، كما قال الله : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ .

والرحمن هو الاسم الدال على أن الرحمة قائمة به سبحانه وتعالى ، ومعناه عند أهل اللغة ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة ، والتي لا نظير له فيها ، ولذلك لا يثنى ولا يجمع.

والرحمن صيغة تعظيم من الرحمة كالرحيم ، لكن الرحمن من زيادة المعنى وأكثر تعظيماً ، لأن صيغة الرحمن تتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها.

واسم الرحمن قريب من اسم الله الجاري مجرى العلم ـ وإن كان اسم الرحمن مشتقاً من الرحمة أي أن « الرحمن » اسم وصفة لا ينافي أحدهما الآخر ، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعاً.

ولم أر اسماً من أسماء الله الحسنى حل محل اسم الجلالة في القرآن الكريم ، أكثر من هذا الاسم.

---

١ ـ الأنعام آية : ١٢٤
٢ ـ الإسراء آية : ١١٠

قال الله تعالى : ـ

١ ـ ﴿ كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾[1] .

٢ ـ ﴿ قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ﴾[2] .

٣ ـ ﴿ فكلى واشربى وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾[3] .

٤ ـ ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ﴾[4] .

٥ ـ ﴿ يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ﴾[5] .

٦ ـ ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾[6] .

٧ ـ ﴿ جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا ﴾[7] .

٨ ـ ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً ﴾[8]

٩ ـ ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً ﴾[9] .

١٠ ـ ﴿ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾[10] .

١١ ـ ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾[11] .

١٢ ـ ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾[12]

١٣ ـ ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾[13] .

١٤ ـ ﴿ . . . وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولداً ﴾[14] .

١٥ ـ ﴿ وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾[15] .

١٦ ـ ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾[16] .

١٧ ـ ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾[17]

---

(١) الرعد آية : ٣٠
(٢) مريم آية : ١٨
(٣) مريم آية : ٢٦
(٤) مريم آية : ٤٤
(٥) مريم آية : ٤٥
(٦) مريم آية : ٥٨
(٧) مريم آية : ٦١
(٨) مريم آية : ٦٩
(٩) مريم آية : ٧٥
(١٠) مريم آية : ٧٨
(١١) مريم آية : ٨٥
(١٢) مريم آية : ٨٧
(١٣) مريم آية : ٨٨
(١٤) مريم الآيتان : ٩٠ - ٩١
(١٥) مريم آية : ٩٢
(١٦) مريم آية : ٩٣
(١٧) مريم آية : ٩٦

١٨ ــ « الرحمن على العرش استوى »(١).

١٩ ــ « . . . وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا »(٢).

٢٠ ــ « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا »(٣).

٢١ ــ « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . سبحانه بل عباد مكرمون »(٤).

٢٢ ــ « وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون »(٥).

٢٣ ــ « قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون »(٦).

٢٤ ــ « الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً »(٧).

٢٥ ــ « الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش . الرحمن فاسأل به خبيرا »(٨).

٢٦ ــ « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما

٢٧ ــ الرحمن . أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا »(٩).

٢٨ ــ « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »(١٠).

٢٩ ــ « وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين »(١١).

٣٠ ــ « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم »(١٢).

٣١ ــ « قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون »(١٣).

٣٢ ــ « أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون »(١٤).

٣٣ ــ « قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون »(١٥).

٣٤ ــ « تنزيل من الرحمن الرحيم »(١٦).

٣٥ ــ « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم »(١٧).

٣٦ ــ « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا . أشهدوا خلقهم ؛ ستكتب شهادتهم ويسألون »(١٨).

---

(١) طه آية : ٥
(٢) طه آية : ١٠٨
(٣) طه آية : ١٠٩
(٤) الأنبياء آية : ٢٦
(٥) الأنبياء آية : ٣٦
(٦) الأنبياء آية : ٤٢
(٧) الفرقان آية : ٢٦
(٨) الفرقان آية : ٥٩
(٩) الفرقان آية : ٦٠
(١٠) الفرقان آية : ٦٣
(١١) الشعراء آية : ٥
(١٢) يس آية : ١١
(١٣) يس آية : ١٥
(١٤) يس آية : ٢٣
(١٥) يس آية : ٥٢
(١٦) فصلت آية : ٢
(١٧) الزخرف آية : ١٧
(١٨) الزخرف آية : ١٩

٣٧ ــ ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾(١) .

٣٨ ــ ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾(٢) .

٣٩ ــ ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾(٣) .

٤٠ ــ ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا . أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾(٤) .

٤١ ــ ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾(٥) .

٤٢ ــ ﴿ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾(٦) .

٤٣ ــ ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾(٧) .

٤٤ ــ ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾(٨) .

٤٥ ــ ﴿ أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير ﴾(٩) .

٤٦ ــ ﴿ أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور ﴾(١٠) .

٤٧ ــ ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين ﴾(١١) .

٤٨ ــ ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً . لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾(١٢) .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ذكرت في مطالع السور غير التوبة ولم تكتب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ في أول سورة التوبة . لأن النبي ـ ﷺ ـ لم يأمر بذلك كما يؤخذ من حديث رواه الحاكم والمخرج في معناه أن البسملة أمان . والسورة نزلت برفع الأمن بالسيف والقتال . كما ذكرت البسملة في الآية الثلاثين . من سورة النمل :

---

(١) زخرف آية : ٢٠
(٢) زخرف آية : ٣٣
(٣) الزخرف آية : ٣٦
(٤) زخرف آية : ٤٥
(٥) زخرف آية : ٨١
(٦) ق آية : ٣٣
(٧) الرحمن الآيات : ١ ــ ٢
(٨) ملك آية : ٣
(٩) ملك آية : ١٩
(١٠) ملك آية : ٢٠
(١١) ملك آية : ٢٩
(١٢) نبأ آية : ٣٨

وذكر اسم الرحمن سبعاً وخمسين مرة فى كتاب الله الكريم على النحو التالى : ذكر ﴿ الرحمن ﴾ ذكر مرتين فى فاتحة الكتاب وذلك باعتبار ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ الآية الأولى من سورة الفاتحة ، وفى الآية الثالثة من فاتحة الكتاب وهى :

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ .

وذكر الرحمن مرة واحدة فى سورة البقرة :

﴿ وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ .

٤ — وذكر الرحمن مرة واحدة فى سورة الرعد فى الآية الثلاثين . وذكر الرحمن مرة واحدة فى سورة الإسراء .

﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ .

وأكثر سورة ذكر فيها الرحمن سورة مريم ، ذكر الرحمن ستة عشرة مرة فى الآيات ١٨ ، ٢٦ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٨ . ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٦ .

وذكر الرحمن أربع مرات ، فى سورة طه فى الآيات ٥ ، ٩٠ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، وذكر الرحمن أربع مرات ، فى سورة الأنبياء فى الآيات ٢٦ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ١١٢ ، وذكر الرحمن خمس مرات فى سورة الفرقان فى الآيات ٢٦ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ذلك بأن الرحمن ، سبحانه ذكر مرتين فى الآية الستين من سورة الفرقان .

وذكر الرحمن مرة واحدة ، فى سورة الشعراء فى الآية الخامسة . وذكر الرحمن مرة واحدة ، فى الآية الثلاثين من سورة النمل .
وذكر الرحمن أربع مرات ، فى سورة يس فى الآيات ١١ ، ١٥ ، ٢٣ ، ٥٢ ، وذكر الرحمن سبع مرات ، فى سورة الزخرف فى الآيات ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٨١ . وذكر الرحمن مرة واحدة ، فى أول سورة الرحمن . وذكر الرحمن مرة واحدة فى سورة الحشر وذلك فى الآية الكريمة الثانية والعشرين .

وذكر الرحمن أربع مرات ، في سورة الملك في الآيات ٣ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٩ وذكر الله باسمه الرحمن مرتين ، في سورة النبأ في الآيتين ٥٦ ، ٥٧ وجاء في كتاب « الأسماء والصفات » للامام أبي بكر بن علي البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨ ، طبعة الهند ، صفحة ٣٦ ما يلي : —

قال الحليمي رحمة الله في معنى الرحمن ، أنه المزيح للعلل — وذلك أنه لما أراد من الجن والإنس أن يعبدوه ، يعني لما أراد أن يأمر من شاء منهم بعبادته ، عرفهم وجوه العبادات — وبين لهم حدودها وشروطها ، وخلق لهم مدارك ومشاعر وقوى وجوارح ، فخاطبهم وكلفهم وبشرهم وأنذرهم وأمهلهم ، فصارت العلل مزاحه ، وحجج العصاة والمقصرين منقطعة . وقال أبو سليمان الخطابي رحمه الله : اختلف الناس في تفسير الرحمن ، ومعناه ، وهل هو مشتق من الرحمة ! فذهب بعضهم إلى أنه غير مشتق ، لأنه غير مشتق ، لأنه لو كان مشتقاً من الرحمة لا تصل بذكر المرحوم ، فجاز أن يقال الله رحمن بعباده ، كما يقال رحيم بعباده ، ولأنه لو كان مشتق من الرحمة ، لا تنكره العرب حين سمعوه ، إذا كانوا لا ينكرون رحمة ربهم . . وقد قال الله عز وجل :

﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً ﴾[1] .

وذهب الجمهور من الناس ، إلى أنه مشتق من الرحمة ، مبنى على المبالغة ، ومعناه ذو الرحمة لا نظير له فيها .

وكتب أبو بكر البيهقي ، قال أخبرنا أبومحمد عبدالله بن يوسف الأصبهاني ، قال أخبرنا أبوبكر محمد بن الحسين القطان ، قال : أخبرنا أحمد بن يوسف السلمي ، قال : حدثنا عبدالرزاق قال : حدثنا معمر عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : قال الله عز وجل : ﴿ أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته ﴾[2] .

قال الخطابي رحمه الله : فالرحمن ذو الرحمة الشاملة ، التي وسعت الخلق في أرزاقهم ، وأسباب معايشهم ومصالحهم ، وعمت المؤمن والكافر ، والصالح والطالح .

١ — الفرقان آية : ٦٠

٢ — انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ ١٠ ـ ٤١٨ . كتاب الأدب باب من وصل وصله الله .
انظر صحيح البخاري . كتاب الأدب ـ باب من وصل وصله لله . جـ ٨ ص ٧٥٦

وقد ذهب الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ، إلى أن اسم « الرحمن » قريب من اسم الله الجاري مجرى العلم ، وإن كان مشتقاً من الرحمة قطعاً .

فبالأحرى أن يكون المفهوم من الرحمن نوعاً من الرحمة ، أبعد من مقدور العباد ، فالرحمن هو العطوف على العباد .

أولاً : بالإيجاد .

ثانياً : بالهداية إلى الايمان وأسباب السعادة .

ثالثاً : بالإسعاد في الآخرة .

رابعاً : الإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم .

والرحمن هو الخالق الذى يريد الخير لعبده ، فأنعم علينا بكتابه المبين .

والحمد لله الذى لا إله إلا هو الرحمن ، الذى علم القرآن ، وهو الذى خلق الإنسان ، وعلمه البيان .

٣ ـ الرحيـــــم

« اللهم إنى أسألك باسمك الطاهر الطيب المبارك الذى إذا استرحمت به رحمت » . الحمد لله الذى أرسل رسوله رحمة للعالمين ، ونزّل القرآن رحمة للمؤمنين ، الرحيم من أسماء الله تعالى ، وهو اسم مشتق من الرحمة ، ومعنى الرحمة هو تخليص من رحمهم الله من الضر والضلال ، والإنعام عليهم بالهدى والمغفرة والإيمان ، والرحيم وزنه فعيل بمعنى فاعل أى راحم ، وبناء فعيل للمبالغة كعالم وعليم ، وقادر وقدير ، أى أن الرحيم صيغة تعظيم من الرحمة .

والرحمة تقتضى الإحسان إلى المرحوم . قال الله تعالى :

﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾[1] . والله يقسم رحمته كيف يشاء ، ويدخل رحمته من يشاء ، والرحمة من الله إنعام وإفضال ، ونحن لا نكاد نرى آثار رحمة الله لكثرتها ، ذلك بأن نعم الله لا تحصى ، ولكننا نحس إن أمسك الله بعض رحمته ، ونشعر وكأننا نُنزع نزعاً .

---

١ ـ الأحزاب آية : ٤٣

قال الله تعالى :

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور ﴾[١] ولا يوجد شيء في الوجود يعادل رحمة الله غير علمه عز وجل .

﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾[٢] .

وأن الله يرحمنا في هذه الحياة الدنيا التي لا نلبث فيها إلا قليلا ، وينعم الله علينا بشتى صنوف الإحسان ، ويفضل بعضنا على بعض ، فكيف تكون رحمة ربي في الدار الآخرة ، التي هي خير للذين يتقون ، والتي هي دار القرار ؟

١ ـ ﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[٣] .

٢ ـ ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾[٤] .

٣ ـ ﴿ أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾[٥] .

من أجل ذلك كتب الله على نفسه الرحمة ، وأرسل نبى الرحمة ، محمداً بن عبد الله ، شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وجعل طاعة خاتم النبيين والصلاة والسلام عليه سبباً في تحصيل الرحمة ، التي هي سعادة الآخرة ، وجعل سبحانه ، نصيب الأتقى منها أكبر ، قال تعالى :

﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ﴾ فجعلها بشرى التقوى والإحسان ، قال تعالى :

﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾[٧]

وهو الذى لا يرد عذابه عن القاسية قلوبهم ، قال رسول الله ﷺ : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء »[٨] وقال الله تعالى : ﴿ فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾[٩] والرحيم من صفات الرحمن ، ويجوز أن يفيض الله على عباده بنصيب من الرحمة ، فيكون رحيماً بإذن الله ، وأكثر عباد الله نصيبا من هذه الرحمة ، هو سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، قال الله تعالى في كتابه الكريم :

---

١ ـ هود آية : ٩

٢ ـ غافر آية : ٧

٣ ـ يوسف آية : ٥٧

٤ ـ النحل آية : ٤١

٥ ـ الاسراء آية : ٢١

٦ ـ الأعراف آية : ١٥٦

٧ ـ الأعراف آية : ٥٦

٨ ـ أخرجه البخاري في صحيحه ج ٢ ص ١٠٠ كتاب الجنائز باب قول النبي يعذب الميت ببعض بكاء أهله .

٩ ـ الأنعام آية : ١٤٧ .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾[١] .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل خلق مائة رحمة ، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعا وتسعين إلى يوم القيامة » .

ورد هذا الحديث بهذا النص في مسند ابن حنبل الجزء الخامس . كما ورد مع إختلاف في النص لصحيح مسلم وفي سنن ابن ماجه . وورد اللفظ مطولاً في تفسير الطبري الجزء السابع . حدثنا محمد بن المثنى — قال : حدثنا عبد الوهاب قال : حدثنا داود عن أبي عثمان ، عن سلمان قال : « إن الله تعالى ذكره ، لما خلق السموات والأرض ، خلق مائة رحمة ، كل رحمة ملء ما بين السماء والأرض فعنده تسع وتسعون رحمة ، وقسم رحمة بين الخلائق ، فبها يتعاطفون ، وبها تشرب الوحوش والطير الماء ، فإذا كان يوم القيامة ، قصرها الله على المتقين وزادهم تسعا وتسعين »[٢] .

أما رحمة الله فهي رحمة واسعة ، ولا يمكن لمخلوق أن يحصيها ، أو أن يعلمها ، لكن بفضل الله وواسع رحمته ، يمكن لقلب المؤمن أن يؤمن بها ، وهذه الرحمة التي أودعها الله الرحيم في الخلق في الدنيا ، يصح أن تقارن بالعلم الذى علمه الله تعالى عباده من حكمته وعلمه ، أو أن توازى الرزق الذى رزقه الله عباده في هذه الحياة الدنيا ، وكل من عند الله ، وبعض هذه الرحمة التي بين الخلائق ، تتابع الطير في جو السماء ، وتتابع الحيتان في الماء ، وتحنن الأمهات على أطفالها ، والحب ، وكل الحب الذى أوصى به سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ، ومثل هذه الرحمة التي وهبها الله عباده ، يؤلف الله تعالى بين قلوب من يشاء ... و :

﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ﴾[٣]

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[٤] .

كل هذا قليل من الرحمة ، التي أفاض الرحمن بها على خلقه برحمته ، وهي كما ترى لا يمكن أن تعد أو أن تحصى .

والرحمة التي وهبها الله عباده المتقين في الآخرة ، خير وأبقى ، وهي مائة ضعف الرحمة السابقة ، وأنها لرزق الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الرحمة ، ماله من نفاد في يوم القيامة ، ترى المؤمنين والمؤمنات ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بسرور عظيم ، ويحيون بما يلهيهم من هذه الرحمة

١ — التوبة آية : ١٢٨ .

٢ — أخرجه ابن ماجه في سننه في (كتاب الزهد) باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ج ٢ ص ١٤٣٥ من رواية أبي سعيد — رضي الله عنه — قال في الزوائد : حديث أبي سعيد بن صحيح رجال ثقات
وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (من حديث جندب البجلي) ج ٤ ص ٣١٢

٣ — الأنفال آية : ٦٣

٤ — الروم آية : ٢١

والحب . والكافرون والمنافقون ما لهم من نصيب من هذه الرحمة والحب والمودة ، حتى الأحباب منهم ويقصر الله هذه الرحمة على المتقين :

﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾[1] وببعض هذه الرحمة ، يتبادل أصحاب النعيم العشق مع الأزواج المطهرة من الحور العين ، والحور : هن الجميلات ، شديدات سواد العيون في شدة بياضها ، العين : أي الحسان واسعات العيون ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، الحسان الأبكار ، الكواعب : جمع كاعب ، وهي الفتاة التي يبدأ ثديها يستدير ، والتي تكعبت ثديها أي نهد الأتراب ، وهن الصويحبات الأمثال الأكفاء . العُرُب ـ بضم العين والراء ـ قاصرات الطرف ، والقصر : أي الحبس ، والطرف هنا معناه النظر ، والمراد حابسات أعينهن على أزواجهن . لا ينظرن إلى غيرهم لجمالهم في نظرهن . وبجزء من هذه الرحمة ، ينزع الله ما في صدور المتقين من غلّ ، إذا حصل ما في الصدور ، ويخرج ما في قلوبهم من بعض حقد للذين آمنوا ، ويألفون ويؤلفون ، ويصبحون إخوانا ، وتجرى من تحتهم الأنهار ، على سرر متقابلين . وبذلك تكاد تضيء حكمة أحكم الحاكمين ، جل ثناؤه . الذي أوحى لعباده بهذا الدعاء .

﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾[2] .

والله سميع الدعاء ، ثم يوفّى المتقين نصيبهم من الرحمة ، يوم القيامة ، غير منقوص ، وإنا لنطمع أن يكون أجرنا من الرحمة في الآخرة ، بغير حساب ، وخالصات لوجه الله الكريم .

ولما كان ما أوتينا من العلم هو [illegible] كلمات ، ولا علم لنا برحمة الله ، إلا إنها وسعت كل شيء ، وإلا أن تكون خزائن رحمة ربي مثل كلمات ربي ، و : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾[3] .

﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾[4] .

فإنه ليس لأحد ما ينجيه عمله ، إلا أن يتغمدنا الله برحمة منه وفضل ولا سبيل لنا إلا أن نسأله تعالى أن يرحمنا ، والله هو الغني ذو الرحمة ، وهو خير الراحمين ، وهو أرحم الراحمين .

وهكذا نرى أن من عرف شيئاً عن رحمة الله ، اشتاق إلى الله ، ومن اشتاق إلى الله ، رحمه الله .

---

(1) الزخرف آية : ٦٧
(2) الحشر آية : ١٠
(3) الكهف آية : ١٠٩
(4) لقمان آية : ٢٧

ومرة أخرى مع الاسم الكريم : الرحيـم

ذكر « الرحيم » مائة وأربعة عشر مرة فى القرآن الكريم على النحو التالى :

ــ الرحمن الرحيم :

ذكر الرحمن الرحيم ست مرات فى ست آيات من آى الذكر الحكيم وهى : الآية الأولى والثالثة من سورة الفاتحة ، والآية ١٦٣ من سورة البقرة ، والآية ثلاثون من سورة النمل ، والآية الثانية من سورة فصلت ، والآية الثانية والعشرين من سورة الحشر .

ــ التواب الرحيم

ذكر التواب الرحيم ست مرات فى الكتاب المبين :

﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ ٣٧ البقرة كما ذكر التواب الرحيم فى الآيات : ٥٤ ، ١٢٨ ، ١٦٠ من سورة البقرة وذكر التواب الرحيم مرتين فى سورة التوبة .

١١ ــ ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾ ١٠٤ التوبة

١٢ ــ والآية ١١٨ من سورة التوبة .

﴿ إن الله هو التواب الرحيم ﴾

١٣ ــ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ؟ واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم ﴾ ١٢ الحجرات

وسبحانه ﴿ تواباً رحيماً ﴾ .

١٤ ــ الآية من سورة النساء :

١٥ ــ ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ، ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما ﴾ ٦٤ النساء

وهو ﴿ العزيز الرحيم ﴾

ذكر العزيز الرحيم ثلاث عشرة مرة فى الكتاب العربى الكريم على النحو التالى : تسع مرات فى سورة الشعراء وهى ثمان مرات من الآيات : ٩ ، ٦٨ ، ١٠٤ ، ١٢٢ ، ١٤٠ ، ١٥٩ ، ١٧٥ ، ١٩١ التى نعيها جميعاً .

﴿ ... وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

والتاسعة فى الآية ٢١٧ من سورة الشعراء .

٢٤ — ﴿ ونوكل على العزيز الرحيم ﴾

وذكر العزيز الرحيم في الآية الخامس من سورة الروم

٢٥ — ﴿ ينصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾

٢٦ — ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ ٦٠ سجدة

٢٧ — ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ ٥ يس

٢٨ — ﴿ إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ﴾ ٤٢ الدخان

﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾

٢٩ — ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله . يصيب به من يشاء من عباده . وهو الغفور الرحيم ﴾ ١٠٧ يونس

٣٠ — ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ٩٨ يوسف

٣١ — ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ ٤٩ الحجر

٣٢ — ﴿ قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى . فغفر له . إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ١٦ القصص

٣٣ — ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ٥٣ الزمر

٣٤ — ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ ٥ الشورى .

٣٥ — ﴿ أم يقولون افتراه . قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا ، هو أعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيداً بينى وبينكم . وهو الغفور الرحيم ﴾ الأحقاف .

وهو الرحيم الغفور

ذكر الرحيم الغفور مرة واحدة فى كتاب الله العزيز وذلك فى الآية الثانية من سورة سبأ :

٣٦ — ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور ﴾ .

غفور رحيم :

ذكر اسم « غفور رحيم » تسعاً وأربعين مرة فى القرآن الكريم فى الآيات التسع والأربعين التالية .

وهى الآيات :

١٧٣ — ١٨٢ — ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٦ من سورة البقرة . والآيات : ٣١ — ٨٩ — ١٢٩ من سورة آل عمران . والآية ٢٥ من سورة النساء — والآيات : ٣ — ٣٤ — ٣٩ — ٧٩ — ٩٨ من سورة الأنعام . والآيتين ١٥٢ — ١٦٧ من سورة الأعراف و آيتين ٦٩ — ٧٠ من سورة

الأنفال ــ والآيات ٥ ــ ٢٧ ــ ٩١ ــ ١٠٢ من سورة التوبة . والآية ٤١ من سورة هود والآية ٥٣ من سورة يوسف ، والآية ٣٦ من سورة إبراهيم والآيات ٥ ــ ٢٢ ــ ٣٣ ــ ٦٢ من سورة النور ، والآية ٢٨ من سورة الحديد . والآية ١٢ من سورة المجادلة ، والآية ٧ من سورة الممتحنة والآية ١٤ من سورة التغابن . والآية الأولى من سورة التحريم ، والآية ٢٠ من سورة مزمل .

وسبحانه .

غفورا رحيما .

ورد ذكرها خمس عشرة مرة فى الخمس عشرة آية التالية :

الآيات : ٢٣ ــ ٩٦ ــ ١٠٠ ــ ١٠٦ ــ ١١٠ ــ ١٢٩ ــ ١٥٢ من سورة النساء . والآيتين ٦ ــ ٧٠ من سورة الفرقان . والآيات ٥ ــ ٢٤ ــ ٥٠ ــ ٥٩ ــ ٧٣ من سورة الأحزاب ــ والآية : ١٤ من سورة الفتح .

وهو رءوف رحيم .

ذكرت كلمة رءوف رحيم ثمان مرات فى الثمان الآيات التالية الآية ١٤٣ من سورة البقرة . والآية ١١٧ من سورة التوبة ، والآية السابعة من سورة النحل ، والآية ٤٧ من سورة نحل ، والآية ٦٥ من سورة حج . والآية ٢٠ من سورة النور ، والآية ٩ من سورة الحديد ، والآية ١٠ من سورة الحشر وهى :

١٠٨ ــ ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ﴾ .

وهو رحيم ودود .

١٠٩ ــ ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ﴾ ٩٠ هود

وهو رب رحيم .

١١٠ ــ ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ ٥٨ يس

وهو البر الرحيم

١١١ ــ ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾ ٢٨ الطور .

وسبحانه رحيما :

١١٢ ــ ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴾ ٢٩ النساء .

١١٣ ــ ﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما ﴾

٦٦ الإسراء .

١١٤ ـ ﴿ هو الذى يصل عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ ٤٣ الأحزاب .

وهكذا ذكر اسم « الرحيم » سبحانه ، فى القرآن العظيم مائة وأربع عشرة مرة بعدد سور القرآن العظيم .

٤ ـ الملــك

﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾[1] .

تبارك الذى له ملك السموات والأرض ، وما بينهما وما فوقهن ، ولم يتخذ ولداً .

فاطر وبديع السموات والأرض ، وخلق كل شىء فقدره تقديراً . والإبداع هو الخلق أول مرة ، وإخراج الشىء مما لا نعلم إلى الوجود ، من أجل ذلك لا يعقل أن يملك ، بمعنى المُلك ، إلا الله الملك الحق المبين ، وهو سبحانه المتصرف فى كل شىء بالإبداع والخلق والموت والحياة والنشور .

والملك الحق هو الغنى مطلقاً عن كل ما سوه ، وعن كل ما يحتاج إليه سواه ، أما من يحتاج إلى الغير فلا يصح أن يسمى مطلقاً ، إلا أن يؤتى ملكاً محدداً موقوتاً ، أو أن يكون ذلك مجازاً وهذا واضح جداً للمؤمنين اليوم ، ولجميع المخلوقات يوم القيامة ، ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ﴾ ١٦ غافر .

﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ٦٧ الزمر .

وقد ذكر الملك فى بضع آيات من القرآن العظيم :

١ ـ ﴿ الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ﴾

٢ ـ ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ ١١٤ طه

٣ ـ ﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ ١١٦ المؤمنون .

٤ ـ ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام ﴾ ٢٣ الحشر .

٥ ـ ﴿ يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ ١ الجمعة .

٦ ـ ﴿ قل أعوذ برب الناس ملك الناس ﴾ ١ ـ ٢ الناس .

جاء فى صحيح البخارى الجزء التاسع . كتاب التوحيد : قول الله تعالى : ﴿ ملك الناس ﴾ : عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : « أنا الملك أين ملوك الأرض »[2] .

---

(١) المؤمنون آية : ١١٦ وطه آية : ١١٤

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٩ ص ١٤٠ . كتاب التوحيد . باب قول الله تعالى . ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾ ٨٣ يس والملكوت هو الملك العظيم الواسع المطلق ، كالرحموت للرحمة الواسعة ، والرهبوت للرهبة الشديدة ، وهو فعلوت من الملك ، فهذا الوزن فى اللغة يفيد المنتهى .

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ﴾ ١ الملك واليد مجاز عن القدرة والإحاطة والملك . فالذى يملك السمع والأبصار والأفئدة ، والموت والحياة ، والنشور والشفاعة ، والرحمة والرزق ، هو الله ، ونحن لا نملك مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، من أجل ذلك ، فلا مُلك إلا لله ، ولا ملك إلا الله ، مالك الملك لا شريك له .

وهنا دعاء عرفة : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

٥ ــ القــدوس

﴿ رب الملائكة والروح ﴾

القدوس بالضم والتشديد من أسماء الله تعالى الحسنى ، وهو اسم جنس مشتق من القدس أى الطهر .

والقدوس سبحانه ، هو الطاهر المنزه .

والتقديس والتطهير ، هو تنزيه الله عز وجل ، وقوله تعالى : ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾[1] .

قال الزجاج : أى نطهر أنفسنا ، وكذلك نفعل بمن أطاعك ، نقدسه أى نطهره .

ذلك بأن القدس هو الطهر والنزاهة .

وقد ذكر القدوس مرتين فى كتاب الله الكريم ، مرة فى سورة الحشر ، والثانية فى الآية الأولى من سورة الجمعة : ﴿ يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾[2] .

عن قتادة عن مطرف عن عائشة رضى الله عنها قالت : أن رسول الله ﷺ كان يقول فى ركوعه :

« سبّوح قدوس رب الملائكة والروح »[3] .

---

١ ــ البقرة الآية : ٣٠
٢ ــ الجمعة الآية ١
٣ ــ أخرجه مسلم فى صحيحه ، جـ ١ ص ٣٥٣ كتاب الصلاة ، باب ، ما يقال فى الركوع والسجود ، رقم ٢٢٣ / ٤٨٧

٦ ــ السـلام

﴿ التحيات لله والصلوات والطيبات ﴾

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام ﴾[1] . ومعنى السلام فى اللغة ، السلامة والأمان ، والسلام هو الذى ليس فى الوجود سلاما إلا وكانت صادرة منه تعالى ، فسبحان السلام مانح السلامة فى الدنيا والآخرة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وأسأل ربى « السلام » أن يصلى ويسلم على رسول السلام سيدنا محمد نبى الاسلام ، كان رسول الله ﷺ ، إذا أراد أن ينصرف من صلاته ، استغفر ثلاث مرات ثم قال : « اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام تباركت ياذا الجلال و الإكرام »[2] .

اللهم أنت السلام
ومنك السلام
وإليك يرجع السلام
فحينا ربنا بالسلام
وأدخلنا دارك دار السلام
تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام

٧ ــ المـؤمـن

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم ﴾[3] .

سبحان الذى شهد لنفسه بالوحدانية قبل شهادة خلقه ، والإيمان هو التصديق ، والله هو المؤمن المصدق لنفسه ، ومن أصدق من الله ــ قيلاً ، ومن أصدق من الله حديثًا .

وسبحان المؤمن الذى يعزى إليه الأمن والأمان ، فلا أمن ولا أمان إلا من عنده .

وسبحان المؤمن واهب الأمن ، والأمن ضد الخوف ، وسبحان الذى أطعمنا من جوع وآمنا من خوف .

وهنا مكان حسن لتتدبر الثلاث الآيات من سورة الأنعام : **﴿ وحاجه قومهُ ، قال : أتحاجونى فى الله وقد هدان . ولاأخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ماأشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا * فأى الفريقين أحق بالأمن ، إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾**[4]

---

(١) الحشر الآية : ٢٣ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه جـ ١ ص ٢٩٨ ، كتاب إقامة الصلاة ، باب ما يقال بعد التسليم ، رقم ٩٢٤ .

(٣) آل عمران الآية : ١٨ .

(٤) الأنعام الآيات ٨٠ ـ ٨١

٨ ــ المهيــــمن

﴿ **إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾[1] .

سبحان المهيمن بعلمه ، وكمال قدرته على كل شيء ، والمهيمن هو الرقيب على كل شيء ، وهو الحافظ لكل شيء ، والخاضع لسلطانه كل شيء ، وهو القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ، والمهيمن هو الشاهد المطلع على أفعال مخلوقاته .

قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه** ﴾[2] . (مهيمناً عليه) : أى رقيباً على ما سبقه من الكتب ، يقر الحق ويظهر خطأ الباطل ، قال أهل اللغة : الهيمنة : القيام على الشيء والرعاية له . والمهيمن : الشاهد ، وهو من آمن غيره من الخوف . وقيل المهيمن : هو الشهيد لنفسه بالوحدانية .

وقال أهل التفسير فى المهيمن : أنه الأمين . قال أبو سليمان : وأصله مؤيمن فقلبت الهمزة هاء ، لأن الهاء أخف من الهمزة ، وهو على وزن مسيطر .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : مهيمناً عليه ، قال : مؤتمنًا عليه ومهيمنًا عليه . قال : المهيمن الأمين ، قال : القرآن أمين على كل كتاب قبله .

وقال مجاهد فى قوله تعالى : ومهيمنًا عليه : قال المهيمن الشاهد على ما قبله من الكتب .

قال أبو سليمان : فالله عز وجل المهيمن أى الشاهد على خلقه ، بما يكون منهم من قول وفعل . كقوله تعالى : ﴿ **وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيه ..** ﴾[3] .

والإفاضة هى الاندفاع فى الشيء بقوة ، أى تفعلونه بسرعة . ولنتدبر باقى الآية الكريمة : ﴿ **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** ﴾[4] . وسبحان المهيمن الذى لا يغيب عنه من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

وقد ذكر الاسم المحيط « المهيمن » مرة واحدة فى الكتاب المبين .

---

(١) النساء الآية : ١
(٢) المائدة الآية : ٤٨
(٣) يونس الآية : ٦١
(٤) يونس الآية : ٦١

٩ ــ العزيز

﴿ سبحان ربك رب العزة ﴾[١] .

سبحان العزيز الذى لا يوجد مثله ، ويا من ليس له ضد ولا شبيه ، ويا من تشتد إليه الحاجة ، ويا من يصعب الوصول إليه . والعزيز ، سبحانه ، هو القوى ، الذى لا يجوز عليه مكر الماكرين ، وقد ذكر العزيز ثمانية وثمانين مرة فى كتاب الله الكريم ، وهو العزيز الرحيم ، وهو العزيز العليم ، وهو عزيز ذو انتقام ، وهو القوى العزيز ، وهو العزيز الغفار ، وهو العزيز الغفور ، وهو العزيز الحميد ، وهو العزيز الوهاب ، وهو عزيز مقتدر . ﴿ ... وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾[٢] .

١٠ الجبار

﴿ الجبار المتكبر ﴾[٣] .

سبحان الجبار القهار ، الذى قهر خلقه ، ويجبرهم على ما أراده ، بإرادة حكيم فى لطف الخبير ، ذلك بأن من معانى الجبر ، القهر ، يقال : جبره وأجبره على الأمر يجبره ، أى أكرهه وقهره ونفذت مشيئته : ﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾[٤] . والجبار فعال من جبر ، إذا أغنى الفقير ، وأصلح الكسير ، وجبْرُ الشيء : إصلاحه ، قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾[٥] .

والبال : الحال والشأن ، والبال : رخاء النفس ، والبال : القلب . يقال : ما يخطر فلان ببالى ، ويقال خطر الشيء ببالى ، وأخطره الله بباله . والجبار هو العالى . الذى لا ينال ، قال ابن الأنبارى : الجبار فى صفة الله تعالى الذى لا ينال ، ومنه قيل للنخلة التى فاتت يد المتناول جبارة ، فسبحان الجبار الذى لا تصل العقول إلى الإحاطة بجلاله . وقال ابن عباس : الجبار هو الملك العظيم ، وقد ذكر : الجبار المتكبر ، سبحانه ، مرة واحدة فى الكتاب العزيز .

١١ ــ المتكبر

﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾[٦] .

سبحان الجبار المتكبر ، ذى الكبرياء ، الذى له الكبرياء فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم .

---

(١) الصافات الآية : ١٨٠
(٢) غافر الآية : ٤٢
(٣) الحشر الآية : ٢٣
(٤) الأنعام الآية : ١٨
(٥) محمد الآية : ٢
الحشر الآية : ٢٣

والكبرياء : هي الرفعة في الدرجات والعظمة ، والعظمة والكبرياء لله . جاء في الحديث الصحيح عن رب كل شيء : « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في احدهما قصمته »[1] أي أهلكته .

وأعوذ بالله من كل قلب متكبر جبار ، ذلك بأن التكبر والكبرياء من صفات الله ، ولا يدخل الجنة من في قلبه ذرة من كبر ، ويطبع الله على قلبه : ﴿ **كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾[2] . وسبحانه الجبار المتكبر عما يقولون علواً كبيراً .

وقد ذكر المتكبر تعالى مرة واحدة في الكتاب المبين في الآية الثالثة والعشرين من سورة الحشر : ﴿ **العزيز الجبار المتكبر** ﴾ .

١٢ ــ الخـالــق

﴿ **وخلق كل شيء فقدره تقديرًا** ﴾[3]

الخالق هو الفاطر وهو الموجود المبدع على غير مثال سبق . وأحب أن أؤخر هذا الاسم العظيم (الخالق) إلى الخلق في عالم الملكوت ، عالم الخلق الأول .

يوم خلق الله السموات والأرض ، ويوم خلق الله الملائكة ، ويوم خلق الله الآجال حين يموت من مات ، ويوم ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس ، ويوم خلق الله آدم في أحسن تقويم ، وأسكنه الجنة ، ويوم خلقنا في ظهر آدم ، واستخرجنا وأخذ علينا الميثاق ، ثم أماتنا .

وهو الذي خلق بقضاء وأمر ، أو بقول وإرادة ، سبحانه ، قال تعالى : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ﴾[4] .

والخالق والبعث كلاهما من أمر ربي ، والخالق الباعث ، سبحانه ، هو الذي خلق كل شيء في عالم الغيب ، والخالق من الخلق ، وأصله التقدير المستقيم ، وقد ذكر « الخالق » في نهاية سورة الحشر ، ثم لتتدبر الآيات السبع الآتية :

١ ــ ﴿ **ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل** ﴾[5] .

٢ ــ ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون** ﴾[6] .

---

(1) خرجه ابن ماجة في سننه جـ ٢ ص ١٣٩٧ ، كتاب الزهد ، رقم ٤١٧٤ ، انظر سنن أبي داود جـ ٤ ص ٣٥٠ ، ٣٥١ ، كتاب اللباس ، باب ما جاء في الكبر رقم ٤٠٩٠ .

(٢) غافر الآية : ٣٥

(٣) الفرقان الآية : ٢

(٤) لقمان الآية : ٢٨

(٥) الأنعام الآية : ١٠٢

(٦) النحل الآية : ١٧

٣ ـ ﴿ قل الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار ﴾[1] .

٤ ـ ﴿ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾[2] .

٥ ـ ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾[3] .

٦ ـ ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾[4] .

٧ ـ ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾[5] .

١٣ ـ البـــارىء

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾[6] .

أجمع أهل الذكر ، أن البَرْية شيء بين الخلق والتصوير ، وذلك وفقًا لترتيب الأسماء الحسنى ، الخالق البارىء المصور ، ذلك بأن التصوير مسبوق بالتقدير أولاً ، والبَرْاية بينهما

والبارىء من البرء ، وهو خلوص الشيء من غيره ، كبرء المريض من مرضه ، والمدين من دينه ، ولقد قرأت فى كتب الأسماء والصفات أن ندعو الله بهذا الاسم الحسن « البارىء » للسلامة من الآفات ، ويحتمل أن يكون معنى البارىء ، هو الذى يبرىء جوهر المخلوق من الآفات ،حتى يمكنه اجتياز هذه النقلة من عالم التقدير والخلق الأول ، إلى عالم الشهادة والظهور للاختبار فى عالم الملك .

أو بكلمات أخرى : أنه من كتب له الرحيل من عالم الغيب والملكوت ، إلى عالم الشهادة والملك ، للابتلاء والتنافس ، يجب عليه أن يتحصن ضد الآفة ـــ أى ينبغى له أن يحصل على هذه الحصانة والبراءة من الآفات من البارىء سبحانه ، أو أنه من قدر له أن يحمل وسام الحياة ، لا يستطيع ذلك ، إلا إذا منح براءة هذا الوسام من البارىء الحق ، وقد ذكر البارىء تعالى مرتين فى القرآن الكريم ، مرة فى سورة الحشر ، ثم لنتدبر ثلاث كلمات من الآية الرابعة والخمسين من سورة البقرة : ﴿ **فتوبوا إلى بارئكم** ﴾ .

١٤ ـ المصـــور

﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾[7] .

سبحان الذى أنشأ الانسان على صور مختلفة ، متميزًا بعضها عن بعض فى الأشكال والأحجام والألوان ، ليتعارفوا ، وسبحان من صورنا فى الأرحام أطوارًا ، وتشكيلاً بعد تشكيل ، فى ظلمات البطن

---

(١) الرعد الآية : ١٦
(٢) فصلت الآية : ٢١
(٣) المؤمنون الآية : ١١٥
(٤) ق الآية : ٣٨
(٥) التين الآية : ٤
(٦) البينة الآية : ٧
(٧) آل عمران الآية : ٦

والرحم والمشيمة ، وهذا التشكيل يتم من تركيب ذرات بنى آدم ، التى سبق لها التقدير يوم أشهدهم الله ربنا على أنفسهم .

وفى عالم الشهادة ، يتم تركيب الصورة ، كما شاء الله على هيئة الأصل فى أحسن تقويم يوم الخلق الأول .

ثم بعد ذلك ، فلنتدبر الآيات البينات من سورة النجم :

﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾

﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴾

﴿ من نطفة إذا تمنى ﴾

﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾[1]

فما هى النشأة الأخرى ؟ يقول الإمام الفخر الرازى محمد فخر الدين فى تفسيره الكبير ، مفاتيح الغيب : [والذى ظهر لى بعد طول التفكير والسؤال من فضل الله تعالى ، والهداية فيه إلى الحق ، أنه يحتمل أن يكون المراد من النشأة الأخرى : نفخ الروح الانسانية فيه ، وذلك لأن النفس الشريفة تخالط الأجسام الكثيفة المظلمة ، وبها كرم الله بنى آدم] .

وفى الأرحام كما يتم التصوير يتم نفخ الروح كما جاء فى الحديث الشريف ، فقد جاء فى صحيح مسلم بشرح النووى باب القدر ، روى أن رسول الله ﷺ قال :

« إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء . ويكتب الملك »[2] .

كما جاء فى نفس الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح »[3] .

كما قيل فى معنى : (ثم أنشأناه خلقاً آخر) ، هو نفخ الروح ، غير خلق النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاماً ، وبهذا الخلق الآخر ، أو نفخ الروح ، أو النشأة الأخرى ، تميز الانسان عن أنواع الحيوانات . وبعد ، يجوز أن تكون النشأة الأخرى ، هى نفخ الروح ، وتخصص النشأة الآخرة للحشر .

﴿ فانظر كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ﴾[4] .

(١) النجم الآيات : ٤٤ ــ ٤٧

(٢) خرجه صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب ، كيفية الخلق ، جـ ٤ ص ٢٠٣٧ رقم ٣ ، ٢٦٤٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن مسعود .

(٣) خرجه صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب ، كيفية الخلق ، جـ ٤ ص ٢٠٣٦ رقم ١ ، ٢٦٤٣

(٤) عنكبوت الآية : ٢٠

١٥ ـــ الغفـار

﴿ ألا هو العزيز الغفار ﴾(١) .

الغفر والغفران فى اللغة ، معناهما الستر . وسبحان الغفار الذى أظهر الجميل ، وستر القبيح ، والذنوب من جملة القبائح التى سترها الله تعالى ، وذلك لأن الله تعالى هو ساتر الذنب .

جاء فى كتاب الأسماء والصفات عن هذا الاسم الكريم : الغفار هو المبالغ فى الستر ، فلا يشهر الذنب لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . وقيل لصحابى : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يُدنى من المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك ، قال فإنى قد سترها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . قال : فيعطى كتاب حسناته »(٢) هذا للمؤمنين أما الكفار والمنافقون فلهم شأن آخر . وقد ذكر الغفار فى تنزيل العزيز الحكيم خمس مرات فى الآيات :

١ ــ ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾(٣) .

وقد ذكر العزيز الغفار ثلاث مرات فى القرآن الكريم .

٢ ــ ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ﴾(٤) .

٣ ــ ﴿ خلق السموات والأرض بالحق . يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ﴾(٥) .

٤ ــ ﴿ تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾(٦) .

٥ ــ ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾(٧) .

ويوصى بذكر هذا الاسم الكريم كثيراً . ففيه معانى الإنابة والرجوع إلى الله .

١٦ ـــ القهـار

﴿ سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾

القهر فى اللغة : هو الاستيلاء على الشىء ظاهرًا وباطنًا ، ولا موجود إلا هو مسخر تحت قهره وقدرته ، عاجز فى قبضته تعالى .

---

(١) الزمر الآية : ٥

(٢) أخرجه صحيح البخارى ، كتاب المظالم ، باب قول الله تعالى : ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ جـ ٣ ص ١٦٨ فقد ورد الحديث عن رواية لابن عمر .

(٣) طه الآية : ٨٢

(٤) ص الآية : ٦٦

(٥) الزمر الآية : ٥

(٦) غافر الآية : ٤٢

(٧) نوح الآية : ١٠

وإذا تدبرنا الأسماء الحسنى لله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار، نجد أن مرد جميع الأفعال إلى إله (واحد) وإلى تدبير (واحد) وليس للانسان إلا التسليم إلى الله، وذلك العزيز الغفار الذى يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل، هو الواحد القهار حتى إن أسلمنا له ما يريد كفانا ما نريد، وإن لم نسلم له ما يريد أتعبنا فيما نريد، ثم لا يكون إلا ما يريد سبحانه.

وقد ذكر « الواحد القهار » ست مرات فى القرآن الكريم:

١ ــ ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾(١)

٢ ــ ﴿ قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ﴾(٢)

٣ ــ ﴿ وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ ٤٨ ابراهيم.

٤ ــ ﴿ قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار ﴾(٣).

٥ ــ ﴿ سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾(٤)

٦ ــ ﴿ لمن الملك اليوم، لله الواحد القهار ﴾(٥).

١٧ ــ الوهـــاب

﴿ وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾(٦)

سبحان الله الوهاب: الكثير المواهب، أى الكثير الهبات، يقال: هذه هبة فلان وموهبته وهباته ومواهبه. والهبة هى العطية الخالية من العوض والغرض، فإذا كثرت سمى صاحبها وهاباً. ولا يكون حقيقة إلا الله تعالى.

ويقال للمولود له: شكرت الواهب وبورك لك فى الموهوب. ويقال: اللهم هب لى ذنوبى، والله استوهبُ ذنوبى. أى استغفر ذنوبى.

والوهاب الحق، هو الذى يملك ما يعطى. ولا مالك فى الواقع سوى الله.. وقد ذكر الوهاب سبحانه ثلاث مرات فى الكتاب الحكيم:

١ ــ ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾(٧)

٢ ــ أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ﴾(٨)

٣ ــ ﴿ قال رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب (٩)

---

(١) يوسف آية ٣٩
(٢) الرعد آية ١٦
(٣) ص آية ٦٥
(٤) الزمر آية ٤
(٥) غافر آية ١٦
(٦) آل عمران ٨
(٧) آل عمران ٨
(٨) ص آية ٩
(٩) ص آية ٣٥

١٨ ــ الــرزاق

﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[١] .

سبحان الله الرازق رزقًا بعد رزق ، وهو تعالى المكثر الموسع للرزق ، والحمد لله الذى غذى نفوس الأبرار بغذاء القلوب ، وأوصل إليهم الرزق ، والحمد لله الذى غذى نفوس الأبرار بغذاء القلوب ، وأوصل إليهم نوره ، وهداهم إلى الإيمان ، ووفقهم إلى الطاعات ، وهو تعالى المتكفل بالرزق ، والقائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها ، وسبحان الذى يطعم ولا يطعَم ، والرزاق هو الذى خلق الرزق والمرزوق ، وخلق أسباب التمتع بها الرزق ، والرزق على قسمين .

١ ــ ظاهر للأبدان كالأطعمة .

٢ ــ باطن للقلوب كالعلم .

وهو سبحانه خالق الرزقين .

﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾[٢]

روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، أنه قال : أمر الرزق يطلبك ، وأمرت بطلب الجنة . اللهم يا رزاق ، إنا نسألك رضاك والجنة ، فلا عيش إلا عيش الآخرة . **﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾**[٣] .

قال القشيرى : من عرف أن الله هو الرازق ، أفرده بالقصد إليه . **﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ، لا نسألك رزقاً . نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾**[٤] .

وقد ذكر الرازق ، سبحانه وتعالى ، مرة واحدة فى القرآن الكريم .

١٩ ــ الفتــاح

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾[٥] .

سبحان الفتاح الذى يفتح خزائن رحمته على عباده ، وهو الذى فتح على النفوس باب توفيقه ، وهو الذى رفع الحجاب عن قلوب أوليائه ، ويفتح قلوبهم وعيون بصائرهم ، ليبصروا الحق . وهو الذى يفتح الأبواب لهم إلى ملكوته سبحانه ، فيكون معنى الفتح الكشف والتبين .

وقيل فى معنى الفتاح : « الحاكم بين الخلائق » من الفتح وهو الحكم ، والفتاح هو الذى يفتح ما انغلق بين عباده ، ويميز الحق على الباطل ، ويعلى الحق ، ويخزى المبطل .

---

(١) الذاريات الآية ٥٨

(٢) الذاريات الآية ٥٥

(٣) طه الآية : ١٣١

(٤) طه الآية : ١٣٢

(٥) الأنعام الآية ٥٩

قال تعالى : ﴿ ربنا افتح بيننا ﴾[1] أى احكم .

ويكون الفاتح بمعنى الناصر ، لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾[2]

وقد ذكر « فتاح » مرة واحدة فى الكتاب العزيز :

﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾[3] .

﴿ وسع ربنا كل شىء علمًا ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾[4] .

٢٠ ــ العليم

﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾[5]

سبحانه البالغ فى العلم ، فعلمه تعالى شامل لجميع المعلومات ، محيط بها ، سابق على وجودها ، وسبحان الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عن علمه شىء .

وسبحان من عنده « علم » الساعة ، وسبحان « عالم » غيب السموات والأرض « علام » الغيوب ، وسبحان من « علم » آدم الأسماء كلها ، وصلى الله على سيدنا محمد ، والله « أعلم » حيث يجعل رسالته . وقد ذكر « العليم » تعالى ، مائة وأربعة وخمسين مرة فى كتاب الله الكريم : « وهو عليم بالمتقين ، وهو عليم بما تفعلون ، والله بما تعملون عليم ، وهو عليم بما يصنعون ، والله عليم بما يعملون ، والله عليم بما تعملون ، والله عليم بالمفسدين ، والله عليم بالظالمين ، والله عليم بكل شىء ، والله عليم بذات الصدور ، وهو السميع العليم ، وهو العليم الحكيم ، وهو الحكيم العليم ، وهو العزيز العليم ، وهو الواسع العليم ، وهو العليم الخبير ، وهو العليم القدير ، وهو الفتاح العليم ، وهو العليم الحليم ، وهو سبحانه شاكر عليم » .

وحين أكتب « العليم » تعالى ، أذكر « الرحيم » سبحانه : ﴿ ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً ﴾[6] .

٢١ ــ القابض

﴿ والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾[7] .

---

(١) الأعراف الآية : ٨٩

(٢) الأنفال الآية : ١٩

(٣) سبأ الآية : ٢٦

(٤) الأعراف الآية : ٨٩

(٥) يوسف الآية : ٧٦

(٦) غافر الآية : ٧

(٧) البقرة الآية : ٢٤٥

٢٢ ـ الباسط

﴿بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾[١].

سبحان القابض الباسط ، والقبض عكس البسط ، والبسط من التوسعة ، ويجوز أن يكون معنى القبض الأخذ.

وقيل فى معنى القابض : المخرج للأرواح من الأشباح عند الموت . وقيل غير ذلك .

والقبض يكون معه الخوف .

سبحان موسع الرزق لمن يشاء من عباده . وسبحان مبسط النفوس بالسرور والفرح .

وقيل : هو الذى ينشر الأرواح فى الأجساد عند الحياة ، ويبسطها فى الأشباح عند البعث لعرض الأعمال .

والبسط يكون معه الإرجاء والرجاء والطمع .

وفى اللغة يُقال : بسط بمعنى : نشر ، والبسطة معناها : السعة . والبسيط ، الواسع ، ويقال بسط فى العلوم أو فى الآفاق ، توسع فيها وجال فى مناحيها .

والباسط صفة من صفات الله . لأنه يبسط الرزق لمن يشاء ، أى يوسعه ، ولكنها لم ترد نصاً فى القرآن . بل وردت صورة الفعل فى سورة الرعد .

﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء﴾[٢].

٢٣ ـ الخافض

٢٤ ـ الرافع

﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾[٣].

سبحان الذى يخفض الكفار بالاشقاء ، ويرفع المؤمنين بالاسعاد ، وسبحان من يرفع أولياءه بالتقريب ، ويخفض أعداءه بالإبعاد . وسبحان مالك يوم الدين .

وسبحان رب الواقعة الخافضة الرافعة ، أى خافضة قوم إلى النار ، ورافعة آخرين إلى الجنة .

وسبحان من بيده الميزان ، يخفض ويرفع .

﴿إذا وقعت الوقعة﴾

﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾

﴿خافضة رافعة﴾[٤].

---

(١) المائدة الآية : ٦٤

(٢) الرعد الآية : ٢٦

(٣) الرحمن الآية : ٧

(٤) الواقعة الآيات : ١ ـ ٣

٢٥ ـ المعز

٢٦ ـ المذل

﴿ وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾[١].

سبحان من أعز الطائعين بطاعته.

وسبحان من أعز أولياءه بعصمته، ثم غفر لهم برحمته، ثم نقلهم إلى دار كرامته، ثم أكرمهم برؤيته ومشاهدته.

وسبحان الذى يجعل من يشاء ذا مال وذا إعزاز دنيوى، بحيث يصير مرغوباً فيه قليل المثال.

وسبحان من أذل العاصين بمعصيته.

وسبحان من أذل أعداءه بحرمان معرفته، وركوب محارمه، ثم نقلهم إلى دار عقوبته، وقابلهم بطرده ولعنته.

وسبحان الذى يذل من شاء ذا وصف فى الدنيا حسنه يرغب عنه، ويسقط من درجة الاعتبار.

فمن أطاع الله واجتنب معاصيه، أعزه الله إذ ما من طاعة، إلا والعز معها، وما من معصية، إلا والذل معها. أفتعصيه ويعزك؟ كلا. فقد ربط ـ سبحانه ـ العز بالطاعة، فهى طاعة ونور وكشف حجاب، وربط ـ تعالى ـ الذل بالمعصية، فهى معصية وذل وظلمة وحجاب بينك وبينه تعالى.

٢٧ ـ السميع

﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[٢].

سبحان الذى يسمع دعوات عباده وتضرعاتهم، ولا يشغله نداء عن نداء، ولا تمنعه اجابة دعاء شخص، عن اجابة دعاء آخر، وسبحان من يجيب المضطر إذا دعاه، وسبحان من يكشف السوء، وسبحان غافر الذنب عند الاستغفار، وقابل التوب عند الانابة، وقابل الأعذار عند العثرات، وسبحان من يعلم ما تخفى الصدور، ويسمع كل نجوى، ولا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وسبحان

---

(١) آل عمران الآية: ٢٦

(٢) الشورى الآية: ١١

الله السميع البصير ، المجيب الرقيب ، فيكون السماع بمعنى السمع أى الاجابة ، كقوله ﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك من دعاء لا يسمع »(١) أى من دعاء لا يستجاب .

وقد يكون السماع بمعنى القبول كقولنا : سمع الله لمن حمده ، أى قبل الله حمد من حمده . كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الأربع : من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يسمع »(٢) .

وقد ذكر « السميع » تعالى خمسًا وأربعين مرة فى الكتاب العربى المبين ، فهو السميع العليم ، وهو السميع البصير ، وهو سميع الدعاء ، وهو سميع قريب .

٢٨ - البصـــير

﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾(٣) .

سبحان الذى يدرك ويبصر خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وسبحان العالم بخفيات الأمور .

ومتى علمنا أن الله بصير ، وجب علينا أن نعبده كأننا نراه ، فإن لم نكن نراه ، فإن الله يرى ، فينبغى لنا ألا يرانا حيث نهانا ، إشفاقًا من قوله ﷺ : « من لم يكن له ورع يحجزه عن محارم الله تعالى لم يعبأ الله تعالى بشىء من عمله »(٤) . وقيل فى هذا المعنى : « إذا أردت أن تعصى الله فاعصه فى موضع لا يراك فيه » . ويكفى أن نعلم أن الله بصير بكل شىء نعمله .

وقد ذكر « البصير » سبحانه ، واحداً وأربعين مرة فى كتاب الله العزيز وهو : « السميع البصير ، وهو الخبير البصير ، وهو بصير بالعباد ، وهو بما تعملون بصير ، وهو بصير بما تعملون » .

﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض ، والله بصير بما تعملون ﴾(٥) .

٢٩ ـ الحكـــم

﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴾(٦) .

الحكم بفتحتين ومعناه : الحاكم الذى لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه . وقيل فى معنى الحكم : هو الذى حكم على القلوب بالرضا ، وعلى النفوس بالإنقياد والطاعة . وقيل فى معناه : هو الذى يفصل بين الحق والباطل ، والبار والفاجر ، ويجزى لكل نفس ما عملت من خير وشر .

(١) اخرجه ابن ماجة فى سننه جـ ٢ ص ١٢٦١ رقم ٣٨٣٧ .

(٢) اخرجه ابن ماجة فى سننه جـ٢ ص ١٢٦١ . كتاب الدعاء . باب دعاء رسول الله رقم ٣٨٣٧ . وانظر كنز العمال رقم ٣٧٧٩ . والحاكم جـ ١ ص ١٠٤ .

(٣) الأنعام الآية : ١٠٣ .

(٤) اخرجه ابن عساكر جـ ٢ ص ٦٥ عن أنس بلفظ : « الورع سيد العمل من لم يكن له ورع يرده عن معصية الله إذا خلابها لم يعبأ الله بسائر عمله شيئاً » .

(٥) الحجرات الآية : ١٨ .

(٦) الرعد الآية : ٤١

وسبحان القائل في كتابه الكريم : ﴿ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾[١].
وقد ذكر الحكم مرة واحدة في الذكر الحكيم : ﴿ أفغير الله أبتغي حكمًا وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾[٢] .

٣٠ ـ العـدل

﴿ وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً . لا مبدل لكلماته ﴾[٣] .

سبحان الله الحكم العدل ، والعدل هو في اللغة مصدر أقيم مقام الاسم للزيادة ، أي البالغ في العدل ، أي الذي لا يظلم أحداً .

والعدل مأخوذ من الاعتدال ، وهو الاستواء ، ويقع صفة للحكم والحاكم معاً . فيقال حاكم عدل وحكم عدل .

وسبحان الكريم العفو ذي العدل ، الذي قد ملأ كل شيء عدله . ثم لنتدبر هذه الآية الكريمة من سورة النحل : ﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾[٤] .

٣١ ـ اللطيـف

﴿ إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾[٥] .

سبحان من يعلم بخفيات الأمور ، ودقائق الأشياء ، وغوامضها ، وما رق منها وما لطف ، وهو المدرك العبير بذات الصدور ، ذلك بأنه تعالى هو خالق كل شيء .

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[٦] .

وقيل في معاني اللطيف : هو الذي يريد بعباده الخير واليسر ، ويقيض لهم أسباب الصلاح والبر .
وقيل عن اللطيف ، هو البر بعباده الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون ، كقوله تعالى : ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء ﴾[٧] .

وقد ذكر اللطيف سبع مرات في الكتاب العربي المبين .

(١) الأعراف الآية : ٨٧
(٢) الأنعام الآية : ١١٤
(٣) الأنعام الآية : ١١٥
(٤) النحل الآية : ٧٦
(٥) يوسف الآية : ١٠٠
(٦) الملك الآية : ١٤
(٧) الشورى الآية : ١٩

٣٢ ـ الخبير

﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾(١).

الخبير من الخبرة ، وهى العلم بالخبايا الباطنة ، علم اليقين ، ولا يعزب عنه شىء ، فلا يجرى فى الملك والملكوت شىء ، ولا تتحرك ذرة ، ولا تطمئن نفس ولا تضطرب إلا ويكون علمها عند ربى .

وقد ذكر « الخبير » تعالى خمسًا وأربعين مرة فى الكتاب الكريم : فهو الحكيم الخبير ، وهو الخبير البصير ، وهو اللطيف الخبير ، وهو العليم الخبير ، وهو بما تعملون خبير ، وهو خبير بما تعملون ، وهو خبير بما تفعلون وهو خبير بما يصنعون .

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾(٢) .

٣٣ ـ الحليم

﴿ والله غنى حليم ﴾(٣) . ﴿ والله غفور حليم ﴾(٤) .

سبحان الحليم ذى الصفح والأناة ، الذى لا يحبس أنعامه وأفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم ، ولكنه يرزق العاصى كما يرزق المطيع ، ذلك بأنه تعالى هو الصفوح مع القدرة ، المتأنى الذى لا يعجل بالعقوبة .

﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾(٥) .

وكيف يعجل من لا يخاف الفوت . قال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان ﴾(٦) .

وإليكم هذا الدعاء عن رسول الله ﷺ : « لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين »(٧) . وسبحان الله الحليم ، الذى يمهل العاصى ، فإن تاب قبل توبته ، وإن أصر أخر العقاب عنه ، لعلمه تعالى أنه لا يخرج من ملكه .

وهذا دعاء للإنابة : « يا من عصمت المعصومين وحفظت المحفوظين ويا من أصلحت الصالحين ، إن عصمتنى ، تجدنى معصوماً ، وإن أهملتنى تجدنى مخذولاً ، ناصيتى بيدك يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك .

(١) فاطر الآية : ١٤
(٢) الملك الآية : ١٤
(٣) البقرة الآية : ٢٦٣
(٤) البقرة الآية : ٢٢٥
(٥) النحل الآية : ٦١
(٦) الرحمن الآية : ٣٣
(٧) اخرجه صحيح مسلم فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب دعاء الكرب جـ ٤ ص ٢٠٩٢ ـ ٢٠٩٣ رقم ٨٣ / ٢٧٣٠ .

وقد ذكر الحليم سبحانه أحدى عشرة مرة فى الكتاب العربى الكريم : فهو غفور حليم ، وهو حليم غفور ، وهو عليم حليم ، وهو غنى حليم ، وهو تعالى ، شكور حليم .

٣٤ ـ العظيم

﴿ وهو العلى العظيم ﴾[١] .

العظيم صيغة مبالغة من العظم . والعظم هو الفخامة والعز والمجد والكبرياء . وسبحان الله العظيم المستحق لصفات العلوّ والمجد ورفعة القدر ، وسبحان من ليس لعظمته بداية ، ولا لكنه جلاله نهاية وسبحان العظيم الذى لا تهتدى العقول لوصف عظمته ، ولا يحيط بكنهه بصيرة ، وسبحان العظيم بوجوب وجوده ، وسبحان العظيم ذى القوة المتين ، وهو القادر الذى لا يعجزه شىء ، فهو سبحان الله العظيم بتنزهه عن صفات خلقه ، ذو الثناء الفاخر ، كان النبى ﷺ يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش الكريم »[٢] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من دخل على مريض لم يحضره أجله فقال : « أسأل الله العظيم ، رب العرش العظيم أن يشفيك سبع مرات شفى بإذن الله »[٣] ، ولله المثل الأعلى ، وإليكم هذه البشرى للمؤمنين من محمد رسول الله . قوله ﷺ : « من تعلم وعلّم وعمل فذلك يدعى فى ملكوت السماء عظيماً »[٤] . وقد ذكر العظيم تعالى ، ست مرات فى القرآن الكريم : مرة فى سورة البقرة فى نهاية آية الكرسى ، وهى الآية ٢٥٥ ، ومرة فى الآية الرابعة من سورة الشورى ، ومرتين فى الآيتين ٧٤ ـ ٩٦ من سورة الواقعة ومرتين فى الآيتين : ٣٣ ، ٥٢ من سورة الحاقة . ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

٣٥ ـ الغفـور

﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾[٥] .

سبحان ربى الغفور ، كثير المغفرة والستر . قال تعالى : ﴿ أنى أنا الغفور الرحيم ﴾[٦] .

وسبحان ربى الغفور الغفار ، وقيل فى معنى الغفور : هو كثير الغفر من جهة الكيفية ، فيغفر الذنوب العظام ، وقيل فى معنى الغفار : هو كثير العفو من جهة الكمية ، فيغفر للذنوب الكثيرة .

---

(١) الشورى الآية : ٤

(٢) اخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ٢٠٩٢ ، ٢٠٩٣ ، كتاب الذكر والدعاء باب دعاء الكرب . رقم٨٣ / ٢٧٣٠ .

(٣) اخرجه الطبرانى فى الصغير جـ ١ ص ٢١ . انظر كنز العمال جـ ١ ص ١٠١ رقم ٢٥١٩٧

(٤) انظر اتحاف السادة المتقين جـ ١ ص ١٠٦ . وكنز العمال جـ ١٠ ص ١٦٤ رقم ٢٨٨٥٠

(٥) آل عمران آية : ١٣٥

(٦) الحجر آية : ٤٩

عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قال لرسول الله ﷺ : « علمني دعاء أدعو به في صلاتي » . قال : قل : « اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم »[1] . رواه البخاري .

كما روى البخاري هذا الدعاء أو « سيد الاستغفار » كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »[2] . وقد ذكر (الغفور تعالى) واحداً وتسعين مرة في كتاب الله الكريم ، وهو الغفور الرحيم ، وهو الرحيم الغفور ، وهو الغفور الحليم ، وهو حليم غفور وهو العزيز الغفور ، وهو الغفور الودود ، وهو الغفور الشكور .

٣٦ ــ الشكور

﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾[3] ..

سبحان كثير الثناء ، الذي يجازي يسير الطاعات كثير الدرجات ، وسبحان الذي يعطي العمل في أيام معدودة ، نعيماً في الآخرة غير محدود .

وقد ذكر الشكور تعالى أربع مرات في القرآن المجيد :

١ ــ ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، إنه غفور شكور ﴾[4] .

٢ ــ ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، إن ربنا لغفور شكور ﴾[5] .

٣ ــ ﴿ ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ، إن الله غفور شكور ﴾[6] .

٤ ــ ﴿ والله شكور حليم ﴾[7] .

٣٧ ــ العلـي

﴿ فالحكم لله العلي الكبير ﴾[8] .

سبحان العالي علو الجلال والكمال . قال الحليمي في معنى العلي : « إنه الذي ليس فوقه فيما يجب له من معالي الجلال أحد ، ولا معه من يكون العلو مشتركاً بينه وبينه ، لكنه العلي بالاطلاق » .

عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح دعاء قط إلا استفتح « بسبحان ربي الأعلى العلي الوهاب »[9] . وجاء في كتاب الأسماء والصفات ، أن رسول

(١) أخرجه البخاري جـ ١ ص ٢١١ . كتاب الصلاة . باب الدعاء قبل السلام (٦) الشورى آية : ٢٣
(٢) أخرجه البخاري جـ ٨ ص ٨٣ . كتاب الدعوات باب أفضل الاستغفار (٧) التغابن آية : ١٧ (٨) غافر آية : ١٢
(٣) فاطر آية : ٣٤ (٤) فاطر آية : ٣٠ (٥) فاطر آية : ٣٤ (٩) أخرجه الإمام أحمد في مسنده جـ ٤ ص ٥٤

الله ﷺ ليلة أسرى به ، سمع تسبيحاً في السموات العُلى : « سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى » .

وقد ذكر العلي سبحانه ثماني مرات في القرآن العظيم في الآيات : ٢٥٥ البقرة ، ٦٢ الحج ، ٣٠ لقمان ، ٢٣ سبأ ، ١٢ غافر ، ٤ الشورى ، ٥١ الشورى ، ٣٤ النساء .

وهو العلي العظيم ، وهو العلي الكبير ، وأنه علي حكيم

٣٨ ــ الكبير

﴿ الكبير الذي لا تهتدي العقول لوصف عظمته ﴾

سبحان الكبير الذي فاق مدح المادحين ، ذلك بأن الله أكبر من مشاهدة الحواس وإدراك العقول ، ومن كل شيء .

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ : كان يعلمهم دعاء رُقية من الأوجاع كلها ومن الحمى : « بسم الله الكبير ، نعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار ومن شر حر النار »[1] .

وذكر الكبير تعالى ، خمس مرات في القرآن العظيم :

١ ــ ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾[2]

٢ ــ ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾[3]

٣ ــ ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾[4]

٤ ــ ﴿ قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلي الكبير ﴾[5]

٥ ــ فالحكم لله العلي الكبير ﴾[6]

٣٩ ــ الحفيظ

﴿ إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾[7]

سبحان الحفيظ ، وهو حافظ ، والحفيظ معناه : صون الشيء من الزوال . فسبحان الذي يحفظ السموات والأرض وما فيهما ، لتبقى مدة بقائهما ، فلا تزولا ولا تختلا .

قال الله عز وجل : ﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾[8] وقال جل وعلا : ﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾[9] أي حفظناها حفظاً ، وهو الذي يحفظ عباده من المهالك ويقيهم مصارع الشر .

(١) أخرجه ابن ماجة جـ ٢ ص ١١٦٥ كتاب الطب ، باب ما يعوذ به من الحمى ، رقم ٣٥٢٦ ، انظر سنن الترمذي جـ ٣ ص ٢٧٣ كتاب الطب ، باب ما جاء في تربة الحمى ... ، رقم ٢١٥٧ .

(٢) الرعد آية : ٩ — (٥) سبأ آية : ٢٣ — (٨) البقرة آية : ٢٥٥

(٣) الحج آية : ٦٢ — (٦) غافر آية : ١٢ — (٩) الصافات آية : ٧

(٤) لقمان آية : ٣٠ — (٧) هود آية : ٥٧

قال الله عز وجل : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾[١] أى بأمره .

وسبحان الذى يحفظ على الخلق أعمالهم ، ويحصى عليهم أقوالهم ، ويعلم نياتهم وما تكن صدورهم ، فلا تغيب عنه غائبة ، ولا تخفى عليه خافية ، وسبحان الذى يحفظ أولياءه ، فيعصمهم عن مواقعة الذنوب ، ويحرسهم من مكائد الشيطان ، ليسلموا من شره وفتنته .

وقد ذكر « الحفيظ » تعالى ثلاث مرات فى القرآن الحكيم :

١ ــ ﴿ إن ربى على كل شئ حفيظ ﴾[٢]

٢ ــ ﴿ وربك على كل شىء حفيظ ﴾[٣]

٣ ــ ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ﴾[٤]

٤٠ ــ المقيــت

﴿ وكان الله على كل شىء مقيتاً ﴾[٥]

سبحان الذى يعطى الأقوات ، وقيل فى معنى المقيت : أى خالق الأقوات البدنية والروحية وموصلها إلى الأشباح والأرواح .

وصلى الله على سيدنا محمد الذى جعل من القوت ذكر الحى الذى لا يموت قال عليه الصلاة والسلام : « أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى »[٦] .

وقال الأزهرى أن « المقيت » هو « المقتدر » بلغة قريش فيكون قوله تعالى : ﴿ وكان الله على كل شىء مقيتاً ﴾[٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وكان الله على كل شىء مقتدراً ﴾[٨] أى مطلقاً قادراً

وقد ذكر « المقيت » تعالى مرة واحدة فى القرآن العزيز : ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شىء مقيتًا ﴾[٩]

---

(١) الرعد آية : ١١

(٢) هود آية : ٥٧

(٣) سبأ آية : ٢١

(٤) الشورى آية : ٦

(٥) النساء آية : ٨٥

(٦) أخرجه مسلم جـ ٢ ص ٧٧٤ ، كتاب الصوم ، باب النهى عن الوصال فى الصوم رقم ٥٧ / ١١٠٣

(٧) النساء آية : ٨٥

(٨) الكهف آية : ٤٥

(٩) النساء آية : ٨٥

٤١ ـ الحسيب

﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾[١]

سبحانه الكافى ، ويجوز أن يكون الحسيب من الحسب ، الذى هو الاكتفاء فيكون معناه الكافى سبحانه . ولنتدبر الآيتين : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ﴾[٢]

﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾[٣]

ويجوز أن يكون الحسيب من الحساب ، فيكون معناه المحاسب . ولنتعلم هذه الآيات :

١ ـ ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٤]

٢ ـ ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾[٥]

٣ ـ ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾[٦]

كما ورد عن سيدنا عمر : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا »[٧]

وقد ذكر الحسيب سبحانه ثلاث مرات فى القرآن العظيم :

١ ـ ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾[٨]

٢ ـ ﴿ إن الله كان على كل شىء حسيباً ﴾[٩]

٣ ـ ﴿ ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ﴾[١٠]

٤٢ ـ الجليل

﴿ تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام ﴾

سبحان الجامع لجميع صفات الجلال ، ذو الجلال والاكرام ، وسبحان الذى جلّ قدره فى قلوب العارفين .

« والجليل » اسم من الجلال والعظمة ، ومعناه منصرف إلى جلال القدر وعظم الشأن ، ومعناه المستحق للأمر والنهى ، ومن حق البارىء جل ثناؤه على من أبدعه أن يكون أمره عليه نافذاً ، وطاعته له لازمة ، وهو الذى يصغر دونه كل جليل ، ويتضع معه كل رفيع .

وفى اللغة : ج ل ل ، و « جلال » الله عظمته ، ويقال فعلته من « جلالك » أى من أجلك ، وجلّ (يجلّ) بالكسر (جلاله) أى عظم قدره ، فهو (جليل) و (أجلّه) فى المرتبة .

من ذلك نرى أن الجليل بحق هو الله ، ويجوز أن ندعوه تعالى بهذا الاسم .

---

(١) آل عمران آية : ١٧٣
(٢) الأنفال آية : ٦٢
(٣) الطلاق آية : ٣
(٤) الأنبياء آية : ٤٧
(٥) الأنعام آية : ٦٢
(٦) الانشقاق آية : ٨
(٧) أخرجه ابن كثير جـ ٤ ص ٤١٢ . سورة الحاقة آية ١٢
(٨) النساء آية : ٦
(٩) النساء آية : ٩
(١٠) الأحزاب آية : ٤٠

٤٣ ـ الكريم

﴿ إن ربي غني كريم ﴾[1] .

هو أحكم الحاكمين الغني الأكرم ، الذي يعطي ما يشاء ، لمن يشاء وكيف يشاء ، بغير سؤال ، وإذا سئل أعطى .

قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم عز وجل حيٌّ كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردها صفراً » .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز اسمه ، كريم يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفسافها » .

قال أهل اللغة في معنى الكريم : أنه النَّفَّاع . نسأله ، تعالى أن ينفحنا نفحة خير ، إنه على كل شيء قدير .

ويقال : أكرمه الله . وكرمه الله ، وأكرم نفسه بالتقوى ، وأكرمها عن المعاصي ، وهو يتكرم عن الشوائن ، وإن أجل التكاريم اجتناب المحارم .

ويقال : هو كريمة قومه . وفي الحديث : « إذا أتاكم كريمة قوم فأكرموه »[4] . وقد يتحمل المسلم بهذه الصفة ، ويوصف بالسخاء .

قال رسول الله ﷺ : « لا تقولوا لشجرة العنب الكرم ، فإن الكرم هو الرجل المسلم »[1] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « السخي قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد عن النار . والبخيل بعيد عن الله ، بعيد عن الناس ، بعيد عن الجنة ، قريب من النار »[5] .

قال الغني الكريم :

﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾[6] .

وإليكم هذا الوعد الكريم من الله :

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ﴾[7] .

---

(١) النمل آية : ٤٠

(٢) أخرجه أبو داود في سننه جـ ٢ ص ١٦٥ . كتاب الصلاة باب الدعاء . رقم ١٤٨٨ . والترمذي في الدعوات . باب كرم الله تعالى .

(٤) أخرجه ابن ماجة في سننه . جـ ٢ ص ١٢٢٣ . كتاب الأدب باب إذا أتاكم كريم قوم . رقم ٣٧١٢ .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه جـ ٥ ص ٢٥٥ . كتاب الأدب . باب في الكرم وحفظ المنطق . رقم ٤٩٧٤ . ومسلم في فضائل علي بن أبي طالب حديث رقم ٢٤٠٨ .

انظر البخاري جـ ٨ ص ٥١ ، ٥٢ . كتاب الأدب . باب . قول النبي « إنما الكرم قلب المؤمن » .

(٥) أخرجه الترمذي في سننه جـ ٣ ص ٣٣٠ . أبواب البر والصلة . باب ٤٠ (ما جاء في السخاء) رقم ٢٠٢٧ .

(٦) الأنعام آية : ١٦٠

(٧) البقرة آية : ٢٦١

تلك هي الحدود الدنيا من الأجور الكريمة، ولكن باب الله مفتوح، ومع الإخلاص لله تضاعف الأجور أضعافاً كثيرة:

﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[1].

﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾[2].

فأي حساب هذا، وأي أجر عظيم، إلا أن يكون من لدن الكريم الحق، بل إنا لنطمع من كريم العفو، ما هو أكثر من ذلك، والحمد لله كثيراً على هذا الوعد الكريم، وعد الله:

﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[3] بالفرقان وقد ثبت عن النبي ﷺ في الأخبار عن كرم عفو الله تعالى ما هو أبلغ من ذلك. قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها رجل يؤتى فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فيعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا أو عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا. فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه. قال. فيقال: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، قال: فيقول: رب، قد عملت أشياء ما أراها ها هنا، قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه»[4] رواه مسلم في الصحيح.

وقد ذكر الكريم المطلق الذي لا يضيع من لاذبه والتجأ إليه، مرتين في القرآن الكريم:

١ – ﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾[5]

٢ – ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾[6].

وأي شيء خدعك وجرأك على عصيانه، سبحانه.

قال رسول الله ﷺ: «غره جهله» وقيل: غره حمقه، وقيل: غره شيطانه. ونقول: غرنا ستورك المرخاة، وإنا لنغتر في كرم الكريم، وعفو الرحيم، ونعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم. وسبحان الله الكريم الأكرم، كريم العفو وهو أكرم الأكرمين.

---

(١) الزمر آية: ١٠

(٢) غافر آية: ٤٠

(٣) الفرقان آية: ٧٠

(٤) أخرجه مسلم جـ ١ ص ١٧٧، كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة. رقم ٣١٤ / ١٩٠.

(٥) النمل آية: ٤٠

(٦) الانفطار آية: ٦

٤٤ ـ الرقيب

﴿ إن الله كان عليكم رقيباً ﴾(١).

سبحان الرقيب القريب ، الذى لا يخفى عليه شىء من أفعال العباد ، قال تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾(٢).

وقد ذكر الرقيب سبحانه وتعالى ، ثلاث مرات فى الكتاب العزيز الحكيم :

١ ـ ﴿ فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ﴾(٣).

٢ ـ ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً ﴾(٤).

٣ ـ ﴿ وكان الله على كل شىء رقيباً ﴾(٥).

٤٥ ـ المجيب

﴿ إن ربى قريب مجيب ﴾(٦).

سبحان ربى القريب المجيب ، الذى يجيب دعوة الداع إذا دعاه ، ويسأله تعالى أن نستجيب له بطاعته ، سبحانه ، وطاعة رسوله ﷺ .

قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾(٧).

﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ﴾(٨)

﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ﴾(٩)

وقد ذكر « المجيب » تعالى فى الآية التالية :

﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب ﴾(١٠)

ثم لنقرأ خمس كلمات من النور :

﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ﴾(١١).

---

(١) النساء آية : ١
(٢) ق آية : ١٦
(٣) المائدة آية : ١١٧
(٤) النساء آية : ١
(٥) الأحزاب آية : ٥٢
(٦) هود آية : ٦١
(٧) الأنفال آية : ٢٤
(٨) الشورى آية : ٢٦
(٩) الرعد آية : ١٨
(١٠) هود آية : ٦١
(١١) الصافات آية : ٧٥

٤٦ ــ الواســع

﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾[١] .

سبحان الواسع الرحمة . قال تعالى :

﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾[٢] .

وسبحان الواسع العلم ، المحيط علمه بكل شيء :

وقد ذكر الواسع العليم سبع مرات فى القرآن العظيم :

١ ــ ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم ﴾[٣] .

٢ ــ ﴿ والله يؤتى ملكه من يشاء ، والله واسع عليم ﴾[٤] .

٣ ــ ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم ﴾[٥] .

٤ ــ ﴿ والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً . والله واسع عليم ﴾[٦] .

٥ ــ ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم ﴾[٧] .

٦ ــ ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم ﴾[٨] .

٧ ــ ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم ﴾[٩] .

وسبحان الواسع المغفرة . قال تعالى :

﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ، إن ربك واسع المغفرة ، هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى ﴾[١٠]

وسبحان الواسع الحكيم . قال تعالى :

﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته ، وكان الله واسعاً حكيماً ﴾[١١] .

وقد ذكر الواسع سبحانه وتعالى ، تسع مرات فى الكتاب الحكيم .

---

(١) غافر آية : ٧
(٢) الأعراف آية : ١٥٦
(٣) البقرة آية : ١١٥
(٤) البقرة آية : ٢٤٧
(٥) البقرة آية : ٢٦١
(٦) البقرة آية : ٢٦٨
(٧) آل عمران آية : ٧٣
(٨) المائدة آية : ٥٤
(٩) النور آية : ٣٢
(١٠) النجم آية : ٣٢
(١١) النساء آية : ١٣٠

٤٧ ــ الحكيم

﴿يؤتى الحكمة من يشاء﴾[١] .

سبحان المحسن فى التدبير ، الذى أصاب كل شىء قدره ، وسبحان الحكيم ذو الحكمة البالغة ، وكال العلم وإحسان العمل ، وقيل إن الحكمة هى العلم مع العمل والعدل ، وقيل إن الحكمة مجموعة معان من العدل والتنظيم والتقويم والعلم .

« والحكيم » صيغة تنطق لذى الحكمة ، فيكون معنى الحكيم ، العظيم فى حكمته .

وقد ذكر « الحكيم » سبحانه ، واحداً وتسعين مرة فى مجموع سور القرآن الكريم ، فهو العزيز الحكيم ، وهو العليم الحكيم ، وهو الحكيم العليم ، وهو حكيم خبير ، وهو التواب الحكيم ، وهو الغنى الحكيم ، وهو الواسع الحكيم .

﴿ وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم ﴾[٢] .

٤٨ ــ الودود

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدا ﴾[٣] .

الودود من الود وهو الحب ، وسبحان المحب للمؤمنين ، وهو المحبوب لهم ، ومحبة الله لعباده رحمته إياهم ، ومحبة المؤمنين لله تعالى طاعته ، وطاعة لله رحمة من الله ، والله نور السموات والأرض ، فمن أصابه من ذلك النور ، فقد سبق له من الله هدى ، وما أحب المؤمن لله ! وما أحبه لله !

وقيل فى معنى الودود ، أن عباده الصالحين يودونه ويحبونه ، لما عرفوا من كماله فى ذاته وصفاته وغفرانه تعالى .

وكلتا الصفتين مدح ، لأنه جلّ ذكره ، إذا أحب عباده المطيعين ، فهو فضل منه ، وإذا أحبه عباده العارفون ، فلما تقرر عندهم من كريم إحسانه .

وهنا مكان هذا الدعاء الجميل : « يا ودود ، يا ذا العرش المجيد يامبدىء يامعيد ، يا فعال لما يريد ، أسألك بنور وجهك ، الذى ملأ أركان عرشك ، وبقدرتك ، ، التى قدرت بها على جميع خلقك ، وبرحمتك التى وسعت كل شىء ، لا إله إلا أنت ، يا مغيث المغثى » .

وقد ذكر الودود سبحانه ، مرتين فى القرآن الكريم :

١ ــ ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود ﴾[٤] .

٢ ــ ﴿ وهو الغفور الودود ﴾[٥] .

(١) البقرة آية : ٢٦٩
(٢) آل عمران آية : ٦٢
(٣) مريم آية : ٩٦
(٤) هود آية ٩٠
(٥) البروج آية ١٤

٤٩ ـ المجيد

﴿ إنه حميد مجيد ﴾(١) .

سبحان المجيد ، ذو الشرف التام الكامل ، المفيض على العباد بالجود والعطاء ، والمجد هو الشرف العظيم الرفيع القدر ، والمجيد في اللغة : هو الذي عظم كرمه .

وقيل في معنى « المجيد » : سبحانه ، هو الشريف ذاته ، الجميل أفعاله ، الجزيل عطاؤه ، وقيل : البالغ المنتهى في الكرم .

وقد ذكر « المجيد » تعالى مرة واحدة في القرآن المجيد ﴿ ... رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾(٢) .

٥٠ - الباعث

﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾(٣) .

سبحان الله ، باعث النبيين ، مبشرين ومنذرين ، والحمد لله الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ، محمد رسول الله خير مبعوث .

وسبحان باعث الموتى . قال تعالى : ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾(٤) ويجوز أن يكون معنى الباعث ، مثير السواكن ، وسبحان باعث الهمم ، وباعث ما في عالم الغيب .

جاء في سنن ابن ماجة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه ، وضع يده اليمنى تحت خده الأيمن ثم قال : « اللهم قني عذابك يوم تبعث أو تجمع عبادك »(٥) .

وكان رسول الله يقول عند الاستيقاظ : « الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور »(٦) .

وهذا الاسم العظيم « الباعث » غير وارد بصيغة الاسم في القرآن الكريم . ثم نقرأ هذه الآية الكريمة :

﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾(٧) .

---

(١) هود آية : ٧٣
(٢) هود آية : ٧٣
(٣) آل عمران : ١٦٤
(٤) الحج آية : ٧
(٥) أخرجه ابن ماجه جـ ٢ ص ١٢٧٦ كتاب الدعاء ، باب ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه رقم ٣٨٧٧
(٦) أخرجه البخاري جـ ٨ ص ٨٥ كتاب الدعوات ، باب وضع اليد اليمنى تحت الخد الأيمن
(٧) الإسراء آية : ٧٩

٥١ ـ الشهيد

﴿ قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ﴾[١]

سبحان الشهيد العليم بظواهر الأشياء ، وسبحان الخبير العليم ببواطن الأشياء ، وقيل الشهيد مبالغة في الشاهد ، والشهادة ترجع إلى العلم مع الحضور .

وسبحان الذي كرم الإنسان بنعمة المشاهدة ، فرأى من آيات الله ما أنعم القلوب بالشهادة ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم .

قال تعالى :

﴿ قل أي شيء أكبر شهادة . قل الله . شهيد بيني وبينكم ، وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى . قل لا أشهد . قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون ﴾[٢] .

وقد ذكر « الشهيد » سبحانه تسعة عشر مرة في القرآن العظيم ، والله شهيد على ما تعملون ، والله على كل شيء شهيد ، وأنه على كل شيء شهيد ، وكفى بالله شهيداً .

٥٢ ـ الحق

﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[٣]

سبحان الموجود اليقين الثابت ، والله ـ سبحانه ـ هو الحق ، ومنه الحق ، وإليه يرجع كل حق ، وصفات الله سبحانه حق ، والعدل حق ، والصدق حق ، يقال : أحق الله الحق ، أي أثبته وأظهره .

﴿ ويحق الله الحق بكلماته ﴾[٤] .

قال رسول الله ﷺ : أصدق كلمة قالها شاعر كبير : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل »[٥] .

وكان النبي ﷺ إذ تهجد من الليل يدعو : « اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض وما فيهن ولك الحمد ، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك

---

(١) الإسراء آية : ٩٦
(٢) الأنعام آية : ١٩
(٣) النور آية : ٢٥
(٤) يونس آية : ٨٢
(٥) أخرجه البخاري في باب أيام الجاهلية جـ ٥ ص ٥٣ فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة

توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى لا إله إلا أنتَ »[1] رواه البخارى فى الصحيح .

وقد ذكر « حق » تعالى ست مرات فى القرآن الحكيم فى الآيات : ٦٢ : الأنعام ، ٣٢ : يونس ، ٤ : الكهف ، ٤٤ : الحج ، ١١٦ : المؤمنون ، ٢٥ : النور .

هذا وقد كانت كلمة الحق ، قد ذكرت مئات المرات فى القرآن المجيد ٢٢٧ مرة ، ثم نقرأ الآية : ﴿ فذلكم الله ربكم الحق . فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون ﴾[2] . هدانا الله إلى حق ، ونسأل الله أن نتبع الحق لوجه الحق وحده .

٥٣ ــ الوكيــــل

﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾[3]

سبحانه الوكيل الكافى لمن توكل عليه ، القائم بأمور العباد ، وهو الذى من استغنى به أغناه عما سواه ، وهو المتصرف فى الأمور على حسب إرادته ، وهو سبحانه ، الموكول إليه تدبير أمر كل شىء ، وقد ذكر « وكيل » سبحانه ، ثلاث عشرة مرة فى الكتاب الحكيم ، وهو على كل شىء وكيل ، والله على ما نقول وكيل ، وكفى بالله وكيلا وكفى بربك وكيلا ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا .

﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾[4]

﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾[5]

﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين ﴾[6] .

---

(١) أخرجه البخارى جـ ٨ ص ٩٥ ، ٨٦ كتاب الدعوات باب النوم على الشق الأيمن . ط . الشعب .

(٢) يونس آية : ٣٢

(٣) الأحزاب آية : ٣

(٤) المزمل آية : ٩

(٥) إبراهيم آية : ١٢

(٦) آل عمران آية : ١٥٩

٥٤ ـ القــوى

﴿ إن ربك هو القوى العزيز ﴾(١) .
سبحان الخلاق العليم ، ذى القوة المتين ، والقوة لله جميعاً ، ولا قوة إلا بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .
ولنقرأ هذه الآية الكريمة :
﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا : من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾(٢) .
وقد ذكر « القوى » سبحانه تسع مرات فى القرآن الكريم ، فهو تعالى قوى شديد العقاب : الآيات : ٥٢ ـ الأنفال ، ٢٢ ـ غافر .
وهو سبحانه : القوى العزيز ، الآيات : ٦٦ ـ هود ، ٤٠ الحج ، ٧٤ الحج ، ١٩ ـ الشورى ، ٢٥ ـ الحديد ، ٢١ ـ المجادلة ، ٢٥ ـ الأحزاب .
﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز ﴾(٣) .

٥٥ ـ المتين

﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾(٤) .
سبحان الله الرزاق ذى القوة المتين .
وسبحان الذى لا تتناقص قوته .
عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله تعالى : « المتين » يقول : « الشديد » وفى اللغة يقال : هو متين القوى .
ومن المجاز يقال : رأى متين .
واسمه تعالى « المتين » يدل على شدة القوة ، والقدرة ، والله ـ سبحانه ـ متم قدره ، وبالغ أمره .
وقد ذكر « المتين » سبحانه ، مرة واحدة فى الكتاب المبين ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾(٥) .

(١) سورة هود آية : ٦٦
(٢) سورة فصلت آية : ١٥
(٣) سورة الحديد آية : ٢٥
(٤ ، ٥) سورة الذاريات آية ٥٨

٥٦ - الولى

﴿ إن وليي الله الذى نزل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين ﴾[١]

سبحان المتكفل بأمور العباد كلها ، وسبحانه الذى يتولى الصالحين من عباده ، الناصر لمن أطاعه ، وذلك بأن الله هو الذى نصر أولياءه ، وقهر أعداءه وقيل : الولىّ : هو الذى أحب أولياءه ونصرهم على أنفسهم بجتناب المعاصى ، وقيل : هو المتولى لأمر عباده مختصين بحسنه .

وفى اللغة : (ولى) الواو ، اللام ، والياء ، أصل صحيح يدل على القرب ، يقال : تباعد بعد وَلْى ، أى : تباعد بعد قرب ، ويجوز أن يكون من معانى الولى : القريب .

وقد ذكر « الولى » سبحانه ثلاث عشرة مرة فى الكتاب العزيز منها :

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾[٢] ، والله ولى المؤمنين .

قال تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء ، فالله هو الولى ﴾[٣] وقوله : ﴿ وهو الولى الحميد ﴾[٤] ، والله ولى المتقين ، ﴿ وكفى بالله ولياً ، وكفى بالله نصيراً ﴾[٥] ، وقوله تعالى : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾[٦] ، وقوله : ﴿ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾[٧] ، وقوله : ﴿ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ﴾[٨] ، وقوله : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾[٩] ، وقوله : ﴿ أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾[١٠] .

٥٧ - الحميـــد

﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾[١١]

سبحان الحميد مستوجب الحمد ، أهل الثناء بما أثنى على نفسه ، والحمد الله تعالى بجميع محامده ، والحمد لله صاحب الحمد ومستحقه ، فمن ذا الذى يستحق الحمد سواه ؟ بل له الحمد كله لا لغيره ، وهو الذى يحمد على كل حال ، وفى السراء والضراء ، ذلك بأنه سبحانه ، حكيم حميد ، وهو الذى تصل

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٩٦
(٢) سورة البقرة آية : ٢٥٧
(٣) سورة الشورى آية : ٩
(٤) سورة الشورى آية : ٢٨
(٥) سورة النساء آية : ٤٥
(٦) سورة المائدة آية : ٥٥
(٧) سورة الأعراف آية : ١٥٥
(٨) سورة سبأ آية : ٤١
(٩) سورة الأنعام آية : ١٢٧
(١٠) سورة يوسف آية : ١٠١
(١١) سورة الحج آية : ٢٤

حمد المؤمنين له - تعالى - فى أول أم الكتاب : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾[1] . فى الدنيا ، وفى الآخرة . ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾[2] .

رب أنزل أهل الجنة وأحوالها لا آخر لها .

اللهم إنا نسألك أن نحمدك ، كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك حمداً لا ينتهى .

وقيل فى معنى الحميد - سبحانه - : هو الذى يوفقك للخيرات ، ويحمدك عليها ، ويمحو عنك السيئات .

وقد ذكر الحميد - تعالى - سبع عشرة مرة فى القرآن المجيد ، وهو - سبحانه - الغنى الحميد ، وهو العزيز الحميد ، وهو حميد مجيد ، وهو حكيم حميد ، وهو الولى الحميد .

٥٨ - المحصى

﴿ وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عدداً ﴾[3] .

سبحان الذى أحصى كل شىء - علمه ، وسبحانه المحيط بكل شىء جملة وتفصيلاً ، وسبحان العالم بخفيات الأمور وخفيها ، وقيل المحصى من الإحصاء : وهو الإحاطة بحساب الأشياء ، وما شأنه التعدد ، وفى اللغة يقال : أرض محصاة ، أى كثيرة الحصى ، ويقال : هم أكثر من الحصى وحسناتك لا تحصى ، وهذا أمر لا أحصيه ، أى لا أطيقه ولا أضبطه .

وهذا الإسم الكريم ، يرد فى القرآن المبين بصيغة الإسم ، ومن شاء فليقرأ :

﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾[3] ﴿ لقد أحصاهم وعدهم عداً ﴾[4] ، ﴿ ... وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين ﴾[5] . ﴿ وكل شىء أحصيناه كتاباً ﴾[6] .

٥٩ - المبدىء

﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾[7]

سبحان الذى بدأ الخلق وابتدأه ، وأظهر جميع الخلق من العدم إلى الوجود ، وفى اللغة ، يقال : أمر بدىء ؛ أى أمر عجيب .

قال تعالى :

---

(١) سورة الفاتحة آية : ٢
(٢) سورة يونس آية : ١٠
(٣) سورة الجن آية
(٤) سورة مريم الآيات ٩٣ ، ٩٤
(٥) سورة يس آية : ١٢
(٦) سورة النبأ آية : ٩
(٧) سورة البروج آية : ١٣

﴿ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾[١] ، ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ﴾[٢] .

٦٠ - المعيد

﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾[٣] .

سبحان الذى يعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات ، ثم يعيدهم ، بعد الموت إلى الحياة . وفى اللغة يقال : فلان ما يبدىء وما يعيد ، إذا لم يكن له حيلة .

قال تعالى :

﴿ يوم نطوى السماء كطىّ السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده . وعداً علينا ، إنا كنّا فاعلين ﴾[٤]

٦١ - المحيى

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير ﴾[٥] .

سبحان خالق الحياة ومعطيها لمن شاء ، وسبحان الذى أحيا قلوب المؤمنين بنوره ، والحمد لله الذى أرسل رسوله بالحق ، ونزل الكتاب لينذر به من كان حياً ويحق القول على الكافرين .

وسبحان الذى أنزل من السماء ماء ، وجعل من الماء كل شىء حى

﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير ﴾[٦] .

﴿ أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ ﴾[٧] .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أصبحتم فقولوا : اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا ، وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير »[٨] .

---

(١) سورة النمل آية : ٦٤
(٢) سورة الروم آية : ٢٧
(٣) سورة الروم آية :
(٤) سورة الأنبياء آية : ١٠٤
(٥) سورة الحج آية : ٦
(٦) سورة الروم آية : ٥٧
(٧) سورة الأنعام آية : ٨
(٨) رواه الترمذى ق . (أبواب الدعوات) باب : ماجاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى جـ ٥ ص ١٣٤ رقم ٣٤٥١ وقال : هذا حديث حسن .
ورواه ابن ماجه فى سننه ق (كتاب الدعاء) باب : مايدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى جـ٢ ص ١٢٧٢ رقم ٣٨٦٨ .
ورواه ابن السنى رقم ٣٣ ، ٤٨ وابن حبان ٢٣٥٤ ومجمع الزوائد ١٠/١١٤ والإمام أحمد ٢٥٤١٢ .

٦٢ - المميت

﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾[١] .

سبحان الذى خلق الموت والحياة ، وسبحان الذى يخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها .

وسبحان من أحيا العارفين بالطاعات والموافقات ، وأمات المذنبين بالمخالفات ، وسبحان خالق الموت وموجهه على من يشاء من الأحياء متى شاء ، وكيف شاء ، وسبحان من أحيا القلوب بذكره ، ونعوذ بالله السميع العليم من أن نكون فى غفلة عن ذكره تعالى ﴿ وما يستوى الأحياء ولا الأموات ﴾[٢] .

كان النبى - صلى الله عليه وسلم - إذا أوى إلى فراشه يقول : « اللهم باسمك أحيا ، وباسمك أموت » ، وإذا أصبح قال : الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور »[٣] .

٦٣ - الحى

﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت ﴾[٤]

سبحان الحى الموجود الواجب الوجود ، الباقى الدائم من أزل الأزل إلى أبد الأبد ، والأزل هو دوام الوجود فى الماضى ، والأبد هو دوام الوجود فى المستقبل . وقيل أن معنى أزلية الله تعالى ، وأزلية صفاته سبحانه ، أنه موجود حيث لا زمان . وهو من أسماء الله القديم فى الأزل حيث لا موجود غيره تعالى ، والحى سبحانه هو الذى لا يموت . وهو تعالى : ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه ﴾[٥] .

(يا حى أحى قلوبنا بنور معرفتك ومحبتك فى الدنيا قبل الآخرة) جاء فى كتاب الأسماء والصفات لأبى بكر البيهقى ، صفحة ١٤ .

عن أبى أمامة الباهلى - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « اسم الله الأعظم لفى سور من القرآن ثلاث : البقرة وآل عمران وطه »[٦] .

ولنتدبر معاً لآيات الثلاث :

---

(١) سورة النجم آية ٤٤

(٢) سورة فاطر آية ٢٢

(٣) أخرجه أبو داود فى (الأدب) جـ ٥ ص ٣٠٠ رقم : ٥٠٤٩ والبخارى فى باب مايقول إذا نام جـ ٨ ص ٨٥ والترمذى فى (أبواب الدعوات) جـ ٥ ص ١٤٦ رقم : ٣٤٧٧ ، رواه ابن ماجه باختصار برقم ٣٨٨٠ .

(٤) سورة الفرقان آية ٥٨

(٥) سورة القصص آية ٨٨

(٦) أخرجه ابن كثير فى التفسير : تفسير آية الكرسى جـ ١ صـ ٤٥٤ وعزاه لابن مردوية ، ولفظ الحديث « اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب فى ثلاث : .... الحديث »

١ - ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾[(١)] .
٢ - ﴿ الٓمٓ . الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم ﴾[(٢)] .
٣ - ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ﴾[(٣)] .

وجاء فى نفس الصفحة ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه . قال : كنت مع رسول الله ﷺ جالساً فى الحلقة ورجل قائم يصلى ، فلما ركع وسجد تشهد ودعا ، فقال فى دعائه : « اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حى يا قيوم .. إنى أسألك » . فقال النبى ﷺ : « لقد دعا باسمه العظيم الذى إذا دُعِىَ به أجاب وإذا سُئل به أعطى »[(٤)] .

وقد ذكر « الحى » خمس مرات فى الكتاب المبين

٤ - ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده ﴾[(٥)] .
٥ - ﴿ هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين ﴾[(٦)] .

ذلك بأن :

﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[(٧)] .

فسبحان الحى الذى ليس لحياته زوال ، وسبحانك اللهم أنت الحىّ الذى لا يموت . والجن والإنس يموتون .

٦٤ - القيــوم

﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾[(٨)] .

سبحان القائم بنفسه ، الغنى عن غيره ، وعن رسول الله ﷺ أنه قال : « كان الله ولا شىء معه »[(٩)] .

وقيل القيوم هو الدائم الباقى الذى لا يزول ، فيكون تأكيداً للحىّ ، والقيوم هو الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ، وهو القائم بتدبير خلقه ، وهو مدبر السموات والأرض ، وهو المقيم لكل شىء ، وكل شىء قائم بأمره .

(١) سورة البقرة آية : ٢٥٥
(٢) سورة آل عمران الآيتان : ١ ، ٢
(٣) سورة طه آية : ١١١
(٤) أخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الصلاة) باب الدعاء جـ٢ صـ١٦٧ ، ١٦٨ رقم : ١٤٩٥ وأخرجه النسائى فى (كتاب الافتتاح) باب الدعاء بعد الذكر .
(٥) سورة الفرقان آية ٥٨
(٦) سورة غافر آية ٦٥
(٧) سورة الرحمن الآيتان ٢٦ ، ٢٧

(٨) سورة البقرة آية ٢٥٥ وآل عمران آية رقم : ٢
(٩) أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب بدء الخلق) جـ٢ صـ٢٠٧ طبع دار إحياء الكتب العربية من رواية عمران بن حصين بلفظ : « كان الله ولم يكن شىء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، وخلق السموات والأرض ... » ورواه الطبرانى أيضاً .

﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾[١].

﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون﴾[٢].

. . . . إذا أنتم تخرجون ، قيام تنظرون . إلى دار القيامة ، يوم تقوم الساعة ، ويوم يقوم الأشهاد ، ويوم يقوم الروح والملائكة صفاً ، ويوم يقوم الناس لرب العالمين .

وهو سبحانه « القائم » أى الرقيب على كل نفس بما كسبت .

﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾[٣]

وهو تعالى القيم للعدل . وهو عز وجل القائم بالقسط .

﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾[٤].

وإذا تدبرنا القرآن ، حيث تتلاقى معانى القيوم . والقائم . والقيم ، والقوام ، والمقيم ، وإذا علمنا أن من معانى « القائم » الرقيب ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟﴾[٥] ، ثم إذا قال المفسرون أن تفسير قائماً بالقسط ، أى مقيماً للعدل . فلقلوب المؤمنين أن تخشع . ولجلودهم أن تقشعر لما نزل من الحق : ﴿وعنت الوجوه للحى القيوم . وقد خاب من حمل ظلماً﴾[٦]

« يا حى يا قيوم برحمتك نستغيث » ، « اللهم أصلح لى شأنى كله ، ولا تكلنى إلى نفسى ولا إلى أحد من خلقك . طرفة عين ولا أقل من ذلك » .

وقيل أنه من معانى القيوم : الذى لا ينام .

وقد ذكر « قيِّم » السموات والأرض ، وقيوم السموات والأرض فى روايتين لدعاء للنبى ، وفى الصحيح أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا قام من الليل يصلى يقول : « اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض »[٧].

وقد ذكر الحى « القيوم » مقلب القلوب ، ثلاث مرات فى القرآن المجيد ، نسأله تعالى أن يثبت قلوبنا على دينه القيم .

٦٥ ـ الواجـــــد

﴿وإن من شىء إلا عندنا خزائنه﴾[٨]

سبحان الذى لا يخرج من العدم إلى الوجود شيئاً إلا هو ، وسبحان الغنى فى كل شىء ، ولكل شىء وكل شىء حاضر لديه .

(١) سورة فاطر آية : ٤١
(٢) سورة الروم آية : ٢٥
(٣) سورة الرعد آية : ٣٣
(٤) سورة آل عمران آية ١٨
(٥) سورة الرعد آية : ٣٣
(٦) سورة طه آية : ١١١
(٧) أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة برقم : ٨٧٤ من رواية ابن عباس ، ضمن حديث طويل .
(٨) سورة الحجر آية رقم : ٢١

وقيل الواجد : الذى لا يضل عنه شيء ولا يفوته شيء .

وقيل الواجد : مأخوذ من الوجدان بمعنى العلم . يقال : وجدت فلاناً فقيهاً . أى علمت كونه كذلك .

ويقال : وجدت طعم الشيء إذا أدركته ، ويجوز أن يكون الواجد بمعنى المليم .

وقيل : الواجد : هو الله يجد كل ما يطلبه ويريده ، ولا يعوزه شيء من ذلك ، ولا يعجزه شيء ولا يفوته شيء .

٦٦ - المــاجد

(اللهم أنت الماجد المجيد الفعال لما يريد ، نسألك الأمن يوم الوعيد) .

سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به ، وسبحان العظيم القدر ، العظيم الشرف ، الواسع الكرم .

ويجوز أن يكون الماجد بمعنى المجيد كالعالم بمعنى العليم .

عن أبي ذر رضى الله عنه ، عن النبي - ﷺ - عن ربه عز وجل قال : يقول : « يا عبادى كلكم مذنب إلا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم بقدرتى ، من علم منكم أنى ذو مقدرة على المغفرة فاستغفرنى غفرت له ولا أبالى ، وكلكم ضال إلا من هديت فسلونى الهدى أهديكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت فسلونى أرزقكم . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ورطبكم ويابسكم وحيكم وميتكم اجتمعوا على أتقى قلب عبد من عبادى ، لم يزد ذلك فى ملكى جناح بعوضة . ولو اجتمعوا على أشقى قلب عبد من عبادى لم ينقص ذلك من ملكى جناح بعوضة ولو أن أولكم وآخركم ورطبكم ويابسكم وحيكم وميتكم اجتمعوا فسأل كل سائل منكم ما سأل لم ينقص ذلك مما عندى شيئاً ، كما لو أن أحدكم مرّ على شفة البحر فغمس فيه إبرة ثم انتزعها ، ذلك بأنى جوّاد « ماجد » أفعل ما أشاء عطائى كلام وإذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون »[1] .

وهذا الإسم الكريم غير مذكور فى القرآن ، بل المذكور المجيد .

٦٧ - الواحــــد

﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾[2] .

سبحان الواحد فى ذاته لا قسيم له .

وسبحان الواحد فى صفاته الأزلية ، لا نظير له .

وسبحان الواحد فى أفعاله ، لا شريك له .

أى أن « الواحد » هو الفرد ، المنفرد فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله :

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب (القيامة) باب فضل الرفق رقم : ٢٦١٣ وقال : هذا حديث حسن

(٢) سورة ابراهيم آية رقم : ٥٢

فهو واحد فى ذاته لا يتجزأ ، ولا يتناهى .

واحد فى صفاته لا يشبه شىء ، ولا يشبهه شىء .

واحد فى أفعاله لا شريك له .

ومن عرف أن « الواحد » أفرد قلبه له .

وأنقل إليكم هذا الدعاء : « اللهم إنى أسألك أن تملأ قلبى بحبك حتى لا يكون لى شغل ولا هَمّ سواك » .

وقد فُسّر قوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله وتر يحب الوتر »[(٣)] ، يعنى يحب القلب المنفرد له تعالى .

وإذا كان من تهواه فى الحسن واحداً
فكن واحداً فى الحب إن كنت تهواه

وفى الحديث ، أنه عليه الصلاة والسلام سمع رجلاً يقول فى دعائه : « اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله الواحد الأحد ، الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » ، فقال : (لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى)[(١)] . وقد ذكر « الواحد » إحدى وعشرين مرة فى الكتاب العظيم .

٦٨ - الصمد

﴿ الله الصمد ﴾[(٢)] .

سبحان الصمد الذى يصمد إليه فى الحوائج ، أى الذى يقصد إليه بها . والصمد سبحانه ، هو المقصود فى الحوائج على الدوام ، ولا يقصد فى قضائها إلا هو ، والقصد هو اتجاه الإنسان بنفسه إلى المقصود علناً ، ومثله الاتجاه إلى المقصود بالقلب سراً ، وما ينبغى أن يكون القصد سراً أو علناً إلا لله وحده ، وما ينبغى للإنسان أن يتجه بنفسه أو بقلبه إلى غير الله ، وما ينبغى للإنسان أن يكون من المشركين .

وقيل الصمد : هو الذى أصمدت إليه الأمور ، فلا يقضى فيها غيره ، ولا يقضى دونه . وقد ذكر « الصمد » مرة واحدة فى القرآن المجيد فى سورة الإخلاص .

---

(١) أخرجه : رواه ابو نصر عن ابى هريرة : أنظر كنز العمال حـ٧ رقم : ١٩٥٢٢ ورواه الترمذى فى (أبواب الوتر) باب ما جاء الوتر ليس بحتم حـ١ صـ٢٨٢ رقم ٤٥٢ عن على - رضى الله عنه - مع زيادة : « فأوتروا يأهل القرآن »

وقال الترمذى حديث على حديث حسن .

ورواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الصلاة) باب ماجاء فى الوتر حـ١ صـ٣٧٠ رقم : ١١٩٦ من رواية على - رضى الله عنه - مع تقديم وتأخير ، وبرقم ١١٧٠ عن عبدالله بن مسعود نقل رواية الترمذى .

(٢) أخرجه ابن ابى شيبة فى مصنفه فى (كتاب الزهد) حـ١٤ ص٣١ عن بريدة ورواه ابن ماجه فى (كتاب الدعاء) حـ٢ صـ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ برقم : ٣٨٥٧ ورواه ابن حبان برقم : ٨٨٩

(٣) سورة الأخلاص آية ٢

قال رسول الله - ﷺ - : « والذى نفسى بيده ، ﴿ قل هو الله أحد ﴾ السورة ، إنها لتعدل ثلث القرآن »[١] . أخرجه البخارى .

« إن القرآن أنزل ثلثاً منها أحكاماً ، وثلثاً منها وعداً ووعيداً ، وثلثاً منها الأسماء والصفات . وقد جمع فى قل هو الله أحد ، أحد الأثلاث وهو الأسماء والصفات ، فقيل : « إنها ثلث القرآن » .

٦٩ - القــادر

﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾[٢] .

سبحان الله القادر ، ذو القدرة التامة ، الذى لا يعجزه شىء ، بل يستتب له ما يريد على ما يريد .

﴿ .. وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليماً قديراً ﴾[٣]

والقدر - بفتحتين - اسم لما صدر مقدراً عن فعل القدر - سبحانه - وقدْر الشىء : مبلغه ، بسكون الدال - وهو مصدر - قال الله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾[٤] أى ما عظموه حق عظمته ، والقدر - بالفتح - ما يقدّره الله من القضاء .

وليلة القدر ، هى ليلة الشرف العظيم ، وفسّر القدْر بالتقدير . وفى القرطبى : قال مجاهد فى : ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ قال : ليلة الحكم . والمعنى : ليلة التقدير ، سميت بذلك ، لأن الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمر إلى مثلها من السنة المقبلة ، من أمر الموت والأجل والرزق ، وغير ذلك .

جاء فى صحيح البخارى ، الجزء السادس ، صفحة ٧١ ، لما نزلت هذه الآية : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال رسول الله - ﷺ - : « أعوذ بوجهك »[٥] .

وقد ذكر « القادر » سبحانه وتعالى : سبع مرات فى كتاب الله الكريم .

ولنقرأ معاً هذه الآية البينة :

﴿ أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم ﴾[٦] .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى فضائل القرآن ، فضل سورة « قل هو الله أحد » جـ٦ صـ٢٣٣
(٢) سورة المرسلات آية : ٢٣
(٣) سورة فاطر آية : ٤٤
(٤) سورة الأنعام آية : ٩١ والزمر آية : ٦٧
(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه ٧٧٦ من رواية جابر بن عبدالله - رضى الله عنه .
(٦) سورة يس آية : ٨١

٧٠ - المقتــــدر

﴿ إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[1] .

سبحان ربي المقتدر ، ذو القدرة العظيم ، المسيطر بقدرته البالغة على خلقه ، وعلى كل من أعطاه حظاً من قدره .

وهو المقتدر على جميع الممكنات ، والمقتدر يفيد معنى القادر مبالغة وأكثر تعظيماً وفي اللغة : ق د ر - قدر . يقال : هو قادر مقتدر ، وقدرة ومقدرة ، وقدر الشيء مبلغه . بسكون الدال وفتحها .

والأمور تجرى بقدر الله ومقداره وتقديره وأقداره ، ومقاديره .

و (القدرُ) بالفتح لا غير . ما يقدره الله من القضاء ، وإذا وافق الشيء قالوا : جاء على قدر ، ويقال : قدر الشيء أي قدره من التقدير ، وبابه ضرب وفي الحديث : « إذا غمّ عليكم الهلال فاقدروا له »[2] ، أي أتموا ثلاثين ، ويقال : مالي عليه مقدرة بكسر الدال وفتحها أي « قدرة » وسنة قولهم : المقدرة تذهب الحفيظة . وقد ذكر « المقتدر » سبحانه وتعالى مرتين في القرآن الكريم ، والمرتين في سورة القمر . ﴿ ... كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾

كتب الفخر الرازي : وفي قوله : ﴿ عزيز مقتدر ﴾ لطيفه : وهي أن العزيز المراد منه الغالب ، لكن العزيز قد يكون ، يغلب على العدو ويظفر به ، وفي الأول يكون غير متمكن من أخذه ، لبعده إن كان هارباً ، ويتبعه إن كان محاربا .

قال : أخذ غالب لم يكن عاجزاً ، وإن كان ممهلاً .

٧١ - المقــدم

٧٢ - المؤخــر

(اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير) .

سبحان المقدم والمؤخر لما شاء كما شاء بحكمته ، وسبحان المقدم من شاء بالتقوى والإنابة والصدق والاستجابة ، وسبحان من أخر من شاء عن طاعته وعن قربه ورده إلى حوله وقوته .

وسبحان الذي قدم الأبرار وأخر الفجار ، وسبحان الذي يقرب ويبعد ، فمن قربه فقد قدمه ، ومن أبعده فقد أخره .

وسبحان الذي يقدم بعض الأشياء على بعض بأمره ، إما بالوجود كتقديم الأسباب على مسبباتها ، أو بالشرف كتقديم الأنبياء والصالحين من عباده .

---

(١) سورة القمر الآيتان ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في (كتاب الصيام) جـ٣ صـ٣٣ وأخرجه مسلم في (كتاب الصيام) باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال برقم : ١٠٨٠/٣ .

وصلى الله على سيدنا محمد الذي قدمه ربه على جميع خلقه : قال تعالى : ﴿ .. قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾[1] .. وقال تعالى : ﴿ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾[3] .

كان رسول الله ـ ﷺ ـ يدعو بهذا الدعاء : « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وما أنت به أعلم منى ، اللهم اغفر لى خطاياى وعمدى وجهلى وجدّى وهزلى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير »[4] .

ثم لنتدبر معاً هذه الآيات البينات : قوله تعالى :

﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾[5] . وقوله تعالى :

﴿ قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد ﴾[6] . وقوله تعالى :

﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾[7] .

٧٣ ـ الأول

(هو الأول قبل كل شيء بلا بداية) .

سبحان الأول قبل كل شيء بلا بداية ، والآخر بعد كل شيء بلا نهاية ، وسبحان الموجود الواجب الوجود ، الأول لكل ما سواه ، المتقدم على كل ما عداه ، وهذه الأولية وهذا التقدم ، ليس بالزمان ولا بمكان ، ولا بأى شيء ، فى حدود العقل أو محاط العلم .

وهو سبحانه ، ظاهر باطن ، فى كونه أولا : هو الأول ، أظهر من كل ظاهر ، لأن العقول تشهد بأن المحدثات لها موجد متقدم عليها ، فكونه تعالى أولاً واضح جداً من هذه الجهة .

وهو الأول ، أبطن من كل باطن ، لأنك إذا أردت أن تعرف حقيقة تلك الأولية عجزت ، لأن كل ما أحاط به عقلك وعلمك ، فهو محدود عقلك وعلمك ، فيكون متناهياً ، فتكون الأولية خارجة عنه ، وليس فى حدود العقل إلا أن يتدبر القرآن :

﴿ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ﴾[8] .

قيل : ويجوز أن يكون معنى ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أنه هو « الأول » لم يكن قبله شيء .

---

(1) سورة الأنعام آية : ١٤

(2) سورة الأنعام آية : ١٦٣

(3) سورة الزمر الآيتان : ١١ ، ١٢

(4) أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الدعوات) جـ٨ صـ١٠٥ ، ورواه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب التعوذ من شر ماعمل ومن شر ما لم يعمل جـ٤ صـ٢٠٨٧ رقم : ٢٧١٩/٧٠

(5) سورة القيامة آية : ١٣

(6) سورة ق آية : ٢٨

(7) سورة ابراهيم آية : ٤٢

(8) سورة الواقعة آية : ٦٠

٧٤ ـ الآخـــر

(هو الآخر بعد كل شيء بلا نهاية).

سبحان الآخر الأبدى الباقى الدائم بلا نهاية، وسبحان الله رب الآخرة والأولى.

﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾[1].

عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو بهؤلاء الكلمات: «يا كائن قبل أن يكون شيء والمكون لكل شيء والكائن بعدما لا يكون شيء: أسألك بلحظة من لحظاتك الحافظات الغافرات الاجبات المنجيات»[2].

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم ﴾.

٧٥ ـ الظـاهـر

(وأنت الظاهر فليس فوقك شيء).

سبحان الظاهر وجوده لكثرة دلائله، وهو البادى بالأدلة عليه وفى أفعاله، فلا يمكن تجحد وجوده، وهو الظاهر بحججه الباهرة، وبراهينه النيرة، وشواهد أحلامه الدالة على ثبوت ربوبيته، وصحة وحدانيته.

«والظاهر» هو الغالب العالى، ومنه قوله تعالى:

﴿ ... فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾[3]. أى: فأصبحوا غالبين عالين.

قيل أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ سأل النبى ﷺ عن تفسير: ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ فقال له النبى ﷺ (ما سألنى أحد تفسيرها، لا إله إلا الله، والله أكبر وسبحان الله وبحمده استغفر الله لا حول ولا قوة إلا بالله الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير)[4].

---

(١) سورة سبأ آية: ١

(٢) أخرجه كنز العمال برقم: ٤٩٩٨

(٣) سورة الصف آية: ١٤

(٤) أخرجه ابن كثير فى تفسيره، فى تفسير سورة الزمر جـ٧ صـ٦١ طبع دار الفكر ونبه على ضعفه.

٧٦ - الباطن

(وأنت الباطن . فليس دونك شيء) .

سبحان الباطن حقيقة ذاته ، فلا تكتنهها العقول ، وسبحان من احتجب عن إدراك الحواس ، مع شدة ظهوره ، وكمال نوره ، وسبحانه من ليس له شبيه ولا ضد .

وسبحان الباطن على كل شيء رحمة وعلماً ، وسبحانه الذي أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، ومالنا من دون الله من ولي ولا نصير .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ هذا الدعاء :

« اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء خالق الحب والنوى منزل التوراة والانجيل والقرآن أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها . اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء أقض عنا الدين واغننا من الفقر »[1] .

وقد ذكر « الأول والآخر والظاهر والباطن » ـ سبحانه وتعالى ـ مرة واحدة في القرآن العظيم ، في الآية الثالثة من سورة الحديد :

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾[2] .

وكتب الفخر الرازي : سمعت والدي ـ رحمه الله ـ يقول : إنه كان يروى أنه لما نزلت الآية : **﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ أقبل المشركون نحو البيت وسجدوا .**

٧٧ - الوالي

﴿ وما لهم من دونه من وال ﴾[3] .

سبحان المالك للأشياء ، والمتولي لها ، والمتصرف فيها كيف يشاء ، وهو المنفرد بالتدبير ، القائم على كل شيء ، ولا دوام ولا بقاء إلا بإذنه ، وكل شيء يجرى بحكمه وبأمره .

ويحتمل أن يكون الوالي بمعنى المنعم بالعطاء ، الدائم للبلاء . ولنتدبر الآية الحادية عشرة من سورة الرعد :

---

(١) أخرجه مسلم في (كتاب الذكر والدعاء) بأرقام ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ورواه الترمذي برقم : ٣٤٨١ وابن ماجه رقم : ٣٨٣١

(٢) سورة الحديد آية : ٣

(٣) سورة الرعد آية : ١١

﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾[1]

٧٨ - المتعالى

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾[2].

سبحان البالغ فى العلوّ ، المتعالى بوجوب وجوده ، رفيع الدرجات ذو العرش .

وقيل : المتعالى ، معناه الرفيع فى كبريائه وعظمته ، وعلا مجده عن كل ما يدرك أو يفهم من أوصاف خلقه ، فكل من اسمه المجيد والعلى والعظيم والكبير والمتعالى ، يدخل فى الذى يليه بمعناه طرداً وعكساً : فهو العظيم فى مجده ، المجيد فى عظمته ، العلى فى ذلك ، والمجيد العظيم فى علوه ، الكبير فى مجده وعلوّه وعظمته ، العظيم المجيد العلى فى كبريائه ، وهو تعالى . المتعالى فى ذلك كله .

قال رسول الله ﷺ : « بئس عبدٌ تخيل واختال ونسى الكبير المتعال »[3].

وقد ذكر « المتعالى » سبحانه ، مرة واحدة فى الكتاب العظيم فى الآية التاسعة من سورة الرعد .

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ .

٧٩ - البر

﴿ إنه هو البر الرحيم ﴾[4].

سبحان العطوف على عباده بلطفه ، الذى من على السائلين بعطائه . وعلى العابدين بجميل جزائه ، وسبحان الذى منه كل مبرة وإحسان . والبر بفتح الباء معناه : فاعل البر بكسرها ، أى الإحسان ، وهى كلمة جامعة لكل صفات الخير ، وهو من أسماء الله تعالى .

وفى اللغة « البر » هو الاتساع كما يرى المفسرون ، والنحويون أن البر هو الصلة والخير والاتساع فى الإحسان والصدق . ويجوز أن يكون معنى البر الكثير الطاعة ، وجمعه : أبرار . ومن المجاز : فلان يبر ربه ، أى : يطيعه ، وفى هذا يكون البر إسم جامع للطاعات وأعمال الخير المقربة إلى الله ، أو اسم جامع لجميل الخصال ولكل فعل مرضى .

وطاعة الله سبحانه هى عبادته تعالى وبر الوالدين والتوسع فى الإحسان إليهما ، والجنة تحت أقدام الأمهات .

(١) سورة الرعد آية : ١١
(٢) سورة الرعد آية : ٩
(٣) أخرجه الترمذى رقم ٢٤٥٠ فى أبواب صفة القيامة
(٤) سورة الطور آية : ٢٨

والبار : من يصدر عنه البر والطاعة وجمعه بررة . قال تعالى :

﴿ بأيدى سفرة كرام بررة ﴾[1] .

وأولى بالإنسان أن يكون مشتغلاً بأعمال البر ، واستباق الخيرات ، وأن لا يضمر الشر ، ولا يؤذى أحداً ، فإن البار هو الذى لا يؤذى . ولذا قيل : « البر شىء هين وجه طلق وكلام لين » وعن ابن عمر رضى الله عنهما . قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لاينام كما تزرع تحصد وكما تدين تدان »[2] .

ورضاء الرب فى رضاء الوالدين ، فلا أقل من البر بهما وشدة الإحسان إليهما ، وبالقول الكريم والدعاء لهما :

وسبحان رب الحنان المنان ، الذى من على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وهو الذى من على المؤمنين بأن جعلهم من أهل اليمين ، وهو الذى ألهمهم القيام بصالح الأعمال ، وهو الذى رزقهم القبول وقبول أحسن ما عملوا . وهو الذى يتجاوز عن سيئاتهم .

﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ﴾[3] .

فيا له من بر من ذى المن والكرم ... البر الرحيم .

قال تعالى :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين . أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ﴾[4] .

وقال تعالى :

﴿ ... إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾[5] .

وقد ذكر « البر الرحيم » مرة واحدة فى سورة الطور من القرآن الكريم .

---

(١) سورة عبس الآيتان : ١٥ ، ١٦

(٢) أخرجه العجلونى فى كشف الخفاء برقم ١٠٢ وقال رواه أبونعيم وابن عدى والديلمى عن ابن عمر ، ورواه عبدالرزاق فى الزهد عن أبى قلابة مرسلاً . وأحمد عن أبى الدرداء موقوفاً

(٣) سورة الزمر آية : ٣٥

(٤) سورة الأحقاف الآيتان : ١٥ ، ١٦

(٥) سورة الطور الآيات : ٢٦ - ٢٨

٨٠ - التواب

﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾[١] .

سبحان الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات وهو التواب الحكيم ، وسبحان الذى يقابل الدعاء بالعطاء ، والاعتذار بالاغتفار ، والإنابة بالاجابة . وفى اللغة ، يقال : تاب الله عليه ، أى غفر له وأنقذه من المعاصى . والتوبة لغة : الرجوع . يقال : تاب إذا رجع ، وآب أى رجع قال تعالى :

﴿ فإنه كان للأوابين غفوراً ﴾[٢] .

ويقال : ناب بمعنى رجع ، قال تعالى : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾[٣] أى ارجعوا .

ويقال : ثاب بالمثلثة إذا رجع .

فتحصل أنه يقال : تاب ، وثاب ، وناب ، أناب ، وآب وكلها بمعنى : رجع .

والتوبة بالنسبة للعباد ، هى الندم على المعصية والرجوع إلى الطاعة ، والله تعالى يتوب على من يشاء من عباده برجوعه بالقبول .

وقيل : إذا تاب العبد إلى الله بسؤاله تاب الله عليه بنواله .

والتوبة الخالصة هى لقاء الله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[٤] .

وقد ذكر « التواب » - سبحانه - أحد عشرة مرة فى القرآن الكريم .

٨١ - المنتقم

﴿ والله عزيز ذو انتقام ﴾[٥]

سبحان الذى نخشى نقمته لقدرته وعظمته وهو الذى نرجو رحمته .

وإنا ندعوه ، تعالى ، خوفاً وطمعاً ، قال تعالى :

﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ﴾[٦] .

(١) سورة التوبة آية : ١١٨
(٢) سورة الاسراء آية : ٢٥
(٣) سورة الزمر آية : ٥٤
(٤) سورة الكهف آية : ١١٠
(٥) سورة آل عمران آية : ٤
(٦) سورة الانسان الآيتان : ١٠ ، ١١

وقال تعالى :

﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾(١) .

وقال تعالى :

﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾(٢)

وقال تعالى :

﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾(٣) .

٨٢ ـ العفو

﴿ إن الله لعفو غفور ﴾(٤) .

الحمد لله الذى يمحو الذنوب ، ويتجاوز عن السيئات ، وهو المريد لمحو الزلة والتجاوز عنها بكرمه .

قال رسول الله ﷺ : « ... وأتبع السيئة الحسنة تمحها .. »(*) . والعفو ، إزالة الأثر ، ومنه عفت الديار ، وأن الغفران يشعر بالستر ، والعفو بالمحو .

وقيل معنى العفو : الذى يعطى الكثير ، ويهب الجزيل ، مأخوذ من قولهم : عفا مال فلان أى كثر .

وفى اللغة يقال : هذا من عفو مالى أى من حلاله وطيبه . ويقال : خذ ما عفا وصفا ، وخذ عفوه وصفوه وعفوته وصفوته .

ويقال : أعطيته عفواً من غير مسألة : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾(٦) أى : فضل المال ، أى الفاضل عن الحاجة .

ويقول : أطعمونا من عوافيكم ، دامت بكم عوافيكم ، جمع عافى القدر وهو بقية المرق فيها .

ويقال : « على الكريم عافيته » أى سؤاله . ويقال : فى واديهم كلأ عاف ، وعشب واف ، أى كثير .

وقد ذكر : « العفو » سبحانه خمس مرات فى القرآن الكريم : أربع مرات مع الاسم « الغفور » والخامسة مع الاسم « القدير » .

---

(١) سورة الدخان آية : ١٦ (٣) سورة الأسراء آية : ٥٧

(٢) سورة النور آية : ٣٧ (٤) سورة الحج آية : ٦٠

(*) أخرجه : الترمذى جـ٤ ص٣١٢ رقم ١٩٨٧ كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء فى معاشرة الناس .

(٦) سورة البقرة آية : ٢١٩

١ - ﴿ .. إن الله لعفو غفور ﴾(١) .
٢ - ﴿ .. وإن الله لعفو غفور ﴾(٢) .
٣ - ﴿ .. إن الله كان عفواً غفوراً ﴾(٣) .
٤ - ﴿ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفوراً ﴾(٤) .
٥ - ﴿ إن تبدو خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديراً ﴾(٥) .

٨٣ - الرءوف

﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله ، والله رءوف بالعباد ﴾(٦) .

سبحان ربى الرءوف الرحيم ، الذى كلف الثرى بما لم يكلف به المسكين ، وأخذ المقيم بما لم يأخذ به المسافر وخفف الفرائض فى حال الضعف .

والحمد لله الذى يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه .

وفى اللغة ، وفى معجم ألفاظ القرآن الكريم ، لمجمع اللغة العربية - يقال : رأف به ، أى أشفق عليه من مكروه يحل به . والرأفة : أشد الرحمة - والرأفة من الله : دفع السوء .

وإليكم هذا الدعاء الذى به سبعة أسماء : « اللهم افعل بى وبهم عاجلاً وآجلاً ، فى الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ولا تفعل بنا يامولانا ما نحن له أهل ، إنك أنت غفور حليم ، جواد كريم ، رءوف رحيم » .

وقد ذكر « الرءوف » سبحانه عشر مرات فى الكتاب الكريم وهو الرءوف الرحيم .

ثم لنتدبر هذه الآية الكريمة :

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾(٧) .

---

(١) سورة الحج آية : ٦٠
(٢) سورة المجادلة آية : ٢
(٣) سورة النساء آية : ٤٣
(٤) سورة النساء آية : ٩٩
(٥) سورة النساء آية : ١٤٩
(٦) سورة البقرة آية : ٢٠٧
(٧) سورة آل عمران آية : ٣٠

٨٤ ـ مالك الملك

﴿ تؤتى الملك من تشاء ﴾[١] .

سبحان الذى له التصرف المطلق ، مالك الملك الذى تنفذ مشيئته فى ملكه كيف يشاء ، وكما يشاء ، لا مرد لقضائه ، ولا معقب لحكمه . والملك هنا بضم الميم ، مصدر بمعنى السلطان ، والقدرة . وقيل : الملك بمعنى المملكة والمالك بمعنى القدر التام القدرة .

وتبارك الذى بيده الملك ، مالك الملك ، الذى يملك كل شىء ، مالك السمع والأبصار والأفئدة ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾[٢] .

وقد ذكر « مالك الملك » سبحانه ، مرة واحدة فى الكتاب العزيز . وذلك فى الآية المحكمة البينة السادسة والعشرين من سورة آل عمران : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾[٣] .

٨٥ ـ ذو الجلال والاكرام

﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾[٤] .

سبحان الذى لا جلال ولا كمال ولا شرف إلا وهو له . ولا كرامة ولا إكرام إلا وهو صادر منه . فالجلال له فى ذاته ، والكرامة فائضة منه على خلقه . وقيل : « ذو الجلال » اشارة إلى صفات الكمال .

﴿ والاكرام ﴾ اشارة إلى صفات التنزيه .

وقيل ﴿ الجلال ﴾ هو الوصف الحقيقى .

﴿ والاكرام ﴾ هو الوصف الاضافى .

وقيل : ﴿ الجلال ﴾ صفة ذاته ـ سبحانه .

﴿ والاكرام ﴾ صفة فعله ، تعالى .

جاء فى بعض الروايات أنه اسم الله الأعظم ، فقد قيل فى ذلك أنه كان ﷺ ماراً فى طريق ، إذ رأى أعرابيا يقول : « اللهم إنى أسألك باسمك الأعظم العظيم الحنان المنان مالك الملك ذو الجلال والاكرام » .

(١ ، ٣) سورة آل عمران آية : ٢٦
(٢) سورة غافر آية : ١٦
(٣) سورة آل عمران آية : ٢٦
(٤) سورة الرحمن آية : ٢٧

فقال النبي ﷺ : « إنه دعا باسم الله الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى »[1] .

وقد ذكر ﴿ ذو الجلال والاكرام ﴾ مرتين فى القرآن العظيم . والمرتين فى سورة الرحمن :

﴿ ... ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾[2] .

﴿ تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام ﴾[3] .

٨٦ - المقسط

﴿ وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾[4] .

سبحان المقسط ، القائم بالقسط ، المقيم للعدل ، العادل فى الحكم . وسبحان الذى ينتصف للمظلوم من الظالم ، وكماله فى أن يضيف إلى ارضاء المظلوم إرضاء الظالم ، وذلك غاية العدل والانصاف ولا يقدر عليه إلا الله تعالى . ومثاله ما روى عن النبي ﷺ أنه قال : « بينما رسول الله جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه ، فقال عمر : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ما الذى أضحكك ، قال : رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة فقال أحدهما : يا رب خذ لى مظلمتى من هذا ، فقال الله عز وجل : رد على أخيك مظلمته . فقال : يا رب لم يبق من حسناتى شيء ؟ فقال عز وجل للطالب : كيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء . فقال : يا رب فليحمل عنى من أوزارى . . ثم فاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ، وقال : إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم . . قال : فيقول الله عز وجل أى للمتظلم : ارفع بصرك فانظر فى الجنان . فقال : يا رب أرى مدائن من فضة ، وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذ ؟ أولأى صديق هذا ؟ أولأى شهيد هذا ؟ قال الله عز وجل : لمن أعطى الثمن . فقال : يا رب : ومن يملك ذلك . قال : « وأنت تملكه » . قال : بماذا يا رب ؟ فقال : « بعفوك عن أخيك » قال : يا رب قد عفوت عنه . قال الله عز وجل : « خذ بيد أخيك فأدخله الجنة » ثم قال ﷺ « اتقوا الله . اتقوا الله . وأصلحوا ذات بينكم ، فإن الله يعدل بين المؤمنين يوم القيامة »[5] .

٨٧ - الجامع

﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾[6] .

سبحان الذى جمع الكمالات كلها ذاتا ووصفاً ، وفعلاً . فليس كذاته ذات ، ولا كصفاته صفات ، ولا كفعله فعل .

---

(١) أخرجه الطحاوى فى شكل الآثار حـ١ ص٦٢ عن أنس رضى الله عنه .

(٢) سورة الرحمن آية : ٢٧

(٣) سورة الرحمن آية : ٧٨

(٤) سورة يونس آية : ٥٤

(٥) أخرجه فى كنز العمال برقم ٤٣٠٩٨ وعزاه الى الحاكم عن أنس والحديث فى المستدرك للحاكم فى (كتاب الأهوال) حـ٤ صـ٥٧٦ وقد قال : « فإن الله يصلح بين المسلمين » .

(٦) سورة التغابن آية: ٩

وسبحان جامع الناس ليوم لا ريب فيه :

﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ، ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ .

و « يوم يجمع » هو يوم القيامة ، يسمى بذلك ، لأن الله تعالى يجمع فيه بين الأولين والآخرين ، من الانس والجن ، وجميع أهل السماء والأرض ، ويبن كل عبد وعمله ، وبين الظالم والمظلوم ، وبين كل نبي وأمته ، وبين ثواب أهل الطاعة ، وعقاب أهل المعصية .

« والتغابن » تفاعل من الغبن ، وهو فوت الحظ ، والمراد بالمغبون من غبن من منازله ومنازل ، أهله في الجنة ، وهذ التغابن أي التفاعل ليس من أثنين . فالمغابنة بين الشخص ونفسه ، فيظهر يومئذ غبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان ، والمغابنة على سبيل التجريد ، وسبحان الجامع الذى جمع بين قلوب الأحباب ، وألف بين القلوب :

قال تعالى :

﴿ ... واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾[1] .

وقال تعالى :

﴿ وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾[2] .

٨٨ - الغنى

﴿ وربك الغنى ذو الرحمة ﴾[3] .

سبحان الغنى الذى لا يحتاج إلى شيء فى ذاته ، ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، وهو المستغنى عن كل ما سواه ، ويفتقر إليه كل ما عداه .

قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴾[4] .

وقيل فى معنى « الغنى » : أنه الكامل بماله وبما عنده ، فلا يحتاج معه إلى غيره ، وربنا جل ثناؤه بهذه الصفة ، لأن الحاجة نقص ، والمحتاج عاجز عما يحتاج إليه إلى أن يبلغه ويدركه ، وللمحتاج إليه

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٠٣
(٢) سورة الأنفال آية : ١٣٠
(٣) سورة الأنعام آية : ١٣٣
(٤) سورة فاطر آية : ١٥

فضل بوجود ما ليس عند المحتاج . فالنقص منفى عن الغنى المطلق بكل حال ، والعجز غير جائز عليه سبحانه ، ولا يمكن أن يكون لأحد عليه فضل . . إذ كل شيء سواه خلق له ، ويدع أبدعه لا تملكه من أمره شيئاً ، وإنما يكون كل شيء كما يريد الله خالق كل شيء .

والفقير ما سوى الله تعالى ، وهو « سبحانه » الغنى عن العالمين .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس »[1] .

فغنى النفوس هو العفاف فإن أبت
فجميع ما فى الأرض لا يكفيها

وأعلى درجة الغنى ، الاكتفاء بالموجود ، فلا غنى إلا غنى النفس . وقد يكون الإنسان فقيراً جداً ، وعند الناس متحملاً غنياً . كما قال تعالى : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ فسبحان الذى يعطى من يشاء ويكفيه ، ثم إذا شاء يرضيه .

وقد ذكر « الغنى » ثمان عشرة مرة فى الكتاب الكريم :

وهو الغنى الحميد وهو غنى حليم وهو غنى كريم وهو الغنى ذو الرحمة . وسبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض .

قال تعالى :

﴿ . . ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا ؟ أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ ﴾[3] .

٨٩ - المغنى

﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾[4] .

سبحان معطى الغنى والكفاية لمن شاء من عباده ، على طبق ما اقتضت حكمته ، وسبقت به مشيئته ، فهو الذى يعطى السائلين سؤالهم .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ج١ ص٧٢٦ كتاب الزكاة باب ليس الغنى عن كثرة العرض رقم ١٢٠/١٠٤٧
(٢) سورة النمل آية : ٤٠
(٣) سورة يونس آية : ٦٨
(٤) سورة النجم آية : ٤٨

قال تعالى :

﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾[1] .

والمغنى الحق ، هو الذى لا حاجة له إلى أحد من الخلق أصلاً ، والذى يحتاج ومعه ما يحتاج إليه ، فهو غنى مجازاً .

ومن عرف أن الله تعالى هو الغنى المغنى .. استغنى بالاعتماد عليه .

قال تعالى :

﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ ... وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾[3] .

٩٠ ـ المانع

(اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت) .

سبحان الذى منع البلاء حفظاً وعناية ، ويمنع العطاء عمن يشاء ابتلاء أو حماية .

وسبحان الذى يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الآخرة الا لمن يحب .

وهذا الاسم لم يرد فى القرآن لكنه مجمع عليه فقد ذكر فى كل من رواية الوليد ورواية زهير فى الحديث النبوى الشريف .

وجاء فى صحيح البخارى أن النبى ﷺ كان يقول دبر كل صلاة مكتوبة (لاإله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد)[4] .

وسبحان الذى يرد أسباب الهلاك والنقصان فى الأديان والأبدان ، بما يخالفه من أسباب الحفظ ، ومن فهم معنى « الحفيظ » فهم معنى المانع .

وأن المنع ايراد الحفظ ، وقد يكون الحفظ ايراد المنع .

وكل حافظ مانع ، وليس كل مانع حافظ إلا إذا كان مانعاً مطلقاً لجميع الأسباب المهلكة ـ فسبحان من قال :

---

(١) سورة ابراهيم آية : ٣٤

(٢) سورة الضحى آية : ٨

(٣) سورة التوبة آية : ٢٨

(٤) أخرجه البخارى بحاشية السندى حـ١ صـ١٠٣ كتاب الصلاة باب الذكر بعد الصلاة .

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾(١)

٩١ - الضار

﴿ قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ﴾(٢).

٩٢ - النافع

﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ﴾ .

سبحان الذى يصيب من يشاء من عباده برحمته ، وهو الذى يملك الضر والنفع ، وهو على كل شىء قدير ، وقد يكون من الضر نفعاً ، أو نوعاً من أنواع العلاج ، للذين هم بربهم لا يشركون .

قال تعالى :

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾(٣) .

وقال تعالى :

﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾(٤) .

وسبحان الذى بيده أسباب كل شىء مسخرات بأمره .

﴿ . . وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله . . ﴾(٥) وأكبر دليل قصة إبراهيم عليه السلام : أولا بأن السكين لا تقطع بنفسها فى ولده اسماعيل .

وثانيا : بأن النار لا تحرق نفسها ، بل كانت برداً وسلاماً على إبراهيم بأمر الله . اللهم إنا لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه . فى الدنيا ، ويوم القيامة .

---

(١) سورة يونس آية : ١٠٧
(٢) سورة يونس آية : ٤٩
(٣) سورة النحل الآيتان : ٥٣ - ٥٤
(٤) سورة الروم الآية : ٣٣
(٥) سورة البقرة الآية : ١٠٢

قال تعالى :

﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ [(١)].

وقال تعالى :

﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ [(٢)].

وقال تعالى :

﴿ قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ، لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ [(٣)].

والحمد لله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم .

٩٣ - النـــور

﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ [(٤)].

سبحان الذى نور قلوب الصادقين بتوحيده ، وسبحان الذى نور السماء والأرض بما خلق فيهما من الأنوار .

قال ابن عباس : « النور ، الهادى الرشيد الذى يرشد بهدايته من يشاء ، فيبين له الحق ويلهمه اتباعه » .

وقال الحليمى : « وهو الهادى لا يعلم العباد إلا ما علمهم ، ولا يدركون إلا ما يرهم إدراكه ، فالحواس والعقل فطرته وخلقه وعطيته » .

وقيل : « النور » الظاهر الذى ظهر كل الظهور ، فإن الظاهر فى ذاته المظهر بغيره ، سمى نوراً ، فهو مظهر لكل شىء ، ولكل موجود بإخراجه من العدم إلى الوجود .

وقيل : هو الذى منه النور ، والعرب تسمى من منه الشىء باسم ذلك الشىء . وقيل : هو خالق الأنوار ، وقيل غير ذلك .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨٥
(٢) سورة الأعراف الآية : ١٨٨
(٣) سورة يونس الآية : ٤٩
(٤) سورة النور الآية : ٣٥

سأل ابن عباس النبى - ﷺ - « هل رأيت ربك ليلة أسرى بك ؟ قال : نعم نور أنى أراه »[(١)].

وكان النبى - ﷺ - يدعو بهذا الدعاء بالغدو ، عند ظهور أول النهار وهو صلاة الفجر : « .. اللهم اجعل لى نوراً فى قلبى ونوراً لى قبرى ونوراً فى سمعى ونوراً فى بصرى ونوراً فى شعرى ونوراً فى بشرى ونوراً فى لحمى ، ونوراً فى دمى ، ونوراً فى عظامى ، ونوراً من بين يدى ، ونوراً من خلفى ، ونوراً عن يمينى ، ونوراً عن شمالى ، ونوراً من فوقى ، ونوراً من تحتى ، اللهم زدنى نوراً ، واعطنى نوراً واجعل لى نوراً »[(٢)].

ولنتدبر آية النور ، من سورة النور ، من النور والكتاب المبين الذى أنزله نور السموات والأرض :

﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾[(٣)].

وقد قال ابن عباس رضى الله عنه ، قوله : « الله نور السموات والأرض » يقول سبحانه وتعالى : هادى أهل السموات والأرض مثل نوره :- مثل هداه فى قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار ، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوء ، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل الهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا أتاه العلم ، ازداد هدى على هدى ، ونوراً على نور .

قال تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾[(٤)] ..

وقال تعالى : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾[(٥)].

٩٤ - الهادى

﴿ وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾[(٦)].

سبحان الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وهو الذى هدى ما خلق لما أراد منه فى دينه ودنياه ، وجميع أمره .

وسبحان المرشد لعباده ، وهو الذى دل المؤمنين إلى الدين الحق .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ١ ص١٦١ كتاب الايمان باب قوله عليه السلام نورانى أراه . انظر سنن الترمذى حـ٥ صـ٣٦٩ رقم ٣٢٨٢ .

(٢) أنظر سنن الترمذى حـ٥ صـ٤٥١ كتاب الدعوات باب ٣٠ مايقول اذا قام من الليل الى الصلاة

(٣) سورة النور آية : ٣٥

(٤) سورة آل عمران آية : ٧

(٥) سورة النور آية : ٤٠

(٦) سورة الحج آية : ٥٤

وسبحان الذى يهدى القلوب إلى معرفته ، والنفوس إلى طاعته . ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، وإن الهدى هدى الله .

وقد ورد عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال :

« سألت عائشة - رضى الله عنها - بأى شىء كان نبى الله - ﷺ - يفتح الصلاة إذا قام من الليل ؟ قالت : « كان إذا قام من الليل كان يفتح صلاته بـ : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم »[1] .

وقد ذكر « الهادى » سبحانه بلفظ الاسم مرتين فى القرآن الكريم :

١ - ﴿ ... وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ .

اللهم إنا نسألك أن تهدينا إلى الصراط المستقيم .

٢ - ﴿ ... وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ .

٩٥ - البديــع

﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ﴾[2] .

سبحان الخالق البديع فى ذاته ، ولا يماثله أحد فى صفاته ، ولا فى حكم من أحكامه ، أو أمر من أوامره فهو البديع المطلق ، الذى أبدع الخلق من غير مثال سبق ، وسبحان الذى أظهر عجائب صنعه ، وغرائب حكمته ، يقال هذا شىء بديع إذا كان عديم المثل .

وفى اللغة ب د ع - (أبدع) الشىء اخترعه لا على المثال ، والله بديع السموات والأرض ، أى (مبتدعها) و (البديع) المبتدع أيضاً ، وشىء (بدع) بالكسر أى مبتدع ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ قل ماكنت بدعاً من الرسل ﴾[3] .

أى ما أنا بأول رسول جاء بالتوحيد ، وذلك ، بأن البدع والبديع ، هو الذى لم يسبق له مثيل .

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - سمع رجلا يقول :

---

(١) أخرجه مسلم جـ١ صـ٥٣٤ كتاب صلاة المسافرين باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه . أنظر أبوداود فى كتاب الصلاة باب من ذكر أنه يرفع يديه اذا قام من الثنتين ، وباب مايستفتح به الصلاة من الدعاء .

(٢) سورة الأنعام آية : ١٠١

(٣) سورة الأحقاف آية : ٩

« اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله الا أنت المنان بديع السموات والأرض ، ذو الجلال والاكرام . أسألك الجنة وأعوذ بك من النار » فقال النبى ـ ﷺ ـ : « لقد كاد يدعو الله باسمه الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى »[1] .

وقد ذكر « البديع » سبحانه مرتين فى الكتاب العزيز :

١ ـ ﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾[2] .

٢ ـ ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم ﴾[3] .

٩٦ ـ الباقى

﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾[4] .

سبحان الموجود الواجب وجوده بذاته وهو الدائم الوجود ، الموصوف بالبقاء ، والبقاء لله تعالى ، هو بقاء أبدى أزلى .. من أبد الأبد .. إلى أزل الأزل .

وليست صفة بقائه ودوامه سبحانه وتعالى ، كبقاء الجنة والنار ودوامها ، ذلك بأن الجنة والنار مخلوقتان كائنتان بعد أن لم تكونا .

فيكون بقاء الجنة والنار أبدياً غير أزلى .

والأبد بالنسبة إلى الجنة ، هو استمرار الوجود إلى ما شاء الله . ومن شاء فليتدبر هذه الآية الكريمة :

﴿ وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، عطاء غير مجذوذ ﴾[5] .

وقد قيل فى معنى الأزلى : هو ما لايكون مسبوقاً بالعدم وهذه الصفة من صفات الله وحده . كما أن كل شىء يستولى عليه الفناء وكل شىء هالك الا وجهه .

وقد قيل أن معنى ازلية الله تعالى وازلية صفاته ، أنه موجود حيث لا مكان .

فسبحان الموجود الذى ليس لوجوده ابتداء ، وسبحان الباقى .

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ البيهقى فى السنن الكبرى ، وبلفظ : « لقد دعا » ابن ابى شيبة ، وأحمد ، وأبوداود والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم فى المستدرك ، وسعيد بن منصور فى سننه .

(٢) سورة البقرة آية : ١١٧

(٣) سورة الأنعام آية : ١٠١

(٤) سورة الرحمن آية : ٢٧

(٥) سورة هود آية : ١٠٨

٩٧ - الوارث

﴿ وإنا لنحن نحي ونميت ونحن الوارثون ﴾[(١)] .

سبحان من له ما في السموات وما في الأرض ، رب كل شيء ووارثه ورازقه وراحمه .
وسبحان الباقي بعد فناء خلقه ، الذي ليس لملكه أمد ، وإليه يرجع كل شيء والعمل الصالح يرفعه .

ثم لنتدبر هذا الدعاء من سورة الأنبياء :

﴿ ... رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين ﴾[(٢)] .

يا الله ، أنت الوارث الحق المبين : ﴿ رب لا تذرني فرداً .. ﴾
إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وإذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور نسألك أن تورثنا من الأرض من الكتاب القول الثابت ، والطيب من القول :

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يا من قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور ، يوم هم بارزون ، لايخفى على الله منهم شيء .

لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ﴿ .. وأنت خير الوارثين ﴾ .

٩٨ - الرشيد

﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً ﴾[(٣)] .

سبحان ربي الرشيد الرشد ، ملهم الرشد لأهل طاعته ، وهو الذي أرشد الخلائق إلى هدايته ، ذي الحبل الشديد والأمر الرشيد .

قال الحليمي - رحمه الله - « الرشيد » هو المرشد ، سبحانه ، ومعناه الدال على المصالح والداعي إليها ، وهذا من قوله تعالى :

﴿ وهيء لنا من أمرنا رشداً ﴾ .

وقال عز وجل :

﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾[(٤)] .

---

(١) سورة الحجر آية : ٢٣
(٢) سورة الأنبياء آية : ٨٩
(٣) سورة الكهف آية : ١٠
(٤) سورة الكهف آية : ١٧

فإن مهيء الرشد مرشد .
أي هاديا .
والرشد هو الصلاح ، وهو الاستقامة ، وهو خلاف الغيّ والضلال .

ومن دعاء للنبي عليه الصلاة والسلام : « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها شملي ، وتلم بها شعثي وترد بها الفتن عني وتصلح بها ديني وتحفظ بها غائبي وترفع بها شاهدي وتزكي بها عملي وتبيض بها وجهي وتلهمني بها رشدي وتعصمني بها من كل شيء .. إلى أن يقول - ﷺ - في هذا الدعاء .. اللهم هذا الدعاء وعليك الاجابة وهذا الجهد وعليك التكلان »[1] وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ذي الحبل الشديد والأمر الرشيد .

٩٩ - الصبور

﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾[2] .

سبحان الصبور ، الذي يمل ويمهل ، وينشر ولا يعجل ، ولا يعاجل ولا يسارع إلى الفعل قبل أوانه ، وينزل الأمر بقدر معلوم ولا يؤخرها عن آجالها .

وربما كان معنى الصبور ، هو الذي يسقط العقوبة بعد وجوبها ، وقد ينطلق على من يؤخرها ، فيكون كالحليم الذي لا يعجل بالعقوبة على من يعصاه .
وقد يكون معناه : ملهم الصبر لجميع خلقه .
وفي اللغة : الصبر هو حبس النفس عن الجزع ، وبابه ضرب قال الله تعالى :

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾[3]

(واصبر نفسك) أي أحبسها . يقال : صبره أي حبسه وفي حديث النبي - ﷺ - في رجل أمسك رجلاً وقتله آخر قال : « اقتلوا القاتل واصبروا الصابر »[4] أي أحبسوا الذي حبسه للموت حتى يموت ، ويقال هو صبير القوم : للذي يصبر لهم ومعهم في أمورهم وهو صبور ومصطبر ومتصبر .
ويقال استعيد الشيء إذا اشتد . ويقال : اصطبرت منه أي اقتصد منه . وفي حديث عثمان : « هذه يدي لعمار فليصطبر » ، واصبرني القاضي : أقصني وملأ المكيال إلى أصباره ، وأدهق الكأس إلى أصبارها : حروفها وشربها بأصبارها . كلها
وفي الحديث : « سدرة المنتهى صبر الجنة » أي أعلاها .

(١) أخرجه الترمذي في سننه جـ٥ صـ٤٥٠ ، ٤٥١ كتاب الدعوات باب تابع لما يقول اذا قام من الليل إلى الصلاة . رقم ٣٤١٩
(٢) سورة هود آية : ١٠٥
(٣) سورة الكهف آية : ٢٨
(٤) أخرجه في كنز العمال برقم ٣٩٨٣٩ ورمزه إلى أبي عبيد في الغريب . والبيهقي عن اسماعيل بن أمية مرسلا .

ولتدبر القرآن :

﴿ إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة . ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾ (١) .

البحث السابق من كتاب (الأسماء الحسنى) لمؤلفه دكتور/ حسن عز الدين الجمل .

سورة الممتحنة

قال صاحب البصائر :

بصيرة فى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى ﴾ .

السورة مدنية بالاتفاق وآياتها ثلاثة عشر ، وكلماتها ثلاثمائة وأربعون ، وحروفها ألف وخمسمائة وعشر ، مجموع فواصل آياتها (لم نرد) على اللام منها آية : السبيل وعلى الدال آية : الحميد : ولها ثلاثة أسماء . سورة الممتحنة ، سورة الامتحان ، كلاهما لقوله فيها (فامتحنوهن) والثالث : سورة المودة . لقوله (تُلقون إليهم بالمودة) . (وتسرون إليهم بالمودة) . (بين الذين عاديتم منهم مودة) .

معظم مقصود السورة : النهى عن موالاة الخارجين عن ملة الإسلام ، والاقتداء بالسلف الصالح فى طريق الطاعة والعبادة ، وانتظار المودة بعد العداوة ، وامتحان المدعين بمطالبة الحقيقة ، وأمر الرسول بكيفية البيعة مع أهل الستر والعفة ، والتجنب من أهل الزيغ والضلالة فى قوله : ﴿ لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ تلقون إليهم بالمودة ﴾ وبعده : ﴿ تسرون إليهم بالمودة ﴾ الأول حال من المخاطبين . وقيل : أتلقون إليهم والاستفهام مقدر . وقيل : خبر مبتدأ ، أى أنتم تلقون . والثانى بدل من الأول على الوجوه المذكورة . والباء زيادة عند الأخفش . وقيل بسبب أن تودوا وقال الزجاج : تلقون إليهم أخبار النبى - ﷺ - وسره بالمودة .

قوله : ﴿ كانت لكم أسوة حسنة ﴾ وبعده : ﴿ لقد كان لكم فيهم أسوة ﴾ أنث الفعل الأول مع الحائل ، وذكر الثانى لكثرة الحائل ، وإنما كرر ، لأن الأول فى القول ، والثانى فى الفعل وقيل : الأول فى إبراهيم والثانى فى محمد - ﷺ - .

(١) سورة هود الآيات ١٠٣ - ١٠٥

مناسبتها لما قبلها :

١ - إنه ذكر هناك موالاة الذين نافقوا للذين كفروا من أهل الكتاب ، وذكر هنا نهى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء ، لئلا يشبهوا المنافقين .

٢ - إنه ذكر هناك المعاهدين من أهل الكتاب ، وذكر هنا المعاهدين من المشركين :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟
بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ
جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ
أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً
وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ
أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

معانى المفردات

تلقون إليهم بالمودة : أى ترسلون إليهم أخبار الرسول بسبب المودة التى بينكم وبينهم ، يخرجون الرسول وإياكم : أى من مكة ، أن تؤمنوا بالله : أى لأجل إيمانكم به؟ ، ضل : أى أخطأ . وسواء السبيل : أى الطريق المستوى ، وهو طريق الحق ، إن يثقفوكم : أى يظفروا بكم ، وأصل الثقف : الحذق فى إدراك الشىء وفعله ، ومنه رجل ثقف لقف ، بالسوء : أى بما يسوءكم من القتل والأسر والشتم ، وودّوا لو تكفرون : أى وتمنوا كفركم ، أرحامكم : أى قراباتكم ، يفصل بينكم : أى يفرق بينكم من شدة الهول .

المناسبة وإجمال المعنى

روى البخارى ومسلم وغيرهما : « أن سارة التى كانت مغنية ونائحة بمكة أتت المدينة تشكو الحاجة ، فأمر رسول الله - ﷺ - بنى عبد المطلب أن يعطوها ما يدفع حاجتها ، فأعطوها نفقة وكسوة وحملوها ، فجاءها حاطب بن أبي بلتعة (مولى عبد الله بن حُميد بن عبد العُزّى) فأعطاها عشرة دنانير وكتب معها كتاباً إلى أهل مكة ، هذا صورته .